

تاريخ غزوات العرب

في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط

تأليف

الأمير شكيب أرسلان

من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق

وقفه الله لما يرضاه

حقوق الطبع محفوظة

طبع بدار احياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه



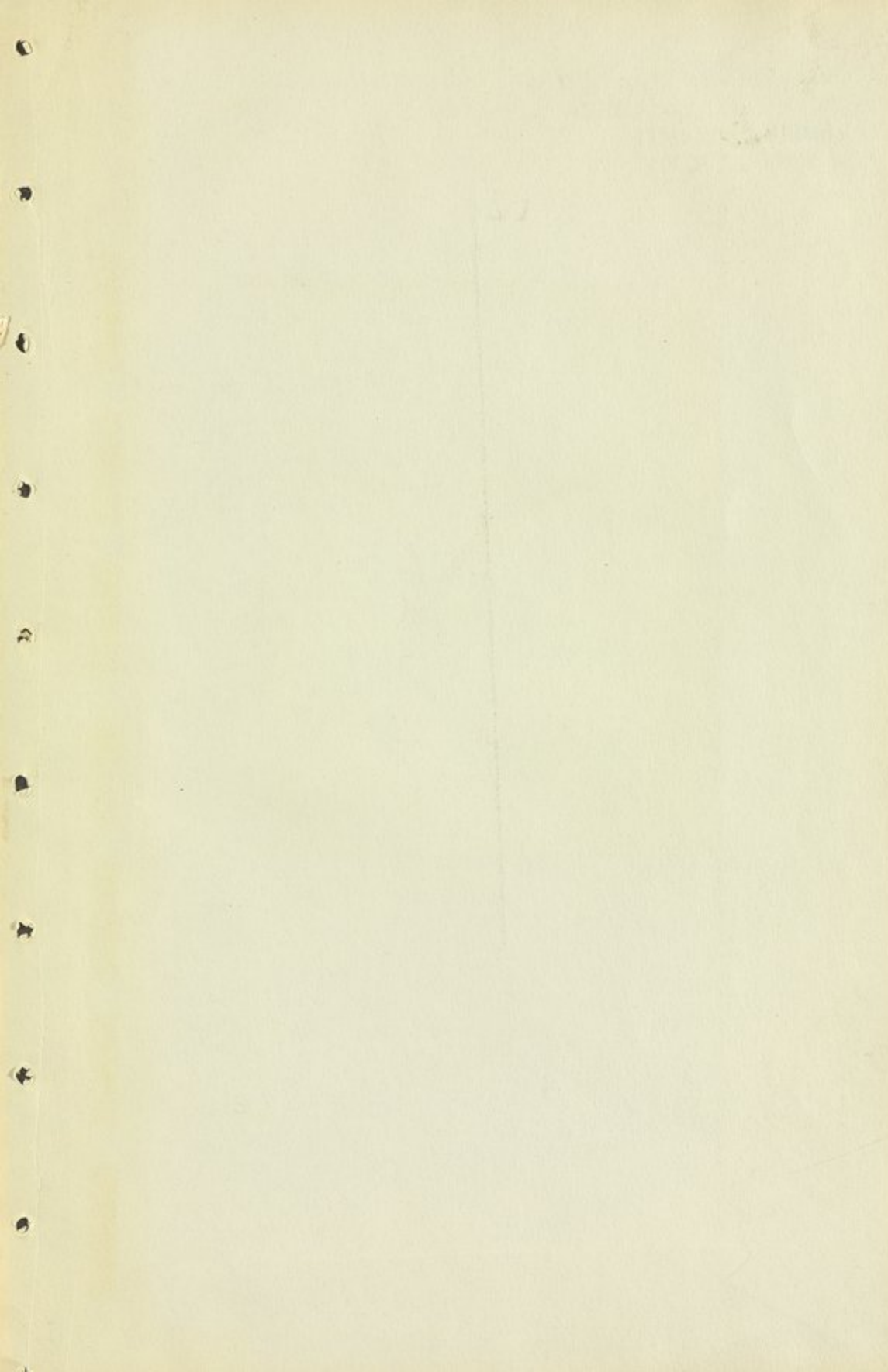
THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



&



LIBRARY



فهرست الكتاب

الصفحة	
٤	المقدمة
٥	ملحق بالمقدمة
٧	كلمة بين يدي الرحلة لتتبع الآثار العربية في الاقطار الغربية
١١	الكلام على طلوزة وقرقشونة
١٣	طلوزة
١٤	قرقشونة
	مبدأ غارات العرب على فرنسا وما اعتمد عليه المؤلف من
١٤	الروايات عنها
٢٩	خبر موسى بن نصير وطارق بن زياد
٤٧	الولادة على الأندلس بعد موسى بن نصير
٥٠	رجع الى حديث استيلاء العرب على جنوبي فرنسا
٦٠	حرب القيسية واليمانية
٦٤	الكلام على مدينة أربونة
٧١	السمح بن مالك الخولاني وغارات العرب على فرنسا
٩٣	واقعة بلاط الشهداء

الصفحة

- غارات العرب على فرنسا ، من بعد جلائهم عن أربونة
 الى عهد استيلائهم على بروفانس سنة ٨٨٩ م ١١٤
- أساطيل الاسلام في الأندلس وافريقية ١٣٩
- زول العرب في بروفانس وغاراتهم من هناك على سافواى
 وييمونت وسويسرة الى دور اجلائهم عن فرنسا ١٦٠
- الصفة العامة لغارات العرب هذه والنتائج التى ترتبت عليها
 كتاب غارات العرب على سويسرة فى أواسط القرن
 العاشر - تأليف الدكتور فرديناند كلر ٢٤٤
- آثار كتابة فى كنيسة القديس بطرس مونتجو ٢٦٢
- أسماء عربية فى البلاد ٢٦٤
- أسوار وطرق وكهوف وغير ذلك ٢٦٦
- المسكوكات ٢٦٩
- الملابس العربية ٢٧٢
- القصص على آثار العرب فى وادى فاله من سويسرة ٢٧٦
- فتح المساهين لمالطة ٢٨٤
- مغازى العرب فى أوربة وجزائر البحر المتوسط ٢٩٦
- كتابات عربية على القبور الاسلامية فى مالطة ٣٠٣

تاريخ غزوات العرب

في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط

تأليف

الأمير شكيب أرسلان

من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق

وفقه الله لما يرضاه

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

Butl Stax

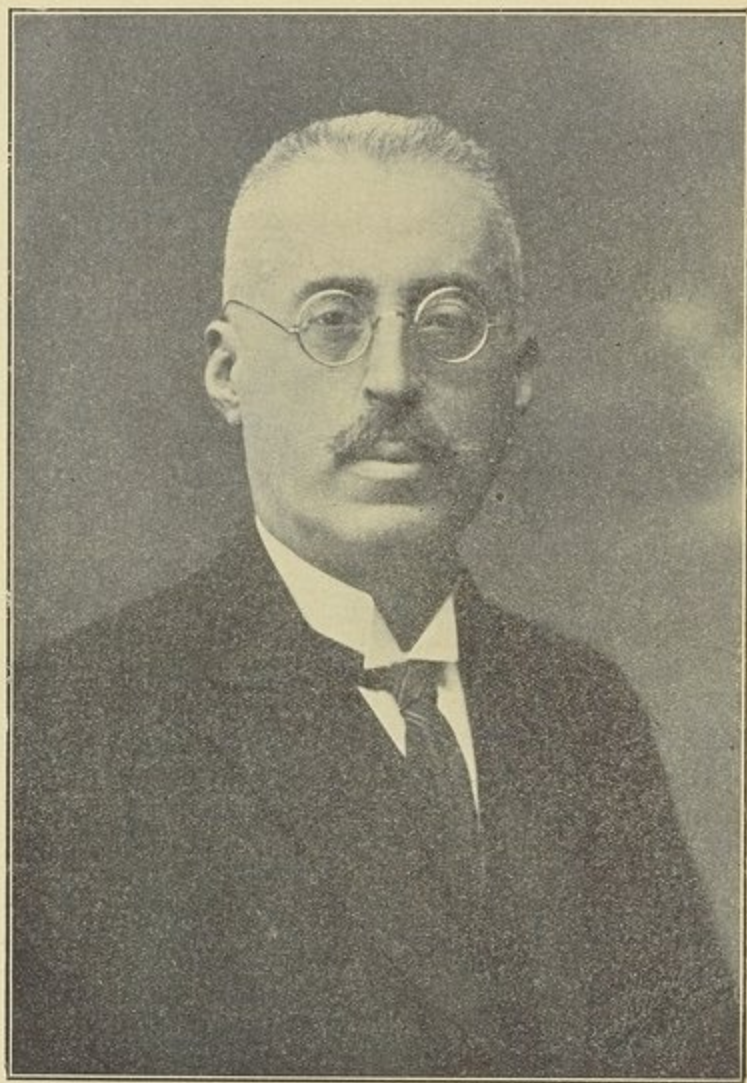
DC

41

.A7

A78

12338



Prof. Dr. 4/59 (copy)

عطوفة الامير شكيب أرسلان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربنا إليك نفرع من مداحض القدم ، وبك نستعصم في ما يجري به القلم .
ونشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك باري النسم ومفيض النعم ، وباسط
الوجود على العدم ، شهادة نعوذ بها للنجاة إذا اشتدت النعم ، وتنتق بها النار ذات النضم .
ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك سيد من دعا الى توحيدك من بين الأمم ، وسلطان
من طهر الأرض من عبادة الصنم ، المنزل عليه كلامك الموصوف بالقدم ، المبعوث بالآيات
الباهرة والحكم . اللهم صل عليه وعلى آله لهاميم العرب ومعادن الكرم ، وأصحابه
حملة الكتاب وليوث الكتائب في المزدحم ، الذين أشرقت شمسهم في الشرق
والغرب فأماطت الظلم وأنارت الظلم ، وسلم يارب كثيرًا

وبعد فانه مما يجب أن يخذ في الصدور قبل السطور ، وأن يكتب على الحدق
قبل الورق ، ان حفظ التاريخ هو الشرط الأول لحفظ الأمم ونموها ، ورقى الأقوام
وسموها ، وانه لا يتصور على وجه الكرة وجود أمة تشعر بذاتها وتعرف نفسها قائمة
بنفسها الا اذا كانت حافظة لتاريخها واعية لماضيها ، متذكرة لأوليادها ومبادئها ، مقيدة
لوقائعها مسلسلة لانسابها حاشدة لاحسابها خازنة لأدائها ، مما لا يقوم به الا علم
التاريخ الذي هو الواصل بين الماضي والمستقبل ، والرابط بين الآف والمستأنف . وانه
لا جدال في كون الأمة العربية التي تتحفز لتنباع وتستوفز لتمدّ طائل الباع ، لم تكن
لتحدث نفسها بالنهوض الذي جعلته نصب نواظرها والاتحاد الذي سيرته شغل
خواطرها لو لم تكن رقت من رئاسة المالك فيما غبر هاتيك الدرجات العالية ، وطالعت
من تاريخها تلك الصفحات المتتالية فجعلت الحاضر منها ينجل أن يقصر عن شأو
الغابر ويستطار أن يعلم أباه سيداً في الأوائل وهو عبد في الأواخر ، فكان اذاً تاريخ
العرب هو عمدة العرب فيما يطمحون اليه من معال ، ووسيلتهم فيما يندفعون الى تحقيقه

من آمال- وكعصوى ان هذا التاريخ المجيد وان سقته سيول المحابر واخضرت له أعواد
المنابر، وسبقت فيه تأليف استولى أصحابها على الأمد إخراجا، ولعت فيه كتب لو
لاحت لكانت بروجاً ولو فضدت لكانت أبراجا، لاتزال فيه نواقص بادية العوار
ومعالم غامضة الآثار. ومظان متوارية غامضة، ومعلومات قاعدة غير ناهضة، تحتاج إلى
همم بعيدة من الأفواج الآتية ليثيروا من دقاتها، والى معارف واسعة عند السلائل
المقبلة لينثلوا من كنائها. وان من أخص ما أهمل العرب فيه التأليف مع أنه من أعج
ماضهم وألمع ما لعت فيه مواضعهم هو الدور الذي كان لهم في القارة الأوربية خارجا
عن الأندلس، وذلك كفتوحاتهم في ديار فرنسة وإيطالية وسويسرة وما كانوا يقولون
له الأرض الكبيرة، وكفتوحاتهم لجزائر البحر المتوسط التي رفعوا فوقها أعلامهم
حقبا طويلة، وأثروا فيها آثاراً كثيرة أئيرة. فان هذا الدور من أدوارهم يكاد يكون
عند أبنائهم مجهولاً، بل ان كثيراً من ناشئتهم لا يعرفون عنه كثيراً ولا قليلاً.
والحال انه من أقص فتوحاتهم مجدداً وأوعر مغازيهم غوراً ونجداً، وأدل أعمالهم على
ما أوتوه من علو الهمم ومضاء العزائم. وما كان غالباً على أخلاقهم يومئذ من احتقار
الطوائع واستصغار العظام. فلماذا خصصت بهذا الموضوع كتاباً مستقلاً أسميته
« الخبيثة المنسية في مقام العرب بجبال الالب والبلاد الافرنسية » وجعلت هذا
الكتاب أشبه بجزء من أجزاء كتابي الذي أنا مباشر تأليفه عن الأندلس باسم
« الحلة السندسية في الرحلة الاندلسية » وسيكون فيما أحزر أربعة أو خمسة أجزاء
ان لم يكن أكثر

هذا وقد رأيت أن أزوج هذا الكتاب باسم الملك العربي الصميم منزعاً ونسباً،
ذؤابة بيت الرسول الكريم وحسبك بذلك شرفاً وطهراً وأماً وأباً، الذي وقف نفسه
الأيية على خدمة أمته العربية عاملاً لهضتها بعد ريبضتها، ومجاهداً في ريوها بعد كيوها
فيصل بن الحسين ملك العراق والرافدين، أطال الله أيامه ونصر أعلامه وسدد آراءه
وأحكامه، وأبلغه من مجد العرب مرامه. وذلك بالاتفاق مع أخويه الامامين المهامين

العاهلين العادلين ملكي الجزيرة العربية في هذا العصر، المكتوب لهافيه باذن الله التمكين والنصر، الامام يحيى بن محمد بن حميد الدين صاحب مملكة اليمن السعيدة ، والملك عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود صاحب الدولة العربية السعودية، أيدهم الله جميعاً لتأييد هذه الأمة وصيانة ذمارها، وألهمهم دوام الائتلاف والاتحاد لما به تجديد مجدها وإقالة عثارها، حتى يعود أمرها كما بدا وترجع أيام عزها جُوداً، وما ذلك على الله بعزيز جنيف ١٩ ربيع الأول ١٣٥٢

شكيب أرسلان

ملحوظ

قد كنت حررت هذه المقدمة منذ أشهر قلائل والملك فيصل في الحياة والأمة العربية تستمد حياتها السياسية من حياته، وتبنى معظم آمالها على أصيل آرائه ومنصور راياته، وقبل أن يوشر طبع هذا الكتاب اختار الله هذا العربي الكبير لجواره، وكانت بموته الفادحة التي لم يرزأ العرب بمثلها، وقامت نوادبهم وسالت مدامعهم في كل غور ونجد من أجلها، فلم نشأ أن نغير شيئاً من مقدمة هذا الكتاب بل أبقيناه متوجاً باسمه كما لو كان في الحياة إذ أننا لا نزال نعد فيصلاً حياً في القلوب والخواطر وان غاب بوجهه الكريم عن النواظر لا سيما ان المرحوم كان قد سمع بخبر هذا التأليف وسألني ، واحسرتاه عليه إذ كان مؤخرأ في برن ، عنه وعن مباحثه وعمما أمكنتني الاطلاع عليه من آثار العرب في القرى السويسرية التي كان انتهى الى سماعه أنني ذهبت إليها ونقبت فيها . وكان مهتما بهذا الموضوع مرتاحا الى نشر هذا الكتاب كما كان مرتاحا الى نشر كل أثر عربي . وما كان فيصل رحمه الله الأ رمزاً للقضية العربية والرمز لا يموت عند قومه . فاذا كان فيصل قد مات فلن يموت تذكاره ولا تمحى آثاره . ولنا نعم العزاء في جلالة ولده المعظم الملك غازي الأول الذي نرتقب من هلاله بدرأ نامياً ، ونرجو من كرم الحق تعالى أن يجعله فيصلاً ثانياً . آمين

شكيب أرسلان

جنيف ١٤ جادى الثانية ١٣٥٢

كلمة بين يدي رهائي

لتتبع الآثار العربية في الأقطار الغربية

ليس بعجيب أن يكون مثلي مغرماً بالأندلس وآثار العرب فيها وفيما جاورها من الأصقاع الأوربية ، فإن كل عربي صميم حقيق بأن يبحث عن آثار قومه ويتعلم مناقب أجداده ويتدارس معالي همهم مع إخوانه ويترك من ذلك تراثاً خالداً لأعقابه . ولعمري ان آثار العرب في الأندلس هي غرة شادخة وهمة شامخة في تاريخ الأمة العربية . بل نقول ولا نخشى مغالطاً انها من أنفس ما أثمره العرب ، بل من أنفس ما أثمره البشر في الأرض . فلا غرو أن يعجب بها العربي وينقب عنها ويشد الرحال اليها ويأخذ العبرة اللازمة منها ، فليست هي الآية الناطقة والبينة القاطعة على مجدنا الماضي وعلى ما قدرنا أن نعمله في سالف الحقب فحسب ، بل هي الحججة الملزمة والآية المعجزة المفحمة على جدارتنا بالاستقلال التام ، وكفايتنا اذا ملكنا الاستقلال أن نحسن الاضطلاع بالأحكام . وهي أيضاً الدلالة على أننا نقدر أن نعمل في الأعصر المستأنفة ما عملناه في الأعصر السالفة اذا تركنا الأجانب وشأننا

كنت اذاً منذ ريعان شبابي وغضاضة اهابي مولعاً بمحاضرة الأندلس العربية وآثارها، مشغولاً بتاريخها وأخبارها حتى أتى منذ أربع وثلاثين سنة وهي مدة يصح أن تسمى دهرًا نقلت من الافرنسية الى العربية رواية الكاتب الأشهر شاتوبريان المسماة بآخر بني سراج ، وذيلت تلك الرواية المترجمة بتاريخ الأندلس استخلصته من السكتب العربية والأوربية ، وأجلت معظم قدام البحث فيه عن سقوط مملكة غرناطة وجلاء العرب الأخير عن تلك الجزيرة لأن هذه الحقبة من ذلك التاريخ كادت تكون في عصرنا مجهولة، وقد صادف ظهور هذا الكتاب مبدأ النهضة العربية فكان

له في النواحي رنة نواح، وسال له من المآقي مدمع سفّاح، وتجددت تذكارات أشجان
وبلغ التأثير من قلوب جميع الذين قرأوه انهم كانوا يتلونهُ المرة بعد المرة شفاء لما في
صدرهم، أشبه بالثكلى التي لا يشفى ما بها سوى ذرف دموعها ولطم حدودها وتلمس
آثار مفقودها، وكانت بازدياد الهضة العربية تزداد الرغبة في هذا المقام وتشرئب الى
الأندلس الأعناق وتتحاب على ذكرها الشفاء، فأعدت من سنين قلائل طبع الرواية
المذكورة «آخر بني سراج» مع ذيلها، وأضفت اليهما تاريخاً قديماً عن سقوط غرناطة
عثرت عليه في مدينة مونيخ عاصمة بافاريا يسمى «أخبار العصر في انقضاء دولة
بني نصر» لمؤلف لم يذكر اسمه فيه، لكنه يترجح كثيراً مما لحظنا من كلامه أنه كان
ممن حضر الوقائع بنفسه أو ممن عاصر أهلها، لأنه يسرد أخبارها سرد من شاهدها
بالعيان، أو ممن روى عن شاهدها، وأظن المقرئ عند ما كتب نفع الطيب كان
مطلعاً على ذلك الكتاب، لأنى رأيت في كتاب «أخبار العصر» هذا جملاً كثيرة رأيتها
في النسخ بحروفها. نعم أعدت طبع كتابى ذاك عن الأندلس مضموماً اليه هذا الكتاب
الذى عثرت عليه في مونيخ عُفلاً من اسم مؤلفه ومعه أربعة مراسيم سلطانية من
السلطان أبى الحسن علي بن الأحمر والد أبى عبد الله آخر ملوك العرب بالأندلس الذى
سلم غرناطة الى الملك فرديناند والملكة ايزابلا، وكان طبعي لهذه الكتب منذ ثمانى
سنوات بمطبعة المنار الشهيرة بمصر

ولكن كل هذا لم ينقع غلتي ولم يشف ماى من أمر الأندلس، وبقيت بعد معرفتها
بالقلم متشوقاً الى مشاهدتها بالعيان والتجوال فيها بالقدم، استزادة من معرفة أخبارها
واقصاص آثارها ووفاء بواجب ازديارها. وما زلت أحدث نفسى برحلة أقوم بها في
تلك الديار التي ترك لنا عنها آباؤنا أجمل تذكّار وتعوقى العوائق عنها وتعترضنى الأشغال
من دونها وأنا أخشى أن توافينى المنية قبل تحقيق هذه الأمنية الى أن يسر الله هذه
الرحلة منذ ثلاث سنوات والأمور مثل النفوس مرهونة بالأجال. وكنت موطننا

النفس على السفر الى الأندلس في ربيع سنة ١٣٤٨ وفق سنة ١٩٣٠ فجدت شؤون وطرات طوارى اقتضت أن تراجع جمعية الأمم في جنيف مراجعات مستمرة قضت على بأن لا أفارق جنيف في تلك الآونة بحيث انه أقبل الصيف يسحب من ذيله ، وجاء الحر هاجما برجله وخيله ، فأخذ بعض الإخوان يشيرون على بتأخير الرحلة الى الشتاء التالى أو الى الربيع الذى وراءه ذهابا الى أن السياحة فى أسبانية لا تلائم فى أيام القيظ لا سيما القطعة الأندلسية التى أنا قاصدها . فلم يكن ذلك ليغير من نيتى ولا يرخى من مشدود طيتى ، لأنى لم أبرح فى هذه المسألة منذ ثلاثين سنة أمنى بها النفس ، وكلما حدا سائق بدا عائق ، ونحن نتمدد على التأخير والتسويق ونعلل النفس بشتاء وصيف وربيع وخريف ، وقد عرفنا أكثر البلاد الأوروبية ولم تبقى مدينة فيها الا دخلناها وربما بدل المرة الواحدة مراراً ، وقتلنا أحوالها درساً واختباراً ، ولم يبق من أوربة ما لم نعرفه سوى الاصقاع الإسكندنافية فى الشمال والبلاد الأسبانية فى الجنوب . فأما الأولى فانه يجوز لثلاثنا أن يعرفها كما أنه يجوز له أن لا يعرفها إذا عاقته العوائق عن معرفتها ، ولكن الأندلس التى نحن إليها منذ نعومة الأظفار ونقرأ عنها بل نؤلف الأسفار ، فانه لا يجوز لثلاثنا أن يتأخر عن السفر إليها ونحن لا نزال انضاء أسفار بين الأقطار . وعليه انتهزنا هذه الفرصة واغتنمنا من وقتنا هذه الجلسة قاصدين الى الأندلس عن طريق فرنسة التى حصلنا على رخصة المرور بها أياما معدودات . وذلك أنه لما كان الغرض الأصلي من الرحلة اقتراء آثار العرب كيف حلّوا وأنى ارتحلوا من هذه الديار الغربية كان لا بد لنا أولاً من زيارة فرنسة التى كانت للعرب فيها جولة ، بل كانت لهم فى جنوبها دولة وصولة ، وطالما عصفت ريحهم ببلاد الإفرنجية بعد أن عصفت ببلاد القوط والجلالقة والباشكنس وغيرهم من أمم الغرب التى خفضوا دعائمها ونقضوا مراثيها ، وكادوا يلحقون بأولها آخرها . وها أنا ذا أحدث عن سياحتى :

في ١٨ يونيو قبل الظهر من سنة ١٩٣٠ فصلت من لوزان قاصداً الى باريس فوصلت الى تلك العاصمة ليلاً . وكان قد عرف بقدمي شابان من نخبة أدياء المغاربة السيد احمد بلافريج من ذوائب بيوتات الأندلسيين في رباط الفتح، والسيد محمد الفاسي من آل الجد الفهريين الأندلسيين من أعيان فاس . فأنزلت من القطار حتى وجدتني أمامي في المحطة وركبنا معاً الى فندق أورليان بالاس في شارع برون « Boulevard Brune » وتحدثت اليهما في موضوع رحلتي وكان ذلك قبل ميعاد عطلة الدروس التي كانا يريدان بعدها السفر الى وطنهما فاتفقنا على أن يوافياني الى مجريط ليرافقاني في بعض هذه السياحة، وبعد ذلك بأيام قلائل مرراً على بالفعل إذ أنا في فندق رومة في عاصمة الأسبانيول . وكان في اليوم التالي من وصولي الى باريس أقبل علينا أولادنا الطلبة السوريون وأنسنا بلقائهم واجتمعنا مع فئة من نخبهم في المطعم العربي الذي بقرب الجامع . وبعدها ذهبت أنا والسيدان محمد الفاسي وأحمد بلافريج الى مكتبة غوتتر المتخصصة بالكتب الشرقية حيث اشترت بعض كتب عربية أكثرها يتعلق بالأندلس . وصادف أني لدى نزولي في أورليان بالاس وجدت صديق الحميم حسين رؤوف بك بطل الدارعة حميدية الشهير ورئيس نظار أنقرة سابقاً وناظر البحرية العثمانية من قبل، فسررت بلقائه كثيراً لأن آخر العهد بيننا كان في الاستانة سنة ١٩٢٤ وكذلك جاء لزيارتي هناك رضى بك الذي كان والياً للأزمير أيام الحرب الكبرى وكان من أركان جمعية الاتحاد والترقي في تركيا وهو من أعز إخواني وإخوان ابن عمي الأمير أمين مصطفى أرسلان، فكانت لي بغير ميعاد فرحة عظيمة بالاجتماع بهذين الخليلين اللذين طال عهدى بلقائهما وذهبنا الى المطعم العربي فأوصينا على مطاعم مغربية ، وسمعنا من شجى ألحان الموسيقى العربية ولا سيما الألبان الأندلسية ، وسمرنا أجمل سمر وكانت ليلة كلها سحر . وبعد إقامة خمسة أيام يباريز

ركبت القطار الحديدى الى تولوز « طلويزة » وجاء لودامى الى المحطة جمهور من شبان العرب يباريز وهتفوا فى المحطة : فيلجى العرب

ووصلت الى طلويزة بعد مسيرة ثمانى ساعات بالقطار ونزلت فى فندق قريب من محطتها اسمه « ترمينوس ^(١) » وفى اليوم التالى قصدت قرقشونة ^(٢) التى فيها الآثار الشهيرة فزرت البلدة والقلعة وصعدت الى الأسوار وجولت فى تلك الحصون نحواً من ساعتين، ورجعت فى المساء الى طلويزة، والمسافة بالقطار بين هاتين البلديتين لا تزيد على ساعتين

﴿ الكلام على طلويزة وقرقشونة ﴾

رأيت مناسباً ابتداء الكلام على فرنسة العربية قبل الانتقال الى اسبانية العربية وذلك بناء على كونى بدأت رحلتى من فرنسة . ولما كان غرضى من هذه الرحلة هو استقصاء آثار العرب وأخبارهم أينما كانوا وحلوا من القارة الأوربية توخيت أن لا أخرج عن هذا الصدد الا نادراً مما يقتضيه سياق البحث . فلو كنت زرت الأندلس مبتدئاً من المكان الذى دخل منه العرب أى من الجنوب لكان الترتيب يقضى علىّ بأن أبدأ ببجل طارق فالجزيرة الخضراء فشريش فاشبيلية فقرطبة فظليطة وهلم جرأً نحو الشمال، وأن أنتهى بأربونة فقرقشونة ونيم وأفينيون الى جبال الألب بين ايطالية وفرنسة وسويسرة . وهكذا كان ينبغى أن أفعل لو كنت حرراً أن أسكن فى هذه الأيام وطنى سورية فكان السفر منها الى الأندلس على الطريق الذى سلكه أجدادنا عند فتحهم تلك الديار وهى طريق المغرب . ولكن الغربة التى تطوحنا بها بسبب نضالنا عن استقلال وطننا قضت علينا بأن نسكن أوربة وأن نقصد الأندلس

(1) Terminus

(2) Carcassonne

من شمالها لا من جنوبها أى من حيث نحن مقيمون الآن ومن حيث انتهى العرب في فتوحاتهم الأوربية لا من حيث ابتدأوا بها . ولما كان المقصود هو كما قلنا من استقراء آثار السلف وتأثر خطواتهم حيث دل عليها التاريخ وأثبتها الأثر من قارة أوروبا بدون تعيد بمكان معين وبدون التزام ما شاهدناه من هذه الأما كن بالعين بل باطراد الكلام على ما شاهدناه الى ما لم نشاهده مما جاوره ودخل تحت حكمه ، أى جميع ما قيل ان أقدم العرب وطئته من هذه البلدان في حملتهم الأولى على الغرب ، لم يكن لنا بد من أن نتناول طلوزة وقرقشونة وأربونة ونيم وأفينيون وليون . وليست هذه فقط بل جميع البلاد التي احتلوها من جنوبي فرنسة وما صاقب ذلك من شمالي ايطالية، وما نواح ذلك من جبال الالب العالية الواقعة اليوم بين هذه الممالك الثلاث: فرنسة وايطالية وسويسرة ، الى حدود بحيرة كونستاتزة من ألمانية

فكان هذا الكتاب وإن استقل باسم «تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط» هو في الحقيقة جزءاً من رحلتى الأندلسية التي نحن بسبيلها لأنها هي خاتمة مطاف العرب في أوروبا وفاقحة ما أفاضوا اليه من الممالك بعد فتحهم للأندلس . واذا لحظت أنى قد بدأت بالرحلة وتاريخ حملة العرب على أوروبا من هذه الجهة كان لك أن تقول انى جعلت أولاً ما كان ينبغي أن يكون آخراً، فان هذا الجزء هو الآخر باعتبار فتوحات العرب ولكن قضت الأقدار بأن يكون هو الأول باعتبار ترتيب سياحتى التي بدأت فيها من الشمال الى الجنوب فرأيت أنا أولاً ما فتحوه هم أخيراً ورأيت آخراً ما احتلوه هم أولاً .

وبالجملة فموضوع هذا الكتاب هو أيام العرب، في فرنسة وفي شمالي ايطالية وقلب سويسرة. وهو أول تأليف عربى مستقل فى هذا الموضوع

طلوزة TOULOUSE

كانت طلوزة في قديم الدهر حارات متفرقة ولم تأخذ شكل مدينة الا في أيام الرومانيين ، ومن ثم صارت قاعدة مملكة التكتوزاجيين^(١) ومركز علم وصناعة ودخلت فيها النصرانية بواسطة القديس سيرنيه . وبعد أن سقطت سلطنة رومة صارت طلوزة عاصمة ملوك القوط ، وبقيت دار مملكتهم من سنة ٤١٩ للمسيح الى سنة ٥٠٨ وكانت حينئذ قاعدة بلاد أ كيتانية المنضمة الى أسبانية . وسنة ٧٧٨ صارت كوتية مستقلة واشتهر من أمرائها الكونت ريموند الرابع ولم تنضم الى مملكة فرنسة إلا سنة ١٢٧١ للمسيح^(٢) . في القرن الخامس كانت دار ملك القوط وفي القرن السابع والثامن كانت مركز دوقية أ كيتانية ، وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر صارت قاعدة كوتية طلوزة . ولما شن العرب الغارة على فرنسة كانت طلوزة من المدن التي قصدوها لكنهم لم يتمكنوا منها كما تمكنوا من أربونة وقرقشونة وغيرها .

وقد كانت غارة العرب على طلوزة في أيام امارة السمع بن مالك الخولاني على الأندلس وذلك لمضى إحدى عشرة سنة على دخول العرب الى اسبانية كما سيأتي عند الكلام على غارات العرب في جنوب فرنسة

(١) وهم جيل من الغولوا ولا نعلم Valces Tectosages هل هم الذين أشار اليهم صاحب نفع الطيب في أوائل الجزء الأول عند ذكر الأمم التي عمرت الأندلس وسماهم البشتولقات أم لا ؟ وقد تكون اللفظة مصحفة عن تشتولقات . وفي صبح الأعشى يذكر الشبونقات ويقول إنهم ملكوا الأندلس وبلاد الافرنجة معاً وإن القوط خرجوا عليهم .

قرقسونة CARCASSONNE

مدينة على نهر الأود Aude وقناة الجنوب وهي قسمان: الأول الذي فيه القلعة وهو مبنى على متن رابية مشرفة على القسم الثاني وفيه بعض بيوت وشوارع ضيقة وكنيسة معروفة بكنيسة سان نازير Saint-Nazaire من بناء القرن الحادى عشر . وجميع أبنية هذا القسم العالى لا تزال كما كانت فى القرون الوسطى ، وليس مثلها فى كل فرنسة فى هذا الباب ، ولهذا هى مقصد السياح من كل فج . والقسم الثانى هو الذى على شاطئ النهر ويسمى قرقسونة الجديدة، وهى جديدة بالنسبة الى قرقسونة القديمة التى على الرابية . ولكن هى فى الحقيقة من زمن لويس التاسع ملك فرنسة ، أى القديس لويس الذى عاش فى أواسط القرن الثالث عشر^(١) . وأما تاريخ العرب فيها فالشهور أنهم افتتحوها فى سنة ٧١٣ للمسيح وأنها بقيت فى أيديهم الى سنة ٧٥٩ على ما استقرأه عند الكلام على غارات العرب فى جنوبي فرنسة

مبدأ غارات العرب على فرنسة

وما اعتمدنا عليه من الروايات عنها

أهم كتاب وضع فى هذا الموضوع هو كتاب المستشرق الافرنسى الشهير المسيو «رينو»^(٢) الذى عاش فى الثلثين الأولين من القرن الماضى . وكتابه يسمى

(١) هو الذى قام بالحرب الصليبية وغزا مصر ، ووقع فى الأسر واعتقل فى دار ابن لقمان وقيل فيه :

وقل لهم ان أزمعوا عودة لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشى صبيح

(٢) Reinaud واسمه جوزيف رينو ولد سنة ١٧٩٥ وتوفى سنة ١٨٦٧

« غارات العرب على فرنسا ومن فرنسا على سافواى وبيمونت وسويسرة فى القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى بحسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين » (١)

فان جميع المؤرخين الاوروبيين ذكروا غارات العرب على فرنسا بعد استيلائهم على اسبانية وأجمعوا على أن شارل مارتيل الذى يسميه العرب قارله هو الذى أنقذ أوروبا فى وقعة « پواتيه » الشهيرة من الوقوع تحت سلطة العرب ، وأنه لولا انهزام العرب فى تلك المعركة لكانوا استولوا على أوروبا كلها وربما كانت بأجمعها قد دخلت فى الاسلام . ولا تقدر أن نحصى ما جاء فى كتب الاوروبيين من فرنسيس وألمان وانكليز واسبانيول وطلينان فى هذا الموضوع ، ولا نجدلوما لهذا الاستقصاء بعد أن قرروه فى الجملة وأجمع عليه مؤرخوهم وأيدت ذلك تواريخنا العربية . وانما

Invasion Des Sarrazins En France et De France
en Savoie , en Piémont et dans La Suisse (١)

Pendant les huitième, neuvième et dixième siècles de notre ère .
D'après Les auteurs Chrétiens et Mahométans .

Par M . Reinaud

Membre de L'institut (Académie royale des inscriptions et belles -
lettres) , conservateur - adjoint des manuscrits orientaux de la
bibliothèque Royale , etc

وهو يعبر عن المسلمين بلفظة « ساراين » التى قيل انها أطلقت على العرب لكونهم غالباً سمر الألوان أشبه بالحنطة السمراء التى يقال لها « ساراين » وقيل بل هى محرفة عن « سرا كنو » التى هى المسلمون بلغة الروم وهذه محرفة عن Scharaka أى شرقى أو « شراقة » أى شرقيين بالجمع . وقد ذكر ابن بطوطة فى رحلته أن ملك القسطنطينية سأل عنه هل هو سرا كنو ؟ أى مسلم

كان غرضنا في هذا الكتاب استقصاء جزئيات هذه الغارات العربية الى قلب أوروبا والإحاطة بما يتسنى لنا من تفاصيلها . ولم نجد في هذا الباب كتاباً أوعى من كتاب المسيو رينو المذكور لأنه وضع خاصاً بتاريخ هذه الغارات ولأن واضعه هو من أشهر المحققين في المسائل التاريخية والمطلعين حق الاطلاع على اللغة العربية بحيث يمكنه عند كل رواية أن يقابل ما جاء عنها في الكتب اللاتينية القديمة بما جاء في الكتب العربية . وإنك لتجده لا يروى رواية ولا خبراً إلا ذكر في الحاشية مأخذ تلك الرواية أو ذلك الخبر مع تعيين المؤلف والمؤلف والجزء والصفحة وأحياناً خزانة الكتب التي فيها ذلك المؤلف . وقد يورد النصوص بعينها لا سيما إذا كانت من التواريخ التي وضعت في عصر تلك الفتوحات . وكما أنه يستعمل هذه الدقة في الاستشهاد من كتب الإفرنجية فإنه يستعمل الدقة نفسها في الاستشهاد من كتب العرب ومن أجل ذلك كان أكثر اعتمادنا في تاريخ هذه الوقائع على المستشرق المشار إليه ، كما أننا اعتمدنا في تاريخ استيلاء العرب على قسم من شمالي إيطاليا ومن أهالي سويسرة عليه أيضاً وعلى مؤلف آخر من أهالي سويسرة الألمانية اسمه فرديناند كيلر^(١) سنأتي بتلخيص تأليفه بعد الانتهاء من تلخيص كتاب المسيو رينو وسنقابل جميع رواياتهم بما لدينا من التواريخ العربية الشهيرة

قال المسيو رينو في مقدمة كتابه :

جاء وقت كانت فيه فرنسة عرضة لغارات شعب أجنبي كان قد استولى على أسبانية وبلدان أخرى مجاورة لها ، وجاء بدين جديد ولسان جديد وأوضاع جديدة

Der Einfall der Sarazenen in der Schweweiz um die mitte des x . (١)
Yahrhenderts , Von Dr

Ferdinand Keller

Mitteilungen der antiquarischen Gesellschaft in Zürich

غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر تأليف الدكتور فرديناند كيلر

من مطبوعات جمعية الآثار القديمة في زوريخ

فأصبحت المسألة مسألة هل فرنسة وسائر ممالك أوربة التي لما تخضع لهذا الشعب الجديد تقدر أن تحتفظ بأعز ما يحتفظ به الانسان من دين ووطن وأوضاع أم لا ؟ وكان الناس يتساءلون عن كنه هذه الوقائع التي ترتب عليها احتلال ذلك الشعب لقسم من بلادنا ومن أية جهة وقعت ، وأية أحوال أحاطت بها ، وهل كان المغيرون كلهم من العرب أم كانوا من أمم شتى ؟ وما كانت نتائج هذه الغارات المتكررة كثيراً ؟ وهل بقي في البلاد منها آثار أم لا ؟

ولقد جرى البحث أكثر من مرة عن هذه القضية ولكن لم يعن أحد فيما يظهر لنا بأن يضع لهذا الموضوع تأليفاً خاصاً يحيط بجميع الوقائع التي نحن بصددها ويستنبط منها نتائج عامة ^(١) ولا شك في أن تأليفاً وافياً بهذا الغرض ينبغي له الجمع بين الروايات الأوربية المسيحية والروايات العربية الاسلامية ليعرف قول الغالب وقول المغلوب معاً .

ومن مدة طويلة كان الناس في أوربة قد لحظوا أن روايات مؤرخي أوربة المسيحية عن هذه الوقائع لم تكن كافية ، وان الزمن الذي قد حصلت فيه هذه الحوادث وأغار فيه العرب على فرنسة هو أشد الأزمنة على هذه البلاد وأحلكها سواداً . ففي سنة ٧١٢ عند ما بدأت هذه الحملات على فرنسة كانت هذه البلاد مقسمة بين أفرنج الشمال الذين كانوا يملكون « نوستريا » ^(٢) و « اوسترازيا » ^(٣)

(١) على أن رينو يستدرك هنا بقوله انه سبقه فيه مؤرخان أحدهما صاحب « خلاصة تاريخية لحروب المسلمين في بلاد الغال » والآخر صاحب « التاريخ العام للقرون الوسطى » قال :

Nous devons cependant faire mention du « précis historique des Guerres des Sarrazins dans les Gaules » par M . B . . . N . C . F . Paris 1810 ; et de « l' histoire générale du moyen - âge » , Par M . Desmichels , Paris 1831 , T . II

(٢) Neustrie بلاد واقعة بين نهر اللوار وبريتانيا الافرنسية وبحر المانش ونهر الموز

(٣) Austrasie في شرقي فرنسة قاعدتها متر

و « بورغونيا »^(١) وبين افرنج الجنوب الذين كانوا يملكون « ا كيتانية »^(٢) من نهر اللوار الى جبال اليرانه ، وبين بقايا القوط الغربيين^(٣) الذين كان بقي في أيديهم قسم من مقاطعة « لانغدوق »^(٤) وقسم من مقاطعة « بروفانس »^(٥) وكانت الفوضى قد وقعت في الحكومة والمجتمع فلذلك لم تأتأ إلا معلومات ضئيلة عن ذلك العهد . ولم تبدأ الأخبار التاريخية تنجلي الا في أيام « بين » ابن « شارل مارتل » وفي أيام شارلمان بن بين . ولكن في ذلك الوقت كان المسلمون قد نكصوا الى الورا . ثم عاد جوّ فرنسا فاربد ثانية في زمان أولاد لويس الحليم « Le Débonnaire » ووجد العرب غاراتهم على فرنسا أيام كان النورمنديون من جهة والمجار من جهة أخرى يشنون مثلها ويعيثون في الأرض مفسدين

ولا نقدر أن نقول ان تواريخ العرب عن تلك الحوادث كانت مستوفية الشروط ، فان المؤلفين الذين كتبوا عنها جاءوا بعدها بزمن فلم يعاصروها ، إلا أن يكون ثمة مؤرخون لم تصل إلينا كتبهم . فقد ذكر العرب أن لموسى بن نصير تاريخاً ألفه حفيده ، وان لأحد الشعراء قصيدة في تاريخ طارق بن زياد نظمها بعد عهده بقرنين . ولكن هذه الكتب التي كتبت بعد الحوادث بمدة غير قصيرة لم تكن مستوفية شروط التحقيق . وأكثر الأحيان يروي أصحابها روايات شفوية

-
- (١) Bourgogne مقاطعة ذات شأن في شرق فرنسا قاعدتها ديجون كانت مملكة مستقلة ثم صارت دوقية كبيرة وكانت تجاذب ملك فرنسا الجبل ولم تخضع تماماً للتاج الا سنة ١٤٧٧
- (١) Aquitaine مقاطعة من بلاد الغال القديمة تقع على ضفاف الغارون اليوم
- (٢) Visigoths القوط الغربيون سنة ٤١٢ مسيحية زحفوا على بلاد الغال واستولوا عليها سنة ٤١٨ جعلوا طلويزة قاعدة ملكهم
- (٣) Languedoc ولاية من جنوبي فرنسا قاعدتها طلويزة أو تولوز
- (٤) Provence كانت مملكة مستقلة لها ملوك ثم أكتاد . ثم استلحقها الفرنسيين في زمان كارلس الثامن وهي الآن تشمل على بلاد الالب السفلى ومصاب الرون ومقاطعة القار وفوكلوز

عن أفواه الرواة^(١) وغير خاف أن العرب كانوا في ذلك الدور ، دور الحماسة والمجد ، لا يفكرون إلا في اعلاء شأن دينهم . فكان لا يهمهم شئ بقدر الشعر والضرب في أودية الخيال

إذاً حكاية العرب لوقائع غارات العرب على فرنسة كانت متأخرة عن زمن حدوثها في القرن التاسع المسيحي ، كما ان منها ما لم يتعرض العرب للبحث عنه أصلاً ولقد كان في أيدي العرب وسائل لمعرفة أحوال فرنسة الداخلية وما جاورها ، لأنهم عدا احتلالهم مدة مديدة جانباً منها كانت صلاتهم مع هذه البلاد مستمرة ، وكانت السفراء تختلف بين الفريقين الفينة بعد الفينة ، فقد ذكر المسعودي انه في نواح سنة ٩٣٩ مسيحية توجه إلى قرطبة مطران جيرون من كتالونية وكان اسمه « غودمار » Godmar وذلك في أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وألف لولده الحكم المشهور بحبه للعلم تاريخاً لبلاد فرنسة من زمن كلوفيس الى ذلك العهد^(٢) وكانت

(١) يقول رينو في حاشية هذه الجملة مايلي : ولاقول شيئاً عن تاريخ « فتح العرب لاسبانية مرتين » لأبي القاسم طريف بن طارق أحد الذين حضروا الوقائع ، فان هذا التاريخ مفتعل وضعه في القرن السادس عشر للمسيح ميكال دولونا Miguel de Luna ترجمان الملك فيليب الثاني (٢) قال رينو في الحاشية على هذه الجملة : « ان اسم غودمار واسم جيرون وجميع هذا المبحث قد تعاورها الحذف والتبديل في أكثر نسخ مروج الذهب للمسعودي التي في الحزاة الملوكية (في باريز) وإنما اعتمدنا على نسخة كانت تخص المسيو شولز » اه

قلت : وجدنا في مروج الذهب للمسعودي طبعة مصر التي طبعت بالمطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢ هجرية سرد هذه الرواية كما يلي : وجدت في كتاب وقع الى الفسطاط بمصر سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أهدها غومار الأسقف بمدينة زهرة من مدن الافرنجة في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة الى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ، ولى عهد أبيه عبدالرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت ، في عهده : يأمر المؤمنين إن أول ملوك افرنجة « قلووزيه » وكان مجوسياً فتنصر هو وابنه لذريق وابنه دفشرت . ثم ولى بعده ابنه لذريق . ثم ولى بعده قركان بن دفشرت . ثم ولى بعده ابنه تتين . ثم ولى بعده نازلة بن تتين وكانت ولايته ستاً وعشرين سنة . وكان في أيام الحكم صاحب الأندلس . وقد توافق أولاده ووقع الاختلاف بينهم حتى تفانث الافرنجة بسببهم ،

كتالونية أيام شارلمان خاضعة لمملكة فرنسا وكان مطران جيرون يعترف بسيادة لويس دو ترينير Louis - d'Outremer وعليه نعتقد أن تاريخ فرنسا هذا الذي قال المسعودي أنه عثر على نسخة منه في مصر تاريخ صحيح . ولكن مع الأسف لم نعلم عن هذا التاريخ شيئاً الا هذا القليل الذي رواه منه المسعودي (١)

ومما كان يشق جداً على العرب كثرة الأسماء الأعجمية من أسماء الرجال والبقاع التي كانت تعرض لهم وكانت مجهولة عندهم . ولم يكن من المؤلفين وضع

وصار لنريق بن نازلة صاحب ملكهم فملك ثمانياً وعشرين سنة وستة أشهر . وهو الذي أقبل الى طرطوشة فحاصرها . ثم ولي بعده ابنه نازلة وهو الذي تهادى مع محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان . وكان محمد يخاطب بالإمام . وكانت ولايته تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر . ثم ولي بعده ابنه لنريق ستة أعوام . ثم وثب عليه قائد الافرنجة المسمى برشة وملك افرنجة فأقام في ملكهم ثمان سنين ، وهو الذي صالح الجبوس عن بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة يؤديها صاحب الافرنج اليهم . ثم ولي بعده نازلة بن بفربرت أربع سنين . ثم ملك بعد نازلة أخوه ومكث إحدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر . ثم ولي بعده لنريق بن نازلة وهو ملك افرنجة الى هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة . واستوت مملكته عشر سنين الى هذا التاريخ على حسب ما نمتي الينا من خبره اه

قلت : في الأسماء تحريف كثير عن الأصل ، فأما « قلووزيه » فهو كلوفيس ، هذا ظاهر . وأما أن له ولداً اسمه « لنريق » فهذا الاسم بدون شك هو هنا خطأ من النساخ ، إذ أنه لم يكن لكلوفيس أو قلووزيه ولد يقال له لنريق Rodrigue وإنما كان له ولد اسمه « كلودومير » Clodimir ولعل العرب لفظوها « قلدومير » فجاء النساخ للكتاب وقلبوها الى لنريق . وأما « دفشرت » بن كلوفيس فهو تحريف أيضاً وأصله بدون شك « شيلدبرت » Childebert لأنه اسم أحد أولاد كلوفيس . وأما « تين » فهو تحريف أيضاً وأصله « تيري » Thierry اسم أحد أبناء كلوفيس الذي كان له أربعة أولاد ، هؤلاء الثلاثة ، والرابع هو (كلونير) Clotaire فأما نازلة فنظنه مجرد خطأ من النساخ وربما كان أصل اللفظة « كلوتره » أو « كلاتره » ولم يحسنوا قراءتها وقلبوها راءها زايأ فابتعدت جداً عن أصلها . وأما قول المسعودي عن مؤلف هذا الكتاب انه غومار مطران زهرة من مدن الافرنجة ، فقد تحققنا أن أصل اسمه غودمار وانه من جيرون ، وانه كان أسقفاً على « سيريه » Ceret من مدن « روسيون » Roussillon التي هي اليوم من مدن ولاية البييرانه الشرقية من فرنسا . فزهرة تحريف عن « سيريه » أو « سره »

(١) غير موجود هذا التاريخ بالفرنسية ولا بالاسبانية

الحركات . ثم كان نساخهم كثيرى السقط فى التنقيط فتبعد اللفظة عن أصلها بعداً يجعلها مجهولة تماماً (١)

وقد كان مما يفيد فى هذا الباب المسكوكات التى كان يضربها الفاتحون . إلا أن العرب فى اسبانية وفرنسة لم يكونوا الى القرن العاشر يعرفون سوى مسكوكات قرطبة . فأما مسكوكات ما قبل هذا التاريخ فلم يكن فيها شئ سوى آيات قرآنية ولم يكن فيها ذكر ملك ولا أمير

فمن أجل هذا كان من الصعب جداً معرفة أخبار العرب فى الأدوار الأولى من استيلائهم على اسبانية . وأصعب منه معرفة أخبار استيلائهم على ما استولوا عليه من فرنسة

ومن الكتب النفيسة فى هذا الموضوع تاريخ « استيلاء العرب على اسبانية » الذى ظهر بالاسبانية فى السنوات الأخيرة لمؤلفه « كوند » Conde الذى كان لديه كتب عربية كثيرة فى مكتبة الاسكوريال وغيرها فاستقى بدون شك من منابع غزيرة إلا أنه لم ينتدح له أن ينقح كتابه كما يجب وربما كان هو نفسه غير ماهر فى التمحيص (٢) . وهناك تأليف آخر لم يطلع عليه كوند وهو مجموعة رسائل مفيدة فى ايضاح

(١) هذا شأن الفريقين سواء العرب أو الافرنج عند ما يخوض كل فريق فى لغة الفريق الآخر . فليس تحريف « شيلدبرت » الى « دفسرت » إلا من قبيل تحريف ابن رشد الى « افرويس »
(٢) اسم الكتاب Historia de la dominacion de los Arabes en Espana

ذكر رينو أنه ظهر ترجمتان لهذا الكتاب بالفرنسية إحداهما ترجمة مخصصة بقلم الميسو أوديفره Audiffret فى كتابه عن تحقيق تواريخ السنين، والثانية بقلم الميسو « دومارليس » De Marlés قلت : ونحن عندنا ترجمة دومارليس مع حواشيتها وسنتقل فى بعض الأماكن عنها . ولكن كتاب كوند هذا — والاسبانيون يقولون له « كوندى » — موصوف بعدم الضبط وكثرة الخطأ . وأكثر من أنحى عليه بالتخطئة المستشرق دوزى الهولاندى الذى يعده الأوربيون أفضل مؤلف عن الأندلس قرا ودري . وقال قديره Kodeira المستشرق الاسبانيولى الذى يقال انه من أصل عربى : انه لم يكن أشأم على تاريخ الأندلس من كتاب كوندى هذا

تاريخ اسبانية أيام العرب بقلم « فوستينو بوربون » الذى اطلع على المخطوطات العربية التى فى خزانه الاسكوريال وكان معظم همه تخطئة « تاريخ اسبانية » تأليف « ماسدو » Masdeu

وفى كتاب فوستينو بوربون هذا شواهد عربية محرفة الا أنه عنده بصر بالنقد وانك لتجد فى كلامه على جيوش العرب الفاتحين واختلاف أصولها الذى أدى الى تنازعا تدقيقات لا يعرفها كوند

اننا نحن لم نكن فى هذا التأليف لنجهل المشكلات التى ستعترضنا فى طريقنا لكننا برغم ذلك وجدنا فى استطاعتنا اضافة معلومات جيدة الى ما تقرر فى هذا الباب الى حد الآن . وفى الغزوات العربية التى لم نجد لها أثر رواية الا فى كتب الاوربيين أمكننا أن نصل الى أبعد مما وصل اليه « مورأتورى » (١) والدون « بوكه » (٢)

ولقد اتبعنا فى عملنا هذا الطريقة الآتية وهى أن نمحص عن الوقائع شهادات المعاصرين أو الذين كانوا فى العهد أقرب من غيرهم اليها . ومهما قيل عن النقصان الذى فى روايات المؤرخين المسيحيين الذين كانوا فى ذلك العهد فاننا قد وجدنا فيها ما يستحق كثيراً من الاعتبار بحيث اذا تطابقت مع روايات العرب جزمنا بأن الحقيقة هى هناك . وأما ان لم تطابق روايات هؤلاء روايات أولئك فاننا ننقل حينئذ ما قاله كل من الفريقين ونبدى رأينا فى ترجيح الأقرب الى العقل . وأما المنابع التى لم تقدر أن نصل اليها فقد نهينا عليها وأشرنا الى أما كتبها وذلك كبعض وقائع رواها كوندى نقلا عن كتب العرب فقد كان الأحسن أن ننقل تلك النصوص بعينها ولكننا لم نظفر بها

(١) Muratori واسمه لودوفيكو اتونيو مؤرخ آتارى طليانى توفى سنة ١٧٥٠

(٢) Don Bouquet اسمه مارتين : راهب بنديكتين مؤرخ بجماعة مشهور ولد فى (آمين)

Amiens بفرنسة وتوفى سنة ١٧٥٤

وفي آخر كتابنا هذا نذكر الشعوب التي انضمت الى العرب وأوشكت بالاتحاد مع العرب أن تخضع أوربة كلها لشريعة القرآن . فنحن نطلق على الجميع اسم « سارازين » وهي لفظة لم يجزم الى الآن في وجه اشتقاقها ، أو لفظ « المور » أى المغاربة . وذلك لأن العرب جاءوا أولاً الى المغرب ومنه دخلوا الى اسبانية فسموا من أجل هذا مغاربة . وليعلم أنه في أثناء ما كان المسلمون يكتسحون أراضي فرنسة ويحتاحون شمالى ايطالية وبلاد سويسرة كانت منهم عصابات حاكمة في صقلية وجنوبى ايطالية . ولم يكن لغارات هؤلاء صلة بغارات أولئك ولكن كان لها تأثير بعضها في بعض مما لم تفتنا الاشارة اليه

ثم انه في جميع البلاد التي احتلها العرب طويلاً أو قصيراً كانت بقيت لهم آثار وسرت عنهم أخبار ، فهنا كنت ترى قلعة كانوا يعتصمون بها عندما يحتاحون تلك الأرض ، وهناك كانت مخاضة نهر أو قنطرة كانوا يأخذون عندها رسماً على المارين ، وهناك كهف في واد كانوا يضعون فيه الغنائم ، وعلى تلك الجبال أبراج متناوحة كانوا يتبادلون منها الاشارات النارية لأجل توحيد حركاتهم ، وهلم جراً . فالآثار والأخبار التي لا ترتكز على دليل وثيق من ذلك العصر نفسه لم تتعرض لها .

ومثل ذلك فعلنا بالقصص التي قصها الرواة الذين لم يعاصروا تلك الحوادث والتي هي أقرب الى أن تكون من عمل خيالات القصاص المولعين بأخبار الحماسة والمغرمين بأحاديث المجد والرئاسة

ففي القصص التي تروى الرواة عندنا أغلاط كثيرة منها ما وقع فيه بعض مؤرخى ذلك الوقت مثل تلقيبهم المسلمين « السارازين » بلفظة « باين » Payens أى وثنيين . وذلك ان المسيحيين كان من عادتهم أن يسموا جميع الأمم السالفة للنصرانية « وثنيين » وجميع الأمم التي حاربها الافرنسيس وثنيين . ومن جملة هؤلاء حسبوا المسلمين ! ولهذا فقد عزوا الى هؤلاء آثاراً ومباني وهياكل كانت في الحقيقة هي

من عمل غيرهم وليسوا منها في قبيل ولا دير
وكذلك لما كانت شهرة شارلمان قد غلبت شهرة الجميع فان القصاص نسبوا الى
أيامه حوادث وقعت من قبله وحوادث أخرى وقعت من بعده . فالوقائع التي
جرت في زمان شارل مارتل جعلوها في زمان شارلمان وما زالوا ينسبون الى أيام
شارلمان غزوات جميع الافرنج في بلاد المسلمين الى القرن العاشر بل الى آخر القرن
الحادى عشر أى الزمن الذى استصرخ فيه مسلمو الأندلس يوسف بن تاشفين ملك
المرابطين . فتأمل

ومن هذا النمط تعمد بعض القصاص والزجالين أن يتحلوا أجداد ممدوحهم
فضل تحرير البلاد وطرد الأعداء . وذلك مثل قصيدة غيلوم ذى الانف
الأصلم الذى ينسب اليه الشاعر اجلاء العرب عن تولوز ونيم واورانج وغيرها من
مدن فرنسة

ثم انه كان المزار قد جاءوا من شرقى أوربة وعاثوا في نواحي فرنسة ، فاختلط على
الناس ما عناه المزار بما عناه العرب ، بحيث كثيراً ما كان أولئك القصاص يسمون
المزار « سارازين » ويسمون الفاندال « سارازين » وممن قال بذلك الأب
« لوكوانت » P. Lecoinge مؤلف التاريخ الاكليريكى في فرنسة والدون
« مايون » Mabillon والأب « باجى » Pagi والدون « فاسيت » Vaissette
والدون « بوكه » Bouquet والحقيقة انه لم يوجد دليل واحد من رواية مرجعها
الى القرن الثامن يدل على كون الفاندال اجتاحوا فرنسة في ذلك العصر . وقد يقال
ان هذه الأقاويل وردت في تواريخ القديس « دنيس » Saint - Denis الشهيرة
التي هي الحججة الكبرى عند آبائنا . ولكن تواريخ القديس كتبت في أواسط القرن
الثانى عشر وقد حشر فيها كاتبوها كل الأساطير التي كانت تدور في ذلك الوقت .
ولم يزل التاريخ لم يحص ولم ينفصل عن الاقاصيص الى القرن السابع عشر

ولنعد الى موضوع كتابنا هذا فنقول: ليست المسئلة مسئلة اجتياح بعض مقاطعات محدودة بل قد بقي جانب كبير من فرنسة ميداناً لجيوش العرب مدة طويلة . ثم تجاوزوا منها الى « سافواى » و « بيمونت » و « سويسرة » واحتلوا أمنع الحصون من قلب أوربة، وذلك من خليج « سان ترويس » الى بحيرة « كونستازة » ومن نهر الرون وجبل « جورا » الى سهول جبل « فرّات » و « لومبارديه » ومما لا جدال فيه أن تذكّار الغزوات العربية في هذه الديار لم يكن بدون تأثير في الحملات الصليبية وفي هذه الحركة العامة التي اندرأت بها أوربة على آسية وافريقية ووضعت أصحاب الانجيل في وجه أصحاب القرآن مدة قرون مستطيلة

لقد فسحنا بهذا الكتاب مجالاً للباحثين في هذا الموضوع بحيث يمكن من يأتى بعدنا أن يأتوا بمعلومات جديدة عنه . ولما كانت الشقة بعيدة بين زمن هذه الوقائع والزمان الحاضر فقد بقيت في كتابنا مواضع كثيرة مفتقرة الى الجلاء . ومع هذا فإن كنا قد قدرنا أن نلقى بعض الشعاع على هذا القسم الذى هو أغمض قسم من تاريخ فرنسة فلا يكون ذهب عناؤنا سدى

ولقد قسمنا كتابنا هذا الى أربعة أقسام : الأول ما يتعلق بحملات العرب الزاحفين من الأندلس مخترقين جبال البرانه ^(١) الى أن طردهم « بين » القصير من « ناربون » وكل « اللانغدوق » سنة ٧٥٩ مسيحية . الثانى ما يتعلق بغارات العرب برأ وبحراً على « پروفانس » فى نواحي ٨٨٩ . الثالث ذكر توغل المسلمين من پروفانس الى « دوفيني » و « سافواى » و « بيمونت » وسويسرة . الرابع شكل هذه الغزوات والنتائج التى ترتبت عليها .

انتهى ملخصاً كلام المستشرق الافرنسى رينو فى مقدمة كتابه ثم شرع رينو فى سرد الوقائع فقال تحت عنوان « القسم الأول فى حملات

(١) العرب يقولون جبال البرانس

العرب الأولى على فرنسا الى عهد اخراجهم من أربونة واللانغدوق سنة ٧٥٩ مسيحية :
لما وصف أحد مؤرخي العرب كيفية فتح أبناء ملته لاسبانية روى عن محمد (ص)
الكلمات الآتية : « زُوِيَتْ لِي مَسَارِقُ الْأَرْضِ وَمَعَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي
مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » (١)

وقد كاد يكون هذا هو الواقع . وجاء زمن ظن الناس فيه أن جميع الربع العاصر
سيعنقر لراية النبي . فانه ماضت سنوات قلائل حتى ضرب الاسلام بجراحه على العراق
وفارس والشام ومصر وافريقية الى سيف الاوقيانوس الاطلنطيكي . ثم من افريقية
اغار العرب على اسبانية وما زالوا يجوسون خلال البلاد الى أن بلغوا فرنسا وصارت
جميع قارة أوربية تحت خطر استيلائهم . ثم من الجهة الاخرى تجاوزوا سيحون
وجيحون وما زالوا يفتحون البلدان حتى ظن أنه لن يقف في وجههم شيء إلا ان

(١) ذكر رينو في الحاشية أن هذا الحديث ورد في تاريخ اسبانية المقرئ وقال ان منه مخطوطاً
في الخزانة للملكية وانه عبارة عن مجموع في عدة أجزاء قد ألفه صاحبه في أوائل القرن السابع
عشر ونقل عن كتب لم تصل اليها . وقد ظهر أن المؤرخ كوندى الأسباني لم يطالع على هذا
الكتاب . اهـ

قلت : هذا الكتاب هو « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين
ابن الخطيب » للعلامة احمد بن محمد بن احمد المقرئ المغربي النحاسي المالكي الأشعري رحمه الله .
وهو من أشهر كتب الأدب والتاريخ في العربية . ألفه صاحبه في سنة ١٠٣٧ هـ ، وذلك في
الشام حيث كان قد أتى عصا التسيار بعد أن حج البيت الحرام وزار المسجد الأقصى . وقد ذكر
في مقدمة الكتاب أن له بالشام تعلقاً من وجوه عديدة : أولها أن الداعي لتأليفه أهل الشام . ثانياً
ان الفاتحين للاندلس هم أهل الشام . ثالثاً ان غالب أهل الأندلس هم من عرب الشام الذين اتخذوا
بالاندلس وطناً مستأنفاً . رابعاً ان غرناطة نزل بها أهل دمشق وسموها باسمها لشيبيها بها في القصر
والنهر والدوح والزهرة الخ

أما حديث « زُوِيَتْ لِي مَسَارِقُ الْأَرْضِ وَمَعَارِبُهَا وَسَيَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِي
مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » فقد رواه مسلم وأحمد والنسائي وهو مروى عن أبي الربيع العنكي وقتيبة
ابن سعيد عن حماد بن زيد (واللفظ لقتيبة) : حدثنا حماد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء

كان من الحدود الطبيعية التي للكورة الارضية
وكان مركز هذه السلطنة التي لانهاية لها هو في سورية بمدينة دمشق القديمة
وكانت الرئاسة الروحية والدينوية في الخلفاء بني أمية . وكان الخليفة يومئذ هو
الوليد^(١)

وكان العرب قد وجدوا في افريقية أمة تسكن جبال الاطلس اسمها البربر
اشتهرت بصعوبة المراس وبمحب الحرية والاستقلال وقاتلت القرطاجنيين والرومانين من
دونها . وكان بعض هؤلاء البربر يهوداً وبعضهم نصارى وبعضهم وثنيين . وكان لهؤلاء البربر
لسان خاص بهم . ومنهم من كان يتكلم بلغة تقرب من العربي والعبري والفينيقي^(٢)
فسواء كان هؤلاء البربر بقايا شعوب جاءت من أرض كنعان وفينيقية^(٣) أو كانوا

عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ
مَسَارِقَهَا وَمَعَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبَاغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا وَأَعْطَيْتُ السَّكْرَيْنِ
الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بِسَنَةِ بَعَامَةٍ (وعلى رواية
أخرى : بسنة عامّة) وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ
وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ
أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ بَعَامَةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ
بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا (أو قال : مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا) حَتَّى
يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا » اهـ

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان

(٢) استند رينو في ذلك على الجريدة الآسيوية الجديدة نقلها عن مقدمة ابن خلدون والأصح أن
يكون ابن خلدون تكلم عن ذلك في تاريخه الخاص بالبربر وهو أحسن تاريخ لهذه الأمة . وقد
ترجم الى الافرنسية بقلم البارون « دوسلان » De Slane وأعيد طبعه سنة ١٩٢٧ تحت
إشراف « بول كازانوف » من أساتيد مدرسة فرنسة Collège de France وهو جزآن

(٣) استشهد رينو على هذه الرواية بكلام بروكوب Procope في تاريخ حروب الفندال

قد رحلوا من اليمن فرارا من وجه الاحابيش الذين كانوا قد استولوا على بلاد اليمن^(١) فهذا التشابه في اللغة كان عاملا كبيرا في استقرار دولة العرب في افريقية واعان البربر العرب في فتوحاتهم ومغازيهم . وأضف الى ذلك كون العرب والبربر متشابهين أيضا في البداوة وسكنى الوبر وشطف العيش وطلب النجعة وحب القتال وشن الغارات

خبر موسى بن نصير وطارق بن زياد

فما رسخت أقدام العرب في افريقية حتى فكروا في عبور بحر الزقاق الفاصل بين افريقية واوربة . وكان ذلك سنة ٧١٠ م وأمير افريقية من قبل الخليفة هو موسى ابن نصير من أهل الحجاز، ولد في زمان عمر بن الخطاب ورضع مع اللبن الغرام بالغزو حباً في نشر عقيدة التوحيد^(٢) . وكان عمره يوم قام بهذه الغزوات ثمانين سنة . ولكن كانت فيه همه الشبان تتوقد نارها لم يفتر منها شيء . وكانت اسبانيا تحت

وتاريخ لوبو Lebeau الافرنسي الذي ألف تاريخ دولة بيزنطية Histoire du Bas - empire

(١) استشهد رينو بكلام ابن خلدون وتاريخ أهالي افريقية الشمالية الذي وضعته لجنة من أكاديمية الآثار الكتانية والآداب بفرنسة ونشر سنة ١٨٣٥ وبغير ذلك

(٢) ولد موسى بن نصير اللخمي بالولاء المسكني بأبي عبدالرحمن في سنة ١٩ للهجرة في خلافة عمر رضى الله عنه . قال ابن خلسكان انه كان عاقلا كريماً شجاعاً تقياً وكان من التابعين روى عن تميم الدارى . وكانت ولاية موسى على افريقية سنة ٨٩ بأمر الخليفة الوليد بن عبدالملك وهو الذى أداخ البربر بعد حروب شديدة، وبعد أن دوخ المغرب كله الى السوس الأقصى استعمل مولاه طارق بن زياد البربرى على طنجة وترك عنده ١٩ ألف فارس من البربر بالعدد الكاملة وكانوا أسلموا وحسن اسلامهم وترك عندهم بعض العرب لتعليم البربر القرآن وفرائض الاسلام ورجع الى افريقية أى بلاد تونس اليوم ، وقد أطاعته كل بلاد المغرب ، وعند ذلك أرسل الى طارق بغزو الأندلس . وسيأتى خبر موسى وطارق وغزواتهما مفصلاً في باطن هذا الجزء ثم في الأجزاء المتعلقة بفتح العرب لاسبانية . وكانت وفاة موسى سنة ٩٨ بوادى القرى من الحجاز وعمره ٧٩ سنة فالصحيح أنه لما فتح الأندلس كان ابن ٧٣ سنة

حكم القوط وكان الأمير عليها لذريق^(١) . وكان يتبعها من أرض فرنسة مقاطعة «روسيون»^(٢) وقسم من «اللانغدوق»^(٣) من (بروفنس)^(٤) وكانت في اسبانية حواضر حافلة بالعمرات زاهرة، إلا أن روح الانتقاض كان كامناً في النفوس، وفساد الاخلاق كان قد تغلغل في جسم الأمة فلم يكن عجباً أن تسقط مملكة كهذه ولو عظيمة في ظاهرها بيد عدد قليل من المتدينين الأحامس الذين يسوقهم الى الحرب حب الغنائم، فضلاً عما يعتقدونه من انهم مرسلون من الله لهداية البشر فخرّب موسى التجربة الاولى ببعض برابر أجازهم الى طريفه^(٥) فعاثوا ومنهوا ولم يصادفوا مقاومة فاشتد بذلك عزم موسى . وفي السنة التالية (٧١١) جرد تجريدة جديدة اثني عشر ألف مقاتل كان أكثرهم من البربر عقد عليهم لطارق بن زياد ، فهزم طارق بهذا الجيش الصغير جيش القوط كله ، واحتز رأس لذريق وبعث

(١) Rodrigue رودريق والعرب تقول لذريق آخر ملوك القوط باسبانية كان أبوه دوق قرطبة فغضب عليه غيطشة ملك البلاد وسمل عينيه فثار لذريق على غيطشة وقاتله وهزمه واستوى على عرش اسبانية مكانه ، فانفق أولاد غيطشة مع السكونت بليان والى سبته واستجدوا العرب وأجاز طارق بن زياد الى الأندلس وهزم لذريق وجوعه بالقرب من شريش كما سيأتي الكلام عليه في الأجزاء التالية . وقتل لذريق في المعركة وأخذ العرب رأسه . وقيل بل غاب ولم يدر أين وقع وإنما وجد المسلمون فرسه الأبيض وهذه رواية « أخبار مجموعة »

(٢) Roussillon هي المقاطعة المسماة بالبيرانة الشرقية استولت عليها فرنسة سنة ١٦٥٩ فاعادتها (بريدنيان) Perpignan

(٣) Languedoc هي المقاطعة الواقعة الى الشمال من روسيون وقاعدتها تولوز وكان استيلاء فرنسة عليها سنة ١٢٧١

(٤) Provence هي مقاطعة عظيمة في جنوبي فرنسة تضم جبال الالب السفلى ومصاب نهر الرون وبلاد القار والفوكلوز وقد تقدم التعريف بها

(٥) Tarifa والعرب يقولون طريف مرسى في جنوبي الأندلس بازاء جبل طارق الى الغرب ، سمي كذلك باسم أبي زرعة طريف بن مالك النخعي من جماعة موسى بن نصير كما سيأتي الكلام عليه في الجزء التالي

به الى الخليفة ^(١) في دمشق . وفي أقل من سنة تم لطارق فتح قرطبة ومالقة وطليطلة . وقد روى أحد مؤرخي العرب أنه لأجل أن يلقى الرعب في القلوب أمر مرة بقتل بعض الأسرى الذين وقعوا في يده وجعل من لحومهم شواء أطعم منه عسكريه . وطارق بن زياد ^(٢) هو الذي سمي باسمه هذا الصخر المسمى بجبل طارق .

(١) هذا على إحدى الروايات وقيل إن لذريق لم يوجد بعد المعركة لاجياً ولا ميتاً
(٢) ذكر ابن عذارى المراكشي صاحب « البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب » نسب طارق بن زياد فقال : هو طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورغوم بن بزغاسن بن ولهاص بن يطومت بن نزاو ، فهو نقرى ، ذكر أنه من سبي البربر وكان مولى موسى بن نصير . وقال : في سنة ٩٢ من الهجرة خرج طارق الى الأندلس وافتتحها بمن كان معه من العرب والبرابر ورهائهم الذين ترك موسى عنده وكان قد أخذهم حسان (أى حسان بن النعمان أمير افريقية لعبيد عبد الملك بن مروان) من المغرب الأوسط قبله . وكانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى في سنة ٨٥ وفي هذا التاريخ تم اسلام أهل المغرب الأقصى وحولوا المساجد التي كان بناها المشركون الى القبلة وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات . اه وسنذكر عن طارق ما هو أوسع من هذا في الأجزاء الآتية من هذا الكتاب . وأما ان طارقاً أطعم عسكريه من لحم أسرى العدو فقد ذكر رينو في حاشية كتابه أن راوى هذا الخبر هو ابن القوطية في كتابه « فتح الساهين للاندلس » قال رينو : وقد عاش ابن القوطية في النصف الثاني من القرن العاشر للمسيح . وقيل له ابن القوطية لانه من ذراري ملوك القوط باسبانية اه

قلت : قيل له ابن القوطية نسبة إلى جدته ابنة « وبة » ابن « غيطشة » ملك اسبانية الذي انتزع لذريق منه الملك وانضم بسبب ذلك أولاد غيطشة الى العرب . هذه رواية ابن خلكان قال : وكانت القوطية المذكورة وفدت على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها أرتباس ، فتزوجها في الشام عيسى بن مزاحم من موالى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وسافر معها الى الأندلس ، وجاءت القوطية بكتاب من الخليفة الى عامله على الأندلس فكف عمها عنها وأصغفها مما كان لها قبله ورعى حرمتها وطالت حياتها الى أيام الأمير عبد الرحمن الداخل فكانت تدخل عليه وتقضى حاجتها وغلب اسمها على ذريتها وعرفوا بها الى اليوم . ذكر ذلك في كتاب الاحتفال في أعلام الرجال تأليف أبي عمر أحمد بن محمد بن عفيف . انتهى ملخصاً . وابن القوطية المؤرخ هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز ابن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم الأندلسي الأشبيلي الاصل القرطبي المولد والدار

فالمسلمون المؤمنون كانوا يرون هذا الجهاد مما يزيد سواد المسلمين ويضمن لهم الجنة ،
والمسلمون الذين لم يكونوا يفكرون في أمر الآخرة قد رأوا في الأندلس قطعاً خصبياً
فياًضاً بالخيرات فيه كل ما تشهى الأنفس وتلد الأعين . فاجتمعت اذاً في هذا الفتح
مقاصد الدنيا والأخرى وانتظم فيه الاحتساب مع الا كتساب . ومما لانزاع فيه أنه
قد كان من أهم أسباب فوز طارق في الأندلس عضد اليهود الذين كانوا كثيرين في
اسبانية وكان المسيحيون يغلظون في معاملتهم ويعدون عليهم أنفاسهم فلما أقبل
العرب وجدوا فيهم إخواناً يأخذون بثأرهم^(١) وينفسون من خناقهم

أما في نفع الطيب فيقول انها سارة بنت « المند » كبير أولاد غيطشة ، بسط عمها ارطباش يده
على ضياعها فأنشأت سارة مركباً حصيناً في اشبيلية وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام
حتى نزلت بعقلان من ساحلها ، ثم قصدت باب الخليفة هشام بدمشق ، فأنتت خبرها وشكت
ظلمتها من عمها واحتجت بالعهد المنعقد لايها واخوته على الخليفة الوليد ، فأوصلها هشام الى نفسه
وأعجبه صورتها وحزمها ، وكتب الى حنظلة بن صفوان عامله على افرقية بانصافها من عمها
ارطباش ، فأنفذ لها الكتاب بذلك الى عامله بالأندلس أبي الحظار ابن عمه فتم لها ذلك وأنكحها
الخليفة عيسى بن مزاحم فابنتى بها في الشام . ثم قدم بها الى الأندلس وولد له منها ولداه ابراهيم
واسحاق فأدركا الشرف المؤمل والرئاسة بأشبيلية . انتهى ملخصاً

(١) ذكر دوزى R. Dozy المستشرق الهولاندى الشهير في الجزء الثانى من تاريخه لدولة
المسلمين في اسبانية عللا كثيرة لسرعة فتح العرب لتلك البلاد سنذكرها في مكانها ، الا أنا نجعل
منها هنا بقضية اليهود التي قد أشار اليها رينو في كتابه . فقال دوزى : ان رجال الدين
الكاثوليكى كانوا يرهقون اليهود عسراً وبيالغون في إبدائهم . قال المؤرخ الافرنسى المشهور
Michelet كان الناس في القرون الوسطى كلما سألوا : لما ذا هذا العالم الذى ينبغي أن يكون
المثل الاعلى من الفراديس في ظل الكنيسة نراه اقلب جحيماً ؟ أجابتهم الكنيسة : « لان هذا
من غضب الله الذى يرى أن قتلة ربنا لا يزالون وافريرين »

فبدأ اضطهاد الكنيسة لليهود سنة ٦١٦ في أيام الملك « سيسبوت » Sisebut وتقرر اعطاء
اليهود مهلة سنة ليتصرفوا فان لم يتصرفوا في خلال تلك السنة نقوا الى خارج اسبانية وضبطت
أمالهم وجلد كل منهم مائة جلدة . فتصر منهم تسعون ألفاً من مجرد الرعب . ولكن المنتصرين
كما لا يخفى لبثوا ينجحون أولادهم سرا ويدينون بدين موسى . فقرر جمع الاساقفة الرابع المنعقد

فلما بلغ موسى بن نصير ما فتحه الله على يد طارق هاج أشد هياج للأخذ
بنصيبه من هذا الفتح وأقبل بجيش من العرب والبربر^(١) ومعه واحد من
أصحاب محمد عمره مائة سنة وكثير من أبناء الصحابة^(٢) . وقد اتتجى موسى طريقاً

في طليطلة تركهم أخيراً وشأنهم بشرط أن يسلموا أطفالهم لاجل تنسيتهم في النصرانية . ثم في المحجم
السادس في طليطلة قرر الاساقفة أنه لا يؤذن بمبايعة ملك على اسبانية الا على شرط انفاذ قرارات
المجامع الاسقفية بحق اليهود . وبرغم هذا كله بقي يهود في تلك البلاد كثيرون ، ولكن استمر
المسيحيون يعذبونهم نحواً من ثمانين سنة الى أن فرغت جعبة اضطرابهم فأجمعوا الثورة بمظاهرة
يهود البربر في افريقية ، ووعدهم هؤلاء بالاجازة الى الاندلس لاجل نجاتهم . وكان ذلك في زمن
الملك « اجيكا » Egica الذي بلغه هذا الخبر فجمع الاساقفة وبعد أن استوثقوا من صحة الخبر
قرروا استبعاد اليهود بأجمعهم وضبط جميع أملاكهم . ومن الغريب أنه قضى على بعض اليهود
بأن يكونوا عبيداً لمن كانوا عبيداً ، وتقرر أن يؤخذ أولادهم من بعد بلوغ سن السابعة وينشأوا
في النصرانية ولم يكن يؤذن بزواج اليهودي من اليهودية ، بل كان لا بد لليهودي بعد أن صار
عبداً من أن يتزوج بأمة مسيحية . وكان لا بد لليهودية من أن تتزوج بعبد مسيحي الخ

فلما جاء المسلمون وفتحوا اسبانية كان اليهود هناك في أشد العذاب ، فحررهم المسلمون من
الرق ، وتركوا لهم الحرية التامة بأن يمارسوا شعائر دينهم فنشقوا نسيم الفرج ، فلذلك كانوا
هم والارفاء وجميع الضعفاء من أعظم أنصار الاسلام . انتهى ملخصاً

(١) جاء في نصح الطيب نقلًا عن الرازي أن موسى خرج من افريقية الى الاندلس في رجب سنة
٩٣ واستخلف على افريقية أسن ولده عبد الله بن موسى وكان موسى في عشرة آلاف

(٢) جاء في النصح : زعم ابن حبيب أنه دخل الاندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة اسمه
النيئر . قال : ودخلها من التابعين (الذين صحبوا من صحب النبي صلى الله عليه وسلم) ثلاثة :
الامير موسى بن نصير ، وعلى بن رباح اللخمي ، وحيوة بن رجاء التميمي . وقيل ان ثالثهم انما
هو حنش الصنعاني ، صنعاء الشام ، (قرية كانت على باب دمشق دون المزة) وانهم قفلوا عنها
بقول موسى . وأهل سرقسطة يزعمون أن حنشا مات عندهم ولم يقفل للمشرق وقبره لديهم
مشهور بترككون به ولا يختلفون فيه اه . وقيل ان التابعين الذين دخلوا الاندلس أربعة
بأبي عبد الرحمن الجيلي الانصاري وخمسهم بعضهم بجيان أبي جبلة مولى بني عبد الدار كان في ديوان
مصر فأرسله عمر بن عبد العزيز الى افريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها . وكان روى

غير الطريق التي سلكها مولاه طارق وفتح بلداناً أخرى مثل ماردة^(١) وسرقسطة^(٢) وكان أكثر جنده من الفرسان وكانت تتبع كل كوكبة من فرسانه طائفة

عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر وغزاهم موسى بن نصير وانتهى معه الى حصن من حصون العدو يقال له قرقشونة (هي حصن Carcassonne في جنوبي فرنسا) اه . وقال ابن الأبار في النكاملة : حيوة بن رجاء التميمي ، ذكر عبد الملك بن حبيب أنه دخل الأندلس مع موسى بن نصير وأصحابه وأنه من جملة التابعين . قاله ابن بشكوال . وقال ياقوت في معجمه عند ذكر صنعاء الشام : وحش بن عبد الله الصنعائي - صنعاء الشام - سمع فضالة بن عبيد ، روى عنه خالد بن معدان والحلاج أبو كبير وعامر بن يحيى العامري . قال ابن الفرضي عداه في المصريين ، وهو تابعي كبير ثقة ، ودخل الأندلس . قال : وهو حش بن عبد الله بن عمرو بن حنظلة بن فهد بن خنيان بن ثعلبة بن عبد الله بن تامر السبأى وهو الصنعائي يكنى أبا رشيد (يفتح الياء) كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة ، وقدم مصر بعد قتل علي ، وغزا المغرب مع روفع ابن ثابت والأندلس مع موسى بن نصير (الى أن يقول) ومات بافريقية وولده بمصر . وقيل مات بمصر . وقيل بسرقسطة ، وقبره بها معروف ، كل ذلك عن ابن الفرضي . اه . وأما المنبذر الصحابي فقد جاء في الفتح أن ابن حبيب لم ينسبه وإنما ذكره ابن عبد البر (الأندلسي) في الصحابة ، وقال انه المنبذر الافريقي . وروى عنه أبو عبد الرحمن الجليلي . قال : حدثنا المنبذر الافريقي ، وكان سكن افريقية ، وكان صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول : « من قال رضيت بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً فأنا الزعيم له فلا تخذن بيده فلا تدخله الجنة » رواه ابن عبد البر بسنده اليه

(١) Mérida من ولاية بطايوس والى الشرق منها وهي بلدة من بناء أغسطس الروماني استولى عليها العرب نحواً من ٥١٥ سنة ، وسيأتي ذكرها في الجزء الآتي من الحالة

(٢) أصل اسمها عند الايبيريين « سالدوبه » وقد سميت سرقسطة . في زمان الرومانيين باسم الامبراطور أغسطس فهي Cesar-Augusta أى سيزار أوغسطه وقد حرقها العرب الى سرقسطة وكان يقال لها الثغر الأعلى لأنها قاعدة الحدود بين العرب والافرنجة ، وكان القوط استولوا عليها سنة ٤٧٦ وحاصرها الافرنج (الافرنسيون) في زمان أحفاد كلوفيس فعجزوا عنها ، ولما استولى العرب على اسبانية كانت من القواعد الكبار ، وحصرها شارلمان في أيام عبيد الرحمن الداخل وعجز عنها واسترجعها الاسبانول سنة ١١١٨ كما سيأتي الكلام عليه ، بعد حصار استمر تسعة أشهر وحرب استمرت خمس سنوات . دخل اليها محرر هذه السطور سنة ١٩٣٠ في أواخر

من حملة الارزاق بالغال . وان مؤرخى العرب متفقون على أن موسى بن نصير وصل
بغزواته الى فرنسة ، وأنه في « ناربون »^(١) وجد في احدى الكنائس سبعة تماثيل
فضية منقوشة ، وكذلك في قرقشونة عرضت لمطامعه في كنيسة « سانت ماري »
سبعة أعمدة كبار هائلة من الفضة^(٢)

وكان العرب يطلقون على فرنسة اسم « الأرض الكبيرة » ويعنون بها جميع
الأرض الواقعة بين جبال البيرانه (التي يقول لها العرب البرانس) وجبال الألب
والاوقيانوس ونهر البيا ومملكة الروم . وهذه البلاد تنطبق في الحقيقة على فرنسة

يونيو وشاهد أهم آثارها ومن جعلتها قصر الجعفرية المنسوب الى أبي جعفر أحمد ، بناه في أواسط
القرن الحادى عشر للمسيح ، ولا يزال الجامع الذى فيه محفوظاً . ومما شاهدناه فيها كنيسة
« السيو » التى بنيت على اتقاض الجامع الاعظم . وبقي الاسبانول يشتغلون بها من سنة ١١١٩
الى سنة ١٥٢٠ فجاءت من أفخم كنائس أوربة . ولها باب من الجهة الشمالية الشرقية لا تزال عليه
الصنعة العربية والزليج الذى يمتاز به قصور العرب . وفي هذه الكنيسة قبة بالنحاس الاصفر من
صنع المهندس العربى الذى كان يقال له الرامى ، بنيت سنة ١٤٩٨ وفيها من الزخرف شئ كثير
يحار له العقل . وفي سرقسطة كنائس كثيرة بدیعة غير هذه وقصور وجسر على نهر « ايره »
يصل بين البلدة والريش Rabal ويلفظون الريش « رابال » وهو لفظ غريب ، ولكن له أصل
فى العربى ، وقد سمعت أناساً من ثقف ومن هذيل يقلبون الضاد لأمأ ، وذكرت ذلك فى رحلتى
الحجازية المسماة بالارتسامات اللطاف . هذا وسكان سرقسطة اليوم ١١٠ آلاف نسمة

(١) Narbonne والعرب يقولون لها أربونة كانت قاعدة ثغورهم الشمالية مدة نصف قرن ،
وهى مدينة على مسافة قريبة من البحر يمر بها جدول من نهر الاود ، وقد دخلتها سنة ١٩٣٠
فى أوائل سبتمبر وأنا نافل من الاندلس ، ورأيتها تشبه كثيراً المدن العربية فى ضيق أزقتها وازدحام
بيوتها ، ورأيت فيها الاشجار التى تكثر فى البلاد العربية كالتين والصبير والمان وما أشبه ذلك .
وفىها زفاق منسوب الى السمح Zama وهو السمح بن مالك الخولانى . وعدد سكانها الآن لا يزيد
على ٣٠ ألف نسمة

(٢) فى الصفحة ١٣٠ من فتح الطيب الجزء الاول الطبعة الازهرية يقول : قال بعضهم ان بين
قرقشونة وبرشلونة مسافة خمسة وعشرين يوماً وفيها الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسماة « سنت
مريه » وقد حكى ابن حيان أن فيها سبع سوار من فضة خالصة لم ير الرءاوت مثلها ، لا يحيط
الانسان بزراعيه على واحد منها مع طول مفرط

في زمن شارل مارتل (١) وابنه بين (٢) ولا سيبا في زمان شارلمان (٣) . وكانت الأمم التي في هذه المملكة تتكلم بعدة لغات كما يقول مؤرخو العرب

(١) Charles Martel أى كارل المطرقة ، والعرب تقول « فارله » ابن « باين دريستال » ولد سنة ٦٨٩ واتهمه أبوه بقتل أخيه « غريموالد » فحبسه في « كولونيه » ولما مات أبوه سنة ٧١٤ صار هو حاجب الملك مكان أبيه بمساعدة الاوسترازين وقهر النوستريين في عدة وقائع واستبد بأموار الملك شيلبريك الثانى ، ثم بأموار « تيبيرى » الرابع ، ولم يبق لأحد منهما من الملك سوى الاسم، وحارب الصكسون والبافارين وتغلب عليهم، وهزم أولاد دوق اكيثانية، الا أن هذا لما رأى العرب فتحوا بلاده استصرخ قارله ، وعند الشدايد تذهب الأحقاد ، فحشد لقتال العرب عصاب الاوسترازين والألمان، وتغلب على الأمير عبد الرحمن الغافقى في وقعة يواتيه سنة ٧٣٢ ومن بعدها لقب بالمطرقة أو الصاقور . وأجم الأوربيون على أن هذه الواقعة هى التي أعقدت أوربة والنصرانية من الاسلام . ثم طرد العرب من « نيم » وغيرها ، لكنه لم يقدر على طردهم من أربونة أو ناربون . وكانت وفاته سنة ٧٤١ وقد ترك من الولد « بين الفصير » و « كرلومان » و « غرينون » و « رمى » و « برنار » و « جيروم » فاقسم المملكة الأولان فيما بينهما وصار « رمى » مطراناً على مدينة روان Rouen

(٢) Pepin le Bref بين الفصير ابن قارله، حارب الصكسون والبافارين وأمير اكيثانية . وفى سنة ٧٥١ بويع ملكا على الفرنج Les Trancs وهو أول الدولة الكارلوشنجية Carlovingienne وكانت مبايعته بعضد الكنيسة له. وترك من الولد شارلمان Charlemagne و كارلومان Carloman ومات سنة ٧٦٨ وهو الذى استرد أربونة وقرقشونة من أيدي العرب (٣) هو كبير ولد بين الفصير، كانت ولادته في نوستريا سنة ٧٤٢ وتولى الملك هو وأخوه كارلومان الى أن مات هذا سنة ٧٧١ فانفرد شارلمان بالملك وحارب الاكيثانيين واللومباردين وقهرهم وأخذ ملك لومباردية أسيراً ، وحارب الصكسونيين والبافارين والتورنجيين والسلاف والآفارين والداغركيين، ودوخهم جميعاً . ولكن أشد حروبه كانت مع الصكسونيين اذ جرد عليهم ٣٣ تجريدة ولم يبرح حتى أدخلهم في الطاعة وفي النصرانية معاً ، وكانوا من أشد أعدائها فبث فيهم الدعاة والمبشرين حتى تنصروا قاطبة . وبلغت جيوشه شرقى أوربة ، وانتزع من يد روم القسطنطينية سواحل دالماسيا (اليوم في يوغوسلافيا) وبلدان الدانوب ، وهكذا دخل في حوزته كل ما كان يسمى بأوربة المسيحية . وتوجه البابا لاون الثالث امبراطوراً على الغرب في سنة ٨٠٠ وجدد به السلطنة الرومانية . وكان عدا غرامه بالفتوحات مجتهداً في تنظيم ادارة رعيته وتوزيع العدالة بينها ، وفي تهذيب الأهالى وتعليمهم وايداب الثوار منهم ، فهو أعظم ملوك الغرب في القرون الوسطى ،

وقد كان أشد ما بهت له المسيحيون أو اتئذ أنهم كانوا يرون أعداءهم هؤلاء في كل مكان وفي وقت واحد . وكانت طريقهم في الفتح أنه إذا خضع لهم بلد بدون قتال لم يعتدوا على سكانه في مالهم ولا في دينهم، وإنما كانوا يحولون جانباً من الكنائس الى جوامع ويعنمون ما فيها من النفائس، ويضعون أيديهم على الأراضي التي نزع أهلها وعلى الخيل والأعتدة التي كانت ضرورية لهم في تلك الغزوات المتواصلة . وكانت الجزية التي يضربونها على الأهالي متفاوتة بحسب الاحوال وربما أخذوا من الأهالي رهائن ليستوثقوا منهم . فأما البلاد التي لم تخضع لهم الا بالسيف فقد كانت عرضة لجميع المظالم التي تصحب الفتوحات وكان يضرب عليها ضعف جزية البلاد الخاضعة بلا قتال . وكانوا يتركون فيها حامية لحفظها وربما جعلوا في هذه الحامية بعض اليهود الذين كانت عداوتهم للمسيحيين أضمن سبب للثقة بهم

وقد ذكر مؤرخو العرب في عرض الكلام على الفتوحات العربية في فرنسا أنه قد كان مقصد موسى بن نصير رحمه الله المعاد الى دمشق حضرة الخلافة عن طريق المانيا ماراً بالقسطنطينية وبآسية الصغرى ، بحيث يصبح البحر المتوسط كله عبارة عن بحر متوسط للمملكة الاسلامية ، يخدم مواصلات بعضها مع بعض . أما مؤرخو المسيحيين فلم يذكروا شيئاً عن دخول موسى الى أرض فرنسا . ولعل زحفة

خطب وده نيقوفور ملك الروم وهارون الرشيد خليفة العرب وأدارة المغرب وغيرهم من الملوك المعاصرين

وقاتل شارلمان العرب قتالاً مستمراً، برأً وبحراً، وأجلاهم عن جزيرتي كورسيكا وسردانية ، واسترجع منهم بلاد كتالونية وأراغون الى سرقطة . وذلك بمساعدة اسبانيول آستوريا وناباريه . ولكنه لم يتمكن من فتح سرقطة . وبينما هو قافل عنها دمه الباشكنس في « رونسفالس » فاستأصلوا ساقه جيشه وقتل في ذلك اليوم « رولان » Roland أحد الأبطال الذين راقفوا شارلمان في تلك الحملة ، وهو الذي وضعت له الأفايص في فرنسا وتغنت بوقائمه شعراؤهم وزجالوهم، أشبهه بنترة عندنا . وقيل ان العرب هم الذين هزموا جيش شارلمان في البيرانه وظاهرهم الناشكنس

موسى عليها كانت قاصرة على غارات سريعة مر بها كخطفة البازى ورجع . ومما لا مشاحة فيه أن النصرانية كانت يومئذ تحت أشد الأخطار . وان الانسان ليرتجف رعباً عندما يفكر فيما كان يمكن أن يحلّ بأوربة لو لم يقع الخلف من أول الأمر بين العرب الغالين « اه كلام رينو ملخصاً

وقد استشهد رينو هنا بكلام المقرئ فوجب أن ننقل قول المقرئ في هذا الصدد جاء في الصفحة ١٢٩ من الجزء الأول من نفتح الطيب ما يأتى ببعض اختصار : كانت نفس موسى بن نصير تزجج الى جليقية (وهى ما يسميه الافرنج Galicie غاليسيا وقاعدتها مدينة كان العرب يسمونها شانت ياكو Santiago ويقول لها الافرنج Saint - Jacques De Compostelle) فبينما هو يعمل في ذلك ويُعد له اذ أتاه مغيث الرومى رسول الوليد بن عبد الملك بأمره بالخروج عن الأندلس والاضراب عن الوجود فيها ، فساءه ذلك وقطع به عن ارادته ، اذ لم يكن فى الأندلس بلد لم تدخله العرب الى وقت ذلك غير جليقية ، فكان شديد الحرص على اقتحامها ، فلاطف موسى مغيثاً رسول الخليفة وسأله انظاره الى أن ينفذ عزمه فى الدخول اليها ويكون شريكه فى الأجر والغنيمة ، ففعل ومشى معه حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بارو وحصن لك (هو فى الافرنجية Luque) فأقام هناك وبثّ السرايا حتى بلغوا صخرة بلاى على البحر الأخضر وطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز . وكان العرب والبربر كلما مرّ قوم منهم بموضع استحسونه حطوا به ونزلوه قاطنين . فاتسع نطاق الاسلام بأرض الأندلس . وبينما موسى كذلك فى اشتداد الظهور وقوة الأمل اذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليد مغيثاً لما استبطأ موسى فى القبول وكتب اليه يوبخه وألزم رسوله ازعاجه . فانقلع حينئذ من مدينة «لك» بجليقية وخرج على الفج المعروف بفج موسى ، ووافاه طارق فى الطريق منصرفاً من الثغر الأعلى ، فأقبله مع نفسه ومضيا جميعاً ، وقفل معهما الرسولان مغيث وأبو نصر

حتى احتلوا اشبيلية . فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امارة الأندلس وأقره بمدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر . وركب موسى البحر الى المشرق بذى الحجة سنة خمس وتسعين وطارق معه . وكان مقام طارق قبل دخول موسى سنة ، وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر . وحمل موسى الغنائم والسبي وهو ثلاثون ألف رأس والمائة (سيأتي ذكر ذلك كله في محله من الجزء الآتي) منوهاً بها ومعها من الجواهر ما لا يقدر قدره وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذي فاته أسف على ما لحقه من الازعاج ، وكان يؤمل أن يخترق ما بقى عليه من بلاد افرنجة ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس في الشام ، متخذاً مخترقه بتلك الأرض طريقاً مهيماً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومحبيهم من المشرق واليه على البر لا يركبون بحراً . وقيل انه أوغل في أرض الفرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً كالسارية مكتوباً فيه بالقر كتابة عربية قرئت فاذا هي : « يابن اسماعيل انتهيتم فارجعوا » فهاله ذلك ، وقال : ما كتب هذا الالمعنى كبير . فشاور أصحابه في الاعراض عنه وجوازه الى ما وراءه فاختلفوا عليه ، فأخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية اه

وجاء في نفتح الطيب بعد ذلك بصفحتين ما يأتي : وذكر بعض المؤرخين أنهم وجدوا في الحجر بعد ما تقدم من الكتابة التي هي : ارجعوا يابن اسماعيل الخ - مامعناه : (وان سألتم لم ترجعون فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض^(١)) اه

(١) قصة الكتابة العربية هذه أشبه بأن تكون ملفقة أو محرفة عن قصة أخرى . والحقيقة أن عدم تحقيق موسى بن نصير مقصده العظيم ذاك من اختراق أوربة من الغرب الى المشرق ونقوده الى دمشق عن طريق القسطنطينية لم يكن عن قراءته في الصخر كتابة عربية أو سريانية ، فالذي يقوم بتلك الأعمال الكبيرة الخارقة للعادة لا يكون ممن يعمل فيه الوسواس لكتابة كهذه يجوز - ان صح خبرها - أن تكون كتابة محدثة قرأها الافرنج أنفسهم ليدخلوا الوهل على قلوب العرب بعد أن رأوهم أوغلوا في بلادهم وصمموا أن يصلوا الى غايتها . وانما لم يتمكن موسى بن نصير

وقال ابن خلدون عن دخول موسى بن نصير الى الأندلس ما يلي :

« نهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر ، فوافوا خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء ، فأجاز الى الأندلس ، وتلقاه طارق فانقاد واتبع . ويقال ان موسى لما سار الى الأندلس عبر البحر من ناحية الجبل المنسوب اليه المعروف اليوم بجبل موسى ، وتنكب النزول على جبل طارق وتم الفتح وتوغل في الأندلس الى برشلونة في جهة المشرق ، وأربونة في الجوف ، وصنم قانس في الغرب . ودوَّخ أقطارها وجمع غنائمها ، وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ، ويتجاوز الى الشام دروب الأندلس ودروبه ، ويغوص اليه ما بينهما من

من اكمال مشروعه بسبب الحاح الخليفة الوليد عليه في القدوم الى دمشق ليقف منه على حقيقة خبر الأندلس وافرنبجة ويشافيه في عمل عظيم كهذا لا تكفي المسكينة من بعيد في تديره . وقد يكون الوليد خاف على المسلمين أن تأكلهم القاصية أو تنزل بهم داهية ، وأنت تعلم أن موسى بن نصير لما اتصل به يليان كونت سبته وشوقه الى غزو الأندلس انتقاماً من الملك لذريق الذي كان اغتصب ابنة يليان على ما سيأتي خبره في الجزء التالي ، وكتب موسى الى الوليد يخبره بما دعاه اليه يليان ويستأذنه في اقتحام الأندلس كان جواب الوليد أن : خضها بالسرايا حتى ترى وتخبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأحوال . فراجعه موسى بأنه ليس ببحر زخار وإنما هو خليج منه يبين للنظر ما خلفه . فكتب اليه الخليفة : وان كان فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه

فاذا كان الخليفة لم يسمح لموسى بعبور بحر الزقاق وهو خليج ضيق عرضه ١٤ كيلو متراً الا بعد مراجعات متعددة فكيف يسمح له باختراق أوربة من اسبانية الى فرنسة الى ايطالية الى بلاد البلقان الى القسطنطينية الى آسية الصغرى بدون أن يتروى في الأمر وبروزه مائة مرة قبل أن يقدم عليه ، فقد كانوا في اشفاق دائم على جيوش المسلمين أن ينقطعوا عن مركز الخلافة وتحمل بهم نائبة وسترى فيما بعد أن الأندلس كانت امتلات بالمسلمين ، وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لا يزال يفكر في اخراج المسلمين منها وإعادةهم الى افريقية خوفاً عليهم لا تقطعها عن بلاد الاسلام ، ولقد صح خوفه من بعد ثمانمائة سنة . فالخليفة الوليد باستقدامه موسى بن نصير اليه كان قد وقف المشروع حتى يتروى فيه ، ولكن ما وصل موسى الى دمشق حتى مات الوليد وخلفه سليمان أخوه وكان حاقداً على موسى فنكبه تلك النكبة الشنيعة وجزاه على فتوحاته جزاء سنبل ، وعطل ذلك المشروع بمقدمه واثباته الى هوان دون المصاحبة العامة . وسترى في كلام ابن خلدون أن استخدام الوليد لموسى لم يكن الا من خوفه على المسلمين

بلاد أعاجم أمم النصرانية مجاهداً فيهم ومستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة من دمشق . ونفي الخبر إلى الخليفة الوليد فاشتدَّ قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن ما همَّ به موسى تغرير بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف وأمر إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين أن لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهده . ففتَّ ذلك في عزم موسى وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية في ثغورها . واستعمل ابنه عبد العزيز لسدّها وجهاد عدوها وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمامة . واحتلَّ موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين، وارتحل إلى المشرق سنة ست بعدها، بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال على العجل والظهور . يقال أن من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي . وولى على إفريقية ابنه عبد الله، واندرجت ولاية الأندلس يومئذ في ولاية المغرب، فكان صاحب القيروان ناظرأ في الجميع . وقدم موسى على سليمان بن عبد الملك وقد ولى الخلافة بعد الوليد فسخطه ونكبه . وثارَت عساكر الأندلس بابنه عبد العزيز فقتلوه لسنتين من ولايته باغراء الخليفة سليمان . وكان خبيراً فاضلاً وافتتح في ولايته مدناً كثيرة . وكان الذي تولى قتله حبيب بن أبي عبيدة الفهرى . وكان سبب غضب سليمان على موسى أنه لما توجه إلى المشرق وانتهى إلى مصر وصل أشرفها وفقهاءها وبلغه الخبر بمرض الوليد، ووفاه كتابه يستحثه على القدوم، ووفاه كتاب آخر من سليمان يثبته، فأسرع موسى باللاحق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته بثلاثة أيام ودفع إليه ما معه من الذخائر والأموال، ففاظ ذلك سليمان، وأساء مكافأته حين أفضى الأمر إليه فنكبه ونكب آل بيته أجمع . وكانت وفاة موسى رحمه الله بالمدينة المنورة سنة ثمان وتسعين وقيل غير ذلك . اهـ

وقال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد القيرواني : ارتدَّت البربر اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة ولم يستقر إسلامهم حتى عبر موسى بن نصير البحري إلى الأندلس وأجاز معه كثيراً من رجالات البربر برسم الجهاد فاستقروا هنالك فحينئذ استقر الإسلام

بالمغرب وأذعن البربر لحكمه وتناسوا الردة . اه

وقال ابن عذارى المراكشي في «المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب» ما يلي :
وفي سنة ٩٦ توفى الوليد بن عبد الملك في جمادى الآخرة وولى الخلافة سليمان
فغضب على موسى غضباً عظيماً وأمر عليه فأوقف في يوم شديد الحر، في الشمس، وكان
رجلاً بادناً ذا نسمة، فوقف حتى سقط مغشياً عليه، وقال له سليمان : كتبت اليك فلم
تنظر كتابي هلمّ مائة ألف دينار . فقال : يا أمير المؤمنين : قد أخذتم ما كان معي من
الأموال فمن أين لي مائة ألف ؟ فقال سليمان : لا بد من مائتي ألف . فاعتذر . فقال :
لا بد من ثلاثمائة ألف دينار وأمر بتعذيبه وعزم على قتله . فاستجار يزيد بن المهلب
وكانت له حظوة عند سليمان فاستوهبه منه وقال : يؤدي ما عنده . وقيل ان موسى
افتدى من سليمان بألف ألف دينار . ذكر ذلك ابن حبيب وغيره . ثم ان يزيد بن
المهلب سهر ليلة مع الأمير موسى فقال له : يا أبا عبد الرحمن في كم تعتد أنت وأهل
بيتك من الموالى والخدم أم أتكونون في ألف ؟ فقال : نعم وألف وألف . قال : فلم
ألقيت بيدك الى التهلكة ؟ أفلا أقيمت في قرار عزك وموضع سلطانك ؟ فقال : والله لو
أردت ذلك لما نالوا من أطرافي شيئاً، ولكني آثرت الله عز وجل ولم أر الخروج
عن الطاعة . اه

قلت : لم يكن يزيد بن المهلب بالذي يجهل فضل الطاعة للخليفة وشناعة شق
العصا، ولكنه قال لموسى هذا الكلام لما أثار من غيظه عمل خليفة كسليمان بن
عبد الملك برجل عظيم خدم الإسلام ما لم يخدمه أحد مثل موسى بن نصير . فقد كافأه
بمالا يكافأ به مجرم . وهو في الحقيقة لا من أعظم رجال الإسلام فقط بل من أعظم
رجال العالم . وحسبك أنه هو الذي دوخ البربر المشهورين بشدة البأس وصعوبة المراس
بعد أن أشعلوا ثورات ، لا ينادى وليدها ولا يحصى عديدها ، وبعد أن ارتدوا عن
الاسلام اثنتي عشرة مرة . فلم يستقر اسلامهم الا على يد موسى بن نصير . وحسبك

أنه دخل الأندلس واستتم فتحها واستصفي ممالكها وهو ابن ٧٥ سنة وكان جميع جيشه هو وطارق لا يزيد على ثلاثين ألف مقاتل . ولو أن قائداً معه ثلثمائة ألف مقاتل ما أحاط بالأندلس وأئخن فيها ما أحاطه موسى وأئخنه في ذلك الأمد القصير بين أمم أعداء تموج حوالبه كالأبحر الزاخرة . وما رأى الأندلس وحدها كفوفاً لهمة بل حدثته نفسه التي قل مثلها في نفوس البشر، في بعد الهمة، أن يوغل في أرض الأفرنج ويعطف منها إلى الشرق حتى ينفذ من القسطنطينية .

وقرأت في تاريخ « دول الاسلام » للإمام الذهبي أن موسى بن نصير توفي في وادي القرى عن ٧٨ عاماً، وأنه كان يقول : لو أطاعني عسكري نفذتهم حتى أفتح رومية

وروى ابن عذارى أنه أقام على المغرب والأندلس أميراً نحواً من ١٨ سنة ومما ذكر في وفاته أنه حج مع الخليفة سليمان فلما وصلا إلى المدينة قال موسى لأصحابه : ليموتن بعد غد رجل قد ملأ ذكره المشرق والمغرب . وبالفعل كان موسى الرجل الذي ملأ اسمه المشرق والمغرب وكان في الرجولية كالصخرة التي تنحط عنها السيول

هذا ولم يكتف سليمان بن كبة موسى في شخصه حتى نكب جميع أولاده . فأمر محمد بن يزيد أمير إفريقية بأخذ عبد الله بن موسى بن نصير وتعذيبه واستئصال أموال بني موسى ، فسجنه محمد وعذبه ثم قتله .

وأما عبد العزيز بن موسى فقد رويت في أسباب قتله روايات كثيرة، أقربها إلى العقل أنه لما بلغه ماحل بأبيه وأخيه وأهل بيته خلع طاعة بني مروان، فجاء أمر سليمان إلى وجوه العرب بالأندلس بقتله، فقتلوه وحمل رأسه ورأس أخيه عبد الله حتى وضعا بين يدي أبيهما موسى وهو في عذابه (١) .

(١) جاء في كتاب « بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس » لابن عميرة الضبي ترجمة عبد العزيز ابن موسى بن نصير قال : كان والده قد استخلفه على الأندلس عند خروجه منها سنة ٩٥ فأقام إليها إلى أن كتب سليمان بن عبد الملك إلى الجند هناك فقتلوه وأتوه برأسه . كذا قال سعيد بن يونس . وكان قتله فيما قال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في سنة ٩٩ وقال : إن الجند

قال ابن عذاري : « فكان فعل سليمان هذا بموسى من هفوات سليمان التي لم تزل تنقم عليه »

قلت : من هفوات ابن عذاري أن يعبر عن أعمال سليمان هذه بلفظة هفوات . وهى فى الواقع من الجرائم التي لا تغفر . ولكن مما لا يجوز أن ننسأه أن موسى بن نصير أخذته الغيرة مما وفق اليه طارق بن زياد من الفتوح ، وأهانته ، بعد أن تلاقيا فى الأندلس . وكان هذا العمل الصغير غير متناسب مع كبراة نفس موسى وعلو همته ولم يخلُ من تأثير فى قضية نكبته لأن طارقاً شكأ الى الخليفة ما فعله به وظهره فى ذلك مغيث الرومى رسول الوليد الى الأندلس . قال صاحب « أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم » وهو من أقدم ما كتب من تواريخ الأندلس يظهر أن صاحبه حرره ^(١) فى عهد الحكم

اجتمعوا على قتله لأمر تقوموها منه وبلغتهم عنه فثاروا به وقتلوه وخرجوا برأسه الى سليمان بن عبد الملك وانه لما احضر بين يدي سليمان حضر موسى بن نصير فقال له سليمان : أعرف هذا ؟ قال : نعم أعرفه صواماً قواماً فعليه لعنة الله ان كان الذي قتله خيراً منه اه
(١) قد أورد دوزي المستشرق الهولاندى المتخصص بتاريخ الأندلس عن كتاب « أخبار مجموعة » هذا بحثاً مدققاً كعادته فى المقدمة التي وضعها بالفرنسية على كتاب « المغرب فى أخبار المغرب » لابن عذاري المرأ كشى فقال دوزي ما محسله :

« ان العرب لم يكونوا يكتبون التاريخ فى القرنين الأولين من استيلائهم على اسبانية وذلك لأن العرب كانوا يعتمدون كثيراً على الروايات الشفهية وان قوة ذاكرتهم لعجبية فليس فى الأمم أمة تضاهيهم فى حفظ ما يفظونه من وقائع وسنين وأعلام وأنساب وذلك بدون ضياع ولا تحريف الا مالا باله . فلم يكن بهم حاجة اذا الى كتب مدونة . وكان التاريخ فى جميع الأفواه يتناقله الأبناء عن الآباء . ثم ان الذين كانوا يشتغلون بالكتابة كان عددهم نزرأ جداً وكانوا اذا كتبوا اختاروا التأليف فى الديانة وكانت التأليف فى غير الديانة مكروهة . فلهذا ندرت الكتابة فى التاريخ فى الصدر من أيام أمراء بنى أمية بالأندلس . ومع هذا فقد وجدت شذرات تاريخية من ذلك العهد ملحقة بتاريخ ابن القوطية وعليها هذا الاسم التالى : أخبار مجموعة فى افتتاح الأندلس وذكر من وليها من الأمراء الى دخول عبد الرحمن بن معاوية وتغلبه عليها وملكة فيها هو وولده والحروب الكائنة فى ذلك بينهم . ومن تأمل فى هذا الاسم علم أنه موضوع الكتاب وشك فى أن يكون هو اسمه . لهذا قد كنت ظننت أن « أخبار مجموعة » هو « الكتاب الخرائتي »

المستنصر بن عبد الرحمن الناصر - : انه لما دخل موسى الأندلس كان ذلك سنة ثلاث

الا أتى رأيت ابن الخطيب ينقل في كتابته عن الصميل بن حاتم فصلا عن الخزائمي لم أجد فيه مخطوط « أخبار مجموعة » الذي في خزانة باريز . فعدلت عن هذا الرأي . والذي يدور عليه الكلام في أخبار مجموعة هو كيفية فتح العرب للأندلس ثم الحروب الأهلية التي وقعت بينهم الى زمان عبد الرحمن الداخل ومن عهده الى زمان عبد الرحمن الثالث وهناك ينتهي الكتاب . ويظهر أن المؤلف عاش الى ما بعد سنة ٣٥٠ لأنه يذكر أن عبد الرحمن الثالث ملك مدة خمسين سنة . بل أظن أن المؤلف عاش بعد ذلك بكثير لا في أيام الحكم بن عبد الرحمن الثالث ولا في زمن المنصور ابن أبي عامر بل في القرن الحادي عشر للمسيح لأنه عندما ذكر كيف فكر عمر بن عبد العزيز في نقل المسلمين من الأندلس هتف قائلاً : « وليت الله كان أبنا حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله » وغير ممكن أن يكون كاتب شاهد لفتوحات الحكم الثاني وفتوحات المنصور ابن أبي عامر ويقول هذا الكلام وهو كلام جدير بالعربي الذي شاهد حوادث الأندلس في عهد تفهق العرب فيها كالقرن الحادي عشر للمسيح (أي بداية الأربعمائة للهجرة) الذي كاد فيه الاذفئش السادس يستولى على جميع ديار المساميين في الجزيرة الأندلسية ، ولكن يوجد في هذا الكتاب فصل لا يمكن أن يكون قد كتب الا في القرن العاشر المسيحي وهو الذي يقول فيه : أخبرنا محمد ابن الوليد . وهو رجل محدث ترجمه الحميدي مات سنة ٣٠٩ . ثم انه يقول في مكان آخر انه سمع رواية فرار عبد الرحمن الداخل عن فم أحد معاصري هذا الأمل ؟ وهو تناقض غريب اذ ينبغي أن يكون سمع من فم رجل عاش في القرن الثامن . وعبارته هذه هي : أخبرني من سمع عبد الرحمن بن معاوية يحدث طائفة من بدء حديث هربه قال الخ. فلاجل التوفيق بين هذين الأمرين المتناقضين ينبغي أن يكون بعض هذا الكتاب كتب في أواخر القرن الثامن وأن النسخة المحفوظة في مكتبة باريز قد اشتملت على فصول كتبها بعض رجال القرن الحادي عشر فهو بالحقيقة مجموعة تواريخ لا تاريخ واحد وما يجدر بالذكر أن كل من تأمل في هذا الكتاب يرى مؤلفه من أوصار دولة بنى أمية اه

قلت : يجوز أن يكون في هذا الكتاب روايات مجموعة لعدة رواة منهم من تقدم ومنهم من تأخر ولكن تشاؤم مؤلف الكتاب بمصير الأندلس لا أراه بسبب كون المتشائم عاش في القرن الحادي عشر للمسيح أو الرابع للهجرة ، بل يجوز أن يكون قد عاش أيام الفتوحات والطوائل ويبقى متشائماً وذلك لاستمرار الفتن بين مسلمي الأندلس بدون انقطاع ولأن الشيطان ألقى بينهم روقه فأطاعوه وهذا مع نقل حملهم وكثرة عدوهم واتصال الأندلس بالأرض الكبيرة أي أوربة ولم يكن يخفى على عقلاء المسلمين خطر هذا المقام من بداية الأمر والعاقل بشفوف بصيرته يدرك طرفاً من خزائن النيب، وصدور الأمور مؤذونات بأعجازها . وسندكر فيما يلي من الأجزاء خلاصة ما قاله دوزي عن تواريخ الأندلس العربية .

وتسعين ومعه ثمانية عشر ألفاً - وهذا خلاف الرواية التي نقلها المقرئ وهي أنه دخلها بمشرة آلاف - وقد بلغه ما صنع طارق فحسده فلما نزل الجزيرة قيل له : اسلك طريقه . قال : ما كنت لأسلك طريقه ، فقال له العلوغ الأدلاء : نحن ذلك على طريق هي أشرف من طريقه ومدائن هي أعظم خطباً من مدائنه لم تفتح بعد يفتحها الله عليك ان شاء الله . فامتلاً بذلك سروراً ، فكان فعل طارق قد غمّه ، فساروا به الى مدينة شدونة فافتتحها عنوة ألقوا بأيديهم اليه ، ثم سار الى مدينة قرمونة ^(١) فقدم اليها العلوغ الذين معه وهي مدينة ليس في الأندلس أحصن منها ولا أبعد من أن ترجى بقتال أو حصار . وقد قيل له حين دعا اليه ليست تؤخذ الا باللطف ، فقدّم اليها علوجاً ممن قد آمنه واستأمن اليه مثل يليان ولعلمهم أصحاب يليان ، فأتوهم على حال الافلال معهم السلاح فأدخلوهم مدينتهم فلما دخلوها بعث اليهم الخليل ليلاً وفتحوا لهم باب قرطبة - من أبواب قرمونة - فوثبوا على أحراسه ودخل المسلمون قرمونة . ومضى موسى الى اشبيلية وهي أعظم مدائن الأندلس شأنًا وخطبًا وأعجبها بنيانًا وآثارًا ، وكانت دار الملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس ، فلما غلب القوطيون حولوا السلطان الى طليطلة ، وبقي شرف الرومانيين وفقههم ودينهم وراثستهم في دنياهم باشبيلية ، فأتاها موسى بن نصير حتى حصرها أشهراً . ثم ان الله فتحها وهرب العلوغ الى مدينة باجة فضمّ موسى يهودها ومضى الى مدينة ماردة . وكانت أيضاً دار بعض ملوك الأندلس ، ذات آثار وقنطرة وقصور وكنائس تفوت الوصف ، فحصرها وقد كان أهلها خرجوا اليه وزحمهم دفعة ، فقاتلوه من سورها على قدر ميل أو أكثر ، قتالا شديداً . فلما رأى خروجهم اليه أبصر فيها حفراً كانت مقاطع للصخر فأكن فيها الرجال والخليل ليلاً ، فلما أصبح زحف اليهم فخرجوا اليه كهيئة خروجهم بالأمس ، فركبهم المسلمون وخرج عليهم الكمين وقتلوا قتلاً ذريعاً ونجا من نجا منهم الى المدينة . وهي مدينة حصينة لها سور لم يبن الناس مثله ، فثبت

(١) مدينة مبنية على متن أكمة عالية تنحط عنها الأرض من جميع جهاتها وحولها سهول فيح الى مسافة بعيدة قد زرتها سنة ١٩٣٠ في سياحتي الى الأندلس وشاهدت آثارها وحصونها المنهدمة وهي من عمل اشبيلية

عليهم يقَاتلهم أشهراً حتى عمل دبابه فذبَّ المسلمون تحتها الى برج من أبراجها فنقبوا
صخره فلما نزعوا صخره أفضوا في داخله الى الصماء التي يقال لها « اللاشه ماشه »
بلسان أهل الأندلس، فنبت عنها معاولهم وفؤوسهم . فبينما هم يضربون فيها إذ استفاق
عليهم العلوج فاستشهد المسلمون تحت الدبابه فسمى بذلك البرج « برج الشهداء » الى اليوم .
وما أقل من يعرف هذا . وكان فتحه لها في رمضان سنة أربع وتسعين يوم الفطر .
فلما كان من أمر الشهداء ما كان ، قال العلوج : قد كسرناه فان كان يوماً مجيئاً الى
الصلح فاليوم فاطلبوه اليه . فخرجوا اليه فألقوه أبيض اللحية فراوضوه على شيء لم
يوافقه ثم رجعوا . فلما كان قبل العيد بيوم خرجوا اليه ليراضوه فاذا هو قد شبب لحيته
بالحناء ، فألقوه أحمر اللحية ، فعجبوا وقال قائلهم : أظنه يأكل ولد آدم أو ما هذا الذي
رأيناه بالأمس . ثم خرجوا اليه يوم الفطر فاذا اللحية سوداء فرجعوا الى أهل مدينتهم
فقالوا : يا حماقي انما تقاتلون أنبياء يتخلقون كيف شاءوا يتشبيون (١) قد صار
ملكهم حدثاً بعد أن كان شيخاً ، اذهبوا فأعطوه ما سأل . فصالحوه على أن جميع
أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهارين الى جليقية للمسلمين وأموال الكنائس وحليها
له . ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر في سنة أربع وتسعين . ثم ان عجم أهل اشبيلية تحيلوا
على من بها من المسلمين وجاءوا من مدينة يقال لها بلبة ومدينة يقال لها باجة وقتلوا من
بها من المسلمين - قتل فيها ثمانون رجلاً - فقدم فلهم على موسى بن نصير بماردة فلما
فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جيش الى اشبيلية فافتتحها ورجع . ثم مضى
موسى من ماردة في عقب شوال يريد طليطلة . وبلغ طارقاً اقباله فخرج معظماً له متلقياً
فلقية بكورة طلبيرة ، فلما رآه نزل اليه ، فوضع موسى السوط على رأسه وونبه فيما كان
من خلاف رأيه ، ثم سار به الى مدينة طليطلة ، ثم قال له : أحضرنى بما أصبت وبالماندة (٢)
فأتاه بها وقد اقتلع رجلاً كسرهما من أرجلها فقال له : أين هذه الرجل ؟ فقال : انى لا

(١) ماورد في كتب اللغة فعل « تشبب » بمعنى جعل نفسه شاباً ويظهر أن الكاتب قاسها
على فعل « تشيخ » أى صار شيخاً

(٢) سنأتى بغير هذه المائدة التي أصابوها بطليطلة في الجزء القادم عند الكلام على فتح طليطلة

علم لي، كذلك أصبتها . فأمر بالرجل فعمل لها من ذهب وعمل لها سفظ من خوص فأدخلها فيه ثم سار حتى افتتح سرقسطة ومدانها . اه
ولم يرد في « أخبار مجموعة » أن موسى دخل بلاد افرنجة . ومقتضى كلام صاحب هذا التاريخ أن هذا حصل من بعده فإنه يذكر بعد ولاية موسى بن نصير ولاية ابنه عبد العزيز، ولا يذكر ان مقتل عبد العزيز كان بإشارة من سليمان بن عبد الملك كما ذكر كثير من المؤرخين ، ولا يقول ان عبد العزيز بن موسى خرج عن الطاعة بعد ما بلغه ما فعل الخليفة بأبيه، بل بالعكس هو يقول انه لما بلغ الخليفة سليمان قتل عبد العزيز شق ذلك عليه وأمر عبيد الله بن زيد عامله على افرنجية بأن يتشدد في قضية قتل عبد العزيز وأن يقبض على حبيب بن أبي عبيدة وزيد بن النابغة اللذين قتلاه ، وان يقفلهما اليه مع من شر كهما في قتله من وجوه الناس

الولاة على الأندلس بعد موسى بن نصير

وهو يذكر أن أهل الأندلس ولوا عليهم بعد عبد العزيز والياً صالحاً كان يؤمهم في صلاتهم هو أيوب بن حبيب اللخمي ^(١) ابن اخت موسى بن نصير . وتولى بعده الحر بن عبد الله الثقفي . ثم في خلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه تولى السمح ابن مالك الخولاني، وأمره الخليفة بأن يخمس الأراضي ويخرج منها ما كان عنوةً خمسا لله من أرضها وعقارها ويقر القرى في أيدي غنمها بعد أن يأخذ الخمس، وأمره بأن يكتب اليه بصفة الأندلس وأنهارها . وكان رأيه انتقال أهلها منها لا نقطاعهم عن المسلمين .

قال صاحب « أخبار مجموعة » : ولت الله كان أبقاه حتى يفعل فان مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله .

وهذه العبارة تدل على أن عقلاء المسلمين ، من أول الفتح وفي أيام عنجبية

(١) هو الذي بنى « قلعة أيوب » والاسبانيول يقولون Calatayoud وهي مدينة مررنا عليها في طريقنا من سرقسطة الى مجريط

العرب بالأندلس وأيام كانت قرطبة عاصمة فيها مليون ونصف من السكان وكان في الأندلس من عز الاسلام ما كان ، لم يزالوا يستشعرون خطر المقام بتلك البلاد نظراً لانقطاعها عن بلاد الاسلام ولكثرة فتن العرب بعضهم مع بعض وفتن العرب مع البربر وغير ذلك .

هذا وبعد السمع بن مالك الخولاني تولى عنبة بن سحيم الكلبي ، ثم يحيى بن مسلمة الكلبي ، ثم عثمان بن أبي سعيد الخثعمي ، ثم حذيفة بن الاحوص القيسي ، ثم الهيثم بن عفير الكنانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى استشهد فى واقعة بلاط الشهداء ^(١) ثم عبد الملك بن قطن المحاربى القرشى ^(٢) .

قال صاحب « أخبار مجموعة » : وكان من وصفنا من الولاة يجاهدون العدو ويتوسعون فى البلاد حتى بلغوا افرنجة وحتى افتتحت عامة الأندلس اه

وذكر المؤرخ (كوندى) الاسبانيولى أن الحر الثقفى هو الذى تجاوز حدود الأندلس الى بلاد افرنجة ونواحى أربونة وسبى وغنم وقفل بالأسارى والغنائم وقال : ان غزو الحر لافرنجة وصرف قوته الى الجهاد فى بلاد الغال كانا من الأسباب التى سهلت للمسيحيين الملتجئين الى جبال آستوريا الاجتماع على العصيان

(١) هى واقعة بواتيه الشهيرة

(٢) فى الجزء الخامس من صبح الأعشى ورد ترتيب أمراء الأندلس كما يلى : موسى بن نصير أقام بالأندلس سنتين واستخلف عليها ابنه عبد العزيز ، ثم وليها بعد قتله عبد العزيز بن عبد الرحمن القيسى سنتين وثلاثة أشهر ، ثم وليها السمع بن مالك الخولاني سنتين وتسعة أشهر ، ثم وليها عنبة ابن سحيم الكلبي أربع سنين وخمسة أشهر ، ثم وليها يحيى بن مسلمة سنتين وستة أشهر ، ثم وليها حذيفة بن الأحوص القيسى سنة واحدة ، ثم وليها عثمان بن أبى نعة الخثعمى خمسة أشهر ، ثم وليها الهيثم بن عبيد خمسة أشهر ، ثم وليها عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى سنتين وثمانية أشهر ، ثم وليها عبد الملك بن قطن الفهرى أربع سنين ، ثم وليها عقبة بن الحجاج خمس سنين ، وشهرين ، ثم وليها مفلح ابن بشر القيسى أحد عشر شهراً ، ثم وليها حسام بن ضرار الكلبي سنتين ، ثم وليها ثوابة الجذامى سنة واحدة ، ثم وليها يوسف بن عبد الرحمن الفهرى تسع سنين وتسعة أشهر ، وكانت دولة بنى أمية بالأندلس . انتهى

وقد جاء فى الحاشية فى الطبعة الأميرية من الكتاب تصحيح لهذا الترتيب من ذلك أن أول وال بعد عبد العزيز هو أيوب بن حبيب اللخمي كما فى فتح الطيب والعبر

وزرع نواة المقاومة ووضع أساس دولة مسيحية في اسبانية محل الدولة التي كانت قد بادت . وقد انضم الى هذا السبب سبب آخر أراد الله به تيسير أمرهم هو سحق الناس على ادارة الحرّ، وتبرّم الدهاء بعسفه ، المساعون والمسيحيون في ذلك سواء . فان الحرّ كان قد آسف الخاصة والقواد والأمراء وصاروا إلّبا عليه، وكانت الأهالي في غاليسيا وليون والجبال الأستورية حديثة العهد بالخضوع للعرب ، فتقل عليهم الظلم أكثر مما تقل على الذين أطاعوا من قبل . وظهر في ذلك الوقت رجل استفاد من هذه الأحوال الروحية في الشعب وجمع شمل بقايا حزب المقاومة وثار به ، وهو بيلاي^(١) أول ملك لاسبانيول بعد دخول العرب للأندلس اه

وذكر صاحب « أخبار مجموعة في فتح الأندلس وأخبار أمرائها والحروب الواقعة بينهم » أن عبيد الله بن الحبحاب بن الحارث ، مولى بنى سلول من قيس ، عندما ولاه الخليفة مصر أقرّ بشر بن صفوان على افريقية وولى عقبه بن الحجاج السلولى الأندلس فدخلها سنة ١١٠ وافتتح الأرض حتى بلغ اربونة

ثم ذكر أنه لما وقعت الواقعة بين العسكر الشامى وعبد الملك بن قطن أمير الأندلس في خبر سيأتي ذكره في الجزء الآتى، وقتل الشاميون عبد الملك وصلبوه في قرطبة، كان ابنه في نواحي اربونة . قال صاحب « أخبار مجموعة » : فلما بلغ ابنه ما كان حشدا من أقصى اربونة وراجعا أهل البلد والبربر، وسيوفهم تقطر من دماء البربر، فرضيت البربر أن تنال ثارها من أهل الشام^(٢) فاذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأى . فأقبل

Pélagé (١)

(٢) وذلك أن عبد الملك بن قطن كان قاتل البربر الثائرين عليه، بأهل الشام، وهزمهم وأوقع بهم وأخذ ثار العرب الذين كان البربر قد أخرجوهم من جليقية واسترقة وشمالى الأندلس . ولكن لم تستقر الغلبة للعرب حتى عادوا الى أحقادهم القديمة وثار الجند الشامى بعبد الملك وقتلوه واضطر ولده قطن وأمية أن يرجعا الى البربر ويستعينا بهم على العرب . وقد جاء نسب عبد الملك بن قطن في بغية الملتس هكذا : عبد الملك بن قطن بن عصمة بن أنيس بن عبد الله بن حجوان بن عمر بن حبيب بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهران الفهرى أمير الأندلس وليها سنة ١١٥ بعد عبد الرحمن العكى من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسى الأمير بافريقية وقتل بالاندلس سنة ١٢٥

قطن وأمّية ومعهما عبد الرحمن بن حبيب، وأقبل معهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي صاحب اربونة، فأقبلوا في مائة ألف أو يزيدون اه
ومن هنا يعلم القارىء ما كان من بال العرب بأربونة منذ خيم الإسلام بعقرتها
وما كان من وفرة جيوشهم فيها لأجل الرباط وسداد الثغور

رجع الى حديث استيلاء العرب على جنوبي فرنسا

نعود الى كلام المستشرق «رينو» في موضوع غارات العرب على جنوبي فرنسا
فهو يذكر ان فتن العرب المستمرة المصطلمة، بعضهم مع بعض، قد نفست من
خناق المسيحيين في الاندلس وفرنجة. ويقول: ان معظم اهتمام الخلفاء كان وقتئذ
توجه الى الاستيلاء على القسطنطينية التي كانوا أغزوها جيشاً عدته مائة وعشرون
ألف مقاتل وأسطولا عدده ألف وثمانمائة سفينة. ولا شك ان سموهم الى فتح
شرقي أوربة شغلهم عن الزحف على غربي أوربة. ولكنه يقول: ان مؤرخي
العرب ذكروا مع ذلك بعض غارات على «اللانغدوق» في أيام ولاية الحر الثقفى
سنة ٧١٨ مسيحية.

وقد أيد هذه الرواية «إيزيدور» اسقف «باجة»^(١) وهو من المؤرخين الذين
عاشوا في ذلك العصر، و«لنريق شيمينيس» مطران طليطلة^(٢) وقالوا: ان العرب
زحفوا الى الامام حتى وصلوا الى مدينة «نيم» ولم يجدوا مقاومة ورجعوا بالغنائم
والسبي الكثير.

قال رينو: ولم تكن مقاطعات جنوبي فرنسا لتقدر أن تقف في وجه
العرب المندفقين عليها من جبال البيرانه، وكان الحكم للدولة المعروفة بدولة
«الكسالي»^(٣) اذذاك، وكانت بلاد اللانغدوق يقال لها «القوطية» Gotie

(١) قال رينو في الحاشية انه نقل روايات ايزيدور الباجي عن مخطوطات متعددة

(٢) لنريق شيمينيس: كتب في القرن الثالث عشر للمسيح. واعتمد على كتب العرب. قال رينو

ان تاريخه مطبوع بالعربي واللاتيني في ليدن

(٣) Fainéants هو اللقب الذي أطلقه المؤرخون على أواخر ملوك الدولة الميروفنجية الذين

بسبب طول مقام القوط بها . وقد يقال لها أيضاً « سبتيانية » أى « السبعية » لاشتغالها على المدن السبع : اربونة، ونيم، واقد، وبيزيه، ولوديف، وقرقشونة، وماقلونة^(١) وكانت من جملة مملكة « اود » دوق اكينانیه^(٢) وكان هذا يدعى انه من ذرية الملك كلوفيس^(٣) وبهذا السبب كان من أبناء عم ملوك فرنسة الشمالية فكان يكره بطبيعة الحال حجاب القصر الذين قد استولوا على الامور واستبدوا بها من دون الملوك ولم يبق لهم هم الا فى توطيد سلطتهم وسلطة جنس الفرنج^(٤) فى تلك المملكة مما ثنى أعتهم عن صدّ العرب الموجفين على جنوبي فرنسة

فصارت بلاد اللاندوق والبروفانس متروكة لاهلها الغالين^(٥) وكان هؤلاء شعباً مركباً من أعقاب الرومانيين القدماء ومن القوط . وكانت لكل من الفريقين عادات خاصة وشرائع يمتاز بها . فلم يكن من واق جنوبي فرنسة فى ذلك الوقت أحسن من وقوع بأس العرب فيما بينهم . وذلك ان حكومة اسبانية العربية كان مرجعها القيروان فى افريقية ، وحكومة افريقية كانت عائدة الى دمشق دار الخلافة . فلم يكن من الممكن أن تكون سلطة موزعة الى هذا الحد، وأن تتعدد مراكزها كل هذا التعدد وأن يستتب بها النظام ، وأن تقيم على الطاعة رجالات نشأوا فى ظلال السيوف . ثم ان النزاع كان وقع بين العرب والبربر، وبين المسلمين وغير المسلمين من الجيوش الفاتحة ولما كانت اراضى المسيحيين التى دخلت فى حوزة الفاتحين قد صارت الى ايدى عدد

سلموا الأحكام لحجاب القصر تسليم خلفاء قرطبة بعد الحكم المستنصر الى المنصور بن أبى عامر ثم الى أولاده من بعده . وقد استمرت هذه الحالة فى فرنسة من عهد « تيرى » الثالث (سنة ٦٧٥) الى عهد « شيلديريك » الثالث (٧٥٢)

(١) Narbone, Nime, Agde, Beziers, Lodève. Carcassonne et maguelone

(٢) Eudes duc d'itquaine

(٣) Clovis أول ملوك فرنسة هذا الذى يسميه السعدوى قلويزيه

(٤) Les Francs الفرائك وهم من السلالة الجرمانية تغلبوا على فرنسة فنسبت اليهم وتسمت

بهم ثم ان العرب تلفظوا بها « الفرنج » أو « الافرنج » وغلبت هذه اللفظة على كل الأوربيين

(٥) Gaulois نسبة الى بلاد الغال. والفرنسيس يقولون الغول

من ذوى الأَطْع، وحرّم كثير من المستحقين، الفى الذى يستحقونه، أدّى ذلك النزاع أخيراً الى القتال وسالت الدماء ومشت الصفوف بعضها الى بعض. وهناك سبب آخر كان به أعظم الفرج لفرنسة نفس من خناقها وأرخی من رباقتها وهو انتقاض عصابة من مسيحي اسبانية فيهم شماس وصعوبة مراس ثاروا بالعرب ثورة الضواری، وأبوا الا الدفاع عن دينهم ووطنهم، فلبجأوا الى جبال آستورية^(١) وغاليسية^(٢) ونابار^(٣) وهناك بدأوا بمقاومة لم تضع عصاها الا باجلاء المسلمين أجمع عن تلك البلاد

وكان الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز اطلع على مادب من الخلل الى موقف العرب بالاندلس، فأفند اليها السمع بن مالك الخولانى أميراً، وعهد اليه باصلاح الامور ورم الثغور. وكان السمع مديراً حكيماً وقائداً باسلاً وسائساً حازماً، ذا دربة بتمشية الأمور، فرتق الفتوق ووازن بين الدخل والخارج وأنصف الجند فى الاعطيات ووزع على المجاهدين جانباً من الأراضى وعهد بما بقى منها الى وكلاء من ذوى الأمانة ورد ريعها الى بيت المال. وكان الخليفة قد أمر السمع بأن يقدم له بياناً عن البلدان المفتوحة وما فيها من النفوس والجايات، ليبرم فى أمر الاندلس رأياً، فقد كان عمر بن عبد العزيز شديد الخوف على الاسلام، وكان قد هاله بقاء ذلك العدد الكبير من المسيحيين فى تلك البلاد واستشعر من ورائهم خطراً على مستقبل المسلمين، ففكر فى اجلاء مسيحي اسبانية وجنوبى فرنسة الى افريقية حيث لا يكون من وجودهم تهلكة على الدولة، الا أن السمع طمأن مخاوف الخليفة قائلاً له: ان الاسلام ينمو وينتشر وتمتد شماريخه بسرعة فى اسبانية، وانه لا يبعد اليوم الذى تصير فيه تلك البلاد بأجمعها تابعة لدين محمد. روى ذلك بعض مؤرخى العرب وأسفوا من كون السمع بن مالك الخولانى لم يعمل برأى الخليفة فى هذا الموضوع^(٤) انتهى

(١) Asturies والعرب يقولون اشتوريش

(٢) Galice غاليسية وأكثر ما يقول العرب جليقية

(٣) Navarre والعرب تقول نبره ونابار والاسبانيون يقولون ناباره

(٤) قال رينو فى الحاشية: ان من جملة هؤلاء الذين سفهوا رأي السمع هذا ابن القوطية

ولنقابل الآن كلام رينو وكلام من نقل عنهم من مؤرخى الاسبانيول والافرنج
بكلام العرب لتزداد الحقائق وضوحاً فنقول :

نقل المقرئ فى النفتح عن ابن حيان مايلى :

قالوا ان موسى اصطلاح مع طارق وأظهر الرضى عنه وأقره على مقدمته على رسمه
وأمره بالتقدم أمامه فى أصحابه وسار موسى خلفه فى جيوشه فارتقى الى الثغر الأعلى
وافتح سرقسطة وأعمالها وأوغل فى البلاد، وطارق أمامه، لايمران بموضع الافتح
عليهما وغنمهما الله تعالى مافيه. وقد أتى الله الرعب فى قلوب الكفرة فلم يعارضهما
أحد الا بطلب صلح . وموسى يجي على أثر طارق فى ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق
للناس ما عاهدوه عليه . فلما صفا القطر كله وطأمن نفوس من أقام على سلمه
ووطأ لأقدام المسلمين فى الحلول به أقام لتمييز ذلك وقتاً ، وأمضى المسلمين الى افرنجة
ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا حتى انتهوا الى وادى « ردونة ^(١) » فكان
أقصى أثر العرب ومنتهى موطنهم من أرض العجم. وقد دوخت بعوث طارق
وسراياه بلد افرنجة، فملكمت مدينتى برشلونة ^(٢) وأربونة ^(٣) وصخرة « اينيون ^(٤) » .
وحصن « لودون ^(٥) » على وادى ردونة، فبعدوا عن الساحل الذى منه دخلوا جداً .

(١) نهر الرن Rhone وهكذا لفظ اسمه اليوم ولكن أصل اسمه هو « رودانوس »
باللاتينى ومنه قال العرب « ردونه » كما كان الافرنج يقولون له فى أيام قدومهم الى تارك الديار .
وهذا النهر يخرج فى سويسرة وينصب فى بحيرة ليان ثم يخرج منها عند جنيف ويدخل أرض فرنسة
ويتصبب الى البحر المتوسط وطول مجراه ٨١٢ كيلو متراً

(٢) Barcelone قاعدة كتالونيا وأكبر مدينة فى اسبانية وارقاها وسيأتى عليها لكلام
فيا يأتى

Narbonne (٣)

(٤) Avignon والعرب تقول « اينيون » لأنها تجعل الفاء باء وربما قالت « افينيون »
بالفاء الموحدة . وصخرة افينيون هى المسكن الذى بنى عليه نصر البابوات الذين جعلوا اقامتهم
بافينيون من سنة ١٣٠٩ الى سنة ١٣٧٧

(٥) Lyon ثالث مدينة فى فرنسة فى عدد السكان. وأصل اسمها « لودونوم » يمر بها نهر
الرون والساوون ويقسمها الى ثلاثة أقسام وهى من أعظم المدن الصناعية فى أوربة . وقد بنى ليون

وذكر أن مسافة ما بين قرطبة وأربونة من بلاد افرنجة ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخاً وقيل ثلاثمائة فرسخ وخمسون فرسخاً . ولما أوغل المسلمون الى اربونة ارتاع لهم قارله ملك الافرنجة بالأرض الكبيرة وانزعج لانبساطهم فحشد لهم وخرج عليهم في جمع عظيم . فلما انتهى الى حصن لودون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه وأقبل حتى انتهى الى صخرة ايبيون فلم يجد بها أحداً وقد عسكر المسلمون قدّامه فيما بين الأجيل المجاورة لمدينة أربونة، وهم بحال غرة لاعيون لهم ولا طلائع، فما شعروا حتى أحاط بهم عدو الله قارله، فاقتطعهم عن اللجا الى مدينة أربونة ، وواضعهم الحرب فقاتلوا قتالا شديداً استشهد فيه جماعة منهم، وحمل جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها ودخلوا المدينة ولاذوا بحصانتها، فنازلهم بها أياماً أصيب له فيها رجال، وتعذر عليه المقام وخامرهم زعم وخوف مدد للمسلمين، فزال عنهم راحلا الى بلده، وقد نصب في وجوه المسلمين حصوناً على وادي ردونة شكّها بالرجال فصيّرها ثغراً بين بلده والمسلمين وذلك بالأرض الكبيرة خلف الأندلس انتهى

ان كلام ابن حيان هذا يجمل خبر غزوات العرب لافرنجة أو فرنسة من أيام موسى بن نصير وطارق بن زياد الى زمان عبد الرحمن الغافقي . ومنه يعرف أن غزو العرب لافرنجة يرجع الى أول الفتح الأندلسي، وان كان مؤرخو الافرنج لا يذكرون مغازي العرب لفرنسة الا من بعد ولاية السمع بن مالك الخولاني . وأما المؤرخان المسيحيان ايزيدور الباجي وشيمينس مطران طليطلة، وأولهما عاصر زمان الفتح، فأنهما يذكران غارات للعرب على فرنسة في زمان الحر بن عبد الرحمن بن عثمان الثقفي أمير الأندلس بعد عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي ثار به الجند وقتلوه حسبما تقدم الكلام عليه

والذي في نفح الطيب نقلا عن ابن خلدون أن محمد بن يزيد عامل الخليفة سليمان ابن عبد الملك على افريقية لما بلغه مهلك عبد العزيز بن موسى بن نصير بعث الحر بن

الوالي الروماني اوسوس موناتيوس سنة ٤١٤ قبل المسيح وصارت عاصمة بلاد الغال في زمان أغسطس ولا تزال من أمهات مدن فرنسة

عبد الرحمن الثقفي أميراً على الأندلس . وفي صفحة ١٤٠ من نفع الطيب من الجزء الأول الطبعة الأزهرية يذكر أمراء الأندلس على النسق الآتي :

طارق بن زياد مولى موسى بن نصير . ثم الأمير موسى بن نصير، وكلاهما لم يتخذ سريراً للسلطنة . ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير، وسريه اشبيلية . ثم أيوب بن حبيب اللخمي ، وسريه قرطبة . وكل من يأتي بعده فسريه قرطبة والزهران والزاهرة بجانبيها الى أن انقضت دولة بني مروان على ماينبه عليه . ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي . ثم السمح بن مالك الخولاني . ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي . ثم عنبة بن سحيم الكلابي . ثم عذرة بن عبد الله الفهري . ثم يحيى بن سلمة الكلابي . ثم عثمان ابن أبي نسعة الخثعمي . ثم حذيفة بن الأحوص القيسي . ثم الهيثم بن عبيد الكلابي . ثم محمد بن عبد الله الأشجعي . ثم عبد الملك بن قطن الفهري . ثم بلج بن بشر ابن عياض القشيري . ثم ثعلبة بن سلامة العاملي . ثم أبو الخطار بن ضرار الكلابي . ثم ثوابة بن سلامة الجذامي . ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري . قال : وههنا انتهى الولاية الذين ملكوا الأندلس من غير موارثة أفراداً عددهم عشرون فيما ذكره ابن سعيد ولم يتعدوا في السمة لفظ الأمير . قال ابن حيان : مدتهم منذ تاريخ الفتح من لذريق سلطان الأندلس النصراني وهو يوم الأحد لخمس خلون من شوال سنة ٩٢ الى يوم الهزيمة على يوسف بن عبد الرحمن الفهري وتغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك قرطبة وهو يوم الأضحي لعشر خلون من ذى الحجة سنة ١٣٨ ست وأربعون سنة وخمسة أيام انتهى

وأما ابن عذارى في « البيان المغرب » فيذكر في الجزء الاول أن محمد بن يزيد أمير افريقية استعمل على الأندلس الحر بن عبد الرحمن القيسي ، وكانت الأندلس اذ ذاك الى والى افريقية كما كان أيضاً والى افريقية من قبَل والى مصر . ثم قال : وسنة ٩٩ توفي سليمان بن عبد الملك واستخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يوم وفاته فاستعمل على افريقية اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم . قال : واستعمل اسماعيل بن أبي المهاجر على الأندلس السمح بن مالك الخولاني . ثم ذكر

ابن عذارى أنه عند ولاية بشر بن صفوان على افريقية ولى الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبى . ثم ذكر أنه عند ولاية عبيدة بن عبد الرحمن السلمى على افريقية تولى عثمان ابن أبى نسعة على الأندلس، ثم من بعده حذيفة بن الأحوص القيسى ، ثم الهيثم بن عبيد الكنانى ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الذى استشهد ببلاد الشهداء . ثم ذكر امارة عبد الملك بن قطن على الأندلس ، ثم ولاية بلج بعد مقتل عبد الملك ، ثم ولاية ثعلبة بن سلامة العاملى ، ثم ولاية أبى الخطار الكلبى ، ثم ولاية ثوابة بن سلامة الذى ثار على أبى الخطار وهزمه ، ثم ولاية يوسف الفهري آخر أمراء الأندلس الذى دخل فى زمانه عبد الرحمن بن معاوية الأموى الى تلك البلاد

وأما صاحب « أخبار مجموعة فى تاريخ أمراء الأندلس » فذكر بعد امارة عبد العزيز بن موسى بن نصير امارة أيوب بن حبيب اللخمي، كان يؤم أهل الأندلس فى صلاتهم وكان رجلاً صالحاً، فولوه أمرهم بعد قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، وهو ابن عمه عبد العزيز . وجاء بعده الحر بن عبد الله الثقفى ^(١) (ولم يقل الحر بن عبد الرحمن الثقفى) ثم ذكر انه لم يستقر بالحرّ القرار حتى ولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخلافة فعزل عبد الله بن يزيد والى افريقية (ولم يقل محمد بن يزيد) وولاهها اسماعيل بن عبد الله مولى بنى مخزوم وذلك أن الخلفاء كانوا اذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا إله الا هو ما فيها دينار ولا درهم الا أخذ بحقه وانه فضل اعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه . فأتى وفد افريقية بخراجها وذلك أنها لم تكن يومئذ ثغراً فكان ما فضل بعد اعطيات الأجناد وفرائض الناس ينقل الى الخليفة . فلما وفدوا بخراج افريقية فى زمان سليمان أمروا بأن يحلفوا خلف الثمانية ونكل اسمعيل بن عبيد الله

(١) وبعض المؤرخين يسمونه الحر بن عبد الرحمن القيسى وهو واحد لان الثقفى قيسى وتيف من بطون هوازن . وهوازن هو ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان

مولى بنى مخزوم ، ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولاني . فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما ثم ضمَّهما الى نفسه فاختر منهما صلاحاً وفضلاً . فلما ولي عمر ولي اسماعيل افريقية وولى السمح بن مالك الأندلس وأمره أن يحمس أرضها ويخرج منها ما كان عنوة، خمساً لله من أرضها وعقارها، ويقر القرى في أيدي غنمها بعد أن يأخذ الخمس وأن يكتب اليه بصفة الأندلس وأنهاها . وكان رأيه انتقال أهلها منها لا نقطاعهم عن المسلمين وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فإن مصيرهم الى بوار الا أن يرحمهم الله . فقدمها السمح سنة مائة فوضع يداً في السؤال عن العنوة ليميزه من الصلح وفي اخراج البعوث . وبني القنطرة وذلك انه كتب الى عمر يستشيره ويعلمه ان مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض الشتاء عامة « فان أمرني أمير المؤمنين بينان سور المدينة فعلت فان قبلي قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد وان أحبَّ صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم » فيقال والله أعلم ان عمر رحمه الله أمر بينان القنطرة بصخر السور وأن يبني السور باللبن اذ لا يجده صخرأ فوضع يداً فبني القنطرة في سنة احدى ومائة

ثم هلك عمر رحمه الله ، فولى يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان أخا حنظلة بن صفوان افريقية، فعزل بشر السمح بن مالك وولى عنبسة بن سحيم الكلبي، ثم تابعت ولاية الاندلس بعد عنبسة . فولها يحيى بن مسلمة الكلبي ، ثم وليها بعد يحيى عثمان ابن أبي نسعة الخثعمي ، ثم وليها بعد عثمان حذيفة بن الأحوص القيسي ، ثم الهيثم بن عفير الكناني ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله العافقي، وعلى يديه استشهد أهالي بلاط الشهداء، واستشهد معهم واليهم عبد الرحمن . وولى عبد الملك بن قطن المحاربي محارب فبر من قريش ، وولايته الاولى نحو من ستة أشهر، لم تطل . وكان من وصفنا من الولاة يجاهدون العدو ويتوسعون في البلاد حتى بلغوا افريقية وحتى افتتحت عامة الاندلس (الى أن يقول) : ان هشام بن عبد العزيز رحمه الله بعث على مصر عبيد الله ابن الجحباب بن الحارث مولى بنى سلول من قيس وجعل اليه أمر افريقية والاندرلس

فأقر بشر بن صفوان على افريقية وولى عقبه بن الحجاج الاندلس . (ثم قال) :
فدخل الأندلس (أى عقبه بن الحجاج) سنة عشر ومائة فأقام عليها سنين وافتتح
الأرض حتى بلغ اربونة ، وافتتح « جليقية ^(١) » و « البة ^(٢) » و « بنلونة ^(٣) »
ولم يبق بجليقية قرية لم تفتح غير الصخرة فانه لاذ بها ملك يقال له « بلاى » فدخلها
فى ثلثمائة راجل ، فلم يزالوا يقاتلونه ويغاورونه حتى مات أصحابه جوعاً وترامت طائفة
منهم الى الطاعة فلم يزالوا ينقصون حتى بقى فى ثلاثين رجلاً ليست معهم عشر نسوة
فما يقال انما كان عيشهم بالعدل ، ولادوا بالصخرة فلم يزالوا يتقوتون بالعدل معهم
جياج ^(٤) والنحل عندهم فى خروق الصخرة ، احترزوا وأعبي المسلمين أمرهم فتركوهم
نوقالوا : ثلاثون علجاً ما عسى أن يكون أمرهم ؟ واحتقروهم . ثم بلغ أمرهم الى أمر عظيم
سندكره اذا بلغنا موضعه ان شاء الله اه

ثم ذكر صاحب « أخبار مجموعة » ان عقبه بن الحجاج بقى أميراً على الأندلس
الى سنة ١٢١ اذ ثارت البربر فى افريقية ودخلوا طنجة وقتلوا واليها عمر بن عبد الله
المرادى ، وشغل صاحب افريقية بشر بن صفوان بهتة الثورة ، فوثب عبد الملك بن قطن
المحاربى على عقبه بن الحجاج ، فخلعه ولا أدرى أقتله أم أخرجته ؟ فملكها بقية ٢١ و ٢٢
و ٢٣ حتى دخل بلج بن بشر القشيرى ثم الكعبي بأهل الشام . وقد وصفنا سبب
دخوله فى أحاديث تأتى بعد هذا

(١) جليقية أو غاليسية : يحدها من الشمال والغرب بحر الاوقيانوس ، ومن الجنوب البرتغال ، ومن
الشرق بلاد ليون وجبال أستوريش ، وفيها لقى العرب أشد المقاومة . وكان انضمام هذه البلاد الى
مملكة قشتالة سنة ١٠٧٣ لكنها بقيت حافظة استقلالها الداخلى الى زمان فرديناند وايزابلا ، ففى
عهدهما اندمجت فى بقية اسبانية . والاسبانيون يكتبون اسمها هكذا Galicia

(٢) Alava احدى مقاطعات شمالى اسبانية واقعة فى جنوبى اليرانه أهلها من الياشكنس
(٣) العرب كانوا يسمون نافار بنلونة وأحياناً نبرونة وقد يقولون لها نبرة . وهذه اللفظة
بنبلونة Pampeluna اسم مدينة فى نافار فيها قلعة

(٤) الجيج - بضم فسكون وبكسر فسكون - حيث تعسل النحل . قال فى لسان العرب : اذا كان غير
مصنوع والجمع ايجج وجوج وججاج . وقيل : هى مواضع النحل فى الجبل

ثم ذكر ما معناه : انه بعد موت بلج القشيري تولى الأندلس ثعلبة بن سلمة العاملي ، وجار في سياسته ، وذهب وفد من الأندلس الى حنظلة بن صفوان أمير افريقية يشكون ما هم فيه ، فأرسل عليهم والياً أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، فأصلح الأمور ورضى به الشاميون والبلديون ، وكان رجلاً من خيار الناس وأزل أهل الشام في الكور . وبقى أبو الخطار أربع سنين وستة أشهر الى أن دخل الأندلس الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن . وشمرو هو الذي قتل الامام الحسين ابن علي رضي الله عنه ، وقتله بعد ذلك المختار بالكوفة ، فارتحل ولد الشمر عن الكوفة الى الجزيرة ، ثم ارتحلوا الى الأندلس مع جند قنسرين ، ورأس الصميل بالأندلس ودانت له قيس فيها واقتتل مع أبي الخطار وانهزم هذا ، وتولى ثوابة بن سلمة الجذامي ، ثم مات سنة ١٢٩ وتولى بعده يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة بن نافع الفهري . وفي أيامه اشتدت العداوة بين قيس واليمن ، فأبحازت مضر وربيعة الى يوسف ومعه الصميل ، واجتمعت يمن الأندلس حيرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها تحت لواء أبي الخطار . وكانت بين الفريقين أشد حرب عرفها العرب بعضهم مع بعض . قال صاحب « أخبار مجموعة » : وهي الفتنة العظمى التي بها يخاف بوار الاسلام بالأندلس الا أن يحفظه الله .

ومن كلام هذا المؤرخ الذي كتب هذا التاريخ في أيام الحكم المستنصر يظهر انهم كانوا يخشون على اسلام الأندلس البوار ، لا من جهة انقطاع مسلمي الاندلس من وراء البحر فقط ، بل من جهة الفتنة التي لا يفتر أوارها فيما بينهم . ولقد وقع ما كانوا منه يحذرون ، فما كان زوالهم من هناك بحرب الاسبانيول غصب بل كان أقوى عامل على زوالهم من الأندلس شدة عداوة بعضهم لبعض ، وهو مرض الفرقة الذي رافقهم الى الساعة الأخيرة من ملكهم هناك (١)

(١) كان لم يبق للعرب في كل الأندلس الا مدينة غرناطة وكان الطاغيتان فرديناند وايزابلا آخذين منهم بالخنق الذي يقطع الانفاس وقد أقاما وعساكرهما بمعسكر من الحجر بدلا من الخيام ايذاناً بأنهما لن يقلعا عنها . وكان أهل غرناطة مع ذلك يقاوانون الاسبانيول في النهار ثم يعودون

رجع الحديث الى حرب القيسية واليمنية

ذكر صاحب « أخبار مجموعة » ان ابن حريث ^(١) وأبا الخطار زحفا الى يوسف والصميل ^(٢) بقرطبة ، فأقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة بقبليها بقرية « شقندة » ^(٣) . وعبر يوسف والصميل النهر اليهما بمن معهما . فالتقوا حين صلوا الصبح فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح وثبتت الخيل وحميت الشمس . ثم تداعوا الى البراز فتنازلا وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت . ثم تقابضوا بالأيدي والشعور ولم يكن في الاسلام صبر مثله الا ما يذكر من صفين ^(٤) . ولم يكن القوم بالكثير لاهؤلاء ولا هؤلاء وانما كانوا خيار الفريقين ، وكانوا متقاربين ، الا ان اليمن كانوا أكثر قليلا . فلما أعجب بعضهم بعضاً توافقوا يضرب بعضهم وجوه بعض ، بالقسي والجعاب ، ويحیی بعضهم التراب على بعض ، اذ قال الصميل ليوسف : ماوقفنا اذ خلفنا جنداً نحن منهم في غفلة قال : ومن هم ؟ قال : أهل السوق بقرطبة . فرد اليهم يوسف مولاه خالد بن يزيد وصاحب سوقه ، فأخرجنا منهم نحواً من أربعائة راجل معهم الخشب والعصى ومع قليل منهم السيف والمزراق فخرج الجزأرون بسكاكينهم فجاءوا الى قوم موتى وقد مضت الظفر والعصر لم يصلوها لاصلاة خوف ولا أمن ، فجرّدهم وقتلوا وأسروا بشراً كبيراً خياراً ، وأسروا أبا الخطار وابن حريث وكانا الأميرين . وكان ابن حريث

مساء فيقتلون في البلدة بعضهم مع بعض ، حارة غرناطة مع حارة البيازين . راجع كتابنا « آخر نبی سراج » مع ذيله . واذا أراد الله شيئاً هياً أسبابه

(١) يحيى بن حريث على وزن أمير: كان أميراً بكورة رية وبها سكنى أهل الاردن

(٢) الصميل على وزن أمير

(٣) الاسبانول يكتبونها Xecunde

(٤) حرب صفين بين علي ومعاوية هي التي أخرت سير الاسلام الى الامام بعد أن كان أوشك أن يشمل الأرض . ولقد اضطر معاوية بسببها أن يهادن الروم . قال البلاذري في « فتوح البلدان » ان معاوية صالح الروم على أن يؤدي اليهم مالا . وحرب القيسية واليمنية في الاندلس كانت الثلثة التي اقتحم منها الاسبان والافرنج على العرب حتى تكس هؤلاء الى الوراء وما زالوا

لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون أصحابه تغيب ودخل تحت سرير الرحي التي بموضع بيع الخشب . فلما أسروا أبا الخطار وهموا بقتله قال : ليس عليّ فوت ولكن عندكم ابن السوداء ابن حريث . فدلّ عليه فأخرج وقتلا جميعاً . وكان ابن حريث يقول : لو ان دماء أهل الشام جمعت لي في قدح لشربتها . فلما استخرج قال له أبو الخطار : يا ابن السوداء هل بقي في قدحك شيء لم تشربه ؟ فقتلا ، وأسر منهم بشر كثير . ثم أتى بالاسرى وقعد الصميل في كنيسة كانت في داخل مدينة قرطبة ، وهي اليوم موضع مسجدھا الجامع ، فضرب أوساط سبعين منهم . فلما رأى ذلك أبو عطاء بن حمد المرسي قام اليه فقال له : أبا جوشن أعمد سيفك أو ارجع سيفك . قال له : اقعده أبا عطاء فهذا عزك وعز قومك . فجلس ولم يعمد السيف . ثم قام اليه فقال له : يا عرابي ، والله إن تقتلنا الا بعداوة صفين لتكفن أولادعون بدعوة شامية . فأعمد سيفه وأمن الناس على يدي أبي عطاء بعد بلاء عظيم ، فيقال والله أعلم : ان تلك الواقعة توجد في بعض العلم انها قاطعة الأرحام ^(١) . وكانت قبل سنة احدى وثلاثين ومائة ، قال : فأعقبهم الله بالجوع والقحط فجاعت الاندلس سنة اثنتين وثلاثين ثم سنة ثلاث ، فثار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر علع يقال له بلاي ، قد ذكرناه في أول كتابنا ، نخرج من الصخرة ^(٢) وغلب على كورة « واستورس ^(٣) » ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل « استورقة ^(٤) » زماناً طويلاً حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابه ^(٥)

ينكصون الى أن عادوا من حيث أنوا وأكروا كما أرموا وانطوى من هناك بساطهم الطويل العريض وكان وعد الله مأتماً

(١) قرأت في كتاب « تاريخ مسلمي اسبانية » لدوزي المستشرق الهولاندي الذي يعده الاوريون أفضل مؤرخ لدولة العرب في اسبانية كلاماً معناه أن بغض قيس اليمين وبغض اليمين لقيس هو أشد من بغض العرب للامم الاعجمية . فتأمل

(٢) يقال لها صخرة Aguilar « اغيلار »

(٣) Asturias

(٤) استورقة : من بلاد ليون في شمالي اسبانية ، والاسبانيول يكتبونها Astorga

(٥) أي ان هذه الفتنة بين العرب بعضهم مع بعض اهتبل الاسبانيول فيها الغرة فأخرجوا المسلمين

فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها، وتنصر كل منذبذب في دينه وضعف عن الخروج، وقتل من قتل وصار فلهم الى خلف الجبل الى « استورقة » حتى استحکم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين عن استورقة وغيرها وانضم الناس الى ماوراء الدرب الآخر والى « قورية ^(١) » و « ماردة ^(٢) » في سنة ست وثلاثين . واشتد الجوع فخرج أهل الاندلس الى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين وكانت اجازتهم من واد بكورة « شذونة ^(٣) » يقال له وادي « يرباط ^(٤) » فتلك السنون تسمى سنى يرباط نخف سكان الاندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو الا أن الجوع شملهم اه

هذا ما اخترنا تلخيصه وتمحيصه من أخبار الامراء الذين تعاقبوا على الاندلس والذين كانوا يغزون افرنجية أو فرنسة . ولنصف اليهم ما ذكره ابن عميرة صاحب « بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس » ^(٥) فهو يذكر الحر بن عبد الرحمن القيسي ويقول انه عزل بعنبة بن سحيم الكلبي ، ويقول ان عنبة تولى الأندلس سنة ١٠٦ من قبل بشر بن صفوان امير افريقية في أيام هشام بن عبد الملك ومات سنة ١٠٧ وقيل ١٠٩

واما ابن خلدون فيذكر أن ولاية عنبة بن سحيم كانت من قبل يزيد بن أبي مسلم عامل افريقية ، لا بشر بن صفوان ، وان بشر بن صفوان كان والياً على افريقية

من جليقية . وهكذا تأسست الدولة الاسبانية الاولى بعد الفتح العربي وما زالت تشتد وتمتد حتى أخرجت المسلمين من كل اسبانية

(١) Coria

(٢) Merida من بلاد بطليوس في غرب الاندلس

(٣) Sidonia

(٤) بقرب طرف الاغر Trafalgar وتكتب بالاسبانيولى Barbate

(٥) احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة الضبي له تاريخ بغية الملتمس وصل فيه الى أوائل دولة الموحدين وذكر واقعة الارك الشهيرة التي أدال الله فيها للمسلمين على الاذفثن الملقب بالانبراطور وتاريخها ٩ شعبان ٥٩١

وقت مقتل عنبسة . ولما بلغه الخبر أرسل مكانه والياً على الأندلس يحيى بن مسلمة الكلبى . ويقول ابن خلدون : ان استشهاد عنبسة كان فى أرض الفرنجة سنة ١٠٧ . وبين ابن خلدون وصاحب « أخبار مجموعة » اختلاف فى الأسماء ، لعلة من تصحيف النسخ . فى نفع الطيب نقلاً عن ابن خلدون يذكر « الهيثم بن عبيد الكلابى » - وهكذا فى صبح الأعشى - وفى « أخبار مجموعة » الهيثم بن عفير الكنتانى . ثم ان صاحب « أخبار مجموعة » يذكر بعد الهيثم ولاية عبد الرحمن الغافقى بلا فاصل ، على حين أن ابن خلدون يذكر بعد الهيثم محمد بن عبد الله الأشجى . ولعل صاحب أخبار مجموعة أهمله لقصر مدته لأنه لم يلبث الا شهرين . وأما ابن عذارى فيذكر فى « المغرب » أن بشر بن صفوان تولى افريقية مرتين وفى الثانية منهما ولى على الأندلس عنبسة بن سحيم . ثم يقول انه سنة ١٠٧ ولى على الأندلس يحيى بن سلمة الكلبى . ومن هنا يعرف أن مقتل عنبسة بن سحيم بأرض افرنجة غازياً كان سنة ١٠٧ وهذه هى رواية ابن عميرة وابن خلدون أيضاً . والمستشرق رينو^(١) يقول انه قتل سنة ٧٢٥ مسيحية . والمؤرخ كوندى الاسبانولى يجعل قتله سنة ١٠٦ هجرية الموافقة ٧٢٤ مسيحية

ولنرجع الى تاريخ رينو عن غارات العرب على فرنسة فهو يقول :

ان السمع بن مالك الخولانى الذى تولى الأندلس فى خلافة عمر بن عبد العزيز بعد أن سكن الدهاء وأصلح الأمور فى الداخل أعمل همته فى الجهاد ليستأنف المسلمون الحرارة الأولى وليجدد عزائمهم بعد الالتيات ويعقد صرائمهم بعد الاتكاث قال : وكان ذلك سنة ٧٢١ مسيحية ، فى خلافة يزيد بن عبد الملك ، وكان مضى على فتح العرب للأندلس احدى عشرة سنة لا غير . فأجاز السمع الى بلاد فرنسة ، تفيض بجيوشه أقطارها ، وزعم مؤرخو الافرنجة المعاصرون أن العرب جاءوا ومعهم نساؤهم

(١) استشهد رينو على هذه الرواية بتاريخ دير « مواساك » Abbaye de Moissac الذى فى مجموعة « مؤرخى بلاد الغال » Recueil Des Historiens des Gaules للدون « بوكيه » Don Bouquet الراهب البنديكى المشهور فى علم التاريخ ولد فى « آميان » سنة ١٦٨٥ وتوفى سنة ١٧٥٤ واستشهد بمجموع آخر اسمه مجموع « موراتورى » Recueil de Muratori

وأولادهم لأنهم كانوا على نية الاستقرار في البلاد : قالوا وكان الفقراء والمهاويج يأتون من جزيرة العرب والشام ومصر وافريقية ومعهم عائلاتهم لأجل سد مفارمهم بالفتوحات وارتياذ الرزق من وراء الغارات

قال رينو : ولم يزل السماح يتقدم بجيشه الى أن صار امام أربونة فحصرها ولم يلبث أن فتحها وقتل رجالها وسبي نساءها وذراريها . وكانت أربونة بمصاقتها للبحر وسهولة الوصول اليها بالسفن من اسبانية ثم بمنعتها الطبيعية من جهة البر تصلح أن تكون مسلحة للعرب في أرض افرنجية . فزاد السماح في تحكيم حصونها ووضع الحاميات في المدن المجاورة لها

الكلام على مدينة أربونة Narbonne

كانت زيارتي لأربونة بعد أن قفلت من الأندلس، لا كما كانت زيارتي لطلوزة وقرقشونة، أي قبل أن دخلت اليها . وأربونة هي كما لا يخفى المدينة التي توجهت اليها همة العرب أكثر من الجميع من أرض فرنسة . وذلك لكونها على كسب من البحر ولسهولة التوصل اليها من الأندلس على الماء ، وكونها لذلك العهد أهم حاضرة افرنسية في جوار اسبانية، فكان العرب اذا أفاضوا من جبال البيرانه ناحرين الشمال يجدون أربونة هي المدينة الأولى التي تستقبلهم

وموقع أربونة هو على ارتفاع ١٠ أمتار فقط عن سطح البحر الملح، وعلى مسافة ١٤ كيلومترا منه الى الشرق . ونهر الأود يمر بالقرب منها، والسهول التي بينها وبين البحر هي متكونة من الرواسب التي أبقاها هذا النهر بجره من آلاف وآلاف من السنين وهي الآن مدينة من الدرجة الثالثة، لا يزيد عدد أهلها على ٣٠ ألفاً. ومناخها شبيه بمناخ المدن العربية أي أنها لطيفة الشتاء نادرة الثلج حارة القيظ لولا نسائم لطاف تهب عليها أحيانا من جهة البحر فتخفف من حرارتها . وفي مدة تزيد على نصف السنة تعصف الرياح في أربونة من الشمال الغربي، وتسفي التراب وتكدر صفو المزاج، ولكنها تفيد في تنشيف ماحول أربونة من المستنقعات . وأكثر حاصلات أربونة من الكرم

وفيهما جميع أشجار البلاد الحارة وقد شاهدت فيها التين والزيتون والصبير
ويمر بأربونة جدول اسمه «رويين»^(١) مشتق من قناة الجنوب المستمدة من الأود
وأربونة من أقدم مدن الأرض عثروا فيها على آثار الآدميين، من العصر الحجري، وعلى
قبور مما قبل التاريخ. وفي أواخر القرن الثاني عشر قبل المسيح أغار الساتيون على
أربونة واستقروا بها. وكانت لهم علاقات تجارية مع اليونانيين الذين كانوا يترددون
إلى سواحل بروفانس والكتالان

وقد جعل الجليل المسمى «بالفولسك»^(٢) مدينة أربونة حاضرة لهم. وجاء
الرومانيون سنة ١٢١ قبل المسيح فافتتحوها وصارت في أيامهم مركزا تجاريا عظيما
تضارع مرسلية. وكان الولاية الرومانيون يقيمون بها، وكانت لها امتيازات لعهدهم
عريضة، وبلغ عدد أهلها مائة ألف نسمة في ذلك العصر. وسنة ١٤١٣ استولى
عليها القوط وتزوج فيها ملكهم ادولف بالأميرة «بلاسيده غاله»^(٣) اخت الامبراطور
الروماني، وكانت لزفافه فيها حفلة عظيمة. ثم استولى على أربونة «غونديبود»^(٤) ملك
البرغونديين^(٥)، لكنه لم يتمتع بها طويلا، وعادت للقوط، وثبت هؤلاء فيها
برغم غارات الفرنج عليها

نقلنا هذه الخلاصة عن «دليل أربونة»^(٦) ولنذكر ما جاء في هذا الدليل
بشأن العرب، قال: في أوائل القرن الثامن للمسيح ظهر العرب على «سبتمانية»

(١) La Robine

(٢) Volsques

(٣) Placida - Galla

(٤) Gondebaud

(٥) Burgundes شعب جرمانى أغار على بلاد الغال سنة ٤٠٦ للمسيح واستوطن
وادي الرون أو ردونة وأخذ بالثقافة اللاتينية وامتزج بالغالين. وقد تزوج كلوفيس ملك فرنسا
بأبنة غونديبود ملك البورغوندي أو البورغون هؤلاء. وكان العرب يقولون لهم البرجان

(٦) اسمه Narbonne Historique et Archéologique

وافتح « زاما »^(١) « أربونة سنة ٧١٩ بعد حصار استمر ثمانية وعشرين يوماً فقتل الرجال وسبي النساء والأطفال . ثم نظر « زاما » الى أهمية أربونة الجغرافية فخصنها وشحنها بالميرة . وهكذا تمكن العرب فيها من صد غارة شارل مارتل الذي حاصر أربونة سنة ٧٣٢ بعد أن هزم العرب في معركة بواتيه . ثم ان « بين » القصير حاصر أربونة سنة ٧٥٢ ونكص عنها ، ولم يتمكن منها سوى شارلمان سنة ٧٥٩ وذلك بعد أن حاصرها مدة سبع سنوات . فان الأهالي الذين في البلدة كانوا ملوا هذا الحصار الطويل فثاروا بالحامية العربية وذبجوها . وعاد العرب سنة ٧٩٢ فحاصروا أربونة ، فبعث شارلمان لنجدها بعثاً عدته عشرون ألف مقاتل ، عقد لواءه للفارس المشهور غليوم^(٢) وتلاقى الجمعان بقرب أربونة ، فاستأصل العرب جيش الافرنج ولم يبق من هؤلاء الا غليوم وثلاثة عشر من رفاقه ، وسلم أنف غليوم في المعركة ولقب من ذلك اليوم بنى الأنف القصير . الا أنه أحرز مجد قتل عبد الملك أمير الجيش العربي بيده . فأما أربونة فبرغم انكسار الافرنج ذلك اليوم لم تسقط في أيدي العرب انتهى ما جاء في دليل أربونة . وهذا غير مطابق لما في تواريخ العرب . انظر الى ما

جاء في نفح الطيب في هذا الصدد ، قال : « كان هشام (ابن عبد الرحمن الداخل الأموي) يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم من ثقاته الى الكور ، فيسألون الناس عن سير عماله ويخبرونه بحقائقها . فاذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه أو أنصف منه ولم يستعمله بعد . ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن لمالك بن أنس قال : نسأل الله تعالى أن يزين موسمنا بمثل هذا^(٣) . وفي أيامه

(١) السمح بن مالك الخولاني أمير الأندلس من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز . وفي أربونة

اليوم شارع باسم السمح Rue, de Zama

(٢) Guillaume au court nez

(٣) قد بلغ هذا الكلام عن سيدنا مالك رضي الله عنه أمير هشاماً الأموي صاحب الأندلس فقال الى مذهب في الفقه ، وحمل عليه أهل الأندلس ، وكانوا من قبل يتفقهون على مذهب سيدنا الأوزاعي رضي الله عنه . وقد استوفينا الكلام على ذلك في الكتاب الذي حررناه عن الأوزاعي وهو الآن تحت الطبع

فتحت أربونة الشهيرة، واشترط على المعاهدين من أهل جاسيقية^(١) من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتحة يحملونها إلى باب قصره بقرطبة وبنى منه المسجد الذي قدام باب الجنان ونضت منه فضلة بقيت مكوّمة . وقاسى مع المخالفين له من أهل بيته وغيرهم حروباً، ثم كانت الدائرة له. وقصد إلى بلاد الحرب غازياً، وقصد «أبة»^(٢) والقلاع، فلقى العدو وظفر بهم وفتح الله عليه سنة خمس وسبعين . وبعث العساكر إلى جليقية مع يوسف بن بخت، فلقى «ابن منده»^(٣) وهزمه، وأخذ في العدو . وفي سنة ست وسبعين بعث وزيره عبد الملك بن عبد الواحد ابن مغيث^(٤) لغزاة العدو، فبلغ أبة والقلاع فأخذ في نواحيها . ثم بعثه في العساكر سنة سبع وسبعين إلى أربونة وجرنده^(٥) فأخذ فيها ووطى أرض برطانية^(٦) .

- (١) العرب كانوا يسمون بالجلالة أهالي غاليسيا في شمالي اسبانية وأهالي جنوبي فرنسا أحياناً
- (٢) Alava وقد تقدم ذكرها
- (٣) لا أعلم ان كان هذا هو الاسم الحقيقي أو كان محرفاً عن «برموده» Bermude وهو ملك كان في جليقية نزل في آخر الأمر عن الملك للاذفش لأنه كان أضاع به منه . اتنا لم نقرأ اسم ملك ولا أمير اسباني اسمه «ابن منده» وتحريف العرب أسماء الافرنج وتحريف الافرنج أسماء العرب بحر لا يلجج فيه
- (٤) المؤرخ الاسباني بولي كوندى يذكر أن الأمير هشاماً أرسل جيشاً إلى جبال الاشتريرش Asturies عدته ٣٩ ألف مقاتل بقيادة عبد الواحد بن مغيث لا عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث . وقد ذكرنا أن المحققين لا يمدحون تاريخ كوندى ولا يتقون بسبل تلغته
- (٥) Gironde هي إحدى مقاطعات فرنسا الجنوبية الغربية، يحدها اليوم من الشمال شارانت Charente السفلى، ومن الغرب خليج غامسقونيا، ومن الجنوب مقاطعة اللاند Landes ومن الشرق مقاطعة لوبوغارون Lot - et - Garonne ومقاطعة دوردون Dordogne
- (٦) مقاطعة عظيمة من غربي فرنسا Bretagne أهلها من الجنس الساتي ولغتهم غير الافرنسية يحدها برطانية من الشمال بحر المانش، ومن الغرب والجنوب الغربي البحر المحيط، ومن الجنوب الشرقي «بواتو» ومن الشرق «انجو» و«ماين» ومن الشمال بلاد نورمانديا . وكانت برطانية مستقلة في القديم تولاهما ٣٥ أميراً وما استلحقها فرنسا إلا في أيام فرنسوا الأول سنة ١٥٣٥ ولا تزال فيها بقايا عصبية تنزع إلى الاستقلال عن فرنسا . والأرجح أن لا يكون المراد هنا ببرطانية برطانية الافرنسية بل امبرطانية الكتالانية . وعند ذلك يلزم أن لا تكون البلاد التي قبلها جرنده

وتوغل عبد الملك في بلاد الكفار وهزمهم. ثم بعث العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد الى بلاد جليقية ، فانتهى الى «استرقة»^(١) فجمع له ملك الجلائقة واستمد بملك الباشكنس ثم خام عن اللقاء ورجع أدراجه وأتبعه عبد الملك ، وكان هشام قد بعث بالجيش من ناحية أخرى فالتقوا بعبد الملك وأخذوا في البلاد ، واعترضتهم عساكر الفرج فنالوا منهم بعض الشيء ثم خرجوا سالمين ظافرين اه

فمن هنا يظهر أن العرب عادوا فافتتحوا أربونة في زمان الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، ولكن الرواية عن الفتح التام والاستقرار تضعف بقول المقرئ في الفتح: «ثم بعث في العساكر الى أربونة ، وجرندة فأخضع فيها» فإذا كان قد تم له فتحها فلا محل لغزوها ثانيا مرة والاشخان فيها. وقد جاء ذكر الأمير هشام في العملة الإسلامية لهوتسا وباسيت ورفاقها ، ولم يذكروا أنه فتح أربونة وإنما قالوا أنه أغزى مراراً الجيش الإسلامية بلاد النصراري وجنوبي فرنسا ، ووصلت جيوشه إلى «استرقة» و«أوبياده»^(٢) من المملكة التي أسسها بقايا ملوك المسيحيين في اسبانية ، ممن لم يخضعوا للعرب ، من أعقاب بلاي^(٣)

التي هي في جنوبي فرنسا وقاعدتها بوردو بل جرندة التي هي من مقاطعات كتالونيا أي جرندة التابعة لبرشلونة والتي يقال لها اليوم جيرونه ، فان اسمها الروماني القديم جرندة Gerunda وكان اسمها هذا هو المستعمل يوم فتحها العرب . نهبى الى ذلك ولدنا الفاضل محمد الفاسي القهري وقال لي انه لم يزل بفاس الى الآن عائلة من الأندلس يقال لها عائلة الجرندى نبع منها علماء أعلام مثل أبى العباس أحمد بن على بن عبد الرحمن الجرندى الأندلسي المتوفى بفاس سنة ١١٢٥ ترجمه القادري في نشر المثاني ، والكتاني محمد بن جعفر في سلوة الأقباس . ولا شك في أن العرب سكنوا جرندة الكتالونية طويلا ولكنهم لم يسكنوا جرندة التي عاصمتها بوردو ولا عرفوها الا في الغزوات عابري سبيل . روى لي محمد الفاسي أن المستشرق الاسباني قديره Codera كتب فصلا خاصاً عن فتح العرب للندن الثلاث: برشلونة وجرندة وأربونة ، يتلخص منه أن العرب فتحوا جرندة عند ما فتحوا الاندلس ، وبقيت في أيديهم حتى انتزعها منهم شارلمان سنة ٧٨٥ ثم استردها العرب سنة ٧٩٣ ثم أخذت منهم سنة ٧٩٧ أو ٧٩٨ ثم عادوا ففتحوها ثم أخرجوا منها نهائياً سنة ٨٠٠

(١) Astorga من بلاد ليون في شمالي اسبانية

(٢) Oviedo وابن حوقل يسميها أوبيط

(٣) Pélage أول من ملك على فل الاسبانول وأسس دولتهم المستقلة بعد فتح العرب

للاندلس وسنذكر خبره وخبر أعقابه تفصيلا في الجزء الثاني

وغزا جيرونة ^(١) وأربونة . ولم يرد في الانسيكلوبيديا الاسلامية أنه فتح أربونة
أما المؤرخ الاسبانيولى كوندى فإنه يذكر غزوات الأمير هشام فى جليقية
بالجيش الذى أرسله تحت قيادة الحاجب عبد الواحد بن مغيث ، وغزواته فى نواحي
البيرايه بالجيش الذى أرسله تحت قيادة عبد الله بن عبد الملك، ويقول: ان عبد الله هذا فتح
جيرونة سنة ٧٩٣ وفقى ١٧٧ . وبعد أن فاز بفتح هذه البلدة زحف صوب الشمال فعبر
البيرايه وفتح أربونة وذبح أهلها واكتسح أقطارها ، ووصل إلى قرشونة حيث
تجمعت لصدده أمراء البلاد قاطبة، وناجزته الحرب بين قرشونة وأربونة، فظهر المسلمون
فى هذه المعركة ، وانهمزم المسيحيون انهزاما غير تام ، يدل على ذلك أن عبد الله قفل
راجعا إلى الأندلس بعد تلك الطائلة . وقيل : ان سبب قفوله هو خوفه أنه بطول
القتال يفقد الغنائم الوافرة التى كان غنمها . وقالوا: ان هشاما جعل هذه الاموال فى
بناء جامع قرطبة . ثم ان الامير ولى عبد الله بن عبد الملك سرقسطة، وسرح عبد الكريم
ابن الحاجب عبد الواحد إلى جليقية فعاث ودمر ، ولكنه سقط فى كمين دبره له
الاذفش ، وهلك فيه أكثر عسكره وقواده ومنهم يوسف قائد الفرسان
وأما المستشرق رينو فى كتابه « غارات العرب على فرنسا ومن فرنسا على
سافواى وبييمونت وسويسرة » فإنه يذكر ما رواه مؤرخو العرب عن هذه الغزاة وما
تابعهم فيه لذريق شيمينيس ، ويروى قصة أحمال التراب التى حملها اسارى المسيحيين
المساكين على ظهورهم وبالعجلات من مسافة مائتى مرحلة، ويقول ان مؤرخى العرب
زعموا سقوط أربونة تلك النوبة فى أيديهم، ولكنه يستبعد هذا الأمر بسبب كون
المؤرخين المسيحيين لم يذكروا ذلك ولو بمناسبة دخول المسيحيين ثانية إلى أربونة . ثم
يقول ان النويرى الذى روى خبر هذه الغزاة يبض تفصيل لم يصرح بأن جيوش
العرب استوات على أربونة فى هذه الغزاة واستقرت فيها ^(٢) ، وسند كبقية هذا

(١) Gironna من بلاد الكاتالان تابعة لبرشلونة

(٢) قال المسعودى فى مروج الذهب بعد أن روى واقعة سمورة على جيش عبد الرحمن الناصر

البحث فيما يأتي عند الكلام على غزوات بني أمية في فرنسا

ما نصه : وأخذ ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس مما يلي الفرنجة . ومدينة أربونة خرجت من أيدي المسلمين سنة ٣٣٠ مع غيرها، مما كان بأيديهم من المدن والحصون، وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت وهو سنة ٣٣٦ من شرق الأندلس طرطوشة، وعلى سائر بحر الروم مما يلي طرطوشة افراغة على نهر عظيم ثم لاردة. انتهى

ثم ذكر دوزي الهولاندي، ادري من حرر تاريخ عرب الأندلس من الاوربيين، وذلك في الجزء الثالث من « تاريخ الاسلام في اسبانية » انه بعد ثورة « بيلاي » جرت حوادث أخذت بأيدي الأستوريين، وهي أن مسلمي شمالى اسبانية كان أكثرهم من البربر فناروا على العرب ووقعت بين الفريقين الوقائع، وظهر البربر في البداية على العرب، ثم عاد هؤلاء فأخذوا بالثار وغلظوا على البربر فألجأوهم الى الجلاء راجعين الى افريقية، وعلى تقيمة ذلك حصلت مجاعة شديدة استمرت نحواً من خمس سنوات متوالية، فلم يبق من البربر هناك الا النزر . وخلت الديار تقريباً من المسلمين فنار الأستوريون تحت قيادة الأذفنش صهر « بيلاي » وذلك سنة ٧٥١ مسيحية، وذبحوا من بقي من المسلمين، ولم يبق منهم أحد في « براغة » ولعل براغة هذه هي التي يسميها المسعودي افراغة (لأن الفاء يلفظها الأسبان باء) Braga ولا في « بورتو » Porto ولا في « فيزو » Visu وأصبح جميع الساحل الى مصب نهر « دورو » أى الوادى الجوفى Duero خالياً من المسلمين . ثم انكشف المسلمون عن « استرقة » Astorga و « ليون » Léon و « سمورة » Zamoura و « دجنة » Diesma و « طلنكة » Talamanca فاستقروا في « قورية » و « ماردة » Merida وأما من جهة الشرق فجلا المسلمون عن « سردانة » Serdana و « سمينكه » Simankas و « سيقويه » Segovia و « ايله » Avila و « أوقه » Oca و « ميرانده » Miranda على نهر « ابره » Ebra . وصارت ثغور الإسلام « قويمرة » Coimbra و « بنبلونة » Tudela و « طليطة » Talavera و « طليطة » Pampelona

رجع الحديث الى السمح بن مالك الخولاني

وغارات العرب على فرنسا

قال رينو :

وبعد أن انتهى السمح من أمر أربونة ، وشحن المدن المجاورة لها بالمقاتلة ، زحف نحو
طلوزة ^(١) وكانت وقتئذ عاصمة ا كيتانية ^(٢) فشد « اورد » دوق ا كيتانية كل ما قدر
على حشده من الجنود ، وخف لصد العرب عن المدينة ، بينما كانوا قد أخذوا بمخنقتها
واستعملوا المنجنيقات وسائر آلات الحصار في قتالها إلى أن أوشك أهلها أن يسلموها .
وإذا باود قد أقبل بجيش يسد الفضاء حتى قال مؤرخو العرب ان العثير المتطاير من
زحف أقدامهم كان يغطي عين الشمس من كثرتهم ، فتلا السمح لعسكره الآية القرآنية :
(ان ينصركم الله فلا غالب لكم) ولما تدانى الجمعان خيل أن الجبال تلاقى بعضها
ببعض ، وكانت المعركة من أهول ما يتصوره العقل ، وكان السمح يظهر في كل مكان وسيفه
ينطف دما وهو يشدد عساكره بقوله وبفعله . وكان كالفحل الهائج لا يرد رأسه شئ
أو كالأسد الزائر يحمل على العدو فلا يقف أحد في وجهه ، فهاهو إلا أن أصابته طعنة
خرّبها صريعا عن جواده . فلما رآوه المسلمون مجذلا ^(٣) فت في أعضادهم ونكصوا على
أعقابهم ، وتركوا قتالهم بالعراء ورجعوا إلى الورا . وكانت هذه الواقعة في شهر مايو من
سنة ٧٢١ وطاح فيها عدد من فرسان المسلمين المغاور الذين شهدوا الفتوحات السابقة .
ولقد تولى قيادة الجيش ، بعد قتل السمح وتقهقر العرب ، عبدالرحمن (العافق) وعاد
به الى الأندلس ^(٤)

Toulouse (١)

Aquitaine (٢)

(٣) جاء في « بغية الملتبس في تاريخ رجل الأندلس » لابن عميرة الضبي ما يلي في حرف

السين : السمح بن مالك الخولاني ثم الحياوى ؟ أمير الأندلس استشهد في قتال الروم بالأندلس في

ذى الحجة يوم التروية سنة ١٠٣

(٤) استشهد رينو هنا بكوندى الاسبانولى وايزيدور الباجى وانستاز السكتي صاحب ترجمة

ولما شاع خبر هذه الواقعة دبَّت الحماسة في قلوب أهالي اللانغدوق والبيرانه وهبوا لخلع طاعة العرب وحميت أنوفهم ، إلا أن هؤلاء كانوا لا يزالون متمكنين في أربونة ، وكانت قد جاءتهم نجدات من الأندلس فعادوا يشنون الغارات منها على البلاد المجاورة، وآضت جيوشهم تتقدم من كل مكان وتجر بنحزائم الطاعة أنوف السكان وكان الرهبان والقسيسون في ذلك الوقت هم أصحاب الكلمة العليا ، وكانت الكنائس والأديار مملأى بالنفائس والذخائر، فلم يكن من العجب أن تتوجه همه العرب قبل كل شيء إلى اجتياح هذه المعابد وصب البلاء على الرهبان . ولم يكن من العجب أن يكون هذا القسم من تاريخنا ملاً بقصص تدمير العرب للأديار والسيبع ، لأن الذين كانوا يكتبون اذ ذلك انما كانوا من الرهبان والا كايريكين ، فكان معظم كلامهم الحديث عما حلَّ بأديارهم وتقديمها على ديارهم

فقد جاء في تواريخ الرهبان الذين شهدوا تلك الوقائع أن العرب هدموا دير « جوسل »^(١) بقرب « بيزيه »^(٢) ودير القديس « بوزيل »^(٣) بقرب « نيم »^(٤) ودير « صنجيل »^(٥) بقرب « آرل »^(٦) والدير المشهور بالثروة المسمى بدير الترتيل^(٧) بقرب « آغيمورت »^(٨) وكان يسمى كذلك لأن الرهبان كانوا أزموا أنفسهم فيه النشيد الدائم بتسبيح الرب، وذلك على أنه كلما تعبت طائفة خلفتها طائفة في الترتيل فلا ينقطع الترتيل من الدير لا ليلاً ولا نهاراً . فدهم العرب هذه الأديار كلها بفتة، منحدرين عليها انحدار العقبان ، بحيث لم يقدر الرهايين الذين فيها

حياة البابا غريغوار الثاني ومجموعة مواسك التي فيها كتاب مؤرخي فرنسا

Jaucels (١)

Beziers (٢)

Saint-Bausile (٣)

Nimes (٤)

Saint-Gilles (٥)

Arles (٦)

Psalmodie (٧)

Aiguemortes (٨)

الا أن يخلصوا ، نجيأ برقابهم ويبيض ذخائر القديسين التي كانت عندهم^(١) ، وكان العرب أول ما يعمدون الى الأجراس والنواقيس فيكسرونها^(٢) وكانت بعض عصابات من أهالي البلاد تقاتل العرب في الاحاين ، وكان هؤلاء لا يسيئون معاملة الذين يدخلون في طاعتهم بدون مقاومة ويكفونهم القتال

ثم انه في سنة ٧٢٤ تولى امارة الأندلس غنيسة (ابن سحيم السكبي)^(٣) واجتاز جبال البيرانية بجيش جرار ، وأوغل في البلاد ، وفتح قرقشونة وأوقع بمن وجد فيها ، ثم فتح نيم واخذ من أهلها زهائن أرسلهم الى برشلونة^(٤) وقد كانت فتوحات غنيسة بحسب رأى ايزيدور الباجي فتوحات حذق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة ، ولذلك تضاعف في أيام غنيسة خراج بلاد الغال . وقيل ان غنيسة نفسه قد زاد الخراج على الأهالي ، ولا يظهر أن ذلك صحيح . وانما ازداد الخراج بتوفيره وبحسن تديره . ثم ان غنيسة وقع قتيلا في احدى الوقائع سنة ٧٢٥ خلفه في القيادة « حديرة » وجاءت الى هذا نجدات من الأندلس ، وعادت ربح الاسلام فبعصفت يبلاد النصرانية من كل جهة ، بحسب تعبير أحد مؤرخي العرب . فالسبتيانية الى حدود الرون و« الالبيجوا »^(٥) و « الرورغ »^(٦) و « الجيفودان »^(٧) و « الثبيلاي »^(٨) « صارت ميداناً لغارات العرب وشملها الخراب من كل جهة . وما لم يؤخذ بالحديد سلطوا عليه النار الى حد أن كثيرين

(١) استشهد رينو على ذلك بتاريخ نيم تأليف مينار Menard

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن الزويري

(٣) جاء في بغية الملتمس في « تاريخ رجال أهل الأندلس » ل احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة مايلي : غنيسة بن سحيم السكبي كان أمير الأندلس في سنة ١٠٦ من قبل بشر بن صفوان أمير افريقية في أيام هشام بن عبد الملك ومات سنة ١٠٧ وقيل سنة تسع . والله أعلم

(٤) نقل رينو هذا الخبر من مجموعة « مؤرخي بلاد الغال » عن تاريخ مواساك Moissac

Albigeois (٥)

Rouergue (٦)

Gevaudan (٧)

Velay (٨)

من الغزاة أنفسهم أكبروا هذا العيث الزائد في تلك البلاد . فانهم لم يكونوا يعفون عن شيء سوى الجواهر النفيسة والسلاح والخيول وكل ما يزدادون به قوة على قوة وأكثر ما شمل الخراب مقاطعة « روديس »^(١) فقد احتلّ العرب فيها حصناً يظنه بعضهم حصن « روكريف »^(٢) والآخرين حصن « بالاغيه »^(٣) وأخذوا يجتاحون جواره ولا يلقون مناهضاً ولا عرقاً نابضاً . وقد بقيت عندنا عن تلك النوازل شهادة رجل كان يقال له « دادون »^(٤) عندما زحف العرب خرج بسلاحه ومعه جماعة مسلّحون من أهل وطنه، فجاء العرب الى بيته ولم يجدوا فيه سوى أمه فأخذوها من جملة السبي، وعادوا الى الحصن الذي كانوا تبوأوه، فجاء دادون بسلاحه ومعه رفاقه، ووقفوا أمام باب الحصن، وطلب دادون تسليم أمه وقال انه ليس يبارح حتى ينقذها فأجابته واحد من العرب : إن شئت أن ترد عليك أمك فادفع الينا الجواد الذي أنت راكبه والا فاننا نذبح أمك أمام عينيك . فأجاب دادون وقد كاد الغضب يخرج منه من عقله : افعالوا بأمي ماتريدون فلا أسلم جوادى . عند ذلك جاء البربرى بأم دادون وقطع رأسها وألقاه من فوق الحصن إلى ما بين يدي ذلك المسكين . فعندما شاهد دادون رأس والدته كادت نفسه ترهق من الألم وأخذ ينتحب ويصيح : ياللا أخذ بالثار . ولكنه لم يكن يقدر أن يدخل الى الحصن . فذهب وقد خولط في عقله وانقطع عن الناس، وأقام على ضفاف وادي « دوردون »^(٥) في المكان الذي بنى فيه فيما بعد الدير المسمى بدير « كونك »^(٦)

وقد استشهد رينو على هذه الحادثة بقصيدة « ارمولس نيجلوس »^(٧) التي

Rhodés (١)

Roqueprive (٢)

Balaguier (٣)

Dadon (٤)

Dourdon (٥)

Conques (٦)

Ermoldus Nigellus (٧)

نشرها في موراتوري^(١) ثم الدون بوكيه^(٢) في مجموعة مؤرخي بلاد الغال، ثم المسيو بيرتس^(٣) في تاريخ الجرمانيين . وقد جاءت هذه الحادثة في البيت المائتين والسبعة من قصيدة « نيجلوس » وليس يوجد في القصيدة ولا في تاريخ دير « كوناك » ما يدل على السنة التي أغار فيها العرب على « رورغ » ولكن إذا عرفنا أن دادون مات في أواخر القرن الثامن علمنا الزمن الذي وقعت فيه هذه الحادثة . فأما دير « كوناك » فقد بقي قائماً الى زمان الثورة الفرنسية

ولنذكر حادثاً آخر يدل على ما بلغته من الفجائع تلك الغارات التي كان جانب عظيم من فرنسا مرزحاً لها، وهذا الحادث وقع في دير « موناستيه^(٤) » في جهات « فيلي^(٥) » فقد كان المسلمون اجتاحوا مقاطعات « بوي^(٦) » و « كليرمون^(٧) » وكنيسة « بريود^(٨) » ثم أشرفوا على دير « موناستيه » فجمع القديس « شافر^(٩) » رئيس الدير رهبانه، وأمرهم بأن ينسحبوا الى الحراج المجاورة، ويأخذوا معهم الاعلاق النفيسة والذخائر التي في الدير ويتواروا في البرية، الى أن يتأذن الله بالفرج وبأوقات أحسن فيعودوا فيها الى متبوئهم الأول . أما هو أي القديس المذكور فقد أجمع أن يبقى في الدير مهما كان البرابرة يريدون أن يفعلوا به، فان أمكنه أن يردهم الى الصراط المستقيم فذاك، وإلا فان قتلوه فيكون تردى بالأحمر من أثواب الشهادة . فأخذ الرهبان فيكون ويستغيثون راجين منه أن يذهب معهم الى البرية ويطلب النجاة

Muratori (١)

Bouquet (٢)

Pertz (٣)

Monastier (٤)

Velay (٥)

Puy (٦)

Clermont (٧)

Brioude (٨)

Saint Chaffre (٩) وكان يقال له أيضاً Saint Théofroi

كما يطلبون أو أن يتركهم يموتون معه . فأصرَّ القديس على كلامه وقال لهم إن اتقاء الخطر ضروري لا سيما إذا كان في السلامة فائدة للكنيسة . وضرب لهم مثلاً مسألة الرسول بولس الذي كان اليهود أعداؤه يقتصون أثره في دمشق للاقتصاص منه ، ففر منهم ونزل ليلاً في زنبيل تدلى به من عن سور المدينة وخلص نجياً . وكذلك بطرس رئيس الحوارين كان قد أجمع الفرار من وجه نيرون لو لم يكن سبق في إرادة الله توقيف خطواته . ثم قال لهم القديس : أما أنا فإني لست بذهاب من هذا الدير ، فإن من واجبات الراعي أحياناً أن يضحي بنفسه في سبيل خلاص رعيته ، وإني إن سال دمي هذه المرة فربما يسكن بانفجاره الغضب الإلهي الثائر بدون شك من خطايا البشر فلما رأى الرهايين تصميم القديس هذا لم تسعهم إلا طاعته ، وبعد أن سمعوا القداس وأخذوا معهم النفائس التي في الدير خرجوا إلى البرية، وتغلغلوا في الغابات ، ولكن انسلَّ منهم اثنان فصعدوا فوق رابية مشرفة على الدير ليشهدوا ما عساه أن يقع فيه . ولم يلبث العرب أن حضروا فوجدوا القديس « شافر » عاكفاً على الصلاة في زاوية من الدير، فلم يأبهوا له، وإنما أخذوا يطوفون في الدير أملاً بالعثور على شيء يغمونه، وكان مرادهم أن يثقفوا الرهبان وأن يأخذوا منهم أحدثهم سنّاً وأقواهم بنيةً ليبيعوهم في سوق النخاسين بالأندلس . فلما علموا أن الرهبان قد فرّوا بأسرهم وأنه لم يبق في الدير شيء من النفائس التي كانت تحذتهم أنفسهم بها استشاطوا غضباً وانهاوا على القديس بضرب مبرح

وكان في ذلك اليوم عند البرابرة عيد يقدمون فيه ضحية لله، ولم يقل المؤرخ الذي نقل عنه هذه القصة ما شكل تلك الضحية ؟ ولكنه يقول إنهم كانوا في ذلك العيد يشربون الخمر ويطنزون ، مما يدل على أن العصابة التي أغارت على كورة « فيسلاي » لم تكن عصابة مسلمة، ولكن عصابة بربرية لا يزال أهلها غائضين في لجج الوثنية . فلما رآهم القديس قد اتبذوا مكاناً للقيام بشعائر عيدهم جاء إليهم ونصح لهم بأنهم بدلاً من عبادة الشياطين يكون أولى بهم أن يعبدوا خالق الأكوان الذي لولاه لم يكن شيء في هذه الدنيا ، فلم يكن هذا الكلام ليقع منهم موقع القبول بل زادهم سخطاً

وجاء أحدهم فرماه بحجر فسقط على الأرض مغشيا عليه . ثم أراد البرابرة أن يحرقوا الدير ويدكوه الى الخبيث ، ولكن يقول المؤرخ أنهم بيناهم يهيمون بأن يفعلوا سلط الله عليهم ربحاً صرصراً عاتية وصواعق محرقة فاركنوا الى الفرار ، وتركوا الدير . ثم مات القديس بعد أيام قلائل من أثر الضرب ، بعد أن عاد الرهبان إلى ديرهم . ولا تزال الكنيسة تحتفل بعيد القديس « شافر » في ١٩ أكتوبر من كل سنة . وأما الدير المذكور فقد بق قائماً الى زمان الثورة الفرنسية الكبرى

ونظن أنه في ذلك العهد كانت قد وقعت غارة العرب على مقاطعة « دوفيني »^(١) وعلى مدينة « ليون »^(٢) وعلى بلاد « برغونيا »^(٣) وقد ذكر أحد مؤرخي العرب هذه الغزوات قائلاً : إن الله قد قذف الرعب في قلوب الكفار فلم يكن واحد منهم يقف في وجه المسلمين إلا لطلب الأمان ، ولم يزل المسلمون يتقدمون في البلاد ويؤمنون العباد الى أن وصلوا الى وادي « الرون » وهناك ابتعدوا عن السواحل وأوغلوا الى الداخل

وقد نقل رينو هذا الكلام عن المقرئ . ولكن إن كان الكلام الذي نقله هنا هو الوارد في النفح فان العبارة التي اطلعنا عليها هي هذه نقلان ابن حيان : إن موسى اصطالح مع طارق وأظهر الرضا عنه وأقره على مقدمته ، على رسمه ، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه ، فارتقى الى الثغر الأعلى وافتتح « سرقسطة » وأعمالها وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليها وغنمها الله تعالى ما فيه . وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح . وموسى يجي على أثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق للناس ما عاهدوه عليه . فلما صفا القطر كله وطأ من نفوس من أقام على سلمه ، ووطأ لأقدام المسلمين في الحلول به ، أقام

(١) Dauphiné مقاطعة من فرسة قاعدتها « غرينوبل » تتألف منها الآن ولايات « الازير »

و « الدروم » و « الالب » العليا

(٢) مدينة ليون الشهيرة وقد تقدم ذكرها

(٣) تقدم ذكرها أيضاً

لتمييز ذلك وقتاً، وأمضى المسلمين إلى أفرنجة ففتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأغلوا وانتهوا، حتى انتهوا إلى وادي «ردونة» فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطنهم من أرض العجم. وقد دوخت بعوث طارق وسراياه بلاد أفرنجة فملكّت مدينتي «برشلونة» و«أربونة» وصخرة «آيينون» وحصن «لودون» على «وادي ردونة» فبعدوا عن الساحل الذي منه دخلوا جداً انتهى

فهذه العبارة قد تقدم نقلنا إيها في الكلام عن موسى بن نصير وطارق .
رجع الى كلام رينو . قال :

ولا نعلم في الحقيقة الأمكنة التي أشرف عليها العرب ذلك اليوم الا بأخبار الاجتياح الذي وقع فيها، فانه في نواحي « فيين ^(١) » على ضفاف « الرون » أصبحت الكنائس والأديار كلها دكاً، و « ليون » التي يسميها العرب « لودون » رأيت أيضاً تخريباً عظيماً ككنائسها. وكذلك شمل العيث «ماسون ^(٢) » و« شالون ^(٣) » وكذلك « بون ^(٤) » حل فيها من العيث ما لا يوصف. ووصل العرب الى مدينة « أوتون ^(٥) » وأحرقوا كنيسة « سان ^(٦) نازير » وكنيسة « سان جان ^(٧) » ودير « سان ^(٨) مرتين ». وكذلك نهبوا دير « سين ^(٩) أندوش » في «صوليو ^(١٠) » وكذلك

(١) Vienne مدينة على وادي « الرون » تبعد ثمانين كيلو متراً عن «غرينوبل» الى الشمال الغربي

(٢) مدينة Maçon من مقاطعة الصاوون واللوار على مسافة ٤٤١ كيلومتراً الى الجنوب من باريز

(٣) قسبة Chalon على نهر الصاوون، على ٥٨ كيلو متراً من ماسون وهي غير مدينة شالون

على المارن

(٤) مدينة Bon على ٣٨ كيلو متراً الى الجنوب الشرقي من « ديجون »

(٥) مدينة Autun على مسافة ١٠٦ كيلو مترات الى الشمال الغربي من ماسون

Saint-Nazaire (٦)

Saint-Gean (٧)

Saint-Martin (٨)

Saint-Andoche (٩)

(١٠) Saulieu قسبة من ساحل الذهب من ولاية سيمور Semur

دمر العرب دير « بيز^(١) » بقرب « ديجون^(٢) ». وقد استشهد « رينو » على هذه الحوادث بتاريخ « مواسك » من مجموعة مؤرخي بلاد الغال وبتاريخ « الدون^(٣) بلائشه » المسمى بتاريخ برغونيا وبتاريخ « غاليا كريستيانا^(٤) » ويذهب بعضهم إلى أن غارات العرب قد امتدت إلى أبعد مما ذكرنا، وقالوا إنهم بثوا سرايهم إلى جهات نهر « اللوار » وأخرى بقرب « نيفير^(٥) » وأخرى إلى مقاطعة « فرانش^(٦) كونتى »

وقالوا إن دير « سان^(٧) كولومبان » قد دكه العرب في تلك الغزوة، وأنهم قتلوا أكثر الرهابين والقسيسين الذين صادفهم في « بيزانسون ». قال « رينو »: وليس في هذه الروايات شئ لا يقبله العقل ولا سيما ما تعلق منها بمقاطعة « فرانش كونتى » التي فيها أسماء وآثار عربية كثيرة. وقالوا أيضا ان الدير الذي في سفح جبال « الفوج^(٨) » المسمى بدير « لوكسول^(٩) » قد جعله العرب أيضا آثراً بعد عين، وذبحوا الرهابين الذين كانوا فيه تحت رئاسة القديس « ميلين^(١٠) ». نقل هذه الروايات « رينو » عن الأب « لكوانت^(١١) » ونقل أيضا عن « مايون^(١٢) » وقال: يظهر ان المسلمين لم يجدوا مقاومة

(١) Beze

(٢) Dijon قاعدة بلاد « برجونيا » على مسافة ٣١٥ كيلو متراً من الجنوب الشرقى من

باريس

(٣) Plancher

(٤) Gallia Christiania

(٥) Nevers

(٦) Franche-Comté مقاطعة في شرق فرنسا، قاعدتها « بيزانسون » تحتوى على ولايات

« الصاوون » العليا و « دويس » Doubs و « جورا » Jura

(٧) Saint-Colomban

(٨) Vosges

(٩) Luxeuil

(١٠) Mellin

(١١) Lecointe

(١٢) Mabilion

حقيقته إلا أمام مدينة «سانس»^(١) فان هذه المدينة كان فيها مطران ينتسب إلى عائلة نبيلة ، يقال له «ايول»^(٢) «اشتهر بالفضائل والكمالات حتى جعلوه في مصاف القديسين . فهذا المطران عندما سمع بإجفاف العرب قاصدين بلده بدأ بتحصين البلدة، وهياً أسباب الدفاع عنها، بحيث لما وصل العرب إليها وأخذوا يقذفونها بقذائف منجنيقاتهم كان أهاليها يرمونهم من أعلى الأسوار بأجزاء محرقة كانت تلتهب بها آلاتهم الحربية قال «رينو» : إلا أنه يعترضنا في هذه الروايات كون المؤرخين الذين ذكروها لم يصرحوا بأن أصحاب هذه الغارات كانوا من السرازين^(٣) ولائمة لفضلة تدل على أن الذين فعلوا هذه الأفاعيل هم مسلمون بدون شك ، بل كان المؤرخون يشيرون اليهم بقولهم «فندال»^(٤) وطالما كانوا يطلقون هذا الاسم في النصف الأول من القرن العاشر على الحجار عند ما جاء هؤلاء الى المانية ودخلوا الى فرنسا واكتسحوا «الازاس» و«اللورين» و«فرائس كونتي» و«برغونيا» و«شيبانيا» وغيرها

ثم يعود رينو، فيقول: إنه على كل حال قد تحقق مجي العرب إلى فرنسا وتغلغلهم في أحشاء البلاد وأنهم لم يكن لهم خطة مرسومة معينة في مغازيتهم ومراميتهم، وأنهم لم يجدوا في البداية من أهل فرنسا المقاومة واهية وعزما غير جميع . نعم تختلف فرنسا عن اسبانية في هذا الباب بأن اسبانية وجد فيها من انضم الى العرب وسعى بين أيديهم ودان بدينهم ، وأما في فرنسا فاذا استثنينا بعض أشخاص لا يعرفون معنى للدين ولا للوطن لم يوجد من الأهالي فئة كان لها شيء من الوجة والنبالة رضيت بأن تنحاز الى العرب أو أن تصبأ عن دينها، بل انه في وسط مدينتي أربونة وقرقشونة ، حيث أقام العرب مدة طويلة، بقى الاهلون متمسكين بدينهم المسيحي لا يرضون به بدلا

(١) Sens قصبة مقاطعة إفرنسية تسمى بوند «Yonnd»

(٢) Ebbon

(٣) Sarrazins وهو لقب المسلمين عند الإفرنج في ذلك الوقت

(٤) Vandales

وكان اود دوق اكيثانية طول هذه المدة منحرفا عن القتال، متجنباً للانفاس في الحرب، لأن غارات العرب كانت واقعة على أطراف بلاده ولم تكن في قلب البلاد مثل ذى قبل . وأما « شارل مارتل » فكان مشغولاً بمحاربة « الفرزيونيين » و « البافاريين » و « السقسون » الذين كان يخشى أن يعبروا عليه نهر الرين وينازعوه مركز سلطانه . وكان بينه وبين « أود » ما بين النظراء الذين يفص بعضهم بمكان بعض . فأما مؤرخو العرب الذين لم يكن لهم اطلاع على تلك المنافسات الداخلية بين ملوك الافرنج فعملوا سكوت « شارل مارتل » الذي كانوا يسمونه « قارله » عن مقارعتهم بالتعليل الآتى . قالوا :

إن كثيراً من أمراء الافرنج فزعوا إلى « قارله » وشكوا له الأضرار التي حلت بهم من عيث المسلمين في البلاد ، وأوضحوا له العار الذي يلحق بها من كون جيش كالجيش العربي ، مجهز بأسلحة خفيفة ، يتغلب على جيوش شائكة بانقل الأسلحة غائصة في الزرد إلى أعناقها كالجيوش الافرنجية . فأجابهم قارلة : دعوهم الآن يفعلون فانهم في إبان صولتهم أشبه بالسيل الذي يجرف كل ما يقف في وجهه ، وهم اليوم قد اتخذوا من جرأتهم دروعاً ومن اقدامهم حصوناً ، ولكنهم بعد أن تمتلئ أيديهم من الغنائم ، وبعد أن يألفوا نعيم الحضرة ويستولى الطمع عليهم فينافس بعضهم بعضاً ويدخل الشقاق في صفوفهم ، حينئذ ترحف إليهم وتتغلب عليهم وتترك جمعهم شريداً وقائمهم حصيداً . وقد نقل هذا الكلام « رينو » عن المقرئ صاحب النصح . ونحن راجعنا المقرئ فوجدناه يقول في آخر صفحة ١٢٨ من الطبعة الأزهرية المصرية مايلي :

وقال الحجاري في المسهب ان موسى بن نصير نصره الله نصرأ ما عليه مزيد ، وأجفلت ملوك النصارى بين يديه حتى خرج على باب الأندلس الذي في الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة ، فاجتمعت الفرنج إلى ملكها الأعظم قارلة - وهذه سمة للمكهم - فقالت له : ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من

جهة مطلع الشمس حتى أتوا من مغربها واستولوا على بلاد الأندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد، بجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لادروع لهم . فقال لهم مامعناه : الرأي عندي أن لا تعرضوهم في خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل من يصادره وهم في إقبال أمرهم ولهم نيات تغني عن كثرة العدد ، وقلوب تغني عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا في الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض فيئند يتمكنون منهم بأيسر أمر . قال : فكان والله كذلك بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمصرية واليمنية ، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الاعداء . انتهى

قلت : إن أعظم العوامل التي قضت برجوع بدر العرب كالعرجون القديم ، بعد أن كان تماما وأثار المشرق والمغرب ، تعود الى عاملين كبيرين : أحدهما الفتنة التي ذكرها صاحب المسهب بين الشاميين والبلديين ، فقد طال بينها النزاع وتحول الى فتنة صماء أوقفت سير الاسلام في أوربة بعد أن مشى فيها مشى النار في يابس العرفج . واهم من فتنة البلديين والشاميين فتنة العرب والبربر ، فقد أجمع المؤرخون من العرب والافرنجة على أن الحرب التي اصطلت بين المسلمين في شمالي اسبانية والتي تغلب فيها البربر على العرب وأخرجوهم بها من تلك الديار كانت هي السبب في انتهاز الافرنج والاسبانيول تلك الغرة اللامحة لاستئناف دولتهم وصولتهم وطردهم للمسلمين من شمالي اسبانية . وبعد ذلك عندما جمع العرب شملهم وكروا على البربر ووقعوا بهم ، انتقاما عما صدر من البربر من قبل ، استفاد الاسبانيول والافرنج فائدة كالفائدة الأولى ، واغتموا أيضاً مثل تلك الفرصة ، وقد كان أنسكى من الفتنتين المار ذكرهما فتنة القيسية واليمنية وواقعة شقنده المشهورة ووقائع أخرى كانت تشغل العرب بعضهم ببعض ، فيستأسد العدو في خلالها وينهض من ورائها فيكر عليهم ويسترجع منهم قلاعاً وحصوناً وحواضر عامرة . وقد شوهد أنه لما اشتدت الفتنة في قرطبة بين العرب والبربر في أيام الخليفة المستضعف هشام الثاني كان كل فريق من المسلمين يستعين بالاسبانيول ، وكان هؤلاء يشترطون للنجدة كذا وكذا من الحصون وكذا وكذا من المدن ، وكان أولو الأمر

في قرطبة ينزلون لهم عنها^(١). أما العامل الثاني الذي لم يكن يقل خطراً عن الأول فإنه ولوع العرب بالغنائم وحرصهم عليها الى الدرجة التي كانت سبباً في الهزائم، فإن الواقعة الكبرى التي وقعت بين عبد الرحمن النافق و «شارل مارتل» الذي يقول له العرب «قارله» كان سبب إديار العرب فيها وتملص أوربة من أيديهم هو شدة الخوف على الغنائم لا غير، فإنه لما تلاقى الجمعان أراد عبد الرحمن أن يأمر جيشه بترك الغنائم التي كانوا جمعوها حتى لا تبقى قلوبهم مشغولة بها عن القتال. ولكنه توجه خيفة أن يكسر بذلك من قلوبهم، فتفتت عزائمهم وتخبث نفوسهم، فأذن لهم في حفظ غنائمهم وهو كاره، فجعلوها وراء المعسكر وأعينهم فيها. وعلم بذلك الأفرنج ولخطوا شدة حرص العرب عليها، فلما سمى الوطيس زحف جانب من جيش الأفرنج من طريق آخر قاصداً المعسكر الذي فيه الغنائم، فانكفأ العرب عن ميدان القتال راجعين إلى معسكرهم الذي فيه

(١) قال ابن عذارى في البيان المغرب: قال ابراهيم بن القاسم: وكان أهل قرطبة على حل شدتهم وعظيم محنتهم لاجئين في الفتنة والتعصب على البربر، ومن ذكر الصالح قتل، حتى ان رجلاً من وجوه أهل العلم قال في الجامع: اللهم اصاح عاينا فقتل في مكانه. وقال آخر في الجامع: ان الله أحب الصالح وأمر به، فقتل في الحين. وجاءت امرأة من القرن فأوقعت قدراً فانكسرت فكانت سوداء فقالوا بربرية سوداء فقتلت «الى أن يقول»: وأتى رسل ابن مامة القومس زعيم نصرانته يستنجزون تسليم الحصون اليه على ألا يعزروهم ولا يتعرض لشيء من ثغورهم. فرضوا بهذا وحضر الفقهاء والعدول والقاضى وكتبوا كتاباً بذلك

قال: ولما وصل الرسل الى قرطبة حضر الفقهاء والقاضى والعدول وكتبوا كتاباً بالشروط وتسليم الحصون للنصارى وقرىء على الناس بمحضرة هشام (أى الخليفة) وواضح (أى الحاجب) وشهد فيه جميع من حضر وخرج القوم من القصر مستبشرين بما كان (تأمل كيف كانوا يستبشرون بتسليم الحصون الى الاسبانول بشرط أن يظاهروهم على البربر) فكان الذي صار لابن مامة جميع الحصون التي كان أخذها الحكم بن عبد الرحمن ومحمد بن أبى عامر وابنه المظفر، كل ذلك استخفافاً من هشام. هكذا ذكر الرقيق في كتابه.

قال: وسمع الله بن شاذبه أيضاً بما سلم الى الله بن مامة دونه من الحصون، فكتب يطلب حصوناً آخر وتوعد وتهدد، فأجيب الى ما سأل من ذلك وكتب بتسليمها اليه. وهذا كله لاجراً في ألا يصلح البربر اه

تلك الأسلاب ليدافعوا من دونها، ولم يبق في الميدان قوة كافية لصد السواد الاعظم من الجيش الافرنجى . وهكذا كانت تلك الهزيمة الكبرى في المحل الذى يسميه العرب بيلاط الشهداء ، ويسميه الافرنج بمعركة «بواتيه» . فأنت ترى أن «قارلة» عندما قال للافرنج قوله ذلك «دعوا العرب يملأون أيديهم» كان كأنه يقرأ في ظهر الغيب نعود الى سياق التاريخ بحسب رواية «رينو» فنقول :

وفي سنة ٧٣٠ تولى إمارة الأندلس عبد الرحمن «الغافقى» الذى خلف السمع بن مالك الخولانى في قيادة الجيش المحاصر «لطلوزة» عند مصرع السمع في المعركة، وكان عبد الرحمن هذا رجلاً صارماً عادلاً محبباً في جنده، لنزاهته ولعدم رغبته في حطام الدنيا لنفسه، وكان أيضاً محل احترام صلحاء المسلمين لمعرفة بالحديث النبوى ومصاحبته لأحد أولاد الخليفة عمر^(١)

(١) جاءت ترجمة عبد الرحمن الغافقى في كتاب بغية المنتس في رجال أهل الأندلس، لأحمد بن يحيى بن عميرة، كما يلى :

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى وهو العكي: أمير الأندلس، وليها في حدود العشر ومائة من قبل عبيدة بن عبد الرحمن القيسى صاحب افريقية . وعبد الرحمن هذا من التابعين يروى عن عبد الله بن عمر وروى عنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وعبيد الله بن عياض، استشهد في قتال الروم بالأندلس سنة ١١٥ حكى ذلك غير واحد . وكان رجلاً صالحاً جميل السيرة في ولايته كثير الغزو للروم عدل القسمة في الغنائم وله في ذلك خبر مشهور، أخبرنى أبو طاهر اسماعيل بن قاسم الزيات لقيته بفسطاط مصر، قال : أخبرنا الصادق بن مرشد بن يحيى بن القاسم المدينى سماعاً عليه ، أخبرنا على بن منير الحلال قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن احمد بن الفرج، أخبرنا أبو القاسم على بن الحسن ابن خلف قال : أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم قال : غزا عبد الرحمن يعنى ابن عبد الله العكى إفرنجية وهم أقاصى عدو الأندلس فغنم غنائم كثيرة وظفر بهم . وكانت فيما أصاب رجل من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزبرجد فأمر بهما فكسرت ثم أخرج الحس وقسم سائر ذلك فى المسلمين الذين كانوا معه . فبلغ ذلك عبيدة يعنى ابن عبد الرحمن القيسى الذى هو من قبله فغضب غضباً شديداً وكتب اليه كتاباً يتوعده فيه فكتب اليه عبد الرحمن : ان السموات والأرض لو كانتا رتقا لجلس الرحمن للمتمقين منها مخرجاً . انتهى . وسند ذكر فى متن الكتاب تسكلة أخبار عبد الرحمن الغافقى رحمه الله

وقبل أن نكمل ترجمة عبد الرحمن الغافقي التي ستنهى بواقعة بلاط الشهداء ينبغي لنا أن نكمل الخبر عن الفترة التي وقعت بين امارة عنبة بن سحيم الكلابي و امارة الغافقي ، فنقول : قال المؤرخ الاسبانيولى « كوندى » : إن أول عمل قام به عنبة هو تنظيم الخراج وتقسيم الأراضى بين المسلمين بدون تجاوز على الأراضى التي لها ملاكون أصليون من الأهالى ، فكان يستوفى العشر من الذين خضعوا للدولة العرب من أنفسهم ، ويستوفى الخمس ممن لم يخضعوا الا بالسيف . وهو الذى بنى جسر قرطبة (١)

وطاف عنبة فى المقاطعات ينظر فى مظالم الناس ويوزع بينهم العدل بدون تمييز بين الأديان . ثم إن أهالى « طرسونه » انتفضوا عليه فزحف إليهم ودوخهم ودك حصونهم ، واقتص من زعماء الثورة وفرض عليهم غرامة مضاعفة .

ثم أغزى جيوشه بلاد افرنجة ، فدمر وأحرق ونسف زروعا وأسر خلقا كثيرا ، وقيل إنه كان يكره هذا العيث فى بلاد العدو ، إلا أنه كان يدارى جنده ويحذر أن يتهم بفتور الحمية الاسلامية (٢) . قال « كوندى » : ثم انه فى ذلك الوقت خرج فى سورية نبى كذاب اسمه « زوناريا (٣) » كان يزعم أنه المسيح المنتظر عند اليهود : فلما سمع بخبره عرب الاندلس ، وكان كثير منهم من أهل الشام ، صدقوا مقالته هذه وتركوا الغنائم التي كانوا غنموها والمساكن التي كانوا ارتضوها ، وعادوا إلى سورية مجفاين ، فضبط عنبة الأملاك التي تركوها ، وحولها لبيت المال . ثم فى السنة التالية غزا عنبة بلاد فرنسة ورافقه النصر فى أول الأمر ، وما زال يقطع الأودية ويستقرى

(١) أكثر المؤرخين يقولون ان باني جسر قرطبة هو سلفه السمح بن مالك الخولاني ، ولعل عنبة أكمل بناءه بعد قتل السمح

(٢) لا شك أن الغافقي بمكانه من معرفة الشرع كان يعلم أن نسف الزروع وهدم البيوت وقطع الأشجار واستعمال النار كل ذلك مخالف لقواعد الحرب فى الاسلام ولو فى بلاد العدو وقد نص على ذلك الأئمة بالصراحة ، وغاية ما شدد الشددون منهم هو أنه يصح اذا بدأ به العدو ولم تبق للمسلمين حيلة الا بمقابلاته بالمثل

(٣) Zonaria وهذا الخبر الذى رواه كوندى ، ونقله عنه ، رينو لم نسمع به حتى الآن وهو من أغرب ما سمع من الأخبار . ونظن أنه ان كان له أصل فيكون فى المجتمع اليهودى لا المجتمع الاسلامي

البسائط حتى عبر نهر «الرون» الى الشرق، ولكنه وقع في إحدى الوقائع مثخناً
بجراحات كثيرة، مات على أثرها، وذلك سنة ١٠٦ للهجرة. وقبل أن مات استخلف
حديرة الفهري، فلم يشغل هذا المنصب الا مدة يسيرة، لأن أمير افريقية أرسل أميراً
على الأندلس يحيى بن سلمة^(١). وكان هذا قائداً مجرباً محباً للعدل صارماً جداً في
اعطاء الحقوق لأصحابها، فهابه المسلمون والمسيحيون معاً. وبينما كان يطوف في الولايات
الشمالية انتهز أعداؤه الفرصة فطلبوا من أمير افريقية عزله فأجابهم إلى ماسألوا وأرسل
أميراً على الأندلس عثمان بن أبي نسعة^(٢) وكان عثمان هذا مشهوراً بالبسالة والنجدة
والبصيرة بالحروب، فتولى الامارة واضطلع بها، ولكن وجد أصحابه فيه عوداً صليماً وقناة
لا تلين لغامر ولم يحققوا فيه آمالهم، ولا هو عرف لهم جميل سعيهم في تأميره، بل رأوا
منه ما أمض وأرمرض، فما زالوا يسعون به كما سعوا بسلفه حتى حملوا الخليفة هشاماً على
صرفه بمخديفة بن الأحوص^(٣) فلم يبق هذا إلا قليلاً، وعاد أمير افريقية فولى على
الأندلس عثمان بن أبي نسعة نفسه، ولكن ولاءه وكيلاً لا أصيلاً، إلى أن قدم من
دمشق بأمر الخليفة المهيم بن عبيد الكنانى^(٤) وكان المهيم شامياً ولكنه كان فظاً بخيلاً
جاسياً، فأسف شيوخ العرب والبربر وساءت ملكته فيهم، فاتحدوا عليه فالتقى بهم في
السجون وأهلك بعضهم

(١) في فتح الطيب أن يحيى بن سلمة الكلابي أفضده بشر بن صفوان الكلابي، والى افريقية، لما
استدعى منه أهل الأندلس والياً بعد مقتل عنبسة فقدمها آخر سنة ١٠٧ وأقام في ولايتها سنتين
ونصفاً.

(٢) الافرنج يسمونه «مونوزه» Munuza وهكذا جعلوا ابن أبي نسعة محرفاً إلى «مونوزه»
ويقول «رينو»: ان كلا من الافرنج والعرب يعرفون أسماء بعضهم حتى تنكر على الانسان أصلها
(٣) في فتح الطيب أن عثمان بن ابى نسعة اللخمي قدم والياً من قبل عبيدة بن عبد الرحمن
السلمي صاحب افريقية وعزله لخسة أشهر بمخديفة بن الأحوص القيسي

(٤) في فتح الطيب يقول إنه قدم من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي أمير افريقية وأنه وصل
في الحرم سنة ١١١ وغزا أرض مقوشة فافتتحها وتوفي سنة ١١٣ لسنتين من ولايته. وقدم بعده
محمد بن عبد الله الأشجعي فولى شهرين. ثم قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي من قبل عبيد الله
ابن الحجاب صاحب افريقية فدخلها سنة ١١٣ وغزا الإفرنجية الخ.

وكان من جملة المنكوبين زياد بن زيد فرفع الشكوى الى الخليفة ، هو ومن معه ، واتهموا الهيثم بأنه يسير في الأندلس سيرة لا مناص من أن تنتهي بيوار الأمة والخطوب المدهمة، فأرسل الخليفة هشام محمد بن عبد الله، وفوض إليه أمر التحقيق عن الشكاوى الواقعة بحق الهيثم، وأذن له بأنه اذا ثبت لديه كونه الهيثم مجرمًا يعزله ويقتص منه ويتبدل به الأمير الذي يراه الأصلح ، فجاء محمد هذا ومضى بالتحقيق اللازم على أحسن وجه . وعند ما ثبت لديه إجرام الهيثم ألفاه في السجن واطلق الذين كان نكبتهم ورد عليهم أموالهم . ويقال إنه قبل أن نفي الهيثم من الأندلس الى افريقية أمر بتطويفه في شوارع قرطبة راكباً على حمار ، تشهيراً له ونكالا وفقاً وبعد ذلك فوض محمد بن عبد الله بالامارة الأمير عبد الرحمن العافقي فاستحسن الجميع تولية عبد الرحمن العافقي لما كانوا سبروا من نجاحته ومن مزاياه العالية . ولم يشذ عن الجمهور الا عثمان بن أبي نسعة الذي كان يرى نفسه أولى بالامارة، فتولى عبد الرحمن سنة ٧٢٨ وفق ١١٠ (هنا فرق ثلاث سنوات عن رواية فنجح الطيب) . وكان متوفر العناية باقامة العدل ورفع المظالم واتباء الحقوق أصحابها . ولأجل أن يتمكن من تسكين الدهماء وارضاء الجمهور بقى سنتين يطوف على بلد بلديباشر اماطة المظالم وازاحة العلل بنفسه غير مميز بين المسلم والسيحي، وعزل كثيراً من القواد والولاة الذين ثبتت مظالمهم للرعية وكذلك أعاد الى المسيحيين الكنائس التي كانوا انتزعوها من أيديهم والتي كان لهم الحق بها وفقاً للعهود ، كما أنه هدم الكنائس التي كانوا أخذوا الاذن فيها بالرشوة خلافاً للعهود .

ولم يكن يهدأ له بال الا بغزو فرنسة حتى يدوخها ويضمها الى إمارته أو يضم منها البلدان التي كانت من قديم الزمان تحت حكم القوط . فحشد جيشاً جراراً من نخبة المقاتلة والصابرين في الحروب، واستنجد أمير افريقية فأرسل اليه بجنود مختارة للجهاد، تتلظى شوقاً الى الجلال . ولما وصلت نجدة أمير افريقية سرحها عبد الرحمن إلى الدروب، وبعث الى عثمان بن أبي نسعة أمير الثغر بأن يشاغل العدو بالغارات الى أن يكون هو قد أطل بمعظم الجيش . فوقع من عثمان على باقعة شديدة البأس كان بدون هذا ينافس عبد الرحمن على الامارة ولم يكن مرتاحاً الى عمل يبدأ به عبد الرحمن وينال

به حسن الذكر . وقد انضاف الى هذا السبب في كراهيته لتلك الحرب أنه في إحدى غاراته على فرنسا وقعت في يده ابنة « أود » دوق ا كيتانية، ويقال إنها كانت تسمى « نوميرانسه^(١) » ويقال ان اسمها « مينين^(٢) » ولكنها كانت مشهورة باسم « لامبيجييه^(٣) » وكانت بارعة في الجمال مع مكانها من بيت الملك ، فهام عثمان بها حباً وتزوج بها كما تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير بالأميرة « ايجيلونة^(٤) » أرملة الملك « لذريق» فمن بعد أن أصبح عثمان بن أبي نسهه صهراً لدوق « ا كيتانية» عقد مع أبيها معاهدة سلم ومهادنة أمن بها «دوق ا كيتانية» غارات العرب ولو الى مدة من الزمن . فلما ورد أمر الأمير عبد الرحمن الغافق الى الأمير عثمان بن أبي نسهه بالزحف على بلاد حميه « دوق ا كيتانية » وقع في حيص بيص ، وراجع الأمير قائلاً له إنه لا يقدر أن يخفر جواره ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء أجله . وكان عبد الرحمن قد عرف بزواج عثمان مع ابنة « أود » وانه قد شغفه حبها فغضب من تلكؤ عثمان عن الزحف، وأفهمه أن ذلك العهد الذي كان عقده مع الافرنج بدون علمه لا يعده هو موثقاً له، وأن عليه أن يتحرك للجهاد بدون مراجعة. فلما قطع عثمان أمه من منع عبد الرحمن عن أعمال الغارة في بلاد « أود » أرسل الى حميه يخبره بما وقع^(٥) حتى يأخذ حذره ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع ، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان . فأرسل جيشاً الى الباب تحت قيادة ابن زيان، انتخبه من أصدق رجاله ، وأمره بأنه إن تمكن يقبض على

Numérance (١)

Minine (٢)

Lampégie (٣)

Egilone (٤)

(٥) كان العرب يطلقون لفظة الباب على بلدة واقعة في أحد منافذ جبال « البرانه » أو « البرانس » والمؤرخ « كوندى » يظن انها مدينة « بوى سردا Puy Gerda » وهذا الرأي موافق لرأى المسيو « شينييه » Chenier الذى يقول ان عثمان بن أبي نسهه كان أميراً في « سرده » ويقوله آخرون إنه كان في الطرف الغربى من مقاطعة « روسيون » Rousillon في المحلل الذى يقال له « سردانه » وهو قرية صغيرة لا تبعد عن « بوى سرده » وكانت تابعة لاسبانية برغم كونها محاطة

عثمان بن أبي نسعة ويرسله إليه، وان أبي الطاعة يهدر دمه . فوصل ابن زيان بعسكره بفتة الى مقر عثمان، وهو ينوى القبض عليه، ففر هذا في الجبال ومعه بعض أعوانه واستصحب أيضاً زوجته الأميرة «لمبيجيه» التي كان لا يفارقها ولا يرى الدنيا إلا بها، فسار الجيش في اثره حتى أدركوه وأحاطوا به، فتفرق عنه أصحابه في تلك الأوعار ولم يبق معه سوى زوجته الحسناء، فدافع عن نفسه وعنهما دفاع الأسود حتى أردوه قتيلًا، وفي جسمه ما لا يحصى من طعن وضرب، فاحتزوا رأسه وأتوا به وبالأميرة الحسناء الى الأمير عبد الرحمن . فلما رأى عبد الرحمن هذه الغادة هتف قائلاً : والله ما كنت أظن أنه يوجد مثل هذا الصيد في جبال البرانس . وقد وقعت هذه الواقعة سنة ٧٣٠ وفق ١١٣ ثم إن الأمير عبد الرحمن أرسل الأميرة الى دمشق هدية للخليفة، وهكذا انتهت حياة الأميرة «لمبيجيه» ابنة دوق « ا كيتانيا » في حرم الخليفة الأموي في الشام ^(١) ولما وصل خبر مصرع عثمان الى دوق « ا كيتانية » علم أن الحرب واقعة لا محالة وتأهب للدفاع الشديد، ولكن الجيش العربي اندلق من جبال « البيرانه » اندلاق السيول من الجبال، لا يقف في وجهه شيء، فاكسح الأرضين من « نافارا ^(٢) » الى « بوردو ^(٣) » وامتلاّت أيدي المسلمين بالغنائم . ولما وصلوا الى « بوردو » حاول أهلها أن يدافعوا عنها فكسروهم وأخذوا البلدة عنوة ووضعوا السيف فيها ونهبوها .

بأرض فرنسة . وكان الى شمالي هذه القرية على جبل منفرد في حذاء « البيرانه » حصن قديم فيظن بعضهم أن هذا الحصن هو الذي كان يقيم فيه أمير الباب من قبل العرب

(١) قال المسيو « دومارليس » صاحب الحواشي على تاريخ « كوندى » الاسبانولي: إن هذه الواقعة هي السبب في قول المسيو « شينيه » Chenier بأن المسلمين يعتقدون أن أحد خلفائهم تزوج بأميرة إفرنسية . قالت: وليس هذا القول خطأ لأن « أود » دوق « ا كيتانية » أي ملك بلاد الغال في عصره كان ينتسب الى « كلوفيس » أول ملوك فرنسة

(٢) Navarr هي مملكة في شمال اسبانيا كان العرب يقولون لها « نافارا » وأحياناً « نبرا »

(٣) Bordeaux مدينة عظيمة في غرب فرنسة على مسافة ٣٧٨ كيلو متراً الى الجنوب الغربي من باريس، وهي قاعدة مقاطعة « الجيروندي » التي كان العرب يقولون لها « جيرندة » وكانوا يقولون لمدينة « بوردو » بورديلي

وكان الأهالي الذين وقعوا في اليد يفتدون أنفسهم بالمال . وأما أمير «بوردو» فقد قتل في المعركة .

وبعد أن انتهى عبد الرحمن من فتح بوردو تقدم الى الشمال فوجد دوق «اكتانية» في طريقه يحاول صدّه في مضيق «دوردون»^(١) غير أن حملات العرب لم يكن ليصدها شيء ، فانهزم «أود» وفر بجيشه ، وقطع أمله من ملكه ، فتناسى جميع ما كان بينه وبين «شارل مارتيل» من الأحقاد والضغائن ، وأرسل يستصرخه ، فلم يمكن «شارل مارتيل» أو «قارله» إلا إجابة «أود» لا لأجل الإنسانية فقط بل لأجل السياسة ، إذ كان جميع مصير فرنسة والممالك المجاورة لها متوقفاً على نتيجة هذه الحرب فلو كان العرب تغلبوا ذلك اليوم على الأفرنج لما كانوا وقفوا الا على ساحل البلطيق

فامتد الصريح في كل بلاد فرنسة وزحفت المقاتلة من كل صوب ، وانضم الجميع تحت لواء « شارل مارتيل » وبقي العرب يتقدمون الى أن وصلوا الى قريب من مدينة « تور »^(٢) وهناك علم عبد الرحمن الغافقي أن جيشاً عظيماً زاحف لمصادمته ، وكان عبد الرحمن مع شدة بأسه وغرامه بالحرب عاقلاً حازماً بصيراً بالعواقب ، ففكر ساعة فيما بين أيدي رجاله من الغنائم الثقيلة وعلم ما يعوقهم عن القتال من اهتمامهم بحفظها ، فهم باعطاء الأمر الى الجيش بترك جميع ما في أيديهم من الغنائم والأسلاب ، ولكنه خاف من إغضاب عسكره فيما لو حملهم على تجرع هذه الكأس المرة ، إذ قد تفتت همتهم وتلقس نفوسهم ، فرجع عن عزمه هذا معتمداً على ما كمن في نفوسهم من شجاعة وصبر ، ثم تقدم وحصر « تور » وأخذها عنوة بمشهد من جيش « شارل مارتيل » وخيم بساحتها . ولما دخل العرب المدينة أسرفوا في القتل والنكابة . ثم تلاقى الجمعان بين « تور » و« پواتيه »^(٣) وكان عبد الرحمن هو البادئ بالناجزة فاستمرت

(١) Dordogne والمؤرخ « كوندى » الاسبانولى يقول إن هذه الواقعة حصلت على وادى « الغارون » ولكن « دومارليس » الذى حشى كتاب « كوندى » يقول إن أكثر المؤرخين الأفرنسين يجعلونها في مضيق « دوردون »

(٢) Tours من مدن فرنسة المشهورة واقعة على نهر « اللوار »

(٣) Poitiers مدينة على مسافة ٣٣٢ كيلو متراً إلى الجنوب الغربى من باريس

المركةمدة طويلة، قبل أن يترجح النصر للافرنج. ولما رأى عبدالرحمن الخلل قد ابتدأ يظهر في صفوفه ألقى بنفسه في وسط المعركة يصطليها بيده، ودخل حتى بين صفوف الأعداء أنفسهم، يغامر مغامرة الجندي الذي هو من عرض الجند، الى أن خر هناك صريعاً، فلما رأى العرب مصرع قائدهم الأكبر نزل بهم الرعب ونكسوا على أعقابهم وبنكوصهم خمدت جمرتهم وسقط في أيديهم، فأذرع الافرنج فيهم القتل وطحوا منهم بالعراء أوفاً وما زالوا يعملون في أقتيتهم السلاح الى «أربونة»^(١)

فلما وصل خبر هذه الفاجعة الى الأندلس والى افريقية زلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وعم الحزن واشتد البث ولبس المسلمون أثواب الحداد، فأسرع أمير افريقية بارسال عبد الملك بن قطن الفهري، خلفاً لعبد الرحمن الغافقي، وأنفذ معه جيشاً من خيل ورجل

(١) يقول المسيو «دومارليس» في حاشية كتاب «كوندى»: ان المؤرخين من الافرنج لم يتفقوا على تعيين يوم هذه الواقعة ولا على محل نشوبها. فبعضهم يقول إنها وقعت في ٧ أكتوبر سنة ٧٣٢ وبعضهم مثل «كوندى» يقول انها وقعت سنة ٧٣٣ وأما العرب فانهم أوثق رواية عن يوم وقوعها، لأن هذه الحادثة المشؤومة على الأمة العربية، التي كانت سبب توقف سير قوتها والتي سقط فيها رجل من أعظم قواد العرب في التاريخ، كانت عندهم من أشد الوقائع نكابة بهم لحفظوا جيداً تاريخ وقوعها. فالعرب يقولون إنها وقعت سنة ١١٥ للهجرة. قلت: يريد «دومارليس» أن يقول إنها وقعت سنة ٧٣٣ ولكن الذي في نفع الطيب يخالف هذا إذ يقول إنها وقعت في رمضان سنة ١١٤ أي وفق سنة ٧٣٢.

قال: بقي مكان الواقعة. فبعض المؤرخين من الإفرنج مثل «فيللي» Velli يجعل وقوعها على خمس مراحل من «تور» والآخرون يقولون بل جرت بقرب «بواتيه» ومؤرخو العرب يذكرون انها نشبت على ضفاف نهر «أوار» Ovvar وربما قصدوا بذلك نهر «فين» Vienne الذي ينصب في اللوار. ويقول العرب إن سبب الهزيمة هو أنهم كانوا وضعوا الغنائم في الخيم وراءهم فانحرف فريق من الإفرنج وهاجموا المخيم فخاب العرب على الغنائم التي فيه. وبينما المعركة في أشد معانها ترك جانب كبير من فرسانهم ساحة الحرب ورجعوا لحماية الغنائم ورجوعهم هذا خفت كفتهم في ميدان القتال حيث كان منتصباً الميزان وكان أقل شيء يمكنه أن يرجح الكفة الواحدة على الكفة الأخرى. فعبد الرحمن كان حسب لفضيلة الغنائم هذه حساباً كبيراً وخاف أن تسكون سبب بوار العرب ذلك اليوم فوقع فيما خاف منه

وبعث الى الخليفة بدمشق يعلمه بفاجعة بلاط الشهداء وقتل الأمير عبد الرحمن الغافقي وبأنه أنفذ عبد الملك الفهرى مكانه وجرده معه جيشاً، فوافق الخليفة على عمل عامله وشمر للأخذ بالثار وأمر بغزو بلاد فرنسة وأخذها بالسيوف من كل ناحية، فسار عبد الملك الفهرى وفي نيته أن يأخذ بذحل المساهين ويحجر الكسر الذى وقع، ولكن هيهات فقد كان بلغ بالمساهين اليأس مبلغه وذهب كل كلام القائد فى استنهاض همهم سدى وسار منهم مع عبد الملك جيش الى فرنسة لكنهم ساروا بصدور غير منسرحة وآمال غير منفسحة . وكيف يقاتل جيش تعوزه القوة المعنوية . فانهزم جيش عبد الملك فى جبال « اليرانه »

وأخيراً أرسل الخليفة مكانه عقبة بن الحجاج (السلولى) وكان اشتهر ببسالته وحسن تدييره فى حرب البربر بافريقية فوصل إلى الأندلس ، وانتعشت به الآمال بما كان عليه من زكاء السيرة والعدل وسداد التصرف ، فبدأ بعزل العمال الذين عسفوا الرعية وحبس الذين غلوا من أموال الدولة أو قاموا بجبايات غير شرعية ، وانتصر للضعفاء واقتص لهم من الأقوياء، وأمر الولاية بتجنيد فرق من الجند أرصدها لاستئصال قطاع الطرق، وأسس كثيراً من المدارس والمساجد، على نفقة الدولة، وخصص لها الخدمة الكثيرين. وكان لا يميز فى المعاملة بين أصناف رعيته . وبالإجمال فقد كان عقبة هذا كامل العدالة تام الرجولية لا يجد قائل فيه مطعناً . ثم نظر فى سيرة سلفه عبد الملك الفهرى فلم يجد عليه ما يؤاخذ به، فجعله أميراً على الخيالة، وأرسله الى الثغر. وكان فى نية عقبة أن يزحف الى فرنسة بجيش جرار^(١) امتثالاً لأمر الخليفة ، ولكن لما وصل الى « سرقسطة »

(١) وأما فى فتح الطيب فيقول ان عقبة بن الحجاج السلولى تولى من قبل عبيد الله بن الحجاج فأقام خمس سنين محمود السيرة مجاهداً مظفراً حتى بلغ سكنى المساهين « أربونة » وصار رباطهم على نهر « ردونة » ثم وثب عليه عبد الملك بن قطن الفهرى سنة احدى وعشرين فخلعه وقتله . ولكن المؤرخ كوندى الاسبانولى لا يروى الحوادث على هذه الصورة بل يقول انه فى غياب الامير عقبة فى افريقية وقع الخلل فى إدارة الاندلس وصار كل أمير يعمل بما يعين له ووقعت الفوضى ولم يكن غير عبد الملك الفهرى من يعرف أن يحفظ النظام فى جيشه وأن يسد الثغور . وفى ذلك الوقت انتهز الاشتوريون فرصة هذه الفوضى بين العرب وخرجوا من جبالهم وطرادوا العرب الذين يلونهم.

جاءه الخبر بأن البربر في افريقية ثاروا عوداً على بدء، وأمره أمير افريقية بأن يتولى قيادة الجيش الثائر للتنكيل بهم وأن يعبر البحر الى طنجة ، وهكذا اضطر عقبة أن يعدل عن غزو فرنسة وأجاز الى طنجة واشتدت به عزائم العرب في افريقية وكانت هذه الواقعة سنة ٧٣٧ مسيحية وفق سنة ١٢٠ هجرية . وفي آخر هذه السنة توفي « بيلاي » بطل « استورية » الذي كان هو وحده بنفسه نواة المقاومة بما يقى من قوة الاسبانول في وجه العرب بعد أن استصفي هؤلاء جميع اسبانية واخنوا على ملك المسيحيين بها ، فانه بطائفة قليلة من رجاله لم يزل يفر في جبال « استورية » من صخرة إلى صخرة إلى أن اعتصم بمغارة جعلها مركز قوته المنيعه ، ولم يبرح معتصماً بذلك الغار يشن منه الغارات على الأطراف القريبة منه وهو بمنجاة من العرب ، حتى وسع رقعة إمارته وما زالت تتسع شيئاً فشيئاً إلى أن صارت إمارة مذكورة ثم مملكة ثم تغلبت هذه المملكة بعد عدة قرون على جميع إسبانية وأخرجت العرب من كل أوربة . وسندكر في الجزء التالي جميع ما يتصل بنا علمه من خبر « بيلاي » هذا ، وكيفية نشوء إمارته ونمو أعقابه إلى أن استرجعوا جميع وطنهم بعد ثمانية قرون ولنعد الآن الى تاريخ « رينو » عن غزوات العرب في فرنسة ، ولنمهد لكلامه بما يلي :

واقعة بلاط الشهداء

قبل الدخول في شرح هذه الواقعة وأسبابها وما قيل فيها أرى أن أترجم للقاري

وتقدموا صوب بلاد المسلمين فزحف عبد الملك اليهم بمجيئه وهزمهم واضطروهم الى الرجوع من حيث أتوا . ثم بعد ثلاث سنوات كانت استمرت بها ثورة البربر الى أن دخلوا في الطاعة عاد عقبة ابن الحجاج الى الاندلس فوجد الولاة في أسوأ حل وليس هناك أمير كفؤ للإمارة نأتم بالواجب عليه غير عبد الملك الفهرى فكتب اليه عقبة أنه لا كان طراً عليه مرض أصبح لا يقدر معه على الإمارة فقد كتب الى الخليفة بأن يوليه مكانه . وهكذا كان . ومات عقبة في قرطبة وبكاه الجميع بدون استثناء نظراً لحسن سيرته

بطل هذه المعركة عبد الرحمن الغافق العربي و « شارل مرتيل » الا فرنجي الذي يسميه العرب « قارلة » وأذكر خلاصة خبرها، فيكون ذلك أعون على فهم الواقعة والحوادث التي أدت إليها ونشأت عنها .

« فشارل مرتيل » هو ابن « بين ديريستال ^(١) » مولده سنة ٦٨٩ كان أتهمه أبوه بقتل أخيه الذي كان من غير أمه فاعتقله في كولونية ^(٢) وما زال إلى أن مات أبوه بين سنة ٧١٤ في الاعتقال فثار الأسترازيون أي أهالي القسم الشرقي من المملكة الميروفنجية الا فرنجية بتلك الدولة وجعلوا شارل (أو كارل أو قارله) دوقاً عليهم وتغلبوا به على أهالي القسم الغربي من المملكة بعد وقائع متعددة سنة ٧١٦ وسنة ٧١٧ إلى سنة ٧١٩ وعند ذلك اضطر الملك « شيلبريك » الثاني أن يتخذ شارل حاجباً فتسلم زمام الأمور واستبد بها وصار مع الملك « شيلبرك » الثاني والملك « تيتري » الرابع كما كان المنصور بن أبي عامر في الأندلس مع الخليفة الأموي هشام أو كما كان عز الدولة ابن بويه أو ابن عمه عضد الدولة بن بويه مع الخليفة الطائع العباسي أو كما هو المقيم العام الذي تجعله إحدى الدول الاستعمارية من قبلها في هذا العصر بجانب أحد سلاطين الاسلام ممن ليس له من السلطنة الا الاسم . هذا ومن ذلك الوقت أخذ شارل يمهّد البلدان التي تليه ويدوخ الشعوب التي في جواره فقهر السكسون والبافارين وغيرهم من الألمان وكذلك كان « أود » دوق اكيثانية قد هاجمه فحره .

ولكن لم يبلغ تلك الشهرة التي بلغها ولم يلقب بشارل مارتيل أي المطرقة الا بعد أن ظهر على العرب في واقعة « پواتيه » أو بلاط الشهداء . جاء في « المعلة التاريخية الا فرنسية لغرينوار وموريس فال ^(٣) » ما يلي : وكان العرب استولوا على اسبانية وسبتيانية وتهددوا بلاد الغال والنصرانية كلها وهزموا « أود » دوق اكيثانية فاستصرخ هذا شارل فزحف شارل إلى العرب على رأس جيش الأسترازين

Pepin D'heristal (١)

Cologne والالمان يقولون كولن (٢)

Dictionnaire Encyclopédique Par L. Gregoire et Maurice Vahl (٣)

والمقاتلة التي جاءت من وراء الرين ، فانتصر على الأمير عبد الرحمن انتصاراً عظيماً بين «تور» «وبواتيه» سنة ٧٣٢ ويقال إنه بعد هذه الواقعة تلقب بمارتيل ، وهي لفظة معناها المطرقة . ثم إنه بسط الملك الافرنجي على البلاد التي يسقيها نهر الصاوون ونهر الرون ، ودخل سبتيانيا ، وطرد العرب من نيم ومدن أخرى ، لكنه لم يقدر على أربونه التي تم فتحها فيما بعد على يد ابنه بين القصير . انتهى .

ومات شارل مارتيل سنة ٧٤١ ولم يسمح لأحد من الملوك الميروفانجيين بشيء من الملك ولا بلقب الملك ، وترك سبعة أولاد ذكور ، أشهرهم بين وكارلومان ، فتقسم هذان المملكة بينهما

أما عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي فهو أمير الأندلس . كان مع السمح بن مالك الخولاني في غزاة طولوزة بحسب رواية «رينو» ولما استشهد السمح رحمه الله في تلك الغزاة تولى عبد الرحمن قيادة جيش العرب الغازي للفرنجة ، وقفل به الى الأندلس وآلت إليه الامارة فيما بعد . وقد ذكرنا في حاشية متقدمة ترجمة الأمير عبد الرحمن المذكور نقلاً عن بغية الملتس لابن عميرة . ولنذكر الآن شيئاً عن نسب هذا الرجل العظيم فنقول :

يقال له الغافقي نسبة الى غافق وهي قبيلة من الأزدي وهو ابن الشاهد بن عك ابن عدنان بن عبد الله بن الأزدي . وقيل بل هو غافق بن الحارث بن عك بن الحارث ابن عدنان واليهم ينسب الحصن المعروف بغافق في الأندلس على مسافة مرحلتين من قرطبة . وجاء في تاج العروس ان لهم خطة أيضاً بمصر . وذكر ياقوت في معجم البلدان غافق ، فقال : إنها حصن بالأندلس من أعمال غنص البلوط منها أبو الحسن علي بن محمد بن الحبيب بن الشماخ الغافقي كان من أهل النبل وتولى الأحكام ببلدة غافق مدة طويلة قدر ٦٥ سنة ومات سنة ٥٠٣ . وقال المقرئ في نفع الطيب : إن غافقا هو ابن عك بن عدنان بن أزان بن الأزدي ، قال ابن غالب : من غافق أبو عبد الله بن أبي الخصال الكاتب . وأكثر جهات شقورة ينتسبون الى غافق . انتهى

قلت : ومن العلماء المعروفين المنسوبين الى غافق عبدالعزيز بن علي بن عيسى بن سعيد

ابن مختار الغافقي أبو الأصبع المعروف بالشقوري المتوفى سنة ٥٣١ ترجمه ابن بشكوال
في الصلة وابن الأبار في التكملة

ومنهم عبد الرحمن بن بشر بن الصارم الغافقي أبو سفيان وفد على سليمان بن
عبد الملك ورجع الى الأندلس فاستشهد بها في قتال الروم، روى عنه بكير بن الاشج
وعبد الرحمن بن شريح

ومنهم أبو بكر محمد بن أبي عامر بن حجاج الغافقي الاشبيلي وهو الذي جاور
بالمدينة المنورة وقال :

لم يبق لي سؤال ولا مطلب مذصرت جاراً للحبيب الحبيب
لا أبتغي شيئاً سوى قربه وها أنا منه قريب قريب

جاء ذكره في نفع الطيب

ومنهم أبو عبد الله محمد بن فطيس الغافقي الألبيري الزاهد : كان من أهل الحديث
والضبط رحل إلى المشرق وسمع من شيوخ كثيرين وعاد إلى البيرة وطنه وتوفى بها
في شوال سنة ٣١٩ عن تسعين سنة، ورد ذكره في النفع أيضاً .

ومنهم محمد بن عيسى بن دينار الغافقي من أهل قرطبة كان فقيها زاهدا حج
وحضر افتتاح أقريطش « أي جزيرة كريت » واستوطنها. قاله الرازي .

ومنهم اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع بن عبد الله الغافقي : من
أهل بلنسية أصله من جيان وسكن المرية ثم مالقة يكنى أبا يحيى ترجمه صاحب نفع
الطيب، وقال : إنه كتب لبعض الامراء بشرق الأندلس وله كتاب سماه « المغرب في
أخبار محاسن أهل المغرب » جمعه للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار
المصرية بعد أن رحل اليها من الأندلس سنة ستين وخمسمائة وتوفى بمصر سنة ٥٧٥ .
ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد السلام الغافقي الاشبيلي الشهير بالسليبي : رحل
حاجا وقل إلى بلده. ذكره صاحب النفع .

ومنهم أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن خصيب بن احمد بن حزم الغافقي :
أندلسي سكن دمشق وتولى بها الحسبة وسمع بمصر وبغداد وطرابلس ودمشق وغيرها

كان مالكي المذهب لكنه كان يميل إلى مذهب المعتزلة ، قال المقرئ : ما سمعت بمالكي معتزلي غير هذا . توفي سنة ٤٠٤ ذكروه ابن عساكر .

ومنهم أبو أمية ابراهيم بن منبه بن عمر بن احمد الغافقي من أهل المرية نزل مرسية وتولى القضاء والخطبة فيها وحدث بصحيح البخاري آخر الحجة سنة ٥٥٥ ذكروه صاحب النفع . ومنهم غير هؤلاء من الأعلام

وأما عبد الرحمن الغافقي ، أمير الأندلس ، فقد ذكر المقرئ في النفع نقلاً عن ابن سعيد أنه كان من التابعين تولى إمارة الأندلس في حدود العشر ومائة وهو من أبطال الاسلام المدودين . كل ما ذكره المؤرخون من أخباره يدل على أنه كان من أفذاذ الرجال ، جمع إلى الشجاعة والإقدام العدل في الأحكام والسهر على مصالح الأنام وبعد النظر في السياسة

قال المؤرخ « رينو » إنه كان مهتماً بأخذ ثار المسلمين عن الغزوات التي أصيبوا فيها في السنين الأخيرة قبل إمارته . وكان يفكر في حملة شديدة على فرنسة يدوخ بها هذه الملكة ثم يجتاز منها إلى ايطالية فألمانية فالقسطنطينية ويدخاها في حكم الاسلام . ولما كانت الحماسة الدينية في ذلك الوقت في إبان غلبانها ، وكانت الأندلس وفرنسة الجنوبية يخرج ~~أراضيها~~ أراضيها واعتدال هوائهما أصبحتا مقصداً للعرب من جميع الجهات ، وكان يأتيها كل يوم رجالات أشداء من جزيرة العرب ومن جبال الأطلس ، فقد كان الأمير عبد الرحمن الغافقي يمرن هؤلاء المجاهدين على استعمال السلاح ويثير فيهم نخوة القتال وكان مقامه بقرطبة ولكنه بقي مدة يطوف في الأندلس وينظر في مظالم العباد ويقتص من القوي للضعيف ويعزل الولاة الذين حادوا عن جادة الاستقامة ويتبدل بهم ولاة معروفين بالعدل والنزاهة . وكان يعامل المسلمين والمسيحيين على السواء تقريباً . وعلى كل حال لم يكن يخرج في معاملة المسيحيين عن العهود المعقودة معهم

وفي تلك الأيام كان المسلمون يوالون الغارات من أربونة وقرقشونة على البلدان المجاورة لهما ، ولكن حصل حادث نفس من خناق المسيحيين بعض الشيء ، وذلك أن

القائد الذي كان في سردانة من جبال اليرانية كان بحسب رواية ليزيدور الباجي ولذريق شمينيس أحد أحلاس الحرب الإفريقيين الذين بالاتحاد مع العرب فتحوا الأندلس. وكان يسمى « مونوزه » وكان من ذوى البطش والشبا المرهوب وكان في مبدأ أمره صارماً جداً في معاملة المسيحيين وأحرق حياً أسقفاً اسمه « أنامبادوس » فلما وقعت الحرب بين البربر والعرب مال بطبيعة الحال الى قومه البربر واتحد مع « أود » صاحب جنوبي فرنسا الذي لأجل أن يتمكن منه أزوجه ابنته المسماة « لمبيجيا » وكانت فتاة بارعة في الجمال ^(١) بلغت شهرة عظيمة

وقد روى « كوندى » الاسبانيولى هذه الحادثة بشكل آخر نقلا عن مؤرخى العرب ، فجعل « مونوزه » هذا محرفاً عن عثمان بن أبى نسعة ^(٢) الذى تولى إمارة الأندلس مرتين، وكان ينافس عبد الرحمن النافقى على الامارة ويرى نفسه أولى بها . وروى « كوندى » أن ابن أبى نسعة هذا أصاب هذه الأميرة فى إحدى غزواته فسابها فى من سبا وهام بجبها نظراً لجمالها واتحد من أجلها مع « أود » أبيها، ثم لما حمله عبد الرحمن على شن الغارات فى بلاد إفرنجة اعتذر « مونوزه » أو ابن أبى نسعة بوجود مراعاة الميثاق الذى بينه وبين « أود » فلم يقبل عبد الرحمن منه هذا العذر وأصر عليه بالتعبية والزحف، فأسرع ابن أبى نسعة بتحذير حميه « أود » ليكون على أهبة ضامنة فى وجه عبد الرحمن، فأرسل عبد الرحمن نخبة من جنوده إلى « اليرانية » وأمرهم بالقبض على ابن أبى نسعة حياً أو ميتاً . فلما رأى هذا نفسه لا يقدر على الوقوف أمامهم فرمعه زوجته الحسنة الى الجبال ، فتأثروه الى حيث ثقفوه ، وتغلبوا عليه واحترقوا رأسه وأرسلوا بالرأس الى دمشق . وكذلك أرسلوا الى دمشق الأميرة « لمبيجيا » التى دخلت

(١) ذكر رينو أن بعض مؤرخى ذلك العصر اتهموا اود بأنه هو الذى دعا العرب إلى فرنسا . وهو وغيره يظنون أن هذه التهمة باطلة وان الذين كتبوا ذلك كانوا من أنصار شيلد براند أخى شارل مارتل وأنصار شارل وكلهم كانوا يريدون الوقعة باود

(٢) عثمان بن أبى نسعة هو عربى لخمى كما يظهر من كتب العرب . وهو الذى تزوج بابنة « اود » أمير بلاد الغال بحسب رواية « كوندى » الاسبانيولى ومؤرخى العرب . فأما ما يقوله « رينو » من أن صهر الأمير « اود » لم يكن عربياً وإنما كان بربرياً اسمه « مونوزه » فلم يقل على أى شئ استند فى هذه الرواية ولا ذكر شيئاً من تاريخ « مونوزه » هذا الذى سماه .

في حرم الخليفة . روى هذه الحادثة أيضا ايزيدور الباجي ولوذريق شيمينيس ، ثم روى أن المسلمين الذين كانوا في جنوبي فرنسا كانوا قبل واقعة « پواتيه » غزوا مدينة « أرل »

قال « رينو » : وقد أشار مؤرخو العرب الى هذا الحصار بدون تسمية هذه المدينة ولكن بوصفهم اياها بأنها مبنية على ضفاف نهر كبير هو أكبر نهر في تلك البلاد كانت تصعد به السفن من البحر . ويظن بعض مؤرخي الافرنج ان حملة العرب على مدينة أرل لم تكن الا خدعة يقصدون بها صرف نظر الافرنج عن وجهة الحرب الحقيقية وهي الجهة الشمالية . فان عبد الرحمن بعد أن لبث نحواً من سنتين ، يتأهب للزحف ويكتب الكتائب ويعي الجنود، توجه الى جبال البيرانيه . وكان جيشه جراراً يرجّ الارض ويهتز شوقاً الى القتال . والأرجح أن مروره من هناك وقع في ربيع سنة ٧٣٢ وقد جعل طريقه على أرغون ونابارة ودخل أرض فرنسا من أودية « بيغور^(١) » و « بيرن^(٢) » يستدل على ذلك من آثار التدمير التي وقعت في تلك الديار فقد هدم العرب الكنائس والأديار مثل دير « سان سافين^(٣) » بقرب « طارب^(٤) » ودير « سان سيفر دورستان^(٥) » في « بيغور » وخرّب العرب « آير^(٦) » و « بازاس^(٧) » و « اوليرون^(٨) » و « بيرن » وكذلك دير « سانت كروا^(٩) » بقرب بوردو . ثم افتتحوا بوردو^(١٠) عنوة . وأقبل اوددوق اكيثانيا بجموعه محاولاً صدّهم في ممر

Bigorre (١)

Béarn (٢)

Saint - Savin (٣)

Tarbe (٤)

Saint - Sever - De - Rustan (٥)

Aire (٦)

Basas (٧)

Oleron (٨)

Sainte-Croix (٩) أي الصليب المقدس

Bordeaux (١٠)

دور دفاون^(١) نهزم. وكان عدد قتلى المسيحيين من الكثرة بحيث أن المؤرخ ايزيدور الباجي^(٢) قال : ان الله تعالى وحده يقدر أن يحصيهم . فلما رأى أود أن لا طاقة له بالثبات أمام العرب استصرخ شارل مارتل الذي كان في ذلك الوقت يدافع عن مملكته فاستجاش عصائبه القديمة من جهات الدانوب والالبا^(٣) والاوقيانوس. ثم ان العرب بعد أن ظفروا بأود أوغلوا حتى وصلوا الى بواتيه وأحرقوا دير « سانت إيميلين^(٤) » وكنيسة « سانت إيلير^(٥) » في بواتيه

قال رينو : انه بلغت حماسة العرب في تلك الغزوة أن بعض مؤرخيهم شبههم بريخ صرصر ، تقتلع كل ماجاء أمامها ، أو بسيف ماض يقطع كل ما يصادمه . وكان العرب قد وضعوا نصب أعينهم مدينة « تور » التي كان فيها دير « سان مارتين^(٦) » المشهور بنفائسه . وهناك تلقى العرب خبر قدوم شارل مارتيل بجيوش الافرنجة . فقلما ذكر التاريخ معركة لها مابعد ما مثل هذه المعركة . فكان المسيحيون من جهة يذبون عن دياتهم وأوضاعهم وأملاكهم وأنفسهم ، وكان المسلمون من جهة أخرى معتقدين أيضا أنهم انما يقاتلون في سبيل الله ، خلا ما كان يهمهم من حفظ الغنائم التي في أيديهم ، قال رينو : ان مؤرخا عربيا روى ان عبد الرحمن كان في آخر الأمر في خوف شديد من لهو جيشه بالغنائم الكثيرة التي كانوا يجرونها في أثناء زحفهم ، وانه قد فكر في حملهم على تركها في أرضها لئلا تشغلهم عن القتال فتكون عليهم وبالا ، لكنه لم يشأ - وهو في مأزق كذلك المأزق - أن يعيظهم ويخسر توجه قلوبهم . وبقي واثقا بشجاعتهم ويمن نقيته في القتال . فكان لتردده هذا تلك النتيجة المشؤومة . وقد روى هذا المؤرخ العربي أن العرب هاجوا مدينة تور ،

Dordogne (١)

(٢) تقدم ذكر هذا المؤرخ

(٣) الدانوب معلوم . ونهر الالبا هو نهر شبير في المانية

Saint - Émilien (٤)

Saint - Hilaire (٥)

Saint - Martin (٦)

بمراى من شارل مارتل ، وأنهم انقضوا مثل النور الكاسرة على أهلها فذبجهم ذبح الشياه مما لاشك أنه قد أغضب الله تعالى فعاقبهم بنكال قريب . أما مؤرخو المسيحيين فكانت رواياتهم عن هذه المعركة قاصرة ولم يذكروا شيئاً عن أخذ العرب لمدينة تور . وقد بقى الجيشان يرابط كل منهما الآخر مدة ثمانية أيام ، وبعد مناوشات ليست بذات بال أجمع الجيشان على الوقعة الفاصلة . وبحسب هذه الرواية العربية تكون الوقعة قد حصلت بقرب تور . وهذا هو رأى لذريق شيمينيس الذى كان يروى عن مؤرخى العرب . وأما مؤرخو الافرنجة فأكثرهم يذهبون الى أنها وقعت فى احدى ضواحي « بواتيه » ويستدلون على ذلك من الآثار المحفوظة فى دير مواساك . ومن الممكن الجمع بين الروايتين . وذلك بأن يقال ان بداية المعركة حصلت بقرب تور وأنها انتهت بقرب بواتيه . وقد كان ذلك فى شهر اكتوبر سنة ٧٣٢ بحسب رواية بعضهم . وكان المسلمون هم الذين بدأوا القتال ، وكان الفرنج قادمين من حروب اتسق لهم فيها النصر ، فكانت حماستهم تغلى مراحلها ويزيدها فيهم وجود شارل مارتل الذى كان كلما ظهرت ثلثة خف وسدّها بنفسه . وقد هاجم المسلمون بخفة حركاتهم على سروات الخيل مهاجمات شديدة ، يحاولون بها خرق صفوف الافرنج فكانوا يجدون أمامهم صفوفاً أشبه بالجدران فى ثباتها ، فكانت تتكسر عليها حملات العرب ، فاستمر القتال أول يوم طول النهار ولم يحجز بينهم سوى الظلام . وفى اليوم التالى تجدد القتال ورخصت النفوس فى سوق المنايا وحمل المسلمون حملات اليائسين اذ لم يكونوا ينتظرون من الافرنج مثل هذا الثبات ولكنهم لم ينالوا منهم وطراً . وبينما كانوا يضاعفون حملاتهم اذ أغارت فرقة من الافرنج على معسكر المسلمين يظن ان قائدها كان اود دوق اكيثانية ، فلما رأى المسلمون غارة جانب من الافرنج على مخيمهم اشفقوا على الغنائم التى كانوا حازوها فتركوا المصاف وانكفأوا الى الخيم ليستخلصوه من أيدي الافرنج . وعند ذلك هرع عبد الرحمن يرد المنكفئين ويسوى الصفوف ، فذهب اجتهاده عبثاً ، وأصابه سهم من جهة العدو فخر صريعاً . وعند ذلك وقع الفشل فى صفوف المسلمين ، لكنهم تمكنوا من تخليص مخيمهم من أيدي الأعداء وان كانوا فقدوا كثيراً من رجالهم . وأقبل الظلام فخال بين الفريقين . وكان مراد شارل

مارتل الكر على العرب عند الصباح ، الا أنه عندما أصبح الصباح لم يجد منهم أحداً . وذلك أنهم لما رأوا ما حل بهم سروا في أحشاء الليل وانحازوا إلى الورا قاصدين جبال اليرانه . وكان مسراهم من السرعة بحيث أنهم تركوا خيامهم منصوبة وغنائمهم مطروحة في الأرض

ولما رأى شارل مارتل أن العدو أقلع بقضه وقضيضه وزع على عساكره ما وجدته في تخيم العرب من الغنائم المركومة ، ولكنه لم يتأثر العرب في طريقهم وهم قافلون . وعللوا ذلك بأنه خشي أن يكون انكفاؤهم إلى الورا استدراجا ومكيدة ، أو أنه قد أمن بعد هذه الواقعة على مملكته وأصبح لا يخشى عليها شراً . فذلك قطع نهر اللوار ، راجعا إلى الشمال ، مفتخرًا بما أحرزه من النصر الباهر . ومنذ ذلك اليوم لقبوه بمارتيل (أى المطرقة) سموه بها لمتاتته ولما سد به بنفسه من الثلم التي كانت تقع في جيشه ولا يمكن قبول روايات بعض مؤرخي المسيحيين الذين أوصلوا عدد المسلمين الصرعى في تلك المعركة إلى ثلاثمائة وستين ألفا ، فان المسلمين ذلك اليوم لم يسقطوا كلهم صرعى ، وما كان من الممكن جمع جيش مؤلف من خمسمائة ألف مقاتل في تلك الأيام وقد كانت الحروب الداخلية المستأصلة للرجال لا تنقطع . ثم على فرض الحال وأنه كان ممكنا حشد فيالق جرارة كهذه فكيف كان يمكن إيجاد الميرة اللازمة لهذه الفياق الجرارة في البلاد التي تمر فيها وقد كانت خربت تقريبا من توالى الغارات والرزايا . نعم لا ينكر أن هذا الجيش الذى قاده عبد الرحمن الغافق ، تلك النوبة ، كان أعظم جيش وأحمس جيش قاده العرب الى وطننا الجميل ، وأنه كان قد هب للحرب كالريح المرسلة ، وأدل دليل على ذلك هو كون فرنسة بأجمعها جمعت ذلك اليوم جموعها وجاءت بالشوك والشجر لمقابلة ذلك الجيش العربى المغير ، وأن هذه المعركة لا تزال حتى اليوم شاغلة أعظم موقع في أذهان جميع الاوربيين

وأما مؤرخو العرب فلم يكونوا يعلمون من تفاصيل تلك المعركة الفاصلة أكثر مما عرفه مؤرخو الافرنج . وغاية ما ذكر العرب أن عدداً كبيراً من رجالهم استشهدوا في بلاط الشهداء وهو الاسم الذى أطلقوه على تلك الواقعة . ويقولون انه لا يزال يسمع هناك دوى خفى هو ضجيج الملائكة الذين ينزلون من السماء للصلاة في ذلك المكان

المقدس على الشهداء الذين لقوا فيه ربهم
قال المستشرق رينو : وبعد هذه الهزيمة انكفأ فل الجيش العربي الى البيرانه مدمراً
كل ما مر به ومن جملة ذلك دير سولينياك^(١) . وقيل ان الافرنج عند ما انكفأ العرب
أعملوا في أقتيهم السلاح الى أن بلغوا أربونة . ولا يظهر أن هذه الرواية متينة^(٢) وقد
كان تأثير هذه الهزيمة مختلفاً جداً بين المسلمين والمسيحيين ، فالمسيحيون استجدوا عزائمهم
واستأنفوا صراهم ، وهبوا في جبال البيرانه للأخذ بالثأر ، واعتقدوا أن الله عاد معهم
يؤيدهم على أعدائهم . والمسلمون استولى عليهم الوهل ونزل الوهن بعزائمهم وأخذ الأتقياء
منهم يقولون ان ما حل بهم من الاديبار بعد الاقبال انما كان جزاء وفاقا من الله تعالى
على استرسالهم في معاصيهم وامعائهم في ركوب أهوائهم

وكان النائب في الامارة الذي تركه عبد الرحمن الغافقي في قرطبة قد طير الخبر
بهزيمة المسلمين في بلاط الشهداء الى القيروان والى دمشق . فارتعض الخليفة لهذا الخطب
وأرسل أميراً على الأندلس اسمه عبد الملك^(٣) وجهز معه جيشاً وأمره بالأخذ بثأر
المسلمين وشفاء صدور المؤمنين واستنفاد الوسع في هذا الأمر . فأقبل هذا الأمير على
الأندلس ، يحاول رتق الفتق ورفو الخرق ، واغذ بجيشه الى البيرانه ، وأخذ يخطب في
الغزاة والمرابطة ويشدد من عزائمهم ويجدل سواعد المسلمين ويحبك من مرأرهم ويبين
فضائل الجهاد وعلو رتبة الاستشهاد ، إلا أن كل هذه الخطب في المجاهدين لم تفعل فيهم
الفعل الكفيل برأب ذلك الصدع . وكان نصارى شمالى اسبانية وجنوبى فرنسة قد
رفعوا رؤسهم بعد هذه الوقعة ونبذوا الى المسلمين على سواء . وروى مؤرخ من مؤرخى
العرب أن جيشاً من الفرنسيس قطع وقتئذ البيرانه واستولى على بانبلونه وجيرونه
أما الأمير عبد الملك فاعمل الحركة أولاً الى كتالونيا واراغون ونافار^(٤) ثم تقدم

(١) Solignac

(٢) بل الأظهر أنهم رجعوا من بلاط الشهداء والعدو خائف أن يظأ أذيالهم لشدة ما كان لهم

من الرعب في قلوب الافرنج

(٣) هو عبد الملك بن قطن القهرى

(٤) كتالونيا هى بلاد الكتالان التى قاعدتها برشلونه . واراغون هى مملكة شمالى اسبانية

الى الشرق . ونافار هى من البلاد المجاورة لأراغون والعرب يسمونها نابرا وأحياناً نبرونه

الى بلاد اللندوق^(١) وحصن المدن التي كانت منها في أيدي المسلمين ، ثم أبعده المغار في بلاد العدو . وكانت بلاد « السبتيانيا » و « بروفانس » في حالة الفوضى تقريباً . وكان كل ذى طمع فيها قد انفرد بامارة واستأثر بزعامة . وكان بعض من هؤلاء الزعماء ينضون تحت جناح دوق أكيثانية والآخرين يتفياؤون في ظل شارل مارتل ، وذلك مصانعة لكل منهما ، ولكنهم كانوا في الحقيقة انما يريدون الاستقلال باماراتهم . وكثيراً ما كانوا يتحدثون يدأ واحدة مع المسلمين الذين كانوا في أربونة ، وذلك ليتقوا بأس أولئك الملوك الكبار . ومن هؤلاء الأمراء « موروند » الذي كان يلقب بدوق مرسيلية والذي كان يده أكثر مقاطعة بروفانس

وفي تلك المدة كان شارل مارتل مشغولاً ببسط سلطته على برغونية وعلى مقاطعة ليون ، حيث كان المسلمون قد شنوا الغارات واهرجوا البلاد وأمرجوها ، ثم انه زحف لقتال « الفرizon^(٢) » فشغلوه أيضاً عن قتال المسلمين

وفي سنة ٧٣٤ اتفق يوسف أمير أربونة العربي مع موروند دوق مرسيلية وزحف المسلمون بجيش جرار ، وعبروا نهر الرون واستولوا على مدينة « آرل » ونهبوا أديار الرسل والعدراء^(٣) وهدموا قبر سان « سيزير^(٤) » ثم تقدموا إلى أواسط بلاد البروفانس ، وحاصروا مدينة « فريتا » المعروفة اليوم « بسان ريمي^(٥) » واستولوا عليها ، وساروا منها نحو « آفينيون » وعبثاً حاول مقاتلة « آفينيون » صد المسلمين في ممر « دورانس^(٦) » فان المسلمين ذللوا كل العقبات . وكانت « آفينيون » في ذلك الوقت عبارة عن الصخرة التي بنى عليها فيما بعد قصر الباباوات ، وهو السكان الذي كان مؤلفو العرب يسمونه بصخرة أبنيون . وقد بقي المسلمون في ذلك الوقت أربع سنوات

(١) Languedoc

(٢) Frisons شعب جرمانى كان ينزل بين بحر الشمال ونهر الراين الأدنى

(٣) Couvents des Saints- Apôtres et de la Vierge

(٤) St- Gésaires وقد روى رينو هذا الخبر عن تاريخ « غاليا كريستيانيا »

(٥) Fretta, aujourd'hui St Remi

(٦) Durance

محتلين بلاد « بروفانس^(١) » وكان « أود » دوق أ كيتانيا قد توفي سنة ٧٣٥ بجاء شارل مارتل واستولى على بلاده وخضع له أولاد الدوق المذكور وأما الأمير عبد الملك^(٢) فبعد أن أهب الله له ريح النصر في هذه الغزوات بأرض فرنسة، عاد إلى جبال اليرانية ، لتدويخ الأهالي الباقين على العصيان ، فصادفته أنواء وأمطار وهو في جبال وأوعار فوقعت عليه هزيمة . وعندما بلغ الخليفة ما أصابه قلده إمارة الأندلس أميراً غيره اسمه عقبة^(٣) ولم يبق في يد عبد الملك سوى إمارة المقاطعات التي في جوار اليرانية

وكان عقبة هذا رجلا يتقد حمية على الاسلام ويرى في الجهاد قرة عينه . ويقول مؤرخو العرب إنه اختار إمارة الأندلس حبا بالجهاد والرباط . وكان اذا وقع في يده أسير من المسيحيين لا يهمل أن يعرض عليه الاسلام . وفي أيامه حصن المسلمون جميع المواقع التي أمكنهم تحصينها في بلاد اللندوق ، حتى ضفاف نهر الرون ، وشحنوها بالمقاتلة. وفي ذلك الوقت أعادوا المغار كما بدا على بلاد «دوفينييه^(٤)» فخرّبوا بلدة «سان بول» المعروفة بالثلاثة القصور و «دوزير^(٥)» واحتلوا «فلانس^(٦)» وأصبحت جميع الكنائس المجاورة لمدينة « فيين^(٧) » على ضفتي الرون قاعا صافصفا

(١) قد ذكر المستشرق رينو في حاشية كتابه نصوص التواريخ التي تخبر عن هذه الواقعة وهي باللاتينية كاللايني لأنها كانت لغة الكتابة في ذلك العصر . فن هذه النصوص ما نقله عن تاريخ دير «مواساك» «Moissac» ومجموعة مؤرخي فرنسة «Recueil des Historiens de France» وتاريخ بروفانس للمؤلف بابون «Papon» وذكر أيضا لتأييد خبر الوقائع التي جرت بين العرب والافرنج على ممر «دورانس» كتابة لاتينية كانت في كنيسة بقرب «بونبا» «Bonpas»

(٢) أي عبد الملك بن قطن القهري الذي سبق ذكره

(٣) هو عقبة بن الحجاج السلولى الذي تقدم ذكره أيضاً

(٤) «Dauphiné» مقاطعة في شمالي « بروفانس » وغربي « سافوا » وشرقي « ليون » تقدم ذكرها

(٥) « Saint - Paul - Trois Chateaux et Donzere »

(٦) مدينة على نهر الرون «Valence»

(٧) «Vienne» مدينة على الرون أيضا

وكان المسلمون للاخذ بأثر جيشهم الذي قهره شارل مارتل في بلاط الشهداء قد احتلوا مدينة ليون من جديد ، وبثوا الغارات منها على بلاد «بورغونية» فأخذ شارل مارتل يتأهب لقتالهم ، وقد كان واقفه الحظ من جهة الشمال والشرق حيث سكنت الثورات التي كانت نائرة عليه ، فصرح أخاه « شيلد براند^(١) » بجيش إلى ليون ، وأرسل يستصرخ «لويتبراند^(٢)» ملك «اللومباردين» في ايطالية ليوافيه بجيش لقتال المسلمين الذين كانوا البواحد مع موروند دوق مرسلية وقد تمكنوا من جبال «دوفينه» و «بييمونت^(٣)» . فجاء شيلد براند (أخو شارل مارتل) وحاصر المسلمين في آفينيون واستعمل في حصارها الآلات المعروفة لذلك العهد ، وتبعه شارل مارتل نفسه بجيش جديد ، وجاء لويت براند ملك اللومباردين بجيش آخر من ايطالية ، فاستولوا على آفينيون عنوة واستأصلوا من بها من المسلمين . وتقدم بعد ذلك شارل مارتل صوب أربونة وكان فيها أمير يقال له بحسب تلفظ المؤرخين القدماء أتيا^(٤) وكانت مواصلات مسلمي الأندلس مع مسلمي سبتيانيا أكثرها من طريق البحر نظراً لكون أهالي جبال البيرانية المسيحيين حائلين بين الفريقين . فلما وصل الخبر إلى عقبه بأن شارل مارتل قد ضيق الحصار على أربونة أرسل جيشاً في البحر لنجدة هذه البلدة ، تحت قيادة رجل يقال له عامر^(٥) فلما عرف شارل مارتل بمجيء هذا الجيش الجديد جاءه بغتة قبل أن يتأهب للقتال فأخذ المسلمون على غرة وكانت هزيمتهم تامة . وقتل أميرهم ولم ينج منهم الاقل قليل خلسوا إلى مراكبهم وآخرون وصلوا إلى « أربونة » . ولكن برغم هذا كله لم يتمكن شارل مارتل من أخذ « أربونة » وصعرت له خدوها . وفي تلك الأيام جاء الخبر بأن الفريزون والسكسون أشعلوا الثورة من جديد ، فاضطر شارل أن يرحل عن « أربونة » ولكنه قبل رحيله خرب القلاع

Ghildebrand (١)

Luitprand (٢)

Piemont (٣) هي اليوم اسم البلاد الواقعة في شمالى ايطالية

(٤) لعلاه الهيثم

(٥) روى ذلك ايزيدور الباجي

التي كانت في « بيزيه ^(١) » و « أقد ^(٢) » ودمر أبواب مدينة « نيم ^(٣) » الشهيرة وقسما من الملهى الرومانى الذى كان فيها خوفاً من أن يتحصن به العرب . وكذلك دمر مدينة « ماجلون ^(٤) » وأخذ المسلمين الذين فيها أسارى ومعهم أيضاً أناس من المسيحيين أبقاهم رهائن عنده

ولا يمكن أن يقال إن جميع أهالى جنوى فرنسة كانوا يحبون شارل مارتل، ولو كان قد دفع عن النصرانية غارات المسلمين، لأن هؤلاء الأهالى كانوا ينظرون الى هذا الرجل وقومه كبرابرة من أهل الشمال بينما هم يرون أنفسهم أمة ذات مدينة قديمة من زمان الرومانيين . ولا نزاع فى أن المسلمين كانوا قد خربوا الكنائس والأديار وما يخصها من الأراضى، ولكن شارل مارتل عندما جاء ودفع عادية المسلمين عن تلك البلاد لم يرد تلك العقارات على الرهبان والأساقفة، بل وزعها على رجال الحرب من أنصاره، فبقيت الكراسى الأسقفية خالية . ويقال إن « فيليكارىوس ^(٥) » مطران « فيين » بعد أن خرج المسلمون من البلاد لم يرجع الى أسقفيته، نخلو الكرسى مما يقوم بأوده، فذهب الى « فاله ^(٦) » حيث جعلوه رئيساً لدير « سين موريس ^(٧) » وكان الأخبار ورجال الدين يؤولون هذه المصائب بأنها عقاب صبَّه الله تعالى على هام

(١) Béziers مدينة على القناة المسماة بقناة الجنوب، ذات آثار قديمة، سكانها خمسون ألفاً

(٢) Agde مدينة على الضفة الشمالية من نهر هيرولده، كانت احدى المدن السبع التى نسبت اليها

مقاطعة سيتيانية التى معنى اسمها السبجية

(٣) Nimes مدينة مشهورة فى جنوى فرنسة ذات آثار رومانية عظيمة

(٤) Maguelon مدينة على البحر كانت ترفأ إليها سفن المسلمين الواردة من الأندلس

وإفريقية

(٥) Wilicarius

(٦) Valais

(٧) Saint-Maurice فى سويسرة . وسبأنى ذكر هذا الدير الذى أحرقه العرب

العباد تنبيهاً لهم للرجوع الى طريق الفضيلة^(١) . ولم يغفل الأخبار ورجال الدين من أناس تعلقوا بشارل مارتيل الذي تولى كبر دفع المسلمين عن أوربة ، وأشهر هؤلاء «هيناروس» مطران «أو كسير^(٢)» الذي كان يحارب في جيش شارل مارتيل بنفسه ويقاثل المسلمين في البيرانه وهو في ثوب الأسقفية

وكان موروند دوق مرسيلية قد فر هارباً من وجه شارل مارتل، وبقي متوارياً الى أن غادر شارل مارتل جنوبي فرنسا عائداً الى الشمال . فلما ذهب شارل مارتل شمالاً ظهر موروند من مخبأه، ووجد علاقاته مع المسلمين، وقاموا بعمل واحد، فبلغ الخبر شارل مارتل وفي سنة ٧٣٩ زحف الى الجنوب ومعه أخوه شيلدربرند واستولى على مرسيلية. ومن ذلك الوقت أصبح المسلمون في أربونة لايجرؤون على عبور نهر الرون

وليست عندنا معلومات يوثق بها عن كيفية معاملة المسلمين لأهالي مقاطعة بروفانس، ويجوز أن يكون اتفاقهم مع موروند قد جعلهم أقل ضغطاً على بلاده مما كانوا في غيرها . ولكن زلت على بلاد بروفانس و «لانغدوق» مصيبة ثانية وهي غارات المسلمين البحرية التي كانت سواحل جنوبي فرنسا دائماً عرضة لها

وكان المسلمون في أول الأمر لا يحبون ركوب البحر، ولكن بعد أن فتحوا سورية ومصر وافريقية اضطروا الى استعمال الأساطيل البحرية . وبعد وفاة الرسول بخمس عشرة سنة غزا معاوية أمير الشام جزيرة قبرص . وفي سنة ٦٦٩ غزا العرب جزيرة صقلية . ومن ذلك الوقت لم ترح سواحل سلطنة القسطنطينية عرضة للغارات البحرية الاسلامية . وكانت طوائف الأساطيل الاسلامية ، في بادئ الأمر ، جمعاً مؤتسباً من الأفاقين ومن النصارى الذين أسلموا ومن الشذاذ من كل قوم ولكن المسلمين فيما بعد تعودوا ركوب البحر والغزو فيه طمعاً في الغنائم. ومنهم من كان يغزو

(١) ذكر رينو شواهد بهذا المعنى من جملتها مكتوب من القديس «بونيفاس» رئيس أساقفة «مايانس» الى ملك «مرسية» في انسكاترة سنة ٧٤٥ وهي مملكة كانت في أواسط انسكاترة. قاعدتها لنسكوكن

(٢) Auxerre مدينة على ١٧٠ كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من باريس

في البحر جهاداً في سبيل الله وابتغاء الأجر والثواب ، وصاروا يروون أحاديث عن الرسول معناها الحث على الجهاد في البحر، حتى بلغت بهم الحماسة الى أن النساء صرن يغزون في البحر، ومنهن أم حرام امرأة أحد الصحابة التي ماتت في غزاة بحرية في قبرص. وقيل انه لما ذهب الأسطول الاسلامي يغزو القسطنطينية ، كان أحد أولاد الخليفة عمر حاضرًا، فسأل أمير البحر عن ذنوب الغزاة المجاهدين، فأجابه الأمير بأن آثامهم معلقة في أعناقهم . فأجابه ابن عمر : والذي نفسي بيده لقد تركوا آثامهم على الشاطئ . وعزوا الى الرسول أنه قال : إن الجهاد في البحر فيه عشرة أمثال أجر الجهاد في البر

وكانت الغزوات الاسلامية البحرية ، صدر الاسلام ، موجهاً أكثرها الى مملكة الروم. ولما استولى العرب على مدينة قرطاجنة لم يفكروا في أول الأمر أن يجاهدوا فيما وراء البحر ، ولذلك بنو مدينة القيروان على مسافة بعيدة عن الشاطئ . ولما غزا موسى بن نصير الأندلس لم يكن عنده إلا أربع سفن لا غير ، كانت تذهب وتجيء لنقل الجنود من افريقية الى جبل طارق ^(١) . وعند ذلك فهم موسى ضرورة بناء الأساطيل وأنشأ دور الصناعة في كثير من مرفأء الأندلس . وكذلك كانت للعرب مرفأء كثيرة ممتدة من جبل طارق الى طرابلس الغرب . وسنة ٧٣٦ أنشأ العرب دار صنعة عظيمة في تونس . وكان لهم في الأندلس قائد للبحر اسمه أمير الماء ^(٢) ويظن أن لفظة أميرال محرفة عنها . وذكر مؤلفو العرب أن موسى غزا جزيرة سردانية سنة ٧١٢ وذكر مؤرخو المسيحيين غزاة للعرب في جزيرة كورسكا ^(٣) وكانت جزائر سردانيا وكورسكا وصقلية تابعة للملك القسطنطينية . ففي البداية كان العرب يكتفون بانتقاصها من أطرافها ولكن أخذوا فيما بعد يتوغلون في الداخل .

(١) روى ذلك ابن الفوطية

(٢) نقل رينو هذا عن النويري بحسب تأليف مخطوط في خزانة الكتب اللوكية بفرنسة

(٣) ان أحد مؤرخي القرن الخامس عشر زعم أن المسلمين دخلوا جزيرة كورسكا في زمان

الرسول نفسه ولبثوا فيها الى زمان شارلمان ولكن هذه الرواية متقوضة

وكان أول نزول العرب، في سواحل فرنسة، هو في جزيرة « ليرين »^(١) بقرب عين الطيب^(٢). وقد اختلف المؤرخون في التاريخ الذي يقال إن العرب غزوا فيه هذه الجزيرة، فقالوا إن ذلك وقع سنة ٧٢٨ وقالوا بل سنة ٧٣٩ وكان في هذه الجزيرة دير شهير تخرج منه آباء للكنيسة وأساقفة مشهورون. ويوم كبسه العرب كان فيه خمسمائة راهب آتين من فرنسة وإيطالية وسائر بلاد أوروبا. وكان رئيس هذا الدير القديس « پورسير »^(٣) فلما قرب المسلمون من الدير جمع القديس الرهبان بأجمعهم وقال لهم إنه يجب عليهم أن ينتظروا الموت. وإنما أرسل إلى البر الأحداث الذين كانوا يتعلمون في الدير. فلما نزل المسلمون في الجزيرة فتشوا عن غنائم يأخذونها فلم يجدوا شيئاً ذا بال، فعرضوا على الرهبان الاسلام، فلم يقبل أحد أن يترك دينه فذبحوهم جميعاً.

ومات شارل مارتل سنة ٧٤١ وخلفه ابنه بين القصير، واشتغل في توطيد ملكه في شمالي فرنسة وجنوبها، بحيث كان يمكن العرب أن يغتنموا هذه الفرصة ويجددوا غاراتهم على جنوبي فرنسة ويبلغوا منها مرادهم. ولكن وقع الشقاق بين العرب أنفسهم فعاقدوا عن كل عمل من هذا القبيل. فان العرب لم يكونوا في هذه الغزوات وحدثهم بل كان معهم البربر، وكان القبيلان في نزاع دائم، كما أنه كان العرب أنفسهم منقسمين إلى يمانيين وهم أبناء قحطان، وإلى عدنانيين وهم أبناء اسماعيل بن ابراهيم. وكانت الحروب دائمة بين هذين الشعبين، لشدة ما عند العرب من العصبية، فبعد أن وقعت في بلاد العرب امتدت إلى مصر والشام ثم الأندلس وفرنسة.

وفي ذلك الوقت أعفى العرب الأقاليم الذين خضعوا لهم وساروا معهم من الجزيرة التي كانوا ضربوها عليهم، ومنهم البربر، فاعتاد هؤلاء أن لا يؤدوا شيئاً. إلا أنه في سنة ٧٣٧ عاد أمير افريقية فتقاضى البربر الجزية فعصوا عليه. وكانوا أقواماً أشداء

Lerins (١)

Antibes (٢) بلدة على شاطئ البحر بقرب نيقية أونيس

Saint Porcaire (٣)

نشأوا على سهوات الخيول، فلم يقدر الأمير على تدوينهم، واضطر عقبة أمير الأندلس أن يجيز إلى بر العدو - أي إلى إفريقية - لادخال البربر في الطاعة. وهكذا تمكن شارل مارتيل، في غياب عقبة في إفريقية لادخال البربر في الطاعة، أن يخضع شوكة العرب في جنوبي فرنسا^(١). ثم اشتدت ثورة البربر في إفريقية وظهروا على العرب ولجأ فريق من العرب إلى الأندلس. وكان العرب والبربر الذين في الأندلس قد تقاسموا الأراضي فيما بينهم، سواء في الأندلس أو في جنوبي فرنسا، فخافوا من أن هذا الفريق الذي دخل الأندلس من العرب ينازعهم على الأراضي، وقرضوا أن يجلوهم عن البلاد. وكان الأمير عبد الملك أمير الأندلس عدواً لهؤلاء العرب الذين دخلوا الأندلس، فقتلوه ونصبوا رأسه على جسر قرطبة. وكان في أربونة أمير اسمه عبد الرحمن، من أنصار عبد الملك فرحف من أربونة بجيش يقال إنه بلغ مائة ألف مقاتل وكان يريد الأخذ بثأر عبد الملك، فوصل إلى قرطبة واقتتل الفريقان ورمى عبد الرحمن قائد جيش العدو بسهم فقتله وقفل إلى أربونة بعد أن أخذ بثأر صديقه^(٢).

ولم يكن في وسع الخلفاء في دمشق أن يعيدوا السكون إلى نصابه في بلاد بعيدة كبلاد الأندلس؛ لاسيما إن الثورات كانت تتوالى في الولايات الشرقية فتشغلهم عن المغرب. وهكذا تغيرت الحالة في جنوبي فرنسا، وخلا الجو للمسيحيين، برغم قصر باع بين القصير وقتور همتهم. وكان المسلمون الذين في أربونة قد استولوا على مدينة نيم والمدن المجاورة لها، ولكن الحاميات الإسلامية في تلك المدن أخذت تخف شيئاً فشيئاً، فصار في نيم وفي يزييه وفي ماغلون إدارة أهلية مستقلة بعض الشيء، وأصبح لكل من هذه البلدان أمير يدير أمورها لكنه معترف بسلطان المسلمين^(٣). ومثل

(١) ظهر من هنا أنه لولا ثورة البربر على العرب ما كان أمكن شارل مارتيل أن يضم جنوبي فرنسا إلى مملكته ويخلص بروفانس ولاغندوق وسبتيانيا من أيدي المسلمين

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن ابن الفوطية. وقد جاء في أخبار مجموعة

(٣) نقل رينو هذا الخبر عن تاريخ اللانغدوق تأليف « فيسيت » Vaissette وعن تاريخ

هذا حصل في شمالي إسبانية ، أى في أستورية و نابار وغيرها .

وفي سنة ٧٤٧ تولى قيادة الأندلس أمير اسمه يوسف ^(١) فأنفذ ابنه عبد الرحمن بجيش ، الى اليرانه ، لأجل تدويخ تلك البلاد ؛ ولكن المسيحيين قاوموه بالسلاح مقاومة شديدة . وكانت طرق الاتصال بين مسلمى أربونة وبين قرطبة ، تكاد تكون منقطعة ، بسبب جبال اليرانه ، ولذلك لم يطل الأمر حتى ابتدأ المسيحيون في السبتيانية ينتفضون على المسلمين . وكان يتنازع هذه البلاد ، أى المدن السبع ، فيفر ^(٢) بن أود دوق أكتانيا وبين بن شارل مارتل . وكان بين قد نال من البابا لقب ملك وهو اللقب الذى لم ينله أبوه برغم جميع ما بلغه من الشهرة والمكانة

وفي سنة ٧٥٢ سار بين بجيش الى اللانغدوق ، واستولى على نيم وأقت وماغلون وبيزيه ^(٣) . وبعد ذلك زحف لحصار أربونة وضيق عليها بجميع قوته . ولما وجد أن أمر حصارها يطول أبقى جانباً من عساكره حولها تحت قيادة أمير من أمراء القوط اسمه أنسماندوس ^(٤) إلا أن العرب قتلوا أنسماندوس هذا ، فى كمين عملوه له ، وصادف ذلك حصول مجاعة فى جنوبي فرنسا عطلت حركات الجيوش

وكان بنو العباس فى الشرق قد تغلبوا على بنى أمية ، ونقلوا مركز الخلافة من دمشق الى بغداد واستأصلوا الأمويين ، وتعبوهم فى كل مكان ، ففر منهم واحد الى افريقية ومنها أجاز الى مالقة فتلقيه عرب الأندلس كمنقذ لهم ، وكان اسم هذا الأمير عبد الرحمن ^(٥) وكانت هذه الواقعة سنة ٧٥٥ وقد قدر أن يكون على يد هذا الرجل

(١) يوسف بن عبدالرحمن الفهري

Vaifre (٢)

(٣) أورد رينو على ذلك نصاً من مجموعة مؤرخى فرنسا منسوباً الى مواساك الذى تقدم ذكره

فى إحدى الحواشى

Ansemundus (٤)

(٥) هو عبدالرحمن بن معاوية الملقب بالداخل . والافرنج يكتبون اسمه Ebn-Moavia وكان

الافرنج الأقدمون من كثرة تحريفهم لأسماء العرب يسمونه Benemauguis وأظنهم قد خلطوا

بينه وبين ابن مغيث الذى كان من أمراء دولته

وأعقابه أعظم مجد ممكن لسلمى اسبانية . وفي أيامهم تأملت المدينة العربية في الأندلس تأثلاً لاتزال له آثار باهرة هناك الى اليوم . والى يوم مجيء عبد الرحمن لم يكن لأمرء المسلمين في الأندلس شغل الا بقتال بعضهم بعضاً فلم يؤثروا آثاراً خالدة

وقد لقي عبد الرحمن نفسه خطوباً وأهوالاً ، وبقي يسكن الثورات ويرتق الفتوق مدة طويلة . ولكنه تمكن أخيراً من توطيد سلطته وتمكين استقلاله ، واستوسق له أمر الأندلس بتمامها ، الا أنه لم يقدر أن يتجاوز الى غيرها ، فلذلك تحاشى أن يتلقب بلقب الخليفة واقتصر على لقب أمير . وبقي أعقابه الى القرن العاشر مكثفين بهذا اللقب ، وانما كانت عاصمتهم قرطبة مركزاً للعلوم والصنائع ومبعثاً لأشعة المعارف وبعد أن رسخت قدم عبد الرحمن الأموى في الأندلس ، فكر في مدينة أربونة وما يليها من جنوبي فرنسة ، وسرح جيشاً تحت قيادة أمير اسمه سليمان ، زحف الى البيرانه أملاً برفع الحصار عن أربونة ، ولكن المسيحيين كبسوهم في تلك الأوعار ، فانهزموا هزيمة تامة

ولما كان جمهور أهالى أربونة من المسيحيين ، وقد ضررهم حصار أربونة بنابه ولم يعد لهم طاقة بتحمل تلك الحالة ، داخلوا الملك بين سراً على أن ينتقصوا على المسلمين وينضموا الى جيشه ، بشرط أنهم يكونون في المستقبل أحراراً في بلدتهم ، وتكون ادارة أمورهم بحسب عرف القوط . وهكذا تم الاتفاق بينهم وبين بين . فبينما كانت الحامية الاسلامية غافلة عما يصنعون كبسوها على غفلة منها ، ودبحوها بأجمعها ، وفتحوا أبواب البلدة للفرنسيين . وكان ذلك سنة ٧٥٩ فانقرضت حكومة الاسلام من أربونه ، وأبقى الملك بين جيشاً وافراً لأجل حراسة البلاد^(١) .
اه ملخصاً من كلام رينو

(١) نقل رينو عن هذه الحادثة رواية الدون بوكيه Bouquet ذكر رينو في الحاشية نقلاً عن الدون بوكيه أن بعض مؤرخى الافرنجية يذهبون الى أن المسلمين لم يقرضوا من جنوبي فرنسة تلك المرة بل بقيت منهم طوائف في مقاطعة دوفينه وفي مقاطعة نيس أو نيقية وفي جبال الألب وأن

غارات العرب على فرنسا

من بعد جلائهم عن أربونة

الى عهد استيلائهم على بروفانس سنة ٨٨٩ مسيحية

قال « رينو » : ان العهد الذي سنتكلم عنه الآن في هذا القسم من تاريخنا مختلف عن العهد الذي تقدمه والذي سردنا وقائعه . فقد ظهر لنا مما تقدم من الوقائع أن العرب في تغلبهم في فرنسا لم يكونوا مقتصرين على نية الاستيلاء على هذه المملكة فقط ، وإدخالها في الاسلام ، بل كان هدف رميمهم الاستيلاء على سائر أوروبا وإضافة هذه القارة التي كادت في زمان الرومانيين تستولى على العالم ، الى سلطنة الاسلام كاحدى مقاطعاتها . ومما لا ينبغي أن ننساه أن قواد الجيش العربي الفاتح كان أكثرهم من الجزيرة العربية والشام والعراق ، فكان مركز ديارتهم ومبعث قوتهم في الشرق ، ومن الشرق ، فكانت جميع أعراقهم تنزع بهم الى هناك . ولم يكن في نظرهم عقبة كؤود بعد أن قاموا بتلك الفتوحات التي لانظير لها ، وكانوا كلما كانت مملكة أوسع رقعة وأكثر رجالاً وجدوها أصلح للغارة وأجدر بالفتح ونبيل الحمد في الدنيا والثواب في الآخرة

أما العهد الذي سندخل فيه الآن فلا يماثل العهد السابق ؛ فان الأمير الذي بدأ يتولى الأندلس كان بقية عائلة مالكة قد ثلّ عرشها في الشام وأيد رجالها بالسيف ، ففر شريداً وانسل وحيداً الى اسبانية ، وأصبح لا يرى في افريقية وفي سائر أقسام السلطنة الاسلامية الا أعداء له ولأهله . ولم تكن الجزيرة الأندلسية بالقطر الذي يمكنه

هذه الطوائف بقيت متمكنة في تلك الجهات طول مدة بين وولده شارلمان . وقد ورد في بعض التواريخ المتعلقة بمقاطعة دوفينه أن المسلمين احتلوا مدينة غرينوبل Grenoble وذهب مؤرخ دير ليرين المسمى فنانس بارال الى أن المسلمين كانوا في زيس وان شارلمان هو الذي طردهم منها . ومن هنا استدل بعض المؤرخين على أن المسلمين كانوا لا يزالون في دوفينه من زمان شارل مرتيل الى أوائل القرن العاشر حيث جددوا غاراتهم على بروفانس وتقدموا الى بلاد الليمونت وسويسرة .

وحده أن يستقل بحملات عظيمة كفيلة بالاستيلاء على الارض الكبيرة ، بل كان المسلمون في ذلك القطر قد دبّ في جوانبهم الوهن بسبب الفتن الداخلية المستمرة التي كانت بينهم ، والتي كانت قد أبادت خضراءهم ، وبما تأصل في طباع أهل الأندلس من غريزة حب الانتفاض على كل سلطة مما اهتبل به المسيحيون ، سكان المقاطعات الشمالية ، الغرة لأجل الكرة على العرب

وكانت فرنسا التي هي مرمى العرب في هذه الغارات تتأيد يوماً فيوماً ويغفل أمرها ، فانها في عهد « بين » و « شرلمان » خضعت بأجمعها لسلطة واحدة ، وكان يمكنها لدى الحاجة أن تستعين بجيوش جرارة تأتيها من ألمانيا وبلجيكا وإيطالية ، فارتفع إذاً كل خوف من وجودها بعد ذلك عرضة لاعتداء المعتدين ، ولم يعد مساهو إسبانية هم المهاجمين لمسيحي فرنسا ، بل أصبح مسيحيو فرنسا هم المهاجمين لمسلمي إسبانية^(١) . وكان « بين » و « شرلمان » قد أخذوا يرسلان أهالي « كاتالونيا » و « اراغون » و « نابار » ليوحدوا حركتهم مع الافرنج ، كما أنهما كانا دائماً يمدان أيدي التحريك الى أمراء العرب الثائرين على السلطان في قرطبة ، وكثيراً ما هم . ثم لم يلبث شرلمان وأولاده أن وطئوا بالفعل أرض إسبانية وأدخلوا بعضها في مملكتهم ، لأن الولايات التي تشرب من نهر الايبير^(٢) بقيت مدة من الزمن تابعة لفرنسة ، ثم عندما أخذ المسيحيون سكان الشمال يكرون على العرب ويسترجعون بلاد آبائهم كان أهالي جنوبي فرنسا الذين أكثرهم والاسبان من أصل واحد يخفون لنجدتهم ويحييون لصريخهم

ومما يدل على بعد المدى الذي تصل اليه أهواء النفوس اذا استحكمت العداوة أن أمراء قرطبة كانوا في نزاع دائم مع خلفاء بغداد ، وكان وكد كل من الفريقين النكاية

(١) قدظهر من هنا أن سقوط الدولة الأموية في المشرق وصعد الوحدة العربية بانسلاخ الأندلس عن دولة الخلافة هما العاملان في تأخر العرب في قارة أوربة . ومما لاتزاع فيه أن القوة المتحدة التي كان وراءها الأندلس وافريقية ومصر والشام والعراق وجزيرة العرب وفارس وخراسان كانت أقوى على تجريد الجيوش وتسريب الأموال من القوة التي لم تكن تتجاوز جزيرة الأندلس وحدها

(٢) Ebre هو النهر الذي يمر بسرقسطة . والاسبانيول والعرب يقولون له ايبير

بالآخر ، أ كثر منه في الفتوحات في بلاد المسيحيين أنفسهم . وبينما كان ملوك قرطبة يرسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا في حرب مع مسلمي الشام وفارس ومصر كان خلفاء الشرق يعقدون معاهدات مع ملوك الفرنسيين الذين كانوا في حرب مستمرة مع مسلمي الأندلس ، وكانت لذلك العهد العلاقات التجارية قد بدأت بين الشرق والغرب وسارت السفن تختلف بين « مرسيلية » و « فريجوس » ومرافق سورية ومصر ، لأجل التجارة بالبهارات والطيوب والمنسوجات الحريرية ، وانضمت الى هذه العلاقات التجارية أسباب دينية كان يستهان لأجلها بجميع الأخطار ، وذلك أن المسيحيين في الغرب كانوا في أثناء الحروب بينهم وبين المسلمين لا يتأخرون ساعة عن أن يزوروا البقاع المقدسة في فلسطين

وفي سنة ٧٣٣ ذهب حجاج من الغرب الى بيت المقدس والناصرية وكانوا يجولون آمنين في فلسطين والشام وزاروا قصر الخليفة نفسه في دمشق ولم يعترضهم أحد (١) ولا خافوا ولا حزنوا

وكان الخلفاء العباسيون يعاملون الدولة الافرنسية أحسن معاملة ، ويتبادلون وإياها التحف والألطاف وان كان قد وجد من عمالهم في افريقية من يشن الغارات على سواحلنا في الأحيان ، فما ذاك الا لتباعد المسافات بين أولئك العمال وبين مركز الخلافة العباسية

هذا ومنذ استرجع « بين » القصير « أربونة » وأجلى العرب عنها سكنت الأمور بين مسلمي الأندلس والفرنسيين . وكان « بين » يعد « اليرانه » هي التخيم الطبيعي بين فرنسة وإسبانية . وكان عبد الرحمن مشغولا حينئذ بمحاربة الأمراء الخارجيين عليه . ولم يكن « بين » يهمل شيئا من الوسائل لاثارة نيران الفتن بين المسلمين . وسنة ٧٥٩ أي بعد استرداد الفرنسيين لأربونة دخل أمير برشلونة المسمى

(١) نقل « رينو » هذا الخبر عن ترجمة حياة القديس « جيبو » Jubeau في مجموعة البولنديين
أي تاريخ القديسين Recueil des Ballandistes

سليمان^(١) في علاقات مع « بين » وتعاهد معه^(٢) . ومؤرخو الفرنسيين يزعمون أنه انضوى تحت لواء « بين » ولكن الأصح أن يقال إنه ما قصد إلا أن يستعين به على الاستقلال عن سلطانه . ومن بعد ذلك أصبحت هذه خطة أمراء المسلمين في شمالي الأندلس ، فيوم يضغط عليهم السلطان في قرطبة يلجأون الى فرنسة ، ينشدون عندها التنفيس من خناقهم ، وإذا ظهرت لهم مطامع الفرنسيين بحق بلادهم عادوا الى رئيسهم في قرطبة واعتصموا به ، وكانت تساعدهم على الاستقلال طبيعة البلاد التي كانوا فيها فأنها بلاد جبلية كثيرة الأوعار صعبة المرتقى يسهل على المقاتلة بها ، ولو كان عددها قليلا ، أن تشاغل الجيوش الجرارة . وكان العرب يسمون « قشتالة » القديمة و « البة » بلاد « البان » و « القلاع »^(٣) وكانوا يسمون النابار بلاد البشكنس . وربما أطلقوا هذا الاسم على البلاد التي وراء البيرانه الى جهة فرنسة ، لأن أصل الأهالي واحد سواء في السفح الجنوبي أو السفح الشمالي من البيرانه

وكان العرب يسمون البيرانه جبل البورتات وهذه اللفظة مشتقة من الكلمة

(١) هوسليمان الاعرابي السكبي أمير برشلونه . وكانت بينه وبين شارلمان علاقات مذ كان أميراً بسرقسطة . انظر إلى مايقوله صاحب أخبار مجموعة : ثم ثار سليمان الاعرابي بسرقسطة وثار معه حسين بن يحيى الأنصاري ، من ولد سعد بن عباد ، فبعث إليه الأمير (يعني عبد الرحمن الداخل) ثعلبة بن عبد في جيش ، فنزل أهل المدينة وفاتلهم أياماً ، ثم ان الاعرابي طلب الفرصة من العسكر فلما وضع الناس عن أنفسهم الحرب وقالوا قدأمسك عن الحرب وأغلق أبواب المدينة ، أعد خيلاً ، ثم لم يشعر الناس حتى هجم على ثعلبة فأخذه في المظلة فصار عنده أسيراً وانهمزم بجيش . فبعث به الاعرابي إلى قارلة فلما صار عنده طمع قارلة في مدينة سرقسطة من أجل ذلك فخرج حتى حل بها ، فقاتله أهلها ودفعوهم أشد الدفع فرجع إلى بلده . انتهى

قلت : إن العرب يسمون شارلمان قارلة كما كانوا يسمون جده شارل مارتل وسيأتي ذكر قصة الأمير سليمان هذا - الذي مالأ شارلمان على قومه - وكيف انتهى أمره

(٢) نقل «رينو» هذا الخبر عن مجموعة « الدون بوكيه »

(٣) يكثر في تواريخ العرب ذكر غزوات الجيوش الاسلامية لبلاد ألبا والفلاخ

Le Pays D'alaba et des Chateaux ويقال أحياناً « ألبا » ولكن تلفظ الاسبانيول للقاء

هو كلفظ العرب للباء

اللاتينية Portus وبالسبانيولية Puerto ومعناها المر ، وذلك لأنه من هناك كان المر من الأندلس الى الارض الكبيرة . وكان يوجد في البيرانه أربعة أبواب معروفة عند العرب : الأول طريق برشلونه الى أربونة على مدينة « برينيان ^(١) » الحاضرة . والثاني طريق « بويسردا » على « سردانة ^(٢) » . والثالث الطريق الذي يؤدي من « بنبلونة » الى « سان جان بيه دوپور ^(٣) » والرابع طريق طولوزة الى بايـون ^(٤) . وكانت طرق البيرانه في القرون الوسطى أوعر مما هي الآن بلا نكير

وكا كان بين ملك فرنسا كثير التضريب بين أمراء المسلمين ، لايفتأ يغرى بعضهم بالايقاع ببعض ، كان الخليفة العباسي المنصور بعد أن بنى بغداد مجتهداً أيضاً في توحيد المملكة الاسلامية كما كانت لعهد بنى أمية ، ولذلك أرسل من سواحل أفريقية أسطولا فيه عساكر لمقاتلة عبد الرحمن الأموي الملقب بالداخل ^(٥) ووجد

(١) Perpignan قاعدة ولاية روسيون أوالبيرانه الشرقية

(٢) Cerdagna

(٣) Saint - Jean - Pied - de - Port

(٤) Tolosa a Bayonne وطولوزة هذه هي غير طولوزة الإفريقية. والفرق بينهما أن

طولوزة الاسبانية تكتب بحرف O فقط وان طولوزة الإفريقية تكتب بحرفين OU

(٥) قال ابن خلدون : وفي سنة ست وأربعين ومائة سار العلاء بن مغيث اليحصي من افريقية

إلى الأندلس ، ونزل بياجة الأندلس ، داعياً لأبي جعفر المنصور ، واجتمع اليه خلق ، فسار عبد

الرحمن اليه ولقيه بنواحي اشبيلية ، فقاتله أياماً ثم انهزم العلاء وقتل بسبعة آلاف من أصحابه .

وبعث عبدالرحمن برؤس كثير منهم الى القيروان ومكة ، فألقيت في أسواقهما سراً ومعها اللواء الأسود

وكتاب المنصور للعلاء ، فارتاع المنصور لذلك ، وقال : ما هذا إلا شيطان والمحدث الذي جعل بيننا

وبينه البحر . أو كلاماً هذا معناه . انتهى

وجاء في كتاب « أخبار مجموعة » الذي تقدم ذكره في أخبار عبد الرحمن الداخل : ثار عليه

العلاء بن مغيث اليحصي ، ويقال حضرمي وسود (يعني دعا لبني العباس الذين كان شعارهم السواد)

ودعا إلى طاعة أبي جعفر وكان قد بعث اليه بلواء أسود في سن قناة ، قد أدخله في اهليجة وطبع

عليه ، فأخرجه العلاء فجعله في رحبه وقام به في جند مضر وساعده على غيه واسط بن مغيث الطائي

وأمية بن قطن الفهري فأقبلت اليمانية حتى صاروا باشبيلية فاتهموا أمية بن قطن فأخذوه وكبلوه ،

وخرج الأمير اليهم ، واجتمعت اليه الحشود ، وأقبل حتى نزل بقرية القوم بقلعة رعواق وأقبل

من أمراء المسلمين بالأندلس من ماله على عبد الرحمن . ولما كان بين لا يخشى عادية المنصور ، بمكانه من البعد عن فرنسة ، وكان يرجو نصرته لكون عدوها واحداً أسرع الى الدخول في العلاقات مع المنصور ، وأمّل منه الجذب بضعبه

وفي سنة ٧٦٥ أرسل رسلا الى بغداد لبثوا ثلاث سنوات حتى رجعوا الى فرنسة ومعهم رسل الخليفة، فنزلوا في مرسيلىة وصعدوا الى مقر بين فبالغ في الاحتفاء بهم وقضوا ذلك الشتاء في مدينة «متز» باللورين، ثم أمر باقائمتهم في قصر سلس Sels على ضفاف اللوار ثم أعيدوا الى الشرق، عن طريق مرسيلىة ، ومعهم الهدايا الى الخليفة هذا وقد اتبع شارلمان خطة أبيه « بين » في هذا المعنى فما استوسق له الأمر حتى أخذ يداخل أمراء الأندلس ، من مسلمين ومسيحيين ، فكان يقول لهذا الفريق إنه انما يريد ليحررهم من طاعة أمير قرطبة ويساعدهم على استقلالهم ويخفض جناح الرحمة لهم ، ولذلك الفريق أنه هو حامي النصرانية الطبيعي الناصر للنصرانية الحافظ للكنيسة الأصلية القامع للبدع الخ

وكان العرب عند ما فتحوا الأندلس أبقوا للمسيحيين حريتهم الدينية ، فكان

غياث بن علقمة اللخمي من شدونة ممدأ لهم. فلما سمع بخبره الأمير بعث اليه بدرأ مولاه في قطع من عسكره فقطع به فنزل في الوجسة التي بين وادي إيريه والنهر الأعظم. ونازله بدر فتراسلا حتى اتفقد بينهما صلح، ورجع غياث بن علقمة اللخمي إلى بلده ، ورجع بدر إلى الأمير ، فلما بلغ القوم الخبر قالوا ليس لنا الا مدينة قرمونة فعبوا على الخروج اليها ليلا. وجاء الخبر الى الأمير فبعث بدرأ ، وقال له : ابدت الى المدينة وارفع رأس قبتك على باب قرمونة واجمع اليك أهل الطاعة الى أن نوافيك غدوة . وركب الأمير من سحر طويل فأصبح على ظهر وتباطأ القوم فأصبح القوم في الشعراء تحت قرمونة . فلما نظر الى القبة مضروبة على باب المدينة علم أنهم قد بدروا اليها ، فاجوا وتطلعت عليهم خيل العسكر، فانهزموا وقتلوا قتلا ذريعاً. وأصيب أمية بن قطن مكبلا فن عليه الأمير وأطلقه وقطف من رؤوسهم سبعة آلاف رأس فيز رؤوس المعروفين ورأس الغلاء ومثله، ثم كتب باسم كل واحد بطاقة ثم علقت من أذنه ، ثم أجزل العطية لمن اتدب لجمال تلك الرؤوس الى افريقية فجمعها في أخرجة وركب فيها البحر حتى انتهى الى القيروان ، فطرحها ليللا في السوق ، فلما أصبح الناس وجدوها ووجدوا كتاباً مكتوباً بالخبر في الخرج ، فانتشر ذلك حتى بلغ أبا جعفر . انتهى

يوجد أساقفة في قرطبة وطليطلة والمدن التي من الدرجة الأولى^(١) وكان لهم قسيسون في كل مكان وجدوا فيه ، إلا أنه لا يظهر أنه كان يوجد في المدن الثغرية التي كانت مترددة بين حكم المسلمين وحكم النصارى أساقفة ينظرون في شؤون المسيحيين الروحية وكان المسلمون في إحدى الحروب هدموا مدينة طرطوس^(٢) فلم يبق فيها مركز أسقفى فصارت أمور بلاد كتالونيا الروحية مربوطة برئيس أساقفة أربونة في فرنسا . وقد كان أيضاً رئيس أساقفة أوش من مقاطعة جيرس Gers في فرنسا ينظر في شؤون مملكة أراغون الروحية . وكان شارلمان يفصل خصومات المسيحيين الاسبانيين فيما بينهم وكان يتوسط لهم عند البابا فيما اذا كانت لهم رغائب اليه أو قضايا عنده

وسنة ٧٧٧ ثار أميران من أمراء المسلمين في مقاطعات نهر إبرة ، وخرجا من طاعة السلطان في قرطبة ، فاجتازا البيرانه قاصدين شارلمان في وستفاليا Westphalie^(٣) حيث كان منعقداً مجلس حافل ، وكان أحد هذين الأميرين وهو المسمى سليمان ، أثناء وجوده أميراً على سرقسطة ، قد قاتل عساكر أمير قرطبة وأخذ قائدها أسيراً وجاء به وقدمه كهدية الى شارلمان ويزعم مؤرخونا أن هذا الأمير دخل في طاعة الامبراطور الإفرنسى^(٤) .

(١) جاء في فتح الطيب عند ترجمة الحكم المستنصر بن عبدالرحمن الثالث ذكر وليد بن حيزون قاضي النصارى بقرطبة وعبيدالله بن قاسم مطران طليطلة . وجاء فيه عند ترجمة الناصر ذكر ربيع الأسقف الذي أرسله الخليفة الى ملك الصقالبة رسولا يرد بذلك زيارة رسول هذا الملك لبايه . ومن هذه الأسماء يعرف القارىء أن أهل النمة في الأندلس كانوا قد استعربوا وتسموا بأسماء العرب وان كانوا بقوا على النصرانية . وكانوا في هذا أشبه بالمسيحيين من عرب الشرق

(٢) Tarragone مدينة في كتالونية على البحر المتوسط . قال ياقوت في معجم البلدان : بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة وهي مدينة قديمة على شاطئ البحر منها نهر إعلان يصب مشرقاً الى نهر ابرة وهو نهر طرطوشة . وهي بين طرطوشة وبرشلونة بينهما وبين كل واحدة منهما سبعة عشر فرسخا . قال : وطرقونة موضع آخر بالأندلس من أعمال لبله

(٣) وستفاليا هي اليوم من مقاطعات بروسية

(٤) استشهد « رينو » على ذلك بمجموعة الدون بوكيه وكذلك بتاريخ ابن القوطية . وأما مؤرخو العرب فلم يتفقوا على اسم هذا الأمير لأن بعضهم يسميه سليمان بن قحطان العربي والآخريين

وكان شارلمان مترصداً فرصة كهذه حتى ينقضّ على إسبانية ويملك ولو جانباً منها ، فأمر بالتغير العام وتوافت إليه المقاتلة من المانية وفرنسة ولبارديه ، وزحف بهم قاصداً البيرانه . وكان ذلك سنة ٧٧٨ ولم يكن يشك في كون الأهلين سيهرعون من كل ناحية اليه، يجتمعون تحت لوائه ، ولكن أخطأ حدسه هذا، لأن المسلمين عند ما جاء بنفسه قاوموه بالسيف وظهر انه لم يكن مقصد بعض أمراءهم من خطبة وده إلا الاستعانة به على استقلالهم . وأما المسيحيون في الجبال فقد آوواهم أنفسهم أيضاً أن لا يخضعوا لحكم الأجنبي أياً كان ، فما وصل شارلمان الى البيرانه حتى وجد نفسه محاطاً بالأعداء فضيق الحصار على بنبلونه ^(١) ولم يفتحها إلا بعد قتال شديد . وكذلك قاومته مدينة سرقسطة . ويقول المؤرخون المسيحيون إنه استولى عليها ذلك اليوم وانه أخذ أميرها أسيراً وأرسله مكبلاً إلى فرنسا . وأما مؤرخو العرب فينكرون ذلك ويقولون انه فشل في هجومه على سرقسطة فشلا تاماً . ولكن بعد ذلك جرى ان قتل أمير سرقسطة غيلة فالتجأ ابنه الى فرنسا ^(٢) . أما أمراء برشلونه وجيرونة ووشقة فقد أرسلوا رهائن من قبلهم الى شارلمان

وبينا شارلمان يحارب في شمالي اسبانية إذ جاءه الصريح بأن أمة الصكصون أبت بأن تترك ديانتها الوثنية و بأنها زحفت للقتال ، فاضطر شارلمان الى مغادرة إسبانية

يسمونه مطرف بن العربي . وقد تقدم أن هذا الأمير هو سليمان الاعرابي الكلي . وأما أسيره الذي أرسله إلى شارلمان فهو ثعلبة بن عبد الذي أسره بحيلة كما تقدم

(١) من مملكة نابار وهي قلعة حصينة

(٢) جاء في أخبار مجموعته : ان حسين بن يحيى الأنصاري رفيق سليمان الكلي، الذي تار بسرقسطة على الأمير عبد الرحمن الداخل ، كان قد عدا على سليمان يوم جمعة فقتله في المسجد الجامع وصار الأمر لحسين وحده فنزل به الأمير عبد الرحمن . وكان عيسون بن سليمان الاعرابي قد هرب إلى أربونة فلما بلغه نزول الأمير بسرقسطة أقبل فنزل خلف النهر ، فنظر يوماً إلى قاتل أبيه قد خرج عن المدينة وصار على جرف الوادي فاقحم عيسون فرساً له كان يسميه الناهد فقتله ، ثم رجع إلى أصحابه . فسمى ذلك الموضوع إلى اليوم « محاضة عيسون » ثم استدعاه الأمير حتى صار في عسكره وحارب سرقسطة معه

عائداً الى فرنسا ، و بينما هو في طريق رجوعه وعند وصوله الى وادى « رونسفو »
Roncevaux انقض عليه المسيحيون الجليليون ، وساعدهم في ذلك المسلمون ، فأوقعوا
بساقه جيشه واستأصلوها . و هلك ذلك اليوم كثير من أبطال الفرنسيين فيما
يقال « رولان » Roland الفارس الشهير

و بالاختصار كانت الجهات الشمالية من اسبانية أشبه بالثغور لفرنسة كما كانت
بلاداً ثغرية للعرب . وكان العرب يسمونها إفريجة لكونها طالما الحقت بمملكة
أكتانيا . وكان شارلمان قد جعل ا كيتانيا لابنه لويس الذى جعل كرسى ملكه
طلوزة أو طولوز

فبعد أن قفل شارلمان من إسبانية عادت فعصت عليه المدن التى كانت أطاعته
قبلا ، وحق المسلمون على المسيحيين وجعلوا ينتقمون منهم ، بحجة أنهم كانوا السبب
في مجيء الفرنسيين . فلجأ عدد من المسيحيين الى الجبال وكانوا يتحملون شظف
العيش ويلبسون جلود السباع ولا يبالون بسكنى البرارى . ولكن الترفين من
المسيحيين الذين لم يكونوا يستطيعون السكنى فى الأوعار ، التجأوا الى شارلمان ،
ووزع هذا عليهم أراضى فى بسائط أر بونة ، ولم يفرض عليهم من الضرائب شيئاً
إلا الخدمة العسكرية . وقيل انه كان بين هؤلاء المهاجرين أناس مسلمون ارتدوا الى
النصرانية كما يظهر من أسمائهم^(١) وقد اشتهر أناس من هؤلاء المهاجرين ولا

(١) نقل « رينو » هذا الخبر عن « الدون بوكيه » ولم تعلم شيئاً من هذا القبيل أى من تنصر
جماعة من المسلمين فى أوائل الفتح الاسلامى للاندلس سوى ما ذكره المؤرخون من العرب وهو أنه
عندما اشتدت الفتنة بين القيسية واليمانية اغتم الفرصة أهالى شمالى إسبانية وأخرجوا المسلمين من
بلادهم وبقى من هؤلاء بينهم بقايا تنصروا .

قال صاحب أخبار مجموعة : فنار أهل جليقية على المسلمين وغلظ أمر علاج يقال له بلاى قد ذكرناه
فى أول كتابنا فخرج من الصخرة وغلّب على كورة وستورس ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه
أهل استورقة زماناً طويلاً حتى كانت فتنة أبى الخطار وثوابه فلما كان فى سنة ١٣٣ هزمهم وأخرجهم
عن جليقية كلها وتنصر كل مذنبذ فى دينه وضعف عن الخروج وقتل من قتل الخ. ولا مانع من أن
يكون فى الذين هاجروا من شمالى إسبانية إلى فرنسا أناس أصلهم من المسلمين

يزال من بقاياهم عائلات نبيلة ينتسبون إليهم مثل عائلة فلنوف Villeneuve
ثم إن عبد الرحمن الأول أمير قرطبة توفى سنة ٧٨٨ وقد وصفه المؤرخون
الفرنسيون بالقسوة، وقالوا انه كان سفاكاً للدماء جباراً عاتياً وأنه أوقع بكثير من
رعيته العرب والبربر. وزعم الدون بوكيه أن النصراري واليهود قاسوا العذاب ألواناً
في أيامه، وأنهم اضطروا الى بيع أولادهم ليتمكنوا من المعيشة. وأما نحن فنعتقد أن
هذا الأمير الذي فتح بلاده فتحاً بقوة ساعده وبمجرد حسن تديره وكان في جدال
وجداد دائمين لأجل توطيد سلطانه، لم يكن ليستغنى احياناً عن الإتيان بثلاث من
الشدة يرهب بها أعداءه. والحقيقة انه كان في نفسه حليماً عاقلاً محباً للعلوم والصنائع،
وأنه هو أول مؤسس للمدينة العربية الزاهرة في الأندلس. ولا يظهر أنه كانت
له علاقات رأساً مع شارلمان، وإن كان المقرئ يذكر ذلك ويقول انه أراد أن يخطب
احدى بناته (١) والأرجح أنه لم يكن عبد الرحمن الأول هو الذي دخل في علاقات

(١) جاء في فتح الطيب (الجزء الأول صفحة ١٥٥) مايلي : وخاطب عبدالرحمن قارله ملك الإفرنج
وكان من طغاة الإفرنج بعد أن تمسره مدة فأصابه صلب المسكر ثم الرجولية قال معه إلى المداراة
ودعاه إلى المصاهرة والسلم فأجابته للسلم ولم تتم المصاهرة . اه
قلت : وأما كون عبد الرحمن فتح البلاد بنفسه ودوخها بصرامته ولم يستغن في ذلك كما قال
« رينو » عن إرهاف الحد ، فلننتقل في هذا الموضوع ماجاء في النسخ عن ابن حبان : ولما ألقى
الداخل الأندلس ثغراً قاصياً غفلاً من حلية الملك عاطلاً أرهف أهلها بالطاعة السلطانية وحنكهم
بالسيرة الملوكية وأخذهم بالآداب فأكسبهم عما قليل المروءة وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدون
الدواوين ورفع الأواوين وفرض الأعطية وعقد الألوية ووجد الأجناد ورفع العماد وأوثق الأوتاد ، فأقام
لملك آتية وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا إجابته وتحاموا حوزته ،
ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس واستقل له الأمر فيها ، فلذلك ظل عدوه أبو جعفر المنصور
بصدق حسه وبعد غوره وسعة إحاطته يسترجع عبد الرحمن كثيراً ويعبد له بنفسه ويكثر ذكره
ويقول : لاعتجبوا لامتداد أمره مع طول مراسيه وقوة أسبابه ، فالتأثن في أمر فتى قريش الأحوذى
الغد في جميع شؤونه وعدمه لأهله ونشبهه وتسليه عن جميع ذلك يبعد مرقى همته ومضاء عزيمته حتى
قذف نفسه في لجاج المهالك لا يبتناء مجده فافتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ضرب
بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته حتى

كهنه مع قارله ، بل عبد الرحمن الثاني الذي كانت له علاقات مع شارل الأصغر
والذي كان عائشاً في عصر لم تكن فيه هذه المصاهرات وأمثالها مستنكرة اه

وقبل إكمال حديث « رينو » عن عبد الرحمن الأول وعبد الرحمن الثاني رأينا
مناسباً أن نذكر خلاصة تاريخ عبدالرحمن الثاني نقلاً عن نفع الطيب .

قال المقرئ : غزا عبد الرحمن بن الحكم لأول ولايته إلى جليقية وأبعد وأطال
الغيب وأنخن في أمم النصرانية هنالك ، ورجع . وفي سنة ٢٠٨ أغزى حاجبه
عبد الكريم بن عبد الواحد إلى البة والقلاع ، فخرّب كثيراً من البلاد وانتسفها ،
وفتح كثيراً من حصونهم وصالح بعضها على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين ، وانصرف
ظافراً . وفي سنة ٢٤ بعث قريبه عبيدالله بن البلنسي في العساكر ، لغزو ألبه والقلاع ،
فسار ولحق العدو فهزمهم وأكثرت القتل والسبي . ثم خرج لذريق ملك الجلائقة وأغار
على مدينة سالم بالثغر ، فسار إليه فرتون بن موسى وقاتله فهزمه وأكثرت القتل والسبي
في العدو . ثم سار إلى الحصن الذي بناه أهل ألبه بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه .
ثم سار عبدالرحمن في الجيوش إلى بلاد جليقية فدوخها وافتتح عدة حصون منها وجال
في أرضهم ورجع بعد طول المقام بالسبي والغنائم . وفي سنة ٢٦ بعث عبد الرحمن
العساكر إلى أرض الفرنجة وانتهوا إلى أرض برطانية^(١) وكان على مقدمة المسلمين
موسى بن موسى عامل ططيلة^(٢) ولقيهم العدو فصبر حتى هزم الله عدوه . وكان لموسى

اتقاد له عصيهم وذلّاه أبيضهم فاستولى فيها على أريكته ملكاً على قطيعته فاهراً لأعدائه حامياً لذهاره
مانعاً لحوزته خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه إن ذلك هو الفتي كل الفتي لا يكذب مادحه . انتهى
قلت : وكان المنصور يلقب عبدالرحمن الداخل بصقر قريش وسنذكر في الجزء التالي كلاماً آخر
للمنصور عنه في هذا المعنى

(١) برطانية هنا لا يظهر أنها التي يقال لها برطانية Bretagne من شمالي فرنسا إلى الغرب بل
هي مقاطعة من كتالونية يقال لها اليوم امبردانية Ampurdania وكان أهل البلاد يقولون لها
« امبروطانية » وهي لفظة مشتقة من « امبورياس » اسم مدينة فينيقية قديمة ثم يونانية عمرها أهل
صور وصيدا في أرض كتالونية

(٢) Tudela من مدن شمالي الأندلس

في هذه الغزاة مقام محمود. وفي سنة ٢٩ بعث ابنه محمداً بالعساكر، فتقدم إلى بنبالونة، فأوقع بالمشركين عندها وقتل غرسية صاحبها وهو من أكبر ملوك النصارى إلى أن يقول: وفي سنة إحدى وثلاثين بعث العساكر إلى جليقية فدوخوها وحاصروا مدينة ليون^(١) ورموها بالمجانيق وهرب أهلها عنها وتركوها، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها، وأرادوا هدم سورها فلم يقدرُوا عليه لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعاً، فثاموا فيه ثلثة ورجعوا. ثم أغزى عبدالرحمن حاجبه عبدالكريم في العساكر إلى بلاد برشلونة فعاث في نواحيها وأجاز الدروب التي تسمى « البرت » إلى بلاد الفرنجة، فدوخها قتلاً وأسرأوسياً، وحاصر مدينتها العظمى « جيرونده^(٢) » وعاث في نواحيها وقفل. وقد كان ملك القسطنطينية من ورأهم « توفيلس^(٣) » بعث إلى الأمير عبدالرحمن سنة ٢٥ بهدية يطلب مواصلته ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق من أجل ما سبق به عليه المأمون والمعتم، حتى أنه ذكرهما له في كتابه إليه، وعبر عنهما بابني مراحل وماردة^(٤) فكافأه الأمير عبدالرحمن عن الهدية وبعث إليه يحيى الغزال من كبار أهل الدولة وكان مشهوراً في الشعر والحكمة، فأحكم بينهما الوصلة وارتفع لعبدالرحمن ذكر عند مناغيه من بني العباس. ويعرف الأمير عبدالرحمن بالأوسط،

(١) Leon يريد بهامدينة ليون الإسبانية فيشمالى إسبانية لامدينة ليون الإفرنسية التي يكتب اسمها هكذا : Lyon

(٢) Jironde يريد بمدينة جيرونده بوردو وكان العرب يقولون لها أيضاً بورديل وهي مدينة بلاد جيرونده الإفرنسية

(٣) هذا هو إمبراطور بيزانطية الذي قاتله المعتم العباسى وفتح من بلاده عمورية. وورد ذكره في قصيدة ابن تمام الطائى التي يذكر بها وقعة عمورية والتي مطلعها
السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
فانه يقول فيها :

لما رأى الحرب رأى العين توفلس والحرب مشتقة معنى من الحرب الخ
(٤) كانت أم الخليفة المأمون أم ولد اسمها مراحل مانت في قاساسها به. وكانت أم المعتم اسمها ماردة وكانت أحظى النساء عند هارون الرشيد. ويظهر أن توفلوس إمبراطور الروم قصد أن يغرى بنى أمية أمراء الاندلس بغزو المرق ليشغل بنى العباس عن قتاله ويوهن قوتهم

لأن الأول عبد الرحمن الداخل والثالث عبد الرحمن الناصر . ثم توفي عبد الرحمن الأوسط سنة ثمان وثلاثين ومائتين بربيع الآخر لاحدى وثلاثين سنة من إمارته . ومولده بطليطلة في شعبان سنة ست وسبعين ومائة

وكان عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدوء وسكون . وكثرت الأموال عنده واتخذ القصور والمتزهات وجلب إليها المياه من الجبال وجعل لفضلها مصنعاً اتخذه الناس شريعة وأقام الجسور . وبنيت في أيامه الجوامع بكور الأندلس . وزاد في جامع قرطبة وراقين . ومات قبل أن يستتمه ، فأتمه ابنه محمد بعده ، وبنى بالأندلس جوامع كثيرة ورتب رسوم المملكة واحتجب عن العامة . قال : وكان كثير الميل للنساء ، وولع بجاريته « طروب » وكلف بها كلفاً شديداً وهى التى بنى عليها الباب بيدر المال حين تجنت عليه وأعطاهها حلياً قيمته مائة ألف دينار اه

وجاء في النسخ كلام طويل عن محبة هذا الأمير لطروب ولغيرها من الجوارى ولم يقل إنه خطب ابنة شارل الأصلع ملك فرنسا . ولم أذكر ان « دوزى » الذى استقصى فى الكلام عن عبد الرحمن الثانى وسيرته الشخصية ذكر شيئاً من هذا ونعود الى سياق حديث « رينو » عن أمراء بنى أمية ومغازيهم فى افرنجة ، فهو يقول : ان عبد الرحمن الداخل كان استخلف ابنه هشاماً من بعده وان هشاماً لأول حكمه وجد الفتن مشتعلة فى أكثر البلاد فأراد أن يشغل الأمة عن الفتن الداخلية ، بجهد العدو الخارجى ، لأنه أجمع شئ للكلمة . وكان يريد أن يتلافى مانقص من المملكة بغارات يسين وشارلمان الأخيرة ويخضد شوكة مسيحي بلاد استوريش وشمالى الأندلس فأجمع على قتال المسيحيين فى كل مكان . وفى أيامه كثرت القالة بأن المسلمين لا يقدرّون الا على قتال بعضهم بعضاً ، وأفتى بعض الفقهاء بأنه لا يجب دفع الخراج لأمراء لا يعرفون أن يقاتلوا الا أمة محمد وحدها ، وكانوا يضرّون الأمثال فى خدمة الإسلام بخلفاء بغداد الذين كانوا يواصلون غزو مملكة القسطنطينية

فبناء على هذا كله تحمّس هشام وأعلن الجهاد ، وأمر الناس كافة بأن ينفروا . قاصدين جبال البيرانه ، فمن لم يقدر على الجهاد بنفسه وجب أن يجاهد بماله . وقرىء

منشور الأمير في الجوامع ، وفيه الآي القرآنية التي تحض على الجهاد ^(١) فلما تلى هذا المنشور نفر الناس للجهاد من كل فج ، وانثالوا على الأمير من كل حذب ، ولكن برغم هذا كله لم يكن المجاهدون بالأعداد التي كانت تجتمع في الغزوات الاولى لأول الفتح عندما كان المجاهدون كحصى الدهناء ، ينفرون للجهاد في سبيل الله من افريقية والشام وجزيرة العرب وغيرها . فان هذه البلدان كلها كانت في أيام هشام موصدة الأبواب على من أراد الجهاد في الاندلس ، فأصبح الغزو في الاندلس منحصرا في أهلها . ولذلك لم يجتمع في هذا النفير سنة ٧٩٢ غير مائة ألف مقاتل ، انقسمت الى شطرين : زحف منها شطر الى قتال مسيحي أستوريش ، فلم يظفروا بباطل يذكر ، وزحف الشطر الآخر تحت قيادة الوزير عبد الملك ^(٢) الى كتالونيا ، ومنها تأهب لاجتياح فرنسة .

وكان دخولهم الى فرنسة سنة ٧٩٣ وشارلمان يومئذ مشغول على ضفاف الدانوب ، بحرب الآفارين ، ونجبة جنود مملكة ا كيتانيا غائبة في ايطالية بصحبة لويس بن شارلمان . فهدد المسلمون من فورهم الى أربونة ، ولما وجدوها محصنة بادر وابطحوا في أرباضها ، وزحفوا الى قرقشونة ^(٣) وكان لويس ملك ا كيتانيا قد عهد بالوكالة في غيابه الى غليوم كونت طلويزة ، فاستنفر غليوم أمراء المملكة ورجالاتها ، وأقبل المسيحيون تحت السلاح من كل جانب ، وتلاقوا مع المسلمين على ضفاف نهر « اوربيو » ^(٤) في المكان المسمى « فيلدانيا » ^(٥) بين قرقشونة وأربونة . وكانت المعركة من أحمى المعارك وطيسا ، وقاتل الكونت غليوم قتال الضواري ، ولكن

(١) نقل « رينو » صورة هذا المنشور وقال إنه وجد في مجموعة مطبوعة في القاهرة قال :
وليس بأكد أن يكون هو نفس المنشور الذي تلى باسم الأمير هشام ولكنه على كل حال لا يختلف عنه في المعنى

(٢) عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث

(٣) نقل « رينو » هذا عن تاريخ « موساك » في مجموعة « الدون بوكيه »

(٤) Orbieux

(٥) Villedaigne

المسلمين ثبتوا كاللاتاد والفرنسيس انهزموا ذلك النهار وولوا الأكتاد وأصيبوا
بخصائر فادحة . وغنم المسلمون غنائم فوق الاحصاء ، غير أنه لم يكمل سرورهم وقتل
أحد كبار قوادهم ، فلم يتعقبوا المسيحيين في هزيمتهم ، واكتفوا بما أصابوه من السبي
والمغنم ، ووقفوا الى الأندلس ظافرين . وكان لهذه الطائفة ، للمسلمين على المسيحيين ،
فرح عظيم عند المسلمين لأنه كان قد طال عهدهم بالظفر^(١) وأصاب الأمير خمس الغنائم
فبلغ حمسة وأربعين ألف منقال من الذهب . فاذا حسبنا قيمة الذهب يومئذ بالنسبة إلى
قيمته الحاضرة وجب أن نضرب هذا العدد بتسعة فيجتمع لنا سبعمائة ألف فرنك
من معاملتنا الحاضرة^(٢) فبني هشام بهذا المال في جامع قرطبة الذي كان أبوه لم يتمه^(٣)
وكان عبد الرحمن الأول بدأ جامع قرطبة ، من غنائم الحرب ، فزاد ذلك في حرمة
الجامع في نظر المسلمين . فلما باشر ابنه هشام بناء القسم الجديد من الجامع وجد
المسلمين ملتزمين الصلاة في القسم القديم ، فسأل عن سبب ذلك ، فقيل له : إن هذا
من أجل كون هذا القسم بنى من غنائم الجهاد . فأجابهم هشام بأن القسم الجديد أيضاً
بنى من غنائم الجهاد . واستدعى القاضي ونقرأ من كبار القوم فأيدوا كلامه^(٤) .
وقال بعضهم : ان أسس هذا الشطر الجديد من الجامع وضعت على تراب مجلوب من
جليقية ومن جنوبي فرنسة ، أى من مسافة مائتي مرحلة ، حملة أسرى المسيحيين على
ظهورهم . وقد تقدم هذا الخبر في الكلام على مدينة أربونة
ولم يثبت أن المسلمين تمكنوا من أربونة في تلك الغزاة ، ولو كانوا فتحوها لكان

(١) نقل « رينو » ذلك عن مجموعة مؤرخي فرنسة وعن النويرى

(٢) يعنى بالمعاملة التي كانت سنة ١٨٣٦ أى منذ قرن تقريباً

(٣) ورد في نصح الطيب أن من محاسن الأمير هشام إكمال بناء الجامع بقرطبة وكان أبوه شرع
فيه . وأما الغزاة التي ذكرها « رينو » فهي التي يقول عنها في النصح ان هشاما بث وزيره عبدالمك
ابن عبد الواحد بن مغيث في العساكر سنة ١٧٧ إلى أربونة وجيروندة فأئخن فيها ووطى أرض
برطانية وتوغل عبدالمك في بلاد الكفار وهزمهم

(٤) استشهد « رينو » هنا بتاريخ للعرب في إسبانية ملحق بجغرافية أبي الفدا التي طبعها

«رينك» في « لايبسيك »

مؤرخو المسيحيين أشاروا إلى ذلك الحادث . واشتهر في تلك الحرب غليوم كونت
طلوزة ، من أمراء البلاد ومن أفرس فوارسها وأشدهم تحمسا بالدين المسيحي ، لأنه
بعد أن قضى حياته في الحروب ، وكان من جملة غزاة الفرنسيس الذين فتحوا برشلونة ،
أنهى حياته في دير جلون (Gellone) الذي بناه هو بنفسه في لوديف (Lodève) ومات
بذلك الدير منقطعاً للعبادة ، وصار معدوداً في مصاف القديسين . ترجمه أحد معاصريه
فقال : أنهم في القرن العاشر كانوا في الكنائس يرتلون دائماً الأناشيد بذكر أعماله الحميدة
ومواقفه في جهاد المسلمين . ولما أخذ شعراء الفرنسيس ينظمون القصائد على شارلمان
ومشاهير رجاله و يترنمون بذكر وقائع ، فيها ماهو صحيح وفيها ماهو خيالي ، كانوا
يجعلون من ذلك قسطاً كبيراً لغليوم ذى الأنف القصير ، وكانوا يصورون مدينة نيم
ومدينتي اورنج وآزل كأنها قد وقعت في أيدي المسلمين ولم يتم استخلاصها إلا على
يد ذلك البطل الذي لا يغالب . . . وكذلك وجدت كتابة لاتينية بقيت محفوظة
إلى زمان الثورة الفرنسية في دير « مون ماجور » (Mont - major) تفيد ان
شارلمان جاء بنفسه إلى آزل لطرده المسلمين منها

ومن المعلوم أن الشعراء لم يكن همهم التدقيق في المسائل التاريخية إذا أرادوا
التغنى بأحداث أبطالهم وهاموا في أودية خيالهم . فأما الكتابة التي في دير « مون
ماجور » فهي غير صحيحة ، لأنها تتضمن أن شارلمان بنى ذلك الدير تمجيداً لواقعة
طرده المسلمين من آزل ، والحال ان الدير قد بُني بعد ذلك بمئة وخمسين سنة .

وكان هشام ملك قرطبة قد توفي سنة ٧٩٦ وخلفه ابنه الحكم ، فثار به عمه (١)

(١) جاء في فتح الطيب : أنه تولى بعد هشام ابنه الحكم بعهد منه إليه ، فاستكثر من المالك
وارتبط الخيل واستفحل ملكه وباشر الأمور بنفسه . وفي خلال فتنة كانت بينه وبين عمه اغتتم العدو
الكافر الفرصة في بلاد المسلمين وقصد برشلونه فملكها سنة خمس وثمانين ومائة وتأخرت
عساكر المسلمين إلى مادونها . وقال أبو الفداء : ولما اشتغل الحكم بقتال عمه اغتتمت الفرنج
الفرصة فقصدوا بلاد الاسلام وأخذوا مدينة برشلونة في سنة ١٨٥

فاضطر أن يقضى أوائل أيامه في قمع الثورة . وفي السنة التالية بينما كان شارلمان في مدينة اكسلاشابيل - Aix - la - Chapelle جاء مستنجداً به أمير برشلونة المسلم وعم الحكم أمير قرطبة ^(١) . وفي تلك السنة نفسها بينما كان لويس بن شارلمان ملك ا كيتانيا عاقداً مجعاً في طلوزة ، جاءه رسول من الاذفونش ملك جليقية واشتورية ، يلتمس حشد جميع القوات المسيحية وتجريدها لقتال العدو العام . ثم وفد أيضاً على هذا المجمع رسول من قبل أمير مسلم في ناحية وشقة (Huesca) يقال له « باهالوك » يريد أن يسالم المسيحيين ^(٢)

فظهر ان الغرة كانت لأئمة لأخذ الثأر من المسلمين وللدخول الى اسبانية ، وكان لويس ملك ا كيتانيا وأخوه شارل (او كارل) قد شنّا الغارات في أطراف المقاطعات التي تشرب من نهر ابره . ثم عاد لويس فأجاز البيرانه من جهة آراغون . وحاصر وشقة التي كان أميرها قد أرسل بمفاتيحها إلى شارلمان ، ولكن لما جاء الفرنسيين لتسلم بلدته امتنع عليهم ولبس لهم جلد النمر . وفي ذلك الوقت كان عبد الله عم الحكم أمير قرطبة قد استولى على طليطلة ، وعمه الآخر سليمان استقر في بلنسية ، فصرح جيشاً لقتال عمه عبد الله في طليطلة ، وسار هو بنفسه مع جيش من الفرسان قاصداً البيرانه ، فأدخل في الطاعة برشلونة وغيرها من المدن التي كانت اشترطت نفسها للعصيان . ومن هناك قصد الجبال وأوقع بالمسيحيين وسبي منهم كثيراً نساء ورجالا ، واتخذ الحكم من أسراه حرساً خاصاً وهو أول أمراء قرطبة الذين اتخذوا حرساً خاصاً من الأسرى والأجانب . وقد رجع الحكم من تلك الغزاة مظفراً منصوراً ^(٣) ،

(١) نقل رينو هذا الخبر عن الدون بوكيه

(٢) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة مؤرخي بلاد الغال ولم نعلم أصل الأمير المسلم الذي ذكره وهم يعرفون الأسماء العربية تحريفاً يبعد بها عن الأصل بعداً كبيراً بحيث تتنكر على الباحث تماماً (٣) جاء في نفع الطب : وفي سنة اثنتين وتسعين ومائة جمع لندريق بن قارله ملك الفرنج جموعه وسار لحصار تراكونه فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في العساكر فهزمه ففتح الله على المسلمين وعاد ظافراً . ولما كثرت عيث الفرنج في الثغور بسبب اشتغال الحكم بالحارجين عليه سار بنفسه إلى الفرنج سنة ست وتسعين فافتتح الثغور والحصون وخرّب النواحي وأتحن في القتل والسبي والنهب وعاد إلى قرطبة ظافراً . انتهى

قلت : لعل المقرئ يعنى بلندريق بن قارله لويس بن شارلمان

كما ان عمه سليمان قتل في إحدى المعارك التي دارت بينهما، وعمه عبد الله فر الى افريقية وعادت طليطلة الى الطاعة . ثم ان الاذفونش صاحب جليقية اغار في تلك الأيام على المسلمين في إشبونة، ووقع في يديه بعض أسرى منهم ، فأرسلهم راكبين على البغال إلى شارلمان اعترازاً بالنصر . ثم ان لويس ملك اكيثانيا الذي هو ابن شارلمان اكتسح نواحي وشقة^(١) ولم يكن شيء من هذه الغارات ، سواء من هذه الجهة أو من تلك الجهة ، ليؤدي الى نتيجة حاسمة يستفص منها أحد الفريقين ملكاً ، بل كانت النتيجة الوحيدة هي خراب تلك النواحي . وكان أهم مالمقيه الفرنسيين في هذه الحرب هو أن أمراء المسلمين الذين كانوا أظهروا الطاعة لشارلمان ، عند ما جاءت جيوشه إلى بلادهم ، ابوا أن يقبلوها وأصلوها ناراً حامية . وكان المسلمون لا يزالون أصحاب المدن الكبرى والمعقل المنيعه مثل برشلونه وطرطوشة وسرقسطة ، وكانت برشلونه بنوع خاص بحصانة موقعها وبقرتها من فرنسة ووجودها على سيف البحر ، من أشد البلاد نكايه بالفرنسيين . وكان الأمير الذي فيها والذي يسميه مؤرخونا « زاتون^(٢) » قد أوهم شارلمان انه يريد الدخول في طاعته ، ولكن عند ما حضر الفرنسيين أمام بلده امتنع من قبولهم وقلب لهم ظهر المجن فأجمع لويس ملك اكيثانيا بالاتفاق مع غليوم كونت طولوزة ، وبرأى مجمع مؤلف من أمراء تلك البلاد أن يستولى على برشلونه في أول فرصة . وكان شارلمان يومئذ في رومة مشغولاً بقضية تتويجه امبراطوراً على الغرب . وكانت برشلونه كما قال الشاعر « ارملو لدوس نيجلوس » قد أصبحت للمسلمين معقلاً متيناً ، وكانت تصدر عنها فرسان تلك الخيل المشهورة بخفة الحركات ، فتبث

(١) جاء في معجم البلدان لياقوت : وشقة بلدة في الأندلس ينسب اليها طائفة من أهل العلم منهم حديده بن الغمر له رحلة و ابراهيم بن عجيس بن اسباط بن أسعد بن عدى الزياىدى الوشق كان حافظاً للفقه واختصر المدونة له رحلة سمع فيها يونس بن عبد الأعلى ومات سنة ٢٧٥ وابنه أحمد سمع من أبيه وتوفي سنة ٣٢٢

(٢) Zaton وهو من جملة تحريف الإفرنج للاعلام العربية ولا يدري ما أصل هذا الاسم

الغارات في بلاد النصارى وتعود أيديها ملأى بالغنائم . وكانت من المنعة بحيث ان الفرنسيين لبثوا سنتين يحصرونها ويضيقون عليها ، ويكتسحون نواحيها ، ولكنهم لم يقدروا على دخولها . وقد قسم الفرنج جيشهم الى ثلاثة أقسام : قسم منهم كان يهاجم برشلونة ، وقسم ثان يقوده غليوم كونت طلوزة كان يربط في الممر الذي تفيض منه جيوش المسلمين الآتية من قرطبة لنجدة برشلونة ، وقسم ثالث كان يقوده الملك لويس نفسه ، وكان في أعلى جبال البيرانه ، يحمل على المسلمين حيث وجد الفرصة ملائمة .

وكان الافرنج قد تقاسموا أعمال الحصار ، فمنهم من كان مشغولاً بوضع السلام ، ومنهم من كان يجلب الميرة والعدة ، ومنهم من كان موكولاً اليه الحفر والنقب ، ومنهم من كان موكولاً اليه غير ذلك . فاشتد الحصار شدة غير معهودة ، وجاءت جيوش المسلمين فلم تقدر على النفوذ الى برشلونة فتحولت الى بلاد اشثورية ، وهزمت أهلها ، فبقى أمير برشلونة منفرداً بقوته ، وخرج في إحدى المعارك لقتال الافرنج المحاصرين ، فأخذ أسيراً ثم حمل الافرنج على البلدة الحاملة الأخيرة وفتحوها (١) .

وكان فتح الافرنج لبرشلونة سنة ٨٠١ مسيحية بعد أن بقيت تسعين سنة في أيدي المسلمين . فلما دخلوها حولوا جوامعها كنائس ، وأرسل الملك لويس إلى أبيه شارلمان جانباً من الغنائم ، فيها دروع وخوذ ، ومنها خيول مسرجة بأفخر السروج ، وبعد ذلك أصبح لفرنسة منطقتان في شمالي اسبانية احدهما كتالونيا وقاعدتها برشلونة ، والثانية غشقونية ومن جملتها ناباره وأراغون

وفي تلك السنة جاء وفد من قبل هارون الرشيد الى شارلمان . وكان شارلمان قبل ذلك قد أرسل رسولا يهودياً اسمه اسحق مصحوباً باثنين من الفرنسيين لأجل السلام من قبله على الخليفة العباسي ، وقد أمر شارلمان هذا الوفد بأن يمر بالقدس قبل ذهابه الى بغداد ، وأن يتعهد أحوال زوار المسيحيين لبيت المقدس ، ويتوسط لدى

(١) مؤرخو الاسلام ينسبون سقوط برشلونة إلى تأثير الفتنة التي أثارها سليمان وعبد الله عما الحكم وشغلته عن انجاد تلك المدينة كما تقدم لك من كلام المقرئ في النسخ وكلام أبي الفداء

الخليفة في تسهيل هذه الزيارة حتى يزداد عدد الزوار والتجار القاصدين إلى البقاع المقدسة . وكان الفرنسيين من عهد انيبال لم يروا في بلادهم فيلا ، فكان من جملة مهمة هذا الوفد ان يأتوا من الشرق بفيل يتهدج برؤيته أهل فرنسا . فلما وصل الوفد الى بغداد استقبلهم الخليفة برأ وترحيباً ووعد بتسهيل زيارة المسيحيين لبيت المقدس وترفيه مقامهم عند ما يردون اليه . ولم يكن في دار الوحوش التي عند الخليفة عندئذ سوى فيل واحد فبعث به هارون الرشيد الى شارلمان ومعه هدايا أخر من منسوجات حريرية وقطنية لم يكن يوجد منها في فرنسا ، ومن طيوب ومعطرات وأشياء أخر . وكان من جملة الهدية شمعدان من نحاس أصفر ، عظيم الحجم ، وساعة من نحاس أصفر أيضاً تتحرك بالماء وتدق اثنتي عشرة مرة بعدد ساعات النهار

ونزل الوفد في قدمته من الشرق ، في مدينة بيزة ، وُحمت الهدايا بابتهاج عظيم إلى « اكس لاشابل » مركز الامبراطور شارلمان . ولما وصل الوفد قدموا للامبراطور تحايا الخليفة ، وأبلغوه ماقاله لهم من أنه يضع مودته فوق مودة جميع الملوك^(١) وكان هذا الوفد قد صدر له الأمر من شارلمان بأن يتوجه الى قرطجة ، في افريقية ، ويلتمس من ابراهيم الأغلبى (عامل الخليفة) الاذن بنقل رفات القديس فبريانس المدفون في قرطجة وغيره من القديسين المدفونين هناك ، فأذن لهم ابراهيم فيما طلبوه وبعث أيضاً رسولا وراءهم الى الامبراطور يتودد إليه . وقد كان لذلك في هاتيك الأيام وقع عظيم ، نظراً لانقطاع العلاقات تقريباً بين الاقطار المتباعدة ، وكانت الناس تستدل به على عظمة شارلمان^(٢) وأن الله أعطاه في ذلك العصر صورة ترى كل ملك دونها يتذبذب . وفي تلك الأيام لم تكن الحرب تسكن بين المسلمين والافرنج في بلاد اراغون وكتلونية

(١) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة الدون بوكيه من رواية « اجينار » Eginard
(٢) ذكر رينو هذه الجملة نقلاً عن الدون بوكيه وقال : إن مؤرخى العرب لم يذكروا شيئاً من أخبار هذه العلاقات بين هارون الرشيد وشارلمان وانما ذكروا تبادل رسائل بين بين القسير والمنصور العباسي وبين الملك لويس الحليم Le Deboimaire وبين المأمون . وأما المسيو بوكفيل « Pouquevelle » فقد ذهب إلى كون هذه الأخبار كاهها غير صحيحة

وناباره ، وكانت سجلا بين الفريقين .

ولم يكن شارلمان ليقدر على النظر في جميع شؤون مملكته الواسعة . ففي سنة ٨٠٩ م مسيحية مات الكنت اوربول « Aureole » قائد الجيوش الافرنسية في اراغون ، فجاء أمير سرقسطة المسلم ، وكان يقال له عمروس ، واستولى على الأماكن التي كانت في حوزة الكنت زاعماً انه عند ما أتى شارلمان بنفسه يسلمها اليه ، ولكن لما جاءت العساكر الافرنسية أبي إزاهم فيها ، فبقيت في يد المسلمين . هكذا روى مؤرخو الفرنسيس . وقد روى بعض مؤرخي العرب أن عمروس هذا كان أميراً في وشقة ، وكان أبوه مسلماً وأمه مسيحية . وكان مثل هذا الزواج كثير الوقوع في اسبانية لذلك العهد ، لاسيا في الأضقاع الشمالية ، وكان يقال لهؤلاء الذين هم من أب مسلم وأم مسيحية المولّدون . وكان هذا الصنف من الناس لا يرجعون الى مبدأ ، ولا يتقيدون بدمام ، وانما يتبعون مصالحهم الخاصة . وكانوا كثيرين في مدينة طليطلة فتاروا على أمير قرطبة فرماهم برجل يقال له عمروس ، وكان داهية من الدواهي . فجاءهم عمروس وتظاهر لهم بالاخلاص لقضيتهم ، وأوهمهم انه في نفسه ممالئ لهم ينتظر أول فرصة للانتقاض معهم على السلطان ، وأقنعهم بذلك بمكره وحيلته وصدقوا كلامه واتفق معهم على بناء قلعة في أعلى البلدة تكون العقل الأمين بزعمه لهم ، بحيث لاتنالهم جيوش السلطان بسوء . فلما أكمل بناء هذه القلعة دعاهم فيها الى وليمة ، فكان كلما دخل منهم واحد قطع الجند رأسه ، فقيل انه قطع رؤوس أربعائة من أعيانهم ، وقيل انه بلغ عدد القتلى خمسة آلاف . وهكذا تمكن عمروس من إدخال طليطلة في الطاعة . انتهى

وقد ذكر دوزي الهولندي في « تاريخ الاسلام في إسبانية » ان عمروس هذا كان من الاسبانيول الذين اتخذوا الاسلام ديناً . والحقيقة انه لم يكن يهيمه لامذهب ولا مشرب ، وانما كانت تهيمه مطامعه الدنيوية ، فكاشفه الأمير الحكم بما في نفسه من أمر طليطلة التي كانت لاتنتهي من ثورة الالى ثورة ، وكانت تأبى الخضوع

لوال عربي ، وقد أعيى الحكم أمرها ، فدبر عمروس هذه المكيدة على أهالى طليطلة بالاتفاق مع الحكم ، وكتب الحكم قبل ذلك اليهم قائلاً لهم : إن أعظم دليل على اعتنائنا بشأنكم أننا مرسلون اليكم الآن والياً من أبناء جنسكم . وقد كان هذا القول صحيحاً لان عمروس كان اسبانيولياً ، مهتدياً للاسلام . وذهب عمروس فخذع أهالى طليطلة وتودد اليهم وزعم انه كاشفهم سرّاً بما في نفسه من الحميّة على جنسه ، والاستعداد لخلع طاعة السلطان عند ماتلوح أول بارقة أمل ، وقال لهم : إن أكثر أسباب النزاع بينكم وبين السلطان كانت من قبل الولاة الذين كانوا يتولون طليطلة ، فكانوا يضعون الجند في بيوتكم فيسلبون راحتكم ، فلو بنينا في طرف من المدينة حصناً نتخذه ثكنة للعساكر لانحسنت أسباب النزاع بينكم وبين السلطان . فوثق الأهالى بكلام عمروس ، وبنوا الحصن واستقرّ به عمروس . وبعد ذلك أكمل عمروس المكيدة بأنه تواطأ مع السلطان على أن يرسل جيشاً الى طليطلة بحجة أن العدو تحرك في الثغر فأرسل الحكم جيشاً تحت قيادة ولده عبدالرحمن - وكان في الرابعة عشرة من عمره - فلما وصل الجيش الى طليطلة أشاعوا أن العدو انقبض الى بلاده ، وأن الجيش سيعود أدراجه الى قرطبة . ولكن عمروس أشار على أعيان طليطلة بأن يأتوا للسلام على الأمير عبد الرحمن ، قياماً بواجب الحرمة للسلطان ، فجاء منهم جمهور وسلموا عليه ، واستقبلهم الأمير بالخفاوة والاكرام ، وهم دعوه أن يطيل الإقامة عندهم ، وتظاهر الأمير بادىء ذي بدء بأنه مضطر لسرعة الأوبة ولكن أعيان البلدة ألحوا عليه بالترث عندهم ، وأمّلوا فيه خيراً كثيراً ، وكانوا مسرورين بكون اليهم الجديد اسبانيولياً من جنسهم ، وبعد ذلك تقرر إعداد ولية لأعيان طليطلة وجوارها ولكنها لم تكن مريئة المأكلة . وفي اليوم التالي جاء المدعوون أفواجاً أفواجاً ونزلوا عن ركائبهم وربطوها خارج الحصن ، وصاروا يدخلون زرافات ، وكان في ساحة الحصن خندق وقف بجانبه جماعة من الجلادين ، فكانوا كلما أقبل جماعة يقطعون رؤوسهم ويرمون بها في الخندق . وتمّ كل هذا وأهل البلدة لا يعلمون بشيء مما جرى داخل الحصن وكان هناك طبيب من أهل طليطلة ، عظيم الفراسة ، لحظ عدم خروج أحد

من المدعويين . فسأل الأهالي هل رأيتم أحداً من المدعويين الى الحصن خرج منه ؟ فأجابوه : يجوز أن يكونوا دخلوا من هذا الباب وخرجوا من الباب الآخر . فقال لهم الطبيب : بل أظن أنهم لن يخرجوا أبداً وأنه أتى عليهم القتل . وقال ابن عذارى : ان عدد القتلى يوم الخندق هذا بلغ سبعمائة . وقال النويرى وابن القوطية : انهم أكثر من خمسة آلاف ، ولكن من بعد هذه الواقعة سكنت الثورة في طليطلة مدة طويلة . انتهى كلام دوزى

فهذه كانت عقبي غرام أهل طليطلة بالانتفاض . وعمروس الاسبانيولى هذا الذى دبر هذه المكاييد هو الذى خدع أيضا قواد الفرنسيس وتسلم منهم المواقع التى كانوا فيها . ولا يبعد على رجل كهذا ، غدر ذلك الغدر بأهل وطنه ، أن يغدر بالفرنسيس ولننظر الآن الى رواية المؤرخ كوندى الاسبانيولى ، قال : إن الحكم لم يتمتع طويلا بالراحة التى كان وطداً أطناها بتعبه وجهاده ، ففى سنة ٨٠١ مسيحية وفق ١٨٥ هجرية تحرك ملك اشتورية وأراد التجاوز على المسلمين . ولما كان يعلم نفسه أضعف من أن يقدر عليهم استنجد بشارلمان ، وهذا أسرع لنجدته مؤملا بذلك الاستيلاء على ولايات إسبانية الشمالية وضمها الى مملكته ، نجعت أمداد شارلمان تثوب الى الاسبانيولى تحت قيادة ولده لويس ملك اكيثانية ، فزحف لويس واستولى على مدينة جيرونة ، وجاء فناصر برشلونة ، وانضم اليه بهلول بن مخلوق من عمال أمير قرطبة ، وسار بالفرنسيس الى طرطوشة ، فزحف الحكم بنفسه ومعه عمروس ومحمد بن مفرج قائد الخيالة الذى كان عظيم الاعتماد عليه نظراً لدهائه وإقدامه ولما وصل الى سرقسطة ثارت الثورة فى طليطلة بما أخرج الأهالي من عسف يوسف بن عمروس الذى كان قبض عليه الأهالي لسوء ملكته فيهم ، فاستدعى السلطان والده عمروس ، وعهد اليه نظراً لدرسته ودهائه بولاية طليطلة ، وأرسل ولده يوسف قائداً على تطليطة

ثم أغار الحكم على نابارة وبنبلونة ودخل وشقة ، فحشى الاذفونش على بلاده وحشد عساكره ، وزحف اليه يوسف بن عمروس فأوقعه الاذفونش فى كمين وأخذه

أسيراً ، فدفع عليه أبوه فدية جسيمة حتى أنقذه . وأما الحكم فكان يتوقد صدره
احنة على بهلول عامله الذي انحاز الى الفرنسيين ومشى بين يديهم ، ولما عرف انه في
جوار طركونة عمده اليه من فوره ، ولم يزل في اثره حتى ثقفه في طرطوشة بعد أن
هزمه ، واحتز رأسه . ورجع الحكم الى قرطبة بدون أن يتعرض لبرشلونة وذلك
خوفاً من الفشل في حصارها

أما حصار الافرنج برشلونة فقد أجمع المؤرخون انه كان من أندر ما عرف التاريخ
شدة وصبراً وان مسلمي برشلونة صبروا في هذا الحصار الى الحد الذي تتحير فيه العقول .
ولكن الخلاف وقع بين المؤرخين في الأطوار التي دخلت فيها تلك الحرب . فبعضهم
قالوا ، كما في تاريخ متس وتاريخ ريجينيون وغيرها ، انه في سنة ٧٩٧ قدم أمير
برشلونة العربي على شارلمان ، وبعد ذلك في سنة ٨٠١ أراد خلع طاعته ، فأخذ أسيراً
ونفى . وهؤلاء المؤرخون يسمونه تارة « زاتون » Zaton وطوراً « زادو » وأحياناً
« زاد » Zaddo, Zaad ولعل اسمه سعدون أو سعد . وفي تاريخ الملك لويس الحليم
ورد أن سعدون هذا وقع أسيراً في سربونة ، وانه بعد أسره تولى امارة برشلونة ابن
عم له ، اسمه عامر ، فدافع عن البلدة دفاعاً يتقاصر عنه كل وصف مدة سنتين ، تحمل
في أثناءها مسلمو برشلونة من ضيق الحصار ما يعجز أي قبيل عن تحمله

وذهب مؤرخون منهم مارمول « Marmol » الى ان الرواية الصحيحة هي أن
سعدون أو سعداً كان تابعاً لملك قرطبة فانتقض على سلطانه فأرسل الى شارلمان يعده
بالدخول في طاعته ، وفي سنة ٧٩٧ و ٧٩٨ دخل فعلاً في طاعة شارلمان ولكن
شارلمان بعد سنتين من هذا العهد شعر بأن أمير برشلونة نقض طاعته ، فسرح اليه
جيشاً تحت قيادة ولده لويس فحاصر برشلونة واستفتحها ثم انصرف عنها ، فجاء
أمير سرقسطة واستردها ، ولكن لويس عاد ثانية سنة ٨٠٦ فاستولى عليها وعلى أعمالها .
فالروايات تختلف في كيفية استيلاء الفرنسيين على برشلونة ، ولكن خلاصتها واحدة
وهي أن العرب خسروا بلاد كتلونية منذ ذلك الوقت ، وأنه تولى عليها في البداية
أمراء تابعون لفرنسة ثم لم يرحوا حتى استقلوا عنها وعن العرب معاً

وقد ذكر كوندى الاسبانولى واقعة عمروس فى طليطلة ، وكيف غدر بأعيان تلك البلدة وكيف دعاهم الى وليمة فى القصر وقطع رؤوسهم غدرًا . ولكن رواية كوندى تختلف عن رواية دوزي بكون دوزي يوم ان تلك المكيدة وقعت بتواطؤ عمروس مع سيده الحكم ومع ابنه الأمير عبد الرحمن الذى كان فى الخامسة عشرة من عمره ، وبأن كوندى يقول ان صاحب ذلك الرأى انما كان عمروس ، وان الأمير عبد الرحمن مع صغر سنه أوضح له فظاعة ذلك العمل وما يبقى بعده على الأعقاب من قبيح الذكر ولكنه تغلب عليه لحدائة سنه، وراجعه الأمير كثيراً وأبدى وأعاد فلم يقنع عمروس الا بتنفيذ ما يئته لأهل طليطلة، قائلاً للأمير : ان طليطلة قد ألفت العصيان من زمن طويل حتى صار لها خلقاً ملازماً وانه لابد لسكونها من قطف عدة مئات من رؤوس أعيانها . ثم ذكر كوندى زحف ملك ا كيتانية وحصاره لطرطوشة سنة ٨٠٧ وان الأمير عبد الرحمن كان فى سرقسطة فزحف لاجناد طرطوشة ووافاه اليها والى بلنسية فطردوا الفرنسيس عنها. ثم يقول: ان عبد الرحمن عاد فاستولى سنة ٨١٢ على جيرونية من كتلونية ، وانه وصل بجيشه الى أربونة وعاد بفنائم وافرة . ثم ان الفرنسيس استولوا على طرطوشة بعد حصار شديد وسار ملكهم لويس منها قاصداً أخذ وشقة^(١) فما كاد ينصرف عن طرطوشة حتى رجعت هذه البلدة الى حكم العرب

وقد علق « دومارليس » على روايات كوندى عن هذه الحرب حاشية معناها ان مؤرخى الفرنسيس يزعمون ان ملك قرطبة بعث الى شارلمان وفداً بطلب الصلح ، وأنهم وصلوا الى « اكسلاشابل » وتقرر الصلح على أن ينزل العرب لشارلمان عن جميع البلاد الواقعة بين نهر ابره والبيرانه ، وان هذه المعاهدة انعقدت سنة ٨١٠

فدومارليس يستبعد وقوع هذه المعاهدة بكون العرب لم يذكروا عنها شيئاً فى تواريخهم ثم بكون لويس بن شارلمان زحف الى كتلونية عدة مرات من بعد هذا التاريخ فيرى دومارليس انه يجوز أن تكون حصلت مهادنة بين الفريقين الى حد سنة ٨٢٠

(١) Huesca وابن حوقل فى المسالك والممالك يسميها وسكة

أو الى ما بعد ذلك . وأما العرب الذين شوهدوا في أكسلاشابل فرمما كانوا من بعض أولئك الولاة المسلمين الذين كانوا ينتفضون على ملك قرطبة ويستعينون عليه بالأجانب من قبيل بهلول بن مخلوق الذي تاقى جزاء خيانتة من يد الحكم نفسه

أساطيل الاسلام في الأندلس وافريقية

قال رينو : وفي تلك الأيام أخذت قوة الاسلام البحرية تزداد وتنبسط في البحر المتوسط بسبب رغبة المسلمين بانشاء الأساطيل في مرافئ الأندلس وافريقية . وقد كان لذلك تأثير عظيم في اجتياح المسلمين لجنوبى فرنسة . ولما اقتطع عبد الرحمن الداخل بلاد الأندلس عن خلافة بنى العباس وأرسل هؤلاء جيشاً في البحر ، أجاز الى الأندلس لمطاردته ، علم عبد الرحمن بأنه لا بد له من قوة بحرية في وجه قوتهم البحرية

في سنة ٧٩٣ اتخذ عبد الرحمن الأول دور الصناعة^(١) في مراسى طرّ كونة وطرطوشة وقرطجنة واشبيلية والمرية وغيرها . وقبل ذلك كانت جزر الباليار - أى ميورقة ومينورقة ويابسة وجزيرتا سردانية وكورسيكة - عرضة لغزوات المسلمين ، بحيث ان أهالى هذه الجزائر وضعوا أنفسهم تحت حماية شارلمان . وورد في مجموعة الدون بوكه ان هؤلاء كانوا تغلبوا على المسلمين في بعض الوقائع وأخذوا منهم بضع رايات ، فأرسلوا بها اليه . وعلى أثر ذلك ازداد غزو المسلمين لهذه الجزائر ، فكانوا يغادونها القتال يراوحونها ، ويسبون من أهلها النساء والأطفال ويقتلون المقاتلين

(١) سعى العرب المعامل التي كانت تبني فيها المراكب البحرية بدور الصناعة وربما قالوا الصنعة ومشى كتابهم على هذا الاصطلاح، فترى مؤرخينا يقولون : كانت الصنعة في صور أو أسس الأمير فلان دار الصنعة في تونس أو كانت صنعة الأندلس بالمرية وما أشبه ذلك . وأخذ الإفنج جلة « دار صنعة » فلفظوها « دارسنا » بحسب صعوبة إخراجهم لحرف العين كلالينقي، ثم قلبوها إلى « آرسنا » وأضافوا إليها حرف اللام المستعمل عندهم في النسبة والمقامات الظرفية فصارت « آرسنال » ثم جاء الترك خرفوا « دار صنعة » أو « دار صنعة » إلى « ترسانة » فقالوا عن دار الصناعة التي في خليج استانبول « ترسانة عامره »

ولم يكونوا يعفون إلا عن الشيوخ العاجزين والمرضى والمقعدين

وسنة ٨٠٦ اكتسح المسلمون جزيرة كورسيكا^(١) وكان بين بن شارلمان ملكاً على ايطالية ، فأرسل أسطولاً لمطاردتهم ، فلما شعر المسلمون بدنو أسطول النصارى انسحبوا الى الورا ، فطمع فيهم آدمر Admer كونت جنوة وتعقبهم بأسطول فرجعوا اليه وقتلوه وهزموا أسطولهم وأسروا ستين راهباً وابعوهم في الأندلس . وبلغ ذلك شارلمان ففكهم من الأسر بفضية أداها عنهم^(٢)

وسنة ٨٠٨ جاء قرصان من الأندلس ، فنزلوا بسرديانية فاجتمع أهلها ودحروهم فنزلوا بكورسيكا (أو قرسقة) فصادمهم القائد بورشارد Burchard فخسروا ثلاثة عشر مركباً وانهزموا . ولكن المسلمين في السنة التالية جاؤا من افريقية ونزلوا في سرديانية ، كما ان غزاة مسلمين آخرين جاءوا يوم عيد الفصح ونزلوا في كورسيكا وعاثوا فيها . وجاء في تاريخ كورسيكا لجاكوبى ان المسلمين خيّموا في الجهة الشرقية من الجزيرة بين أطلال مدينة آليرية «Aleria» ولم يتمكن الفرنسيين من طردهم الا بشق الأنفس ، ثم في سنة ٨١٣ رجعوا الى كورسيكا وأسروا وغنموا . وبينما هم راجعون أكن لهم كونت امبورياس Ampurias بقرب مدينة برينيان قوة بحرية غنمت منهم ثمانية مراكب كان فيها أكثر من خمسمائة أسير ، فانتقم المسلمون عن ذلك باجتياح سواحل نيقه Nice وبروفنس وسيفيتة فكشيا Civita - Vecchia

(١) أو قورسقة

(٢) وقرأت في مدينة جنوة في تاريخ جمهورية جنوة لمؤلفه فريديشى دونافار أنه في سنة ٩٣٤ جاءت قوة بحرية إسلامية من افريقية فحصدت جنوة حصاراً شديداً ، لكن الجنوبيين تمكنوا من دفعها عنهم ، فرجعت أدرابها وأصابها ضرر من زوومة بحرية . ثم بعد سنتين من تلك الواقعة جاء أسطول إسلامي آخر وهاجم جنوة واشتد القتال فتغلب المسلمون ودخلوا البلدة وأصابوا ما غنم كثيرة وأخذوا أسرى كثيرين ونقلوا . وكان أسطول جنوة في كورسيكا فلما جاء ورأى ما حصل بجنوة سار في أثر الأسطول الاسلامي فهزمه وفك الأسرى واسترجع الغنائم وصار الجنوبيون من ذلك الحين يحصنون بلدتهم

بقرب رومة^(١)

ورأى الامبراطور شارلمان ان الخطر قد ازداد على بلاده ، وأن لا بد له من تدابير بالغة في الشدة لرد غارات المسلمين البحرية . وقد كانت امارة الأغالبة في افريقية تابعة للخلافة العباسية في بغداد ، فكان أمير القيروان مدة خلافة هارون الرشيد يتحامي سواحل مملكة شارلمان حرمة للعهد الذي كان بين هارون والامبراطور ، ولكن عندما مات الرشيد سنة ٨٠٩ ووقعت الحرب بين ولديه الأمين والمأمون تفصى الأمير الأغلبى من ذلك العهد ، وصارت مراسى تونس وسوسة وبؤرة قرصان تنبث منها الغارات البحرية . وقيل ان أمير صقلية كان يشكو إلى رسول قادم من عند الأغالبة عيث القرصان في سواحلهم ، فأجابه الرسول : نعم منذ مات أمير المؤمنين صار الذين كانوا عبيداً يريدون أن يكونوا أحراراً والذين كانوا أحراراً ولكنهم فقراء يريدون أن يكونوا أحراراً أغنياء .

وكان القرصان أكثر ما يتعرضون للسفن التي تتردد بالبضائع بين فرنسة وإيطاليا من جهة ، ومصر والشام وآسيا الصغرى من أخرى . وكان قد انضم إلى قرصان المسلمين قرصان النورماندين وأخذوا جميعاً يعيشون في السواحل الجنوبية ، فأمر شارلمان ببناء الابراج والحصون في السواحل وعند مصاب الأنهار ، وأنشأ الأساطيل لدفع عوادي القرصان . وجميع هذه الروايات جاءت في مجموعة الدون بوكه

ولما طالت هذه المساجلات البحرية وتعب منها الفريقان داخل بعضهم بعضاً في

(١) الذي عرفته في رومة من روايات بعض أدباء الطليان والمطعمين منهم على التواريخ أنه يوجد على مسافة ٤٠ كيلومتراً من رومة قرية يقال لها « سراسينشكو » Sarracinesco أصل أهلها من المسلمين كان سلفهم غزاة وقعوا إلى تلك الأرض وأحاط بهم الأهالي فقتلوا جانباً واستسلم لهم الباقى وتنصروا وعمرروا تلك القرية . ويقال إن سجنهم لا تزال تدل على أصلهم العربى وأن ما كلفهم ومشاربهم وصنعة الغناء عندهم تدل على عربيتهم . وحتى هذا اليوم ترانى أترقب الفرصة لمشاهدة تلك القرية والتنقيب عن صحة ما سمعته . وقيل لى انه يوجد في ولاية « غاليارى » Gagliari من سردانية قرى أصل سكانها من العرب وأنه يوجد آثار عربية في « لوشيرة » بقرب نابلى . ولا يخفى أن الامبراطور فريدريك الثانى امبراطور ألمانيا وملك صقلية الذى عاش في أوائل القرن الثالث عشر المسيحى كان عنده جيش من العرب هم عمدة قوته وكان متقناً للغة العربية

عقد معاهدة سلم تأمن بها السفن البحرية غوائل متلصصة البحر . ففي سنة ٨١٠ انعقدت أول متاركة ، ثم تجددت بعد سنتين ، وجاء رسول من الأندلس يرجح انه يحيى بن حكم أمير الماء ^(١) في الأندلس قاصداً أكسلاشابل وعقد مهادنة مع شارلمان لثلاث سنوات . ولكن المسلمين نقضوها هذه المرة لأنهم سنة ٨١٣ نزلوا في جزيرة كورسيكة وتقدم عبد الرحمن ابن أمير قرطبة الى حدود فرنسا بجيشه . وفي تلك الواقعة قتل القديس آفانتين « Saint Aventin » من أهالي بانيير دولوشون Bagneres - De - Luchon في مقاطعة غارون العليا

ومات شارلمان سنة ٨١٤ وخلفه ابنه لويس الحليم ، وسار على أثره في السياسة ولكن في أيامه استفحلت غزوات المسلمين البحرية . وجرت لذلك العهد حادثة في قرطبة تفاقم بسببها هذا الأمر، وذلك ان أهالي ربض قرطبة ثاروا على الحكم أميرهم فسار اليهم الحكم برجاله وحرصه وأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ونفي بقية السيف ، وكانوا زهاء خمسة عشر ألفاً فاركبهم طبقاً عن طبق وأجازهم البحر إلى اسكندرية وهناك خاف عاديتهم والى الأسكندرية فأدى اليهم مبلغاً من المال واركبهم الى جزيرة اقريطش التي يقال لها اليوم كريت ^(٢)

(١) نقل رينو ذلك عن مجموعة مؤرخى فرنسا وعن تاريخ كوندى وحتى الآن لم أظفر بهذا الخبر في كتب العرب

(٢) جاء في فتح الطيب في ترجمة الحكم : وكانت له الوقعة الشهيرة مع أهل الربض من قرطبة لأنه في صدر ولايته كان قد انهك في لدانه فاجتمع أهل العالم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه، وطالوت الفقيه وغيرهما، فثاروا به وخاعوه وباعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربى من قرطبة وكان محلم متصلاً بقصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدو وبالاسكندرية من أرض المشرق ، ونزل بها جمع منهم ، ثم ثاروا بها فزحف اليهم عبدالله بن طلحة صاحب مصر للمأمون بن الرشيد وغلبهم وأجازهم إلى جزيرة اقريطش فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة . انتهى .
وتال كوندى عن هذه الواقعة : ان الحكم سار إلى العصاة بنفسه برغم رجاؤه وكبار قواده أن لا يغامر بنفسه وأوقع بالثائرين حتى امتلأت الشوارع بميث القتلى ولكن الذين لبثوا داخل البيوت لم يصيبهم سوء . وقبض الحكم على ثلاثمائة من الثوار وصلبهم على النهر . ثم أمر بدك

وفي سنة ٨١٦ توجه رسل من قبل الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي كان بدأ
يياشر الاشغال في حياة أبيه ، وذلك الى مدينة كومبيان Compiègne حيث كان

حارة الرض كلها بعد أن أمر بنهبها ولكنه أمر بعدم التعرض للنساء . وما زال السيف عاملاً في الشوار
إلى اليوم الثالث ففعا عن بق منهم في الحياة بشرط أن يخرجوا من قرطبة مع عائلاتهم ، فرحل جانب
من هؤلاء المساكين إلى طليطلة ، وأجاز نحو من ثمانية آلاف إلى برالعدوة حيث تقبلهم إدريس بن
إدريس في فاس وبنوا حارة فيها هي مبدأ سكنى الأندلسيين بفاس . وسار منهم خمسة عشر ألفاً إلى
الاسكندرية ودخلوا البادية واستولوا عليها ، فاجأ عامل الخليفة المأمون على مصر إلى مصانعتهم وأدى
لهم جانباً من المال على أن يذهبوا ويستعمروا إحدى جزر بحر يونان ، فاختاروا اقريطش ، وكان
المعمور منها قليلاً فنزلوا بها وكان زعيمهم منذ برحوا قرطبة أبو حفص عمر بن شعيب فجمعه أمرأ
عليهم ثم انضم اليهم كثير من المصريين والشاميين والعراقيين وأخذوا يغزون في البحر ويغنمون ثم
كان بناؤهم مدينة « قنديا »

وروى المسيو شينيه Chenier ان الذي بنى قنديا هو أحد قواد الأمير عبدالله بن عبد الرحمن
وكان اسمه « كندش » Gandax فانه بعد موت سيده فارق الأندلس خشية انتقام الحكم منه
وقد ذكر كوندى رواية هذه الحادثة مثل الحميدى ومحمد بن هشام وغيرها . وأما دوزى فقال
ان عدد الذين نزلوا من الرضيين بالاسكندرية كان ١٥ ألفاً عدا النساء والأولاد . وكانت أمور
مصر يومئذ مختلة فلم يقدر العامل على منعهم من النزول . وانفقوا أولاً مع قبيلة من عرب الضواحي
إلى أن تمكنوا ، فاقتلوا مع هؤلاء العرب وهزمهم واستولوا على الاسكندرية . فأرسل الخليفة
للمأمون جيشاً قاتلهم فقاتلوه وثبتوا الى سنة ٨٢٦ مسيحية إلا أن عمال الخليفة تغلبوا أخيراً عليهم
فخرجوا إلى جزيرة اقريطش التي كان منها جانب تابعاً للقسطنطينية فاستولوا عليها وأسس قائدهم
أبو حفص عمر البلوطى - من فحص البلوط - دولة استمرت في اقريطش (أو كريت) إلى سنة ٩٦١
اذ عاد الروم فافتتحوا الجزيرة اه

وجاء في الانسيكلويديا الاسلامية باللغة الافرنسية ان المسلمين احتلوا جزيرة اقريطش سنة
٦٧٣ مسيحية . ولكن المعلومات قليلة عن هذا الدور الأول من احتلالهم . ثم انه في سنة ٨٢٥
استولى على هذه الجزيرة أبو حفص عمر بن شعيب البلوطى وذلك على أثر وقعة الرض في قرطبة
واجلاء الحكم الأموى أهل الرض ومجيئهم إلى الاسكندرية ، فجاءوا إلى جزيرة اقريطش فافتتحوها
كلها ماعدا أرض سفاكيا ، وأرسل ملوك بيزنطية مراراً بالجيوش لطرد المسلمين من هناك فلم
يتمكنوا من ذلك وبقيت هذه الامارة الاسلامية في كريت ١٣٥ سنة ثم بنى المسلمون عند رأس
« شاراكس » عاصمة لهم سموها قانديا وصار هذا الاسم عاملاً لاقريطش

وسنة ٩٦١ جاء القائد البيزنطى نيقفور فوكلس وحاصر قانديا واستفتحها بعد حصار عدة

يقيم الامبراطور ، ثم ذهبوا الى اكسلا شابل حيث كان سينعقد مجلس شورى . وكان
مراد رسل أمير الأندلس عقد متاركة ، وانعقدت ألا انها لم تطل . وفي سنة ٨٢٠

أشهر واستصفي الجزيرة وأخذ آخر امراء المسلمين على الجزيرة عبد العزيز أسيراً ، ومات في
القسطنطينية ، ودخل في خدمة ملك الروم ابنه انماس وفارق الاسلام هذه الجزيرة اذ جلا المسلمون
عنها ، ومن اختار البقاء تنصر

أما استيلاء الأتراك العثمانيين على كريت فبدأ سنة ١٦٤٥ وانتهى سنة ١٦٦٧ وبقيت
للبنادقة بعض مدن فسقطت في أيدي الترك سنة ١٧١٥ اه

وقال ياقوت في معجم البلدان : اقريطش بفتح الهزة وتكسر والفاء ساكنة والراء مكسورة
وياء ساكنة وواء مكسورة وشين معجمة اسم جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر افريقية لوبيا
وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى وينسب اليها جماعة من العلماء . قال أحمد بن يحيى بن جابر
(يعنى البلاذرى) : غزا جنادة ابن أبي أمية الأزدي جزيرة ارواد في سنة ٥٤ في أيام معاوية ثم غزا
اقريطش فلما كان في أيام الوليد فتح بعضها ثم اغلق . وغزاها حميد بن معيوف الهمداني في خلافة
الرشيد ففتح بعضها . ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف
بالاقريطشي فافتتح منها حصناً واحداً ونزله ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم
أحداً وخرب حصونهم وذلك في سنة ٢١٠ في أيام المأمون (هذه رواية البلاذرى في « فتوح
البلدان » عند ذكر فتح الجزائر البحرية)

وقال غير البلاذرى : فتحت اقريطش في أول أيام المأمون ، وقبل فتحت بعد ٢٥٠ على يد عمر
ابن شعيب المعروف بابن الغليظ ، وكان من أهل قرية بوطاروح من عمل فحص البلوط من الأندلس
وتوارثها عقبه سنين كثيرة . وقال ابن يونس : كان أول من افتتحها شعيب بن عمر بن عيسى ،
وكان سمع يونس بن عبد الأعلى وغيره بمصر ، ثم ندب لفتحها فصار اليها حتى افتتحها . وكانت من
أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم الى أن أناخ عليها قفقور بن القفاس الدمستق في خلافة المطيع ،
وتملك أرمانوس بن قسطنطين في آخر جمادى الأولى سنة ٣٤٩ في اثنين وسبعين ألفاً منهم خمسة
آلاف فارس ، ولم يزل محاصراً لها حتى فتحها عنوة بالحرب والجوع في نصف المحرم سنة ٣٥٠
فقتل ونهب وسبي ، وأخذ صاحبها عبدالعزيز بن شعيب من ولد أبي حفص عمر بن عيسى الأندلسي
وأمواله وبنى عمه ، وحمل ذلك كله الى القسطنطينية . وقيل انه حمل الى القسطنطينية من أموالها وسبي
أهلها نحواً من ثلاثمائة مركب وهدموا حجارة المدينة والقوها في المينا الذي دخلت مراكبهم فيه ، لئلا
يدخل فيه بعدم عدو ، وهي الى الآن بيد الإفرنج . ونسب اليها بعض الرواة منهم محمد بن عيسى
أبو بكر الاقريطشي حدث بدمشق عن محمد بن قاسم المالكي روى عنه عبد الله بن محمد النسائي
المؤدب قاله ابو القاسم انتهى

سار اسطول إسلامي من تركونة وغزا جزيرة سردانية فجاء اسطول مسيحي لأجل الدفاع عنها ، فتغلب الأسطول الاسلامي وأغرق المسلمون ثمانية مراكب للمسيحيين وأحرقوا أيضاً مراكب كثيرة .

وقال ابن عميرة في بغية الملتس في تاريخ رجال الأندلس : عمر بن شعيب ، أبو حفص ، المعروف بالغليظ البلوطي من أعمال فحس البلوط المجاور لقرطبة ذكره أبو محمد بن حزم وقال : إنه كان من فل الرضيين وانه الذي غزا اقريطش وافتتحها بعد الثلاثين ومائتين وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبد العزيز بن شعيب الذي غنمها في أيامه أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠ وكان أكثر المفتحين لها معه أهل الأندلس . هكذا قال . وذكره سعيد بن يونس فقال : شعيب بن عمر ابن عيسى أبو عمر صاحب جزيرة إقريطش كان تولى فتحها بعد سنة ٢٢٠ وقد كان كتب شعيب هذا بالعراق وكتب عن جده يونس بن عبد الأعلى وغيره بمصر أيضاً . هذا آخر كلام ابن يونس فقد اختلفا في اسمه أولاً فقال أحدهما عمر بن شعيب وقال الآخر شعيب بن عمر ، ووصفاه بالفتح ، ولولا ذلك لقلنا ان أحدهما ابن الآخر ويحتمل أن يكونا حضرا الفتح انتهى وجاء في صبح الأعشى أن عبد الله بن أبي سرح أمير مصر كان افتتح اقريطش وبقيت بأيدي المسلمين حتى تغلب عليها النصارى في سنة ٣٤٥

وقال ابن حوقل : وكانت اقريطش وقبرص للمسلمين وأبناء المجاهدين ، فداخل أهلها من الحسد والنكد ما داخل أهل الثغور الجزرية والشامية وأهل ذلك البلد من الفسق والفساد والشح والعناد والفسيلة والسفاد فجعلوا عبدة للمعتبرين وموعظة للناظرين ، ولا يصلح الله عمل المفسدين ولا يضيع أجر المحسنين

وقال في محل آخر : وكان للمسلمين في بحر الروم غير جزيرة جليلة وناحية مشهورة فاستولى العدو عليها مثل قبرص واقريطش ، وكاتنا جزيرتين كثيرتي الخير والمير والتجارة والوارد منها والصادر عنها ، وكانوا يغزون بلاد النصرانية وينكون فيها النكاية الظاهرة يوجبها لهم قربهم من مطالبهم ومجاورتهم بمساكنهم فصمدت النصارى صمدها ووكدت وكدها إلى أن ملكتها جميعاً . وكانت قبرص على غير ما كانت عليه اقريطش من موافقة كانت بينهم وبين المسلمين فيها ، وذلك انها قسيان ، فكانت نصفاً للمسلمين ونصفاً للنصرانية ، وكان للمسلمين بها أمير وحاكم . وجزيرة اقريطش حرة مذ كانت فتحت لم يكن للنصرانية فيها مدخل ولا مخرج الا على طريق الجهاد أو في حين الهدنة والسائلة يدخلونها على شرائط بينهم انتهى

ثم انه قد ذكر السعودي في مروج الذهب ان الخليفة المستعين بالله نفي احمد بن الحبيب الى اقريطش سنة ٢٤٨

وفي تلك السنة مات الحكم ، وتولى ابنه عبد الرحمن ، وكان الحكم موصوفاً بالقسوة جباراً وكان يلقب بأبي العاصي ومن هنا لقبه الافرنج بلفظة ابولاز Abulaz فلما مات الحكم جاء عمه عبد الله يطالب بالامارة كعادته ، وهو الذي كان داخل

ومما يتعلق بجزيرة اقريطش عبارة لابن جبير الأندلسي في كلامه على جزيرة صقلية فقد ذكر أنه صادف رجلاً مسلماً في مدينة اطرايوتش كان قد تحول الى النصرانية وذكر أنه قد عرض للمسلمين هناك من الفتنة في دينهم ومن أسباب النكال ما يدعوهم الى فراق الاسلام قال : فيها قصة اتفقت في هذه السنين القريبة لبعض فقهاء المدينة التي هي حضرة الطاغية ، ويعرف بابن زرعة ، ضغطته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الاسلام والانغماس في دين النصرانية ومهر في حفظ الانجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد في جملة الفسيسين الذين يستفتون في الأحكام النصرانية وربما طرأ حكم اسلامي فيستفتى أيضاً فيه لما سبق من معرفته بالأحكام الشرعية ، وكان له مسجد بازاء داره اعاده كنيسة تعوذ بالله . ومع ذلك فأعلمنا انه يكتم ايمانه فلعله داخل تحت الاستثناء في قوله تعالى (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان)

قال ابن جبير : ووصل هذه الأيام الى هذه البلدة زعيم أهل هذه الجزيرة من المسلمين الفائد أبو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر ، وهذا الرجل من أهل بيت توارثوا السيادة كابرأ عن كابر ، وهو مع ذلك من أهل العمل الصالح كثير الصنائع الأخروية من افتكك الاسرى وبث الصدقات في الغرباء والمنقطعين من الحجاج فارتجت هذه المدينة لوصوله ، وكان في هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه افتروا عليه أحاديث مزورة نسبوه فيها الى مخاطبة الموحدين أيدهم الله فكادت تقضى عليه لولا حارس المدة وتوالت عليه مصادرات اغرمته نيفاً على الثلاثين ألف دينار مؤمنة ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقي بدون مال ، فاتفق في هذه الأيام رضى الطاغية عنه وأمره اياه بالنفوذ لمهم من أشغاله السلطانية . فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وصدرت عند وصوله الى هذه البلدة رغبة منه في الاجتماع بنا فاجتمعنا به فآظهر لنا من باطن حاله ويواطن أحوال هذه الجزيرة ما يبكي العيون دماً . فمن ذلك أنه قال كنت أود لو اباع انا وأهل بيتي لعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ويؤدى بنا الى الحصون في بلاد المسلمين . فتأمل حالاً يؤدي بهذا الرجل مع جلالة قدره الى ان يتمنى مثل هذا التمنى مع كونه مثقلاً عيالاً بينين وبنات ، فسألنا الله عز وجل له حسن التخليص مما هو فيه ولسائر المسلمين من أهل هذه الجزيرة وفارقناه باكياً مبكياً ، واستمال نفوسنا لشرف منزعه وخصوصية شمائله وكنا أبصرنا له ولأخوته بالمدينة دياراً كأنها القصور المشيدة . وشأنهم بالجملة كبير . وكانت له أيام مقامه هنا أفعال جملة مع فقراء الحجاج أصلحت أحوالهم ويسرت لهم الكراء والزاد والله ينفعه بها ويحجزه الجزاء الأوفى

شارلمان لأجل أن يساعده على ابن أخيه . فلما جاء هذه المرة واهرج الأندلس وامرجهما اهتبل الفرنسيين الغرة ليزحفوا مجدداً الى كتلونيه وآرغون فعاثوا ودمروا وأحرقوا وفي سنة ٨٢٠ أمهم بيره Bera أمير برشلونه من قبل فرنسة بمالأة المسلمين سرّاً ، وكان الواشى به أحد القوط ، وكان بيره نفسه قوطياً أيضاً ، وكان من عادة القوط أنه اذا تخاصم اثنان ولم يقدر احدهما أن يثبت دعواه بالبينة تبارزا بالسلاح فالمغلوب منهما يعد مذنباً . وفي ذلك اليوم كان المغلوب « بيره » فقرر حينئذ أنه كان خائناً للفرنسيين . وفي ذلك الوقت ثار نصارى ناباراه على الفرنسيين من شدة عسفهم وظلمهم ، واتفقوا مع المسلمين ، وساموهم مدينة بنبلونه ، فأرسل الامبراطور الكنت أزنار Asnar والكنت ابل Eble لأجل تسكين الثورة ، فانقض عليهما نصارى الجبال وثقفوهما . فأما أزنار ففعلوا عنه لأنه كان من اصل غشقونى أى من أقارب الاسبانيول

قال ابن جبير : ومن أعظم مامنى به أهل هذه الجزيرة ان الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجته أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه أنفة تؤديه الى التطارح في الكنيسة ، فيتنصر ويتعمد ، فلا يجد الأب للابن سبيلا ولا الأم للبت سبيلا، فتخيل حال من منى بمثل هذا في أهله وولده يقطع عمره متوقفاً لوقوع هذه الفتنة فيهم وأهل النظر في العواقب منهم يخافون أن يتفق على جميعهم مااتفق على أهل جزيرة اقریطش في المدة السالفة فانه لم تنزل بهم الملكة الطاغية بالاستدراج الشيء بعد الشيء حالا بعد حال حتى اضطروا الى التنصر عن آخرهم ، وفر منهم من قضى الله بنجاته . قال : ومن عظم هذا الرجل الحمودى المذكور ، في نفوس النصارى ، أنهم يزعمون انه لو تنصر لما بقى في صقلية مسلم . قال : ومن أعجب ماشهدناه من أحوالهم التي تذيب القلوب رأفة وحنانا ان احد أعيان هذه البلدة وجه ابنه الى أحد أصحابنا الحجاج راغباً في أن يقبل منه بنتا بكرا صغيرة السن قد راهقت الادراك فان رضيها تزوجها وان لم يرضها زوجها من يرضاه من أهل بلده وذلك طمعاً في التخلص من هذه الفتنة ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين ، وطال عجبنا من حال تؤدى الى السماح بمثل هذه الودعة المعلقة واسلامها الى يد من يفرها واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق اليها ، كما انا استفربنا حال الصبية ورضاهها بفراق أهلها ورغبة في الاسلام واستمسكاً بعروته الوثقى ، وكان استشارها الاب في ما هم به فقالت : ان أمسكنى فانت مسؤول عني . انتهى باختصار . وقد اوردنا هذه الأمائل ليعلم القارىء كيفية تلاشى الاسلام من اقریطش وصقلية وغيرها من جزائر البحر المتوسط وبعد ذلك من الأندلس ، وذلك بعد فقد المسلمين استقلالهم وسلطانهم السياسى ، والدين لا يمكن حفظه بلا دنيا كما قلنا ذلك مراراً

فأطت بهم رحم القراية نحوه . وأما الكنت إبل فلكونه افرنسياً صريحاً أرسلوه الى الأمير في قرطبة . روى ذلك الدون بوكه

وفي سنة ٨٢٦ ثارت مدينة ماردة ، على عبد الرحمن ، فكتب اليهم لويس بن شارلمان الكتاب الآتي نصه :

« باسم ربنا الاله وباسم مخلصنا يسوع المسيح ، من لويس الامبراطور السعيد بالنعمة الالهية الى الاساقفة والشعب في ماردة . قد اتصل بنا ماتقاسونه من العذاب من جهة الملك عبد الرحمن الذي لا يزال يرهقكم عسراً متبعاً في ذلك طريقة ابيه أبولاز الذي كان يبتزكم أموالكم والذي كان جعل اصدقاءه أعداء وجعل الطائع عاصياً ، فاليوم يريدون أن يحرموكم حريتكم وان يثقلوا كواهلهم بالضرائب وان يمسوا كرامتكم ويهينوكم . وقد علمنا انكم ايتم تحمل الاهانة ودفعتم عنكم ظلم ملوككم ووقفتم في وجه طمعهم وغدرهم . وقد جاءنا هذا الخبر من مصادر عدة ، فأينا ان نكتب هذا الكتاب لتعزيتكم على ما أنتم فيه ولتحريضكم على الثبات في خطتكم هذه . ولما كان هذا الملك البربري عدواً لنا ، كما هو عدولكم ، فاننا حاضرون للاشتراك معكم في قتاله . ومرادنا في هذا الصيف بعون الله تعالى أن نرسل جيشاً يجتاز البيرانه ويكون حاضراً للعمل باشارتكم ، فان كان عبد الرحمن سيزحف اليكم فيكون جيشنا بالمرصاد له ، وترانا نعلمكم من الآن انكم ان كنتم تخلمون طاعة عبد الرحمن وتصيرون من رعايانا فنحن حاضرون ان نعيد اليكم حريتكم الأولى ، بدون مساس بها وبدون ان نطالبكم بأدنى مال تؤدونه لنا ، وانتم تختارون القانون الذي تريدون ان تسيروا عليه ، ونحن نعاملكم كأصدقاء يريدون أن يشتركوا في الدفاع عن سلطتنا ونسأل الله أن يسبغ عليكم أبواب العافية » انتهى

وفي ذلك الوقت عقد الامبراطور لويس ندوة عامة في اكسلاشابيل ، حضرها ابنه بين وسائر أمراء البلاد المجاورة لاسبانية ، وأعلن الامبراطور عزمه على غزو الأندلس للاخذ بالثار . وكان في اكسلاشابيل قائد قوطي اسمه عيسون Aizon التجأ بزعمه الى الامبراطور ، فما شعروا به إلاّ وقد انسل من هناك خفية ، وجاء وأثار

الأهالي في كتلونية وآراغون ، واستولى على مدينة أشونة Assuna واجتاح البلاد التي كانت تحت احتلال الفرنسيين ، وأرسل يستنجد أمير قرطبة ، ولما أبطأ عليه الامداد ذهب بنفسه الى قرطبة لأجل الاستعجال في التعبئة والنجدة فصرح عبد الرحمن جيشاً بقيادة عبيد الله أحد ابناء عمه ، وسار هذا الجيش ومعه عيسون ، وأغدوا السير ، بينما الجيش الافرسي يسير بطيئاً ، فوصلوا الى برشلونة وجيرونة واجتاحوها ، وتقدموا الى سردانة وملأوا البلاد عيثاً وتدميراً كما جاء في مجموعة بوكه . وكان أهالي ماردة قد أعلنوا الحرب على عبد الرحمن ، وانتظروا نجدة الفرنسيين لهم ، ولكن عبد الرحمن ضيق عليهم الحصار وجرعهم أمراً كؤوسه ثلاث سنوات حتى دخلوا في طاعته صاغرين ورجعوا داخرين بعد أن كانوا فالخرين . وفي تلك الأيام ازداد عيث قرصان النرمندانين في سواحل فرنسة والمانية وانسكطرة واسبانية ، بينما قرصان افريقية والأندلس تجعل في سواحل فرنسة وإيطالية غدوها ورواحها ، فعيل صبر بونيفاس امير كورسيكة وأرسل مراكب الى افريقية فاجتاحت ساحل قرطجنة للأخذ بالثار . وقد ذكروا انه كان للمسلمين لذلك العهد بارجة متناهية في الكبر يظنها الرأي من بعيد سورا عالياً سائراً في البحر غزت مرة جزيرة اوى Oye في بريطانيا عند مصب نهر لوار ولكن لم نعلم من آثارها شيئاً غير هذا

ولا يخفى ان هذه الوقائع كانت تترأكم كلها في أيام الامبراطور لويس الخليم الذي كان هو بنفسه فائل الرأي ضعيف العزيمة سيء الادارة فاقد الارادة ، قسم مملكته بين أولاده الثلاثة ، وسلم الى كل حصته ، ثم بداله أن يعيد القسمة وأن يجعل نصيباً لولده الرابع ، فثار أولاده عليه وقتلوه وخلعوه ، ورجع إلى العرش ، ولكن لم ترجع مهابته وامتلات أيامه بالفتوق والآفات بحيث أنه أصدر سنة ٨٢٨ منشوراً يقول فيه ان الجماعة والطاعون وسائر اصناف الآفات السماوية انقضت على شعوب سلطنتنا ما يدل على غضب الله تعالى من أعمالنا غير المستقيمة . ثم أمر الامبراطور بصيام عام وواجتماع الاساقفة في أربع حواضر ، منها مدينة طلوزة ، وذلك لأجل المذاكرة في التدابير اللازمة لمعالجة هذه الحال

اما العلاقات التجارية ، بين مملكة شرلمان وبين مصر والشام ، فلم تنقطع في وقت من الأوقات . وفي سنة ٨٣١ تجددت المواصلات بين الخلافة العباسية والسلطنة الغرية ، وقد تقدم وفد من قبل الخليفة المأمون إلى فرنسا مؤلف من ثلاثة اثنان منهما مسلمان والثالث مسيحي . وجاءوا الى الامبراطور بهدايا منها منسوجات فاخرة ومنها افالويه عاطرة

وكانت الحرب لاتزال مشتعلة في جبال البيرانه ، بين جيوش أمير الأندلس وجيوش فرنسا ، فاجتاح الأمير عبید الله ابن عم الأمير عبد الرحمن في سنة ٨٣٨ البلاد التي كانت تحتلها جيوش الفرنسيين ، كما ان هؤلاء اجتاحوا من بلاد قشتالة ما كان تابعا للملك قرطبة ، وسار أسطول للمسلمين من تركونة ومعه اسطول آخر من جزيرتي ميورقة ويااسة . وهاجم المسلمون مرسلية وانزلوا العساكر في نواحيها واستولوا على ضواحيها وساقوا جميع الرجال حتى الرهبان اسرى . والمظنون انه في تلك الغزوة حصلت الحادثة المنسوبة الى القديسة اوزيبيا Gusebia رئيسة دير الراهبات في مرسلية والأربعين راهبة اللاتي كنَّ في ذلك الدير ، وذلك انهنَّ خشين من ان الغزاة يتجاوزون على اعراضهن ويلحقون بهن المرات فشوهن خلقة انفسهن بجمع انوفهن حتى يكن بئامن من تجاوز غزاة العرب

ومات الامبراطور لويس سنة ٨٤٠ فوقع الخلف بين اولاده ، واغتم المسلمون هذه الفرصة فدخلوا من مصب نهر الرون ، كما جاء في مجموعة مؤرخي فرنسا للدون بوكه ، وعاثوا في مدينة آرل ونواحيها . وفي الوقت نفسه اغار موسى أمير تطيلة في بلاد نابار وأوغل حتى بلغ أرض سردانة ، واكتسح تلك البلاد^(١) وكانت في تلك الأيام قد ساءت الأحوال في فرنسا الى الدرجة القصوى بسبب

(١) أشار رينو الى هذا الخبر تقالعا عن المقرئ . وقد راجعنا كلام المقرئ في النفح ، فرأيناه يقول : انه في سنة سبع وعشرين ومائتين بعث عبد الرحمن العساكر الى أرض الفرنجة واتيها الى أرض برطانية وكان على مقدمة المسلمين موسى بن موسى عامل تطيلة ولقبهم العدو فصبر حتى هزم الله عدوه وكان لموسى في هذه الغزاة مقام محمود

الحروب الداخلية ، وأصبحت قد انتثر سلكها وتعطلت حلالها وتقاسم جنوبي فرنسا ثلاثة ملوك : الامبراطور لوثير Lothaire والملك شارل الأضلع والملك الشاب بين ابن بين الذي كان ملكاً على ا كيتانية . ثم ثار أمير اسمه فولكراد Folcrade على الامبراطور وسمى نفسه كنت آرل وروفس . وقد بلغ حب الشقاق وفساد الأخلاق ان الكثيرين من سلالة شارل مارتل وبين القصير وشارلمان كانوا يستنجدون بالأعداء الأجانب بعضهم على بعض

ولم تكن ايطالية بأحسن حالا من فرنسا لأن المسلمين كانوا استولوا على جزيرة صقلية ، وكان اثنان من أمراء المسيحيين يتنازعان الامارة في بلاد بينيفنتي بقرب نابولي ، فاستنجد كل منهما بالمسلمين الذين كانوا في صقلية ، فدخل المسلمون الى الأرض الكبيرة واستولوا على قسم كبير منها (١) .

(١) جاء في فوح البلدان للبلاذري تحت عنوان « فتح جزائر في البحر » مايلي :

قالوا: غزا معاوية بن حديج السكندی أيام معاوية بن أبي سفيان سقلية ، وكان أول من غزاها ، ولم تزل تغزى بعد ذلك فقد فتح آل الأغلب بن سالم الافريقي منها نيفاً وعشرين مدينة وهي في أيدي المسلمين (أي في القرن الثالث للهجرة) وفتح أحمد بن محمد بن الأغلب منها في خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله قسريانة وحصن غليانة . وقال الواقدي: سبي عبد الله بن قيس بن مخلد الدرقي سقلية فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجوهر فبعث بها إلى معاوية فوجه بها معاوية الى البصرة لتحمل الى الهند فتباع هناك ليثمن بها . قالوا : وكان معاوية بن أبي سفيان يغزى برأ ويحرا فبعث جنادة ابن أمية الأزدي الى رودس وجنادة احد من روى عنه الحديث ولقأ أبا بكر وعمر ومعاذ بن جبل ومات في سنة ٨٠ ففتح رودس عنوة وكانت غيضة في البحر وأمره معاوية فانزلها قوماً من المسلمين وكان ذلك في سنة ٥٢

قالوا: ورودس من أخصب الجزائر وهي نحو من ستين ميلا فيها الزيتون والكروم والثمار والمياه العذبة . قال البلاذري : وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي وغيره قالوا اقام المسلمون برودس سبع سنين في حصن اتخذهم ، فلما مات معاوية كتب يزيد الى جنادة بأمره بهدم الحصن وبالقتل . وكان معاوية يعاقب بين الناس فيها وكان مجاهد بن جبر مقبياً بها يقرئ الناس القرآن . وفتح جنادة ابن أمية في سنة ٥٤ أرواد وأسكنها معاوية المسلمين وكان ممن فتحها مجاهد وتبع ابن امرأة كعب الاحبار وبها اقرأ مجاهد تبيعا القرآن . ويقال انه اقرأه القرآن برودس . وارواد جزيرة بالقرب من القسطنطينية (ان جزيرة ارواد هي قبالة طرطوس بالقرب من طرابلس الشام فاما أن يكون وقع خطأ من البلاذري في تعيين موقع أرواد واما أن يكون المقصود بارواد هذه جزيرة أخرى في

وفي سنة ٨٤٦ جاء غزاة العرب الى رومة وصعدوا في نهر الطير ونهبوا كنائس

الارخبيل الرومي كان العرب يسمونها ارواد) وغزا جنادة اقرطش فلما كان زمن الوليد فتح بعضها ثم أغلق وغزاها حميد ابن معيوف الهمداني في خلافة الرشيد ففتح بعضها، ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالأقريطشي وافتتح منها حصنا واحداً ونزله ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم أحد وأخرب حصونهم انتهى. وهذه الرواية قد تقدمت بحرفها

ثم قال البلاذري : وبالغرب أرض تعرف بالارض الكبيرة وبينها وبين برقة مسيرة خمسة عشر يوماً أو أقل من ذلك قليلاً أو أكثر قليلاً وبها مدينة على شاطئ البحر تدعى باره وكان أهلها نصارى وليس بروم غزاها جبلة مولى الأغلب فلم يقدر عليها ثم غزاها خلقون البربري ويقال انه مولى لربيعة ففتحها في أول خلافة المنوكل على الله وقام بعده رجل يقال له المفرج بن سلام ففتح أربعة وعشرين حصنا واستولى عليها وكتب الى صاحب البريد بمصر يعلمه خبره وانه لا يرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة الا بأن يعقد له الامام على ناحيته ويوليه اياها ليخرج من حد التغلبين وبنى مسجداً جامعاً ، ثم ان أصحابه شغبوا عليه وقتلوه ، وقام بعده سوران فوجه رسوله الى أمير المؤمنين المنوكل على الله يسأله عقداً وكتاب ولاية ، فتوفي قبل أن ينصرف رسوله اليه ، وتوفي المنتصر بالله وكانت خلافته ستة أشهر ، وقام المستعين بالله أحمد بن محمد بن المعتصم بالله فأمر عامله على المغرب ، وهو أوتامش مولى أمير المؤمنين ، بأن يعقد له على ناحيته فلم يشخص رسوله من سر من رأى حتى قتل أوتامش وولى الناحية وصيف مولى أمير المؤمنين ، ففقد له وأنفذه. انتهى .

قلت : إن الأرض الكبيرة هذه هي أرض ايطالية التي تقابل سقلية . ومدينة باره التي ذكرها البلاذري هي قاعدة مقاطعة اسمها باره وهي على بحر الادرياتيك والاطليان يقولون لها بارى Bari . وجاء في تاريخ ابن الأثير في الجزء السابع في حوادث سنة ٢٢٨ ما ملخصه : ان الفضل بن جعفر الهمداني سار في البحر فنزل مرسى مسيني وبت السرايا فغنموا غنائم كثيرة واستأمن اليه أهل نابل وسنة ٢٢٩ خرج أبو الأغلب العباس بن الفضل في سرية فبلغ مدينة « شره » فقاتله أهلها قتالاً شديداً ، ولكنهم انهزموا وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف . وفي سنة ٢٣٢ ضيق الفضل ابن جعفر الهمداني على مدينة مسيني وأمكن لهم في بعض الوقائع ، فوقعوا في السكين ولم ينج منهم إلا القليل ، فسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وسلموا المدينة إلى المسلمين. وفي تلك السنة أقام المسلمون بمدينة طارنط من أرض انكبودة وسكنوها سنة ٢٣٤ استولى المسلمون على مدينة تراغوس وهدموها وأخذوا منها ما أمكن حمله وسنة ٢٣٥ غزا المسلمون مدينة قصر يانة .

وكان الأمير على سقلية محمد بن عبد الله بن أغلب وكان مقياً بمدينة بلارم لا يخرج منها إلا للغزو وتوفي سنة ٢٣٦ وكانت امارته تسع عشرة سنة . ثم ذكر ابن الأثير فتح قصر يانة بعد ذلك ، وقاله

القديسين بطرس وبولس وغزوا أيضا جنوة وعطلو اسدود نهرها، فنفر الأهالي وقتلواهم

انه سنة ٢٤٤ فتح المسلمون قسريانة على يد العباس بن الفضل بن يعقوب الذي تولى امانة سقلية بعد محمد بن عبد الله بن الأغلب المتوفى سنة ٢٣٦ وان العباس هذا كان غزا نواحي قسريانة ونهب وأحرق ليخرج إليه البطريق فلم يفعل ، وأنه سنة ٢٣٨ خرج العباس في جمع عظيم وآتى قطنانية وسرقوسة ونوبطس وراغوس فنغم من جميع هذه البلاد وفي سنة ٢٤٢ سار العباس في جيش كثيف ففتح حصوناً حجة ، وسنة ثلاث وأربعين نزل على القصر الجديد وحصره وما زال يضيق عليه حتى تسلمه وأنه في سنة ٢٤٤ أرسل جيشاً في البحر فلقبهم أربعون شلنديا للروم فاقتلوا أشد قتال فانهمز الروم وأخدمتهم المسلمون عشرة شلنديات برجالها ثم غزا العباس قسريانة ووقع في يده رجل من هناك دله على أماكن من سور المدينة دخل منها ووضع السيف في الروم ففتحوا الأبواب وتسلم البلدة وغنم منها ما يفوق الوصف وكان ملك القسطنطينية أرسل ثلاثمائة شلندي ملأى بالعساكر فوصلت إلى سرقوسة (سيراكوزا Syracusa) فخرج إليهم العباس وقتلهم فبزمهم وغنم منهم مائة شلندي .

قال: وفي سنة ٢٤٦ نكت كثير من قلاع سقلية وهي سطر وابلية وابلاتونو وقلعة عبد المؤمن وقلعة البلوط وقلعة أبي ثور فخرج العباس إليهم فاقتتل مع الروم فانهمز الروم ثم سار إلى قلعة عبد المؤمن وقلعة بلاطونو فحصرها فجاءه الخبر بأن كثيراً من عساكر الروم قد وصلت فزحف إليهم ، فتلاقوا بمجفلودي ، وجرى بين الفريقين قتال شديد فانهمزت الروم وعادوا إلى سرقوسة . وسنة ٢٤٧ سار العباس إلى سرقوسة ، ثم إلى غيران قرقنة ، فاعتل ذلك اليوم ، ومات بعد ثلاثة أيام ثالث جمادى الآخرة فدفن هناك فنبشه الروم وأحرقوا جسده وكانت ولايته إحدى عشرة سنة وأدام الجهاد شتاء وصيفاً وغزا أرض قلورية وانكبردة وأسكنها المسلمين انتهى .

قلت: ان مدينة طارنت التي مر ذكرها هي في الأرض الكبيرة في مقاطعة أوثرانتة وان أرض قلورية التي يشير إليها ابن الأثير وانكبردة هما الآن كالبرية Calabria وقد جاء ذكرها في معجم البلدان لياقوت قال : قلورية بكسر أوله وتشديد اللام وفتحها وسكون الواو وكسر الراء والياء مفتوحة خفيفة وهي جزيرة في شرقي صقلية (العرب يسمون شبه الجزيرة جزيرة) وأهلها افرنج ولها مدن كثيرة وبلاد واسعة ينسب إليها فيما أحسب أبو العباس الفلوري روى عن أبي اسحاق الحضرمي وغيره وحدث عنه أبو داود في سننه . ومن مدن هذه الجزيرة قيوبة ثم بيش ثم نامل ثم ملف ثم سلوري . قال ابن حوقل : وهي جزيرة داخلية في البحر مستطيلة أولها طرف جبل الجلالة وبلادها التي على الساحل قسانة وستانة وقطرونية وسبرسة واسلو حراحة وبترقوقة وبوه . ثم بعد ذلك على الساحل جون البناديقين وفيه جزائر كثيرة مسكونة وأمم كالشاغرة وألسنة مخزلفة بين افرنجيين وألمانين وصقالبة وبرجان وغير ذلك . ثم أرض بلبونس واغلة في البحر شكلها شكل قرعة مستطيلة

(قلت يريد بيلبونس Pélouponèse وهي شبه جزيرة المورة . وكان العرب يقولون لكلازرة قنطرة أيضاً)

قال المسعودي في مروج الذهب عند ذكراة النوبرد ويريد بهم اللومبردين : ان المسلمين ممن جاورهم كانوا غلبوهم على مدن كثيرة من مدنهم مثل مدينة باره وطارينتو ثم قال : ان مدينة طارينتو ومدينة سيرين وغيرهما من مدنهم الكبار سكنها المسلمون مدة من الزمان ثم ان النوبرد انابوا ورجعوا على من كان في تلك المدن من المسلمين فأخرجوهم عنها بعد حرب طويل ، وما ذكرنا من المدن في وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة في أيدي النوبرد انتهى

ومن هذا كله يعرف أن المسلمين لم يقتصروا على فتح جزيرة صقلية ، بل تجاوزوها الى الأرض الكبيرة ولبثوا فيها زمناً طويلاً إلى أيام فريديك الثاني امبراطور المانية وملك صقلية الذي عاش في أوائل القرن الثالث عشر للمسيح وكان قد اتخذ جيشاً من المسلمين وكان يعرف العربية معرفة جيدة انتهى وقال الاستاذ الشيخ محمد الخانجي البوسنوي من مدرسى المعهد العلمي الحسروي في مدينة سراي بوسنة في مقدمة كتابه « الجواهر الأسنى في تراجم علماء بوسنة » فتحت جزيرة صقلية بتامها سنة ٢١٣ على يد قاضي القيروان عالم زمانه أسد بن الفرات صاحب المدونة الأسدية وكان رجلاً صالحاً فقيهاً أدرك مالك بن أنس ورحل اليه . فبقيت صقلية بأيدي المسلمين مدة واهتدى أهلها فصاروا مسلمين وبنوا بها الجوامع حتى أنه كان في مدينة واحدة من مدنها وهي « بلرم » نيف وثلاثمائة مسجد ، قال ابن حوقل : رأيت في بعض الشوارع من بلرم على مقدار رمية سهم عشرة مساجد . ودام ملك المسلمين لصقلية الى سنة ٤٦٤ ؛ وبعد زوال ملكهم منها بقي فيها الاسلام مدة مديدة . وقد ظهر من صقلية من أهل العلم عدد كثير تراجمهم موجودة . وكان الاسلام جاوز البحر من صقلية الى أرض فلورية من بلاد ايطاليا واستولى المسلمون على عدة بلاد منها كريبو وباره وطارنت وكانوا قرعوا أبواب رومية مقر البابا رئيس النصرانية . وبنى بمدينة « ريو » أبو الغنائم الحسن بن علي ابن الحسين الكاكي مسجداً كبيراً في وسطها وذلك سنة ٣٤٠ وكل هذه البلاد التي ذكرناها خلت بمرور الزمان من الاسلام والمسلمين وعفت فيها آثارهم واندرست معالمهم (وتلك الأيام نداؤها بين الناس) انتهى .

وقد مر ابن جبير الأندلسي بجزيرة صقلية وهو قافل من الحج سنة ٥٦٠ وكانت خرجت من ملك الاسلام ، ولكن كان المسلمون لا يزالون يسكنون فيها ، قال ابن جبير : خصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف وكنى بأنها ابنة الأندلس في سعة العمارة وكثرة الخصب والرفه مشحونة بالأرزاق على اختلافها مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها ، لكنها معمورة بعبدة الصلبان يمشون في مناكبها ويرتعون في أكنافها والمسلموت معهم على أملاكهم وضياعهم قد أحسنوا السيرة في استعمارهم واصنطاعهم ضربوا عليهم اتاوة في فصلين من العام يؤدونها وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يحدونها والله عز وجل يصلح أحوالهم ويجعل العقبي الجميلة مألهم . قال : وليس في مسيني إلا نفر يسير من

وحمل الرهبان والقسيسون السلاح (١)

ولم تكن الأندلس بأسعد حالا في تلك الأيام لأن الفتن كانت تصطلحها . والآفات تنيخ عليها بكلها فانضم الى الفتن المجاعة والقحط والجراد وغزو النورمنديين الذين

ذوى المنين وذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب . وأحسن مدنها قاعدة ملكها والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصاري يعرفونها بيلمة وفيها سكن الحضريين من المسلمين ولهم فيها المساجد وسائر المسامين بضياها وجميع قرأها وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها لكن المدينة الكبيرة التي هي مسكن ملكها غليام أكبرها وأحفلها .

وشأن ملكهم هذا عجب في حسن السيرة واستعمال المسلمين وكلهم أو أكثرهم متمسك بشريعة الاسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله حتى ان الناظر في مطبخه رجل من المسلمين ، وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم فائد منهم . ومن عجب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلننا به أحد خدمته (الحمد لله حق حمده) وكانت علامة أبيه (الحمد لله شكراً لأنعمه) .

وأما جواربه وحظاياه وقصره فمسلمات كلهن ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى ابن فتيان الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك أن الأفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسامة تعيدها الجوارى المذكورات ، وأعلننا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة دعر لها هذا الشرك فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه وفتياته وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليدكر كل أحد منكم معبوده .

وأما فتياته الذين هم عيون دولته فهم مسلمون ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً ويتصدق تقرباً الى الله ويفتك الأسرى ويربى الأصغر منهم ويزوجهم وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمي هذه الجزيرة لقينا منهم بمسينة فتى اسمه عبد السبيح من وجوههم بعد مقدمة رغبة منه إلينا في ذلك فاحتفل في كرامتنا وبرنا وأخرج إلينا عن سره المسكنون بعد مراقبة منه في مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه فسألنا عن مكة قدسها الله وعن مشاهد العظمة وعن مشاهد المدينة المقدسة ومشاهد الشام فأخبرنا وهو يذوب شوقاً وتحرقاً واستهدى منا بعض ما استصحبناه من الطرف المباركة من مكة والمدينة وقال لنا أنتم معلون بظهار الاسلام فائزون بما قصدتم له ونحن كاتمون إيماننا خائفون على أنفسنا متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سراً فغايقتنا التبرك بقاء أمثالكم من الحجاج والاعتباط بما تلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة لتخذها عدة للإيمان وذخيرة للاكفان ففطرت قلوبنا له إشفافاً ودعونا له بحسن الخاتمة .

(١) جاء ذلك في مجموعة البولنديين ، وفي تاريخ مدينة نيس للسيو لويس دورنت ، وفي مخطوط

لؤلؤ اسمها أغيو فريدمو محفوظ في مكتبة تورينو .

أخذوا ينزلون في أشبونة واشبيلية ويفسدون في أرضهما .

وفي سنة ٨٤٨ عاد المسلمون فغزوا مرسلية وجميع الساحل الى جنوة ، كما جاء في مجموعة الدون بوكه ، وكان الملك بين شاباً وكان في حرب مع عمه شارل الاصلع ، فطلب بين مساعدة المسلمين له وأرسل إلى قرطبة غليوم كونت طلوزة حفيد البطل غليوم الذي اشتهر في حروب المسلمين وتلقب بالقديس ، كما سبق الكلام عليه ، فقال غليوم ما أراه وأحبهو بعساكر تمكن بها بين من اخراج عمال شارل الأصلع من برشلونة ومن مدت أخرى من كتلونية . وكان قرصان المسلمين قد نزلوا في سواحل آرل ، واضطروا المعاكسة الريح أن يتأخروا في الساحل ، فحمل الأهالي السلاح من كل جهة وذبحوهم . ولكن في تلك المدة زحف جيش من المسلمين يقوده موسى عامل سرقسطة وتقدم من جهة اورجل Urgel وريباغورسة Ribagorsa ولم يزل يشحن في أرض الفرنسيس ويقتل ويسبي الى ان اضطر الملك شارل الأصلع أن يطلب من المسلمين الصلح ولم ينله الا بتقديم هدايا ثمينة كما جاء في مجموعة الدون بوكه

وفي سنة ٨٥٠ وقعت نكبة على مسيحي الأندلس ، وحصلت حوادث في قرطبة وصل خبرها الى فرنسا . وتجرب الخبر أن الشرع الاسلامي يطلق لأهل الذمة الحرية الدينية ولا يجبرهم الا على اداء الجزية ، ولكن اذا تزوج مسلم بمسيحية فالأولاد يجب أن ينشأوا على دين الأب ، كذلك اذا أسلم مسيحي أو مسيحية فأولاده معدودون من المسلمين اذا كانوا قاصرين ، فاذا بلغوا سن الرشد وأرادوا الرجوع عن الاسلام فلا يحق لهم ، وكذلك اذا قذف أحد المسيحيين نبي الاسلام فليس أمامه سوى الاسلام أو الموت

وقد كان الزواج المختلط كثير الوقوع في الأندلس ، فطالما تزوج مسلمون بمسيحيات . وقد كانت المرأة المسيحية المتزوجة بمسلم كثيراً ماتلقن بناتها قواعد النصرانية فيحصل بسبب ذلك نزاع شديد في العائلات . وفي ذلك الوقت كان في قرطبة قسيس متضلع في اللغة العربية اسمه بهارفكتس ، وكان قد شاع ان بهارفكتس في احدى المرات تلفظ بالشهادتين وأسلم ، فصادفه بعد ذلك أناس من المسلمين وسألوه عن رأيه في نبي الاسلام

(صلى الله عليه وسلم) فامتنع أولاً عن الجواب فألحوا عليه في تعيين رأيه ، فأجاب بجواب نال فيه من الرسول . وقيل ان المسلمين ذلك اليوم لم يتعرضوا له بسوء ، ولكنه بينما كان ماراً فيما بعد في أحد الشوارع جاء احد المسلمين واغرى العامة بالهجوم على القسيس قائلاً لهم : إن هذا هو الذى قذف بالنبي . فهجمت العامة عليه ، وذهبوا به إلى القاضى ، فسأله عما عزى اليه من القذف ، فلم ينكر كلامه ، بل أيده امام القاضى فاضطر القاضى أن يحكم عليه بالقتل ، وكان ذلك في شهر رمضان فلم ينفذ فيه الحكم الى أن انسلخ الشهر وجاء العيد فقطعوا رأسه بمحضر من جم لا يحصى من الأهالي (١) .

فكان لهذه الحادثة صدى بعيد واثارت من أجلها الخواطر ، وكان المسيحيون كثيرى العدد فى الأندلس وفى نفس قرطبة مركز السلطنة وكان المسلمون تركوا لهم كثير من كنائسهم وأديارهم ، وكانت لهم أديار للرهبان وأخرى للراهبات ، وكان من المسيحيين كثير من المستخدمين فى القصر الملكى لاسيما ان القصر كان يحتوى عدداً عظيماً من الصقالبة . فكثرت من أجل ذلك المنازعات الدينية وصارت تتقدم الشكايات على بعض المسيحيين بأنهم قذفوا بالرسول فيؤتى بهم إلى القاضى فيسألهم فلا ينكرون فيحكم القاضى عليهم بالقتل ، ولأجل أن لا يأخذ المسيحيون أجسادهم ويحفظوها ذخائر كان الحكام يحرقون أجساد المحكوم عليهم بالقتل ويرمون رمادها فى النهر وقيل أنهم كانوا يطرحون بعضها للكلاب

وقد كان تأثير هذه الشدة بعكس ما أمل رجال الحكم فانه وجد من المسيحيين من كان يتهافت على القذف بالرسول (صلى الله عليه وسلم) ليقتلوه ويصير شهيداً . وقتل بهذا الشكل أناس كثيرون ومن جملتهم رجل اسمه « سانشو » من فرنسة كان مستخدماً فى القصر ، واثنان من الحصيان فى القصر أيضا ، وأكثر من تهافت على القذف بالرسول لنيل الشهادة المتحمسات من النساء المسيحيات (٢)

(١) ان الكنيسة جعلت بهار فكتس هذا قدسياً وله عيد كل سنة فى ١٨ ابريل .

(٢) سنذكر هذه الحوادث ونستوفى هذا الموضوع فى الأجزاء التالية إذ ليس له تعلق بما نحن بصدده الآن ، وإنما ذكرنا ما قاله رينو بطريق الاستطراد لأن فيه شيئاً ما يتعلق بملك فرنسة فى علاقته مع ملك الأندلس .

وأخيراً عقد اساقفة المسيحيين مجعاً قرروا فيه ان التحرش بهذا الموضوع أى القذف بنبي الاسلام عمداً ، حبا بالقتل ونيل الشهادة ، هو مخالف لروح الانجيل . ثم ان الملك شارل الأصلع تدخل في هذه المسألة ، بناء على التماس المسيحيين منه ، لأنه قد أصابهم في البلدان الشمالية من إسبانية ما أصابهم في قرطبة

ولما تفاقم هذا الأمر اشتد غضب عبد الرحمن الثانى على المسيحيين ، وطرده من قصره جميع الذين كانوا مستخدمين فيه منهم . ثم مات عبد الرحمن سنة ٨٥٨ وخلفه ابنه محمد ، وفي أول أمره شدد أيضاً في معاملة المسيحيين حتى فكر في اخراجهم جميعاً من مملكته ، ولكنه عاد فعدل عن فكره بسبب توالى الثورات وعدم مؤاتاة الوقت له . وكانت الحرب لا تزال مشتعلة في كتلونية ، وكان موسى أمير سرقسطة قد ظفر بالمسيحيين في بعض الوقائع إلا أنه انكسر في آخر الأمر وتغلب عليه ملك اشتورية فعزله الأمير محمد من إمارة سرقسطة ، فاستشاط غضباً وانحاز الى المسيحيين ، وزوج ابنته بفرسية ملك ناباره ، وثار في أثناء ذلك مدينة طليطلة

ثم ان المسلمين غزوا أيضاً جزيرتي سرديانية وكورسيكة ، واشتدت الفوضى وانتشر الجبل في بلاد فرنسة ، فكنت ترى الكنائس مهذمة والمدن خراباً واللصوص اسراباً والناس يتركون ديارهم ويضربون في الأرض طلباً للامان ، ومنهم من فضل الموت على ترك أرضه ، ومن الأهالى من كان ينضم الى الغزاة طمعاً فى السلب .

وبينا الحال هكذا فى فرنسة لم تكن الاندلس بأسعد منها ، اذ ثار فيها رجل يقال له عمر بن حفصون - كان مسيحياً فأظهر الاسلام - واعصوب حوله جيش من اللصوص وقطاع الطرق ، فنار على الأمير محمد وجاذبه الجبل وصارت الأندلس فى أمر مريع ، واضطر الامير الى مسالمة ملك فرنسة شارل الأصلع ليتفرغ لامر ابن حفصون ، وجاءت رسل شارل الى قرطبة وكان ذلك سنة ٨٦٦ وتقرر ان تبقى كتلونية بيد الفرنسيين ، وعاد رسل شارل بهدايا ثمينة من قرطبة ومعهم ابل بمحذائج مزينة . وهكذا تقضى حوادث الزمن على الملوك بمصافاة ذوى الشحنة ومهاداة الاعداء

وفى سنة ٨٦٩ جاء غزاة العرب فنزلوا فى بروفانس فى محل يقال له كامرغ

Camargua وهو جزيرة مشككة من نهر الرون ، وفيها أملاك للمطران رولان رئيس اساقفة آرل . فلما نزل المسلمون في هذه الجزيرة صادفوا المطران هناك يتعهد مزارعه فقبضوا عليه وقتلوا ثلاثمائة من رجاله وساقوه الى أحد مراكزهم ، فجاء المسيحيون لأجل ان يفكوه بفدية ، فطلب المسلمون به مئة وخمسين ذهباً و ١٥٠ ثوباً و ١٥٠ سيفاً و ١٥٠ عبداً ، فرضى المسيحيون بتقديم هذه الفدية ، فجمعوها وقدموها لأجل انقاذ المطران ، وكان هذا في أثناء جمعها قد فارق الحياة بما أصابه من الرعب فكتم المسلمون موته حتى يقبضوا المال . ولما تسلموا جميع الأشياء التي اشترطوها أخرجوا جثة المطران إلى البر ، وألبسوها الثياب التي كانت عليه عند ما كان حياً ، وانصرفوا وكان المسيحيون قد جاءوا جمعاً عظيماً لتهنئة المطران بالخلاص ، فلم يجدوا سوى جثة هامدة ، وتحول فرحهم مآتماً .

ومات شارل الأصلع سنة ٨٧٦ وكان ناوياً أن يذهب بجيش الى ايطالية التي كان المسلمون قد استولوا على نواحيها الجنوبية وأصبح بسبب ذلك البابا في رومة تحت الخطر . وبرغم توالى غزوات المسلمين والترمنديين كان الشقاق بين أمراء فرنسة لا يزال قائماً قاعداً ، حتى نهكت قوى البلاد بأجمعها ، ولم يبق إلا أمل ضعيف يمسك بحشاشتها . وبلغ اختلاف الكلمة وتشظى العصا أقصى ما يتصور العقل

القسم الثالث

نزول العرب في بروفانس وغاراتهم من هناك

على سافواى وببيمونت وسويسرة

الى دور اجلائهم عن فرنة

قال رينو : ان الدور الأخير الذى سنتكلم عنه يشابه الدور الذى تقدمه فى شدة المهاجمات وفى آثار السلب والعيث ، جد المشابهة . وانما الفرق هو فى كون الحوادث السابقة لم تصب الا سواحل فرنة خاصة ، على حين أن الحوادث التى نحن بسبيلها الآن ستمتد إلى بلاد دوفيني ، إلى حدود ألمانية ، وان الحوادث السابقة كانت عبور سبيل ، على حين أن هذه كانت راجعة إلى مركز ثابت مستقر ، وكانت تُندربأن تستمر

وقد بدأ هذا الدور فى سنة ٨٨٩ إذ كان متولياً على بروفنس ودوفيني رجل يقال له بوزون Boson وقد سمي نفسه ملك أرل . ولما كان بوزون المذكور غير منتسب إلى بيت شارلمان الامبراطورى ثقلت امارته على الناس ، وشملهم القنوط ، فكان المكان والزمان مساعدين على نزول غزاة العرب فى تلك الديار

واليك تحرير خبر نزولهم واستقرارهم فى بروفنس بحسب تاريخ ليوتبراند Liutprand فى مجموعة موراتورى وبحسب تاريخ دير نوفاليز Novalise وبحسب مجموعة الدون بوكه وتاريخ بروفنس تأليف بوش Bouche قالوا :

ان عشرين ملاحاً عربياً ركبوا مركباً خفيف القلع من سواحل اسبانية ، قاصدين سواحل بروفنس ، فأخذتهم الريح العاصفة وألقت بهم فى خليج غريمو Grimad الذى يقال له أيضاً خليج سانتروبيز Sant-Tropes فصعدوا الى البر ، لم يصبرهم أحد ، وكان حول هذا الخليج أجمة أشبه بلغ من اشتباك سرحها أن الانسان لم يكن يجرؤ أن يدخل فيها . وإلى الشمال من الخليج كانت سلسلة جبال ، بعضها أعلى من

بعض ، فاذا وصل الانسان إلى قمتها أشرف على قسم كبير من بروفنس السفلى .
فأغار العرب على أقرب قرية من البحر وذبحوا أهلها ، وأخذوا يرودون في الجوار .
ولما وصلوا إلى القمم التي كانت تشرف من جهة على البحر وتناوح من جهة أخرى
جبال الألب ، فهموا حالاً ملاءمة هذا المكان لاستقرارهم فيه ، بصورة دائمة ، فبالبحر
كان لهم باباً لتلقى الامدادات التي قد يحتاجون إليها في بعض الأحيان ، والبر كان لهم
منفذاً إلى النواحي التي يرومون الغارة عليها ، والغابة المشتبكة التي ذكرناها تصلح
لهم معقلاً يلجأون إليه عند الاضطرار .

فلم يظأ هؤلاء القرصان تلك الأرض حتى أرسلوا إلى اسبانية وافريقية ، يستمدون
من إخوانهم الانضمام إليهم ، وبدأوا هم بالعمل في مكائهم . فما مضت عدة سنوات حتى
امتلات تلك الأرض بالحصون والمعقل . وكان أهم تلك الحصون المسمى فركسيناتوم^(١)

(١) اختلف المؤرخون في موقع فركسيناتوم التي شغلها المسلمون مدة طويلة ، فمؤرخو الفرنسيين
يضعون فركسيناتوم في خليج سانتروبيز Saint-Tropez وهو مكان فيه معبر بين فرنسا وإيطاليا
وبقربه جبل يقال له جبل المورو . ومؤرخو الطليان يخالفونهم في تعيين هذا الموقع ، فالؤرخ بوزينو
Bonino يضع فركسيناتوم في بروفنس بقرب آرل وهناك مؤرخ آخر اسمه مونمبريزيو Monbrizio
يضع فركسيناتوم وراء جبال الألب البحرية . ومنهم من جعل هذا المكان بقرب آرل وقالوا ان
العرب نزلوا هناك وفي فريجوس وأنطيب (التي جعلها العرب عين الطيب) وامتدوا إلى قصر نيسة
(التي يقول لها العرب نيقة والفرنسيين يسمونها نيس) إلى مدينة سانريو التي قرأت في دليلها منذ بضع
سنوات ان العرب احتلوها . ومن هناك امتدوا الى مدينة البنفة Albenga .

هذه كانت رحلتهم الأولى . وأما الثانية فهي أنهم ذهبوا من انبرون إلى جيوفني ديمورتانة
Jovanni Di Mortana ومنها تقدموا الى الداخل ونهبوا وأحرقوا دير نوفاليز Novalesa
ودير سانموريس في فاليزية .

والمؤرخون الطليان الذين تكلموا عن نزول العرب في تلك السواحل وهم : بينغوني Pingone
وذي بيني Debene ودلا شيزا Dellachiesa ودورندي Durandi وسيغبرتو Sigeberto
يقولون في أصل مجيء المسلمين إلى هناك انه سنة ٨٩١ جاء قرصان من اسبانية فساقطهم زوبعة إلى
سواحل بروفنس فنزلوا الى البر ووجدوا غابة اسمها فراسينيتو وهو اسم مشتق من أسماء النبات

Fraxinetum الذى يشتق من اسم شجر الدردار الكثير في تلك الجهات . والمظنون أن فرسيناتوم كانت في القرية الحاضرة التى يقال لها غارد فرينه Garde-Frainet الواقعة

الغالب على تلك الأرض ، ثم قاموا هناك وتحصنوا في جبل تسمى باسمهم فيقال له اليوم جبل «مورو» ثم التحق بهم آخرون وتكاثروا وصاروا قوة مذكورة وصار أمراء البلاد يستعينون بهم في قتال بعضهم بعضاً ، وانتشر المسلمون في السفواى ودالقينيو وفاليزيا وليغورية الى جنوة . ومن حكم الظليان الذين دعوا المسلمين لمساعدتهم ووعدهم بالغنائم لمبرتوديسنو ليتو وادالبرتو مركز طوسكانة . اطلعت على ذلك في خزانة كتب عمومية بمدينة جنوة .

ومن أغرب الأمور أن جميع المؤرخين تكلموا عن نزول العرب في فرسينيت عدا مؤرخى العرب أنفسهم ، فتوجد عن هذه الحادثة تواريخ بالأفرنسية والألمانية والاطالية ولكنه لا يوجد تقريباً شىء بالعربية واتما جاء في المسالك والممالك لأبى القاسم بن حوقل الذى كتب رحلته على أثر سفره من بغداد سنة ٣٣١ للهجرة وذلك قوله : وجبل الفلال جبل قديم على مر الزمان فيه مياه وأراض وعمارة وحرث يقوت من نجا إليه فوقع إليه قوم من المسلمين فعمره ، وصاروا في وجوه الأفرنجة لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره في الطول نحو ميلين .

ذكر ابن حوقل هذا في كلامه على بحر الروم . وذكر في محل آخر جزيرة ميورقة وقال .
وميورقة جزيرة لصاحب الأندلس وكذلك جبل الفلال يضاف إلى ذلك العمل .

وورد ذكر جبل الفلال في معجم البلدان لياقوت أثناء كلامه على انسكرودة قال : بلاد واسعة من بلاد الافرنج بين القسطنطينية والاندلس تأخذ على طرف بحر الخليج من محاذة جبل الفلال ، وتمر على محاذة ساحل المغرب مشرقاً إلى أن تتصل ببلاد قلورية .

قلت : يعنى بها بلاد إيطاليا اليوم التى تبتدىء من محاذة جبال الألب وتنتهى بشبه جزيرة كلابرة وفي صبح الأعشى يقول : قلورية تقلا عن تقويم البلدان قال : ويقال لها قلورية بأبدال الفاء واوا

قلت : وكنت أفكر أن جبل الفلال هذا بالأوصاف التى وصفه بها ابن حوقل وياقوت لا تنطبق إلا على الجبل المشرف في سواحل فرنسا على حدود ايطالية ولكنى لم أكن أرضى بمجرد التخصيم وكنت أود لو وقتت على كلام لستدركى الافرنج في هذا الموضوع وكنت تحدثت في هذه المسألة مع الشاب الأجل الفاضل المدقق السيد محمد القاسى من آل الجدل الفهريين بفاس ومن جالية الأندلس ،

وتقدمت إليه في أن يبحث لى في المسكبية الوطنية في باريز لعله يهتدى إلى نص أو نصوص تكشف لنا الغامض وتقدر أن نعين بها ما يريد كتاب العرب بقولهم جبل الفلال فأجابني حفظه الله بالكتاب الآتى نصه بتاريخ ٩ ذى الحجة سنة ١٣٥٠ قال : أخذت كتاب الخزانة العربية الصقلية تأليف

أمارى Amari وهى كما لا يخفى مجموعة نصوص تتعلق بصقلية منقولة عما يقرب من مئة كتاب عربى فوجدته ينقل كلام بن حوقل الوارد في جبل الفلال فأخذت ترجمة الخزانة الصقلية إلى الايطالية وهى

في ذيل الجبل إلى جهة الألب . ومما لاجدال فيه أن مركز هذه القرية كان بغاية الأهمية ، لأنها الطريق الوحيد من الخليج إلى الشمال ، وإلى الآن يجد الناس في أعلى

مفيدة جدا بالتعليق التي جعلها عليها آمارى ويوجد فيها طبعتان كلتاها في سنة ١٨٨٠ واحدة في جزئين من الحجم الصغير والأخرى في جزء واحد من الحجم الكبير وجبل القلال ورد في الصفحة السابعة من الطبعة الكبيرة أما في الترجمة فان آمارى اكتفى بكتابة جبل القلال بالحروف اللاتينية وجعل بين هلالين ترجمة للفظة قلال بمعنى رؤوس الجبال جمع قلة وذكرها بالأفرنسية هكذا Cimes وجعل على هذا تعليقا مضمونه تلخيص كلام المستشرق رينو الذى سأقله لك بالحرف ، وأحل عليه: نشر المستشرق جوين بول كتاب مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع في ثلاثة أجزاء مع أجزاء ثلاثة أخرى للتعاليق باللاتينية وقد ورد فيه جبل القلال في صفحة ٢٣٩ من الجزء الأول وعلقى جوين بول في صفحة ٢٥ من الجزء الخامس قائلا انه كتب إلى رينو الشهير في هذا الباب فأجابه بما يلي سماحه بنشره . وقد نقل لى ولدنا السيد محمد الفاسى كتابة رينو بنصها الافرنسى فأثرت ترجمتها بالعربى وهى هذه :

« في تأليف نشرته سنة ألف وثمانمائة وستة وثلاثين تحت عنوان غارة العرب على فرنسا ومن فرنسا على سفواى وبييمونت وسويسرة في القرون الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى قد ذكرت انه في سنة ٨٨٩ دخل بعض قرصان من الأندلس في أرض فرنسا في خليج غريمينو الذى يقال له ساتروبيز وأنشأوا لأنفسهم في آخر الخليج على قلة جبل معقلا هائلا وهذا المعقل يسميه المعاصرون لذلك الوقت فركسيناتورم والآن تسمى القرية المبنية على سفح الجبل غاردفريته Gadre Frainet والغابة التي تحيط بالجبل اسمها الآن غابة الموراى العرب . كما استقر هؤلاء القرصان في ذلك الموقع المتناهى في المناعة استدعوا اليهم أفاقين آخرين جاءهم من سواحل الأندلس وافريقية ثم انضم اليهم بعض الجياع من أهل البلاد . وساعدتهم القوضى التي كانت ضاربة أطناها فيها فتقدموا في البلاد وقطعوا جبال الالب وانتشروا في السهواى وشمالى ايطالية وسويسرة . وعندما نشرت هذا الكتاب لم تكن النسخة المخطوطة من كتاب الاصطخرى قد نشرت وكنت أظن أن وجود هذا المعقل الاسلامى في قلب النصرانية كان لم يزل مجهولا عند كتاب المسلمين في الاندلس وأفريقية وآسية فأما الآن فقد تحقق عندى ان الاصطخرى وابن حوقل قد سمعا في أثناء اسفارهما بخبر فركسيناتورم من سواحل بروفنس وان كلا منهما لم يهمل ذكر ذلك في كتابه

وأعظم من هذا ان خبر هذا المعقل الاسلامى في قلب اوربة وصل الى أقاصى بلاد العجم فالاصطخرى في صفحة ٣٩ من طبعة كتابه المخطوط يذكر بعض الجزائر مثل صقلية واقريطش وقبرص ثم يذكر جبل القلال، فقد يظن القارىء أن مراده به احدى الجزر التي

الجبل آثار خراب وبقايا عمران : جدراناً متهمة ، وبنياً منحوتاً في الصخر وبشراً
منحوتة في الصخر أيضاً

يحيط بها البحر وفي الاطلس الذي تحت نمره ١١ مذكور هذا الجبل وموضوع في وسط البحر
الى الغرب من صيقيلية يقابله المهديّة وتونس من جهة طرطوشة من الاخرى وكذلك الحال في
الحارطة التي تحت نمره ٥ ولا فرق بينهما سوى ان الجبل في الحارطة الثانية موضوع على مسافة
أبعد الى الغرب على علو مائة والجزائر ومن المعلوم أن الحرائط الملتحقة بكتاب الاصطخرى هي
ناقصة جداً وفيها خطأ كثير نظير الاطلس العربية على وجه الاجمال

ولا يجوز أن ننسى أن اسم جزيرة وشبه جزيرة هو واحد عند العرب كما عند اليونان وترى
الاصطخرى يقول عن جبل القلال ما يطابق موقع فرسيناتوم واليك كلامه : وأما جبل القلال فإنه
كان جبلاً خراباً وفيه ماء وأرض فوق اليه قوم من المسلمين فعمره وثاروا في وجوه الافرنجية
لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره في الطول يومان . ثم أتى على ترجمة هذا الفصل بالفارسية :
جبل القلال كوهي بوده است خراب ودر انجا اب وزمين بسيار قومي از مسلمانان انجا مقام
كرفتنند وآبادان كردنك وثمر فرنگ است وفرنگ برایشان دست نيايدودرازي اين كوه دو روزه
راه باشد

ومن عادة ابن حوقل في رحلته أن يعلق بعض الشرح على كلام الاصطخرى الا أنه في هذا المقام
كانت عبارته مختصرة جداً والملاحظة المهمة التي يلاحظها القارئ في كلامه ان جبل القلال هذا
تابع للأندلس وذلك ان علماء العرب يطلقون لفظة الأندلس على جميع بلدان الجنوب الغربي من
اوربة التي دخلت في طاعة المسلمين (انظر الى ترجمتنا لجغرافية أبي القداء صفحة ٢٣٤ وصفحة
٣٠٨) وهكذا كانت بلاد بروفنس في القرن الثامن وفيما بعده في القرن الذي نحن الآن بصده
معدودة من الأندلس

وهكذا أمكنهم أن يجعلوا جبل القلال من الأندلس وفيه كان المسلمون واقفين في وجه الافرنج .
فالمكان الذي وصفوه لا ينطبق الا على فرسيناتوم اذ لو أردنا أن نقول ان ابن حوقل والاصطخرى
أرادا بجبل القلال جزيرة صغيرة غفلا من الاسم واقعة بازاء سواحل تونس أو سواحل طرابلس
لكان الوصف الذي وصفه هذان الرحالتان لهذا المكان خالياً من كل معنى (ثم ذكر رينو كلام
ابن حوقل بنصه)

بقي علينا أن نفسر كلمة قلال التي أضيف لها ذلك الجبل فهذه اللفظة تتحمل تأويلات مختلفة في
الاطلس التي وجدناها في مخطوط الخزانة الامبراطورية الحاوي للرواية الفارسية من كتاب
الاصطخرى نجد لهذا الجبل شكلاً هرمياً وأما في الاطلس التي في المخطوط العربي فاننا نجد هذا
الجبل يرتفع تدريجياً فيكون اسم جبل القلال مطابقاً له

ولم يبق شيء من شجر الدردار إلى هذا الوقت ، ولكن الميسو جرمون Germond كاتب العدل الحالي في ساتروبيز الذي بحث بحثاً دقيقاً في هذه المسألة

أقول ان أخبار وقائع العرب الذين احتلوا هذا الجبل قد رنت في أنصبي آسية فكتاب العجم سموه كولاقلال كلمة تفيد معنى جبل القلال واتا نجد تحت نمرة ٣٨٤ من المخطوطات الفارسية من الخزانة الامبراطورية هذه الكلمات :

كولا قلال جزيرة است ودر كوهي است ودر روزگار قديم خراب بوده است ونامسكون جون اسلام قوت گرفت از ن مسلمانان انجا افاندا نجا مقام ساختند وساكن شدند واكنون در روى فرنك باشند وميان ايشان وكافران پيوسته جنك باشند

ومعناه جبل القلال جزيرة اوشبه جزيرة واقعة في وسط سلسلة جبال كان هذا الجبل في الماضى مهملا غير مسكون فلما انتشر الاسلام جاء بعض المسلمين الى هذا المحل واستوطنوه وهم الآن هناك واقفون في وجه الافرنجة الذين يحيطون بهم ولا يزالون معهم في جلال مستمر

ثم قد وجد في كتاب فارسي من قبل عجائب المخلوقات للقزويني واسمه كاسمه وموضوعه كموضوعه المجلة الآتية : قلال كوهي است ميان دريان روم خراب بودا بادان كردند ودر وجه مصالحي افرنجه نهادند واكر اين كولا نبودي اسلام برنج امدى

أى جبل القلال جبل واقع في وسط بحر الروم وكان خراباً وقد سكن فيه اناس وأووا الى هذا الجبل في جهادهم للافرنج ولولا هذا الجبل لسكان على الاسلام خطر عظيم

هذا كلام رينو بنصه ويتخلص منه ان جبل القلال ليس بجزيرة بل شبه جزيرة واذا رجعنا الى جزيرة مقاطعة الفار Le Var على حدود ايطالية وجدنا أن المحل الذى يجعل فيه هذا العالم جبل القلال شبه جزيرة . ثم انى قد راجعت ماقاله رينو في كتابه فتوح المسلمين بفرنسة من صفحة ١٥٧ الى صفحة ٢١٠ فرأيت ان وصف جبل القلال في كتاب ابن حوقل من حيث امتناعه ينطبق تماماً على فركسيناتوم وأما قوله ان العرب يسمون هذا الجبل من ضمن الاندلس لانهم يسمون بهذا الاسم كل البلاد الواقعة في جنوبى اورية الى الغرب فأظن انه غير مصيب بل السبب في ذلك هو ان جبل القلال كان تحت حماية خفاء قرطبة وقد ذكر هذا رينو نفسه في كتابه الآنف الذكر صفحة ١٨٧ فقال : ان أوتون كان أنشأ علاقات مع أعظم ملوك عصره لاسيما خليفة قرطبة الذى كان هو الخامى للمستعمرة العربية في فركسيناتوم ويظهر من كتاب رينو ان فركسينة كانت عاصمة الممتلكات الاسلامية في فرنسة وسويسرة وايطالية الشمالية . وهذه الأهمية التى أشار اليها ابن حوقل والاصطخري لم تكن لجزيرة سردانة وعلى كل حال فانى أظن الآن ان جبل القلال هو فركسيناتوم ويبق مع هذا مجال للبحث للوصول الى الاقتناع العلمى المبني على الجميع القاطعة . انتهى كتاب محمد الفاسى رئيس جمعية طلبة شمالى افريقية في باريس .

يظن أنه كان توجد غابة دردار في قعر الخليج على شاطئ البحر ، وأنه كان توجد قرية رومانية اسمها فركسينيتو احتلها العرب ثم هدموها واختاروا قمة من الجبل لانشاء معقل لهم سموه فركسينيت Fraxinet ومن رأي المسيو جرمون أن ذلك المعقل كان أشبه بمخفر يقصدون منه الاشراف على سهول بروفنس السفلى وذلك لأن السكان لايزيد محيطه على ثلاثمائة قدم ولا يتسع لأكثر من مائة رجل لاغير . ويظن المسيو جرمون أن المعقل الأصلي الذي كان العرب يعولون عليه هو على نصف فرسخ من هناك ، بقرب البحر ، فوق جبل يقال له اليوم « سيدة ميرمار » Notre Dame de Miremar حيث توجد آثار مهمة وخنادق عميقة . وأما المسيو بوش صاحب تاريخ بروفنس فيظن أن العرب قد أطلقوا اسم فركسينيت على حصون كثيرة شادوها في دوفيني وسافواي وبييمونت . واننا نرى رأي بوش هذا صواباً لكثرة وجود هذا الاسم في هذه النواحي

ولما انتهى العرب من بناء حصنهم بدأوا بشن الغارات في النواحي القريبة منهم وصادف ذلك تلك المحاربات الداخلية التي كان حامياً وطيسها بين زعماء البلاد فصارت كل فئة تجتهد أن تجذبهم الى نفسها ، ثم عند ما نمت شوكتهم عدوا أنفسهم سادة لتلك الأرض واستولى الرعب على قلوب الجميع من عاديتهم وأصبح لايرتفع في وجههم رأس ولا ترتقى الى مصارعتهم همة . ومن جملة الأدلة على ذلك أنه وجدت في قبر القديسة مادليينه في فيزلاي Vezelay من بورغونية كتابة تفيد أن جسد القديسة نقل من مدينة اكس في بروفنس الى هناك ، خوفاً من العرب . وكان وجود هذه الكتابة قد انكشف سنة ١٢٧٩ . راجع في ذلك تاريخ هينو Hainut تأليف جاك دوغويز DeGuyse وتاريخ بروفنس تأليف بوش

وكان العرب يتقدمون يوماً فيوماً نحو جبال الألب تعلقاً وتسلفاً حتى وقفوا في أعلاها . وكانت مملكة آرل خاضعة للويس بن بوزون المتقدم الذكر . وكان لويس هذا سار بجيش الى ايطالية لمقاتلة بيرانجه ملك لونباردية فترك بلاده بدون حامية تقريباً وصارت ثغوره عورة وكان النرمنديون يعيشون في قلب فرنسة وكادوا احدى المرار

يستولون على باريز . وجاءت فرقة من البرابرة الوثنيين من الشرق وهم المجر فعاشت وخربت جانباً من ألمانية ثم من ايطالية وأوشكت أن تدخل إلى فرنسا

وفي سنة ٩٠٦ اجتاز العرب مضائق دوفيني Dauphiné وقطعوا جبل سنيس Mont Cenis حتى انتهوا الى دير نوفاليز على حدود بيمونت ، في وادي سوزة . وكان رهبان الدير قد تمكنوا من الفرار الى مدينة توزينو ومعهم ذخائر القديسين وما في الدير من أشياء ثمينة ، ومن جملتها خزانة كتب نفيسة فلما وصل العرب لم يجدوا في الدير الا راهبين بقيا كحراس فيه ، فنهب العرب الدير والقرية ، واحرقوا الكنائس جاء ذلك في تاريخ دير نوفاليز الوارد في مجموعة موراثوري : وفيه أنه كانت هناك

كنيسة صغيرة باسم القديس هلدراد Heldrad من رجال اوائل القرن التاسع فأحرقوها وفر كثير من الاهالي الى الجبال بين سوزة وبريانسون Briançon واعتصموا بدير أولكس Oulx فاقصص العرب آثارهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً حتى سمي ذلك المكان بساحة الشهداء (راجع مجموعة دير اولكس التي نشرها ريفاتلا في تورينو سنة ٧٥٣) وكان الاهالي قد اجتمعوا وثاروا بالعرب، وقبضوا على أناس منهم وساقوهم الى تورينو، واعتقلوهم في دير القديس اندراوس . ولكن هؤلاء الاسرى حطموا الأصفاد التي كانوا مقيدين بها واحرقوا الدير وافتلوا وكادوا يحرقون جانباً من المدينة . ثم ان العرب قطعوا المواصلات بين فرنسا وايطالية ، واحتلوا جميع مضائق جبال الالب ، فصار مرور الناس عائداً الى اذهم . سنة ٩١١ كان رئيس اساقفة اربونة يريد السفر الى رومة لمهم مستعجل فلم يقدر على السفر خوفاً من العرب . وكانوا لا يسمحون لاحد ان يمر بدون ان يأخذوا منه رسماً معلوماً . ثم شرعوا يشنون الغارات على سهول بيمونت ومونفerrat Montferrat . وفي سنة ٩٠٨ نزل بعض قرصان العرب في سواحل لندوق بقرب ايعمورط ونهبوا دير التريل الذي كانوا هدموه في زمان شارل مارتل ثم اعيد بناؤه

وكان صعد على عرش قرطبة سنة ٩١٢ عبد الرحمن الثالث الملقب بالكبير والذي تولى الملك خمسين سنة وجمع تحت حكمه بلاد الاندلس قاطبة وكان من ايمن ملوك الدهر

تقية اوصل الاندلس الى اعلى ذرى الهناء والسعادة والمجد ، وهو اول من تلقب من امرائها بالخليفة امير المؤمنين

وكان حنشو غرسية ملك نابار واوردونه ملك ليون تحالفا مع ابن حفصون الثائر على المسلمين ، وبالائتداد مع مقاتلة الفرنسيس وقفوا في وجه جيوش عبد الرحمن . الا ان عبد الرحمن سنة ٩٢٠ ارسل عمه المسمى ايضاً عبد الرحمن ، والملقب بالمظفر ، فهزم جيوش الاعداء وقطع جبال البيرانية واكتسح جانباً عظيماً من عشقونية ووصل الى ابواب مدينة طلوزة ثم اصيب في رجوعه بفشل اذهجم عليه غرسية بن حنشو أو سانجه كما يقول العرب واسترجع منه جميع الغنائم التي غنمها^(١)

(١) جاء في نهج الطيب : وأخبار الناصر طويلة جداً وقد منح الظفر على الثوار واستنزهم من معاقلم حتى صفا له الوقت وكانت له في جهاد العدو اليد البيضاء فن غزواته أن غزا سنة ثمان وثلاثمائة الى جليقية وملكها اوردون ابن اذفونش فاستنجد بالباشكنس فهزمهم ووطىء بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلم وخرب حصونهم ثم غزا بنبلونة سنة اثنتي عشرة ودخل دار الحرب ودوخ البساط وفتح المعاقل وخرب الحصون وأفسد العمارت وجال فيها وتوغل في قاصيتها والعدو يحاذيه في الجبال والأوعار ولم يظفر منه بشيء ثم بعد مدة ظفر ببعض الثوار عليه وكان استمد بالنصارى فقتل الناصر من كان مع الثائر من النصارى أهل ألبه وفتح ثلاثين من حصونهم

وبلغه انتفاض طولة (ملكة الباشكنس) فغزاها في بنبلونة ودوخ أرضها واستباحها ورجع الى قرطبة . ثم غزا غزوة الخندق سنة سبع وعشرين الى جليقية فانهزم وأصيب فيها المسلمون . وقعد بعدها عن الغزو بنفسه ، وصار يردد البعوث والطوائف الى الجهاد . وبعث جيوشه الى المغرب ، فلك سبته وفاساً وغيرهما من بلاد المغرب وطار صيته وانتشر ذكره

ولما هلك سانجه بن فرويلة ملك الباشكنس قامت بأمرهم بعده أمه « طولة » وكفلت ولده ، ثم انتقضت على الناصر سنة خمس وعشرين فغزا الناصر بلادها وخرب نواحي بنبلونة ورد عليها الغزوات وكان قبل ذلك سنة اثنتين وعشرين غزا الى خشمة ثم رحل الى بنبلونة ، فجاءته طولة بطاعتها ، وعقد لابنها غرسية على بنبلونة ثم عدل الى ألبه وبساطها فدوخها وخرب حصونها ثم اقتحم جليقية وملكها يومئذ ردمير بن اردون فتحامى عن لقائه ودخل خشمة فنازله الناصر فيها وهدم برغش وكثيراً من معاقلم وهزمهم مراراً ورجع الخ .

وجاء في كتاب أخبار مجموعة : وأما عبد الرحمن بن محمد الأمير فانه ولي الخلافة والفتنة قد طبقت آفاق الأندلس والخلاف فاش في كل ناحية منها ، فاستقبل الملك بسعد ، لم يقابل به أحداً ممن خلفه

فامتد الصريح في بروفنس ودوفيني وبلاد الالب ، من اعمال غزاة العرب ، وحاول بعضهم ان يقاوموهم بالسلاح فهلكوا لعدم اجتماع كلمتهم . وكانت مرسالية أيضاً قد نالها عيشهم ، وخرب العرب كنيستها العظمى ، وكذلك أغاروا على اكس . وروى بوش في تاريخ بروفنس وغوز في تاريخ هيمو ان العرب سلخوا جلود بعض من وقعوا في ايديهم احياً^(١) ، وفر مطران اسمه « اودول ريكوس » الى مدينة « رنس » في الشمال . وكان العرب يسبون نساء البلاد وبينون بهن بما نشر سلاتهم فيها ، ولاشك أنه قد انضم اليهم أناس من ابناء البلاد ممن لا يباليون على اي جنبيه وقع الامر

وبلغ من شدة الذعر أن الاغنياء صاروا يجلبون الى جهة الشمال فرارا من بطش العرب وجاء في سيرة القديس ميول Mayeul في مجموعة البولنديين ان القديس الذي كان أهله اغنياء من ابنيون فر من وجه العرب الى برغونية . واحرق العرب كنائس سيسترون Sisteron وغاب Gap وقتلوا في انبرون Enbrun القديس ينديكتوس رئيس الاساقفة ومطرانا آخر معه . وجاء في تاريخ خطط الالب العليا تأليف المسيو

أو خرج عليه الاغلب ، واستولى على ماني يديه ، فافتتح الأندلس مدينة مدينة ، وقتل حمايتها واستذل رجالها وهدم معاقليها ، وضرب المغارم الثقيلة على من استبق من أهلها ، وأذهم بعسف العيال غاية الاذلال ، حتى دانت له البلاد واقاد له أهل العناد ، فمات ابن حفصون في حصاره ، وقتل سليمان ابنه محارباً له ، واستنزل سائر بنيه وأهله وأمنهم ، وساروا في جنده

ومالك « بيشر » وبنها ، وحصنها ، وهدم كل حصن غيرها . وذكر أنه انما استبقاها عدة لنفسه ولولده ، ليلج اليها ، لما كانوا يحدثون في الآثار من أن فتناً تهيج في الاندلس بخارج يخرجون على أهلها يخرّبون البلاد ويقتلون الرجال ويسبون النساء والأولاد حتى يعم الفساد جميع أقطارها فلا يبقى فيها الا من اعتصم بالمعاقل أو لجأ الى البحور ، وهو عندهم الفساد المتصل بالبلاء الأعظم الذي لاصلاح بعده ولا بقاء معه والله أعلم . وهو المستعان . واتصل ملك عبد الرحمن جسين سنة في عز منيع وسلطان فاهر . وافتتاح البلدان شرقاً وغرباً الخ .

قلت : وسنأتي بخبر الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي على أم وجه ان شاء الله في الأجزاء التالية التي فيها الكلام عن نفس الاندلس

(١) نحن ننقل روايات مؤرخي الافرنج في القرون الوسطى على علاقتها وان كنا نعلم ما فيها من المبالغات ولاسيما ما كان منها مكتوباً بأقلام الفيسيين الذين يخلطون التاريخ بالدعاية

لادوسيت Ladoucete خبر ثلاثة أبراج محصنة في انبرون كان العرب نزلوا بها وبواسطتها
ملاً وأتلك الناحية خوفاً وكان القديس ليبرال قد انتخب خلفاً للقديس بندكتس فاراد
ان يدخل انبرون ولكنه لم يجرؤ على ذلك بسبب وجود العرب هناك ورجع
من حيث أتى

وكان من عادة اهالى فرنسة واسبانية وانكلترا ان يذهبوا الى رومة ، ولو مرة في
العمر ، لزيارة قبور الرسل . ولم يكن بدم من علاقات الاساقفة والقسيسين برومة كالا
يخفى ، ولكن معابر الالب صارت كلها الى ايدي العرب ، وصار هؤلاء يمتدون على
السابلين . وبرغم ان الناس كانت تجتمع قوافل وتسير بالاسلحة لم تكن تمضى سنة بدون
ان تحصل في تلك المعابر وقائع دموية حسبما جاء في مجموعة مؤرخى فرنسة

وفي تلك الايام وصل المجر الى فرنسة ، وملاًوا البلاد عيشاً وتدميراً ، ورأى
الاهالى فيهم تصديق نبوة حزقيال عن ياجوج وماجوج . ولما كانت سنة الالف للمسيح
ظن الناس انها قد اذفت الساعة ، وسأل مطران فردن Verdin احد القسيسين عن
صحة هذه المسألة وهل المجرهم ياجوج وماجوج أم لا ؟ فطمأن القسيس خاطر المطران
قائلاً له : إن من اشراط الساعة أن يأتى ياجوج وماجوج ومعهم شعوب اخرى ،
والحال ان المجر جاءوا وحدهم ، فلا تنطبق هذه النبوة عليهم ، على أنه من المحقق أنهم
في العيث والتدمير بذوا الاولين والآخرين

ثم ان بلاد بيمونت ومونفرات كانت ميدانا لغارات العرب . روى مؤرخ دير
نوفاليزه أن أحد أعمامه ، وكان من قواد الجند ، ذهب من « مويين » الى « فارسلى »
فداهمته عصابة عربية في احدى الحراج بقرب البلدة فتقاتل الفريقان وجرح عدد منهما
ووقع بعض المسيحيين أسرى فاخلى العرب سبيل بعضهم واستبقوا القادرين منهم على
الفدية ، وبقى عم الراوى وخادمه في ايديهم . وكان والد الاسير المذكور مارا من هناك
فعمل بالخبر والتزم ان يجول في المدينة وان يقترض مبلغاً من المال ليفك به ابنه مع
خادمه . وروى هذا المؤرخ ان العرب كانوا وصلوا الى حدود لينغورية (على خليج

جنوة) وذكر المؤرخ الشهير ليوتبراند^(١) الذي عاش في الثلث الاول من القرن العاشر ان العرب اغاروا على مدينة آكي Aquici احدى مدن مونتفرات المشهورة بجملاتها المعدنية ولكنهم انهزموا في تلك الواقعة ، ويقول المؤرخ نفسه ان بعض قرصان العرب دخلوا مدينة جنوة وقتلوا ونهبوا وسبوا كثيراً من النساء والاولاد

وكان الاساقفة الذين فروا من وجه العرب في بروفنس والرهبان وغيرهم قد لجأوا الى بلاد فاليه Valais من سويسرة فجاؤا العرب ودخلوا هذا الوادي واكتسحوه وكان هناك دير على اسم الشهيد القديس موريس^(٢) كان الامبراطور شارلمان وغيره من الملوك اولوه مزيد العناية فجعله العرب دكا، على ما في تاريخ غالبية كرسطيانية Gallia Christiana وذهب بعض المؤرخين الى ان المسلمين كانوا هدموا هذا الدير سنة ٩٠٠

وجاء في مجموعة الدون بوكه ان العرب استولوا على ناحية تارتيس وان قافلة كانت ذاهبة من فرنسة الى ايطالية ، فوقعت في يدهم واضطرت الى الرجوع بعد ان قتل عدد منها

ولما استولى العرب على فاليه تقدموا الى أواسط كورة غريزون^(٣) وكان هناك دير شهير اسمه دير دي زانتيس Disentis بناه احد تلاميذ القديس كولومبان فنهبه

(١) ليوتبراند Liutprand مؤرخ الماني من أشهر المؤرخين ولد سنة ٩٢٢ وهو من أسرة شريفة في لوبنارديّة نشأ في معية الملك هوغ في بافية وسنة ٩٤٥ بعد خلع الملك هوغ دخل في خدمة خلفه برنغار وتوفي سنة ٩٧٠ وكتب كتابين باللاتينية أولهما يسمى معالي الامبراطور اوثون الكبير

(٢) سان موريس بلدة في وادي الفاله على السكة الحديدية المؤدية الى نفق السيملون الى ايطالية تبعد عن جنيف بالسكة الحديدية نحواً من ساعتين. تنسب هذه القصة الى دير القديس موريس الذي فيها وهذا الدير قد بناه سجيسموند دوق بورغونية في القرن السادس للمسيح حسبما روى لي القسيس القيم على مكتبة الدير وذلك عندما زرت هذا الدير مؤخراً متقبلاً عن آثار العرب هناك كما سيأتي الكلام عليه

(٣) Grisons من مقاطعات سويسرة مركزها كوار

العرب وجردوه من كل حلاه . وكذلك فعلوا بكنيسة « كوار » . روى ذلك المؤرخ اشبريخر Sprecher . وقيل ان المطران فالدو Wualdo شكى سنة ٩٤٠ من غارات العرب المتواصلة وان آثار تلك الغارات كانت باقية الى سنة ٩٥٢ وان الامبراطور اوتون اقطع المطران المذكور املا كاعلى سبيل التعويض بموجب مرسوم مؤرخ في سنة ٩٥٦ . ورد ذلك في مجموعة تاريخية المانية طبعت في كوار . وكانت سويسرة يومئذ تابعة لمملكة بورغونية

وكانت الحرب في تلك الايام مشتتة بين ملوك استورية وناباره من جهة ، وخليفة قرطبة من جهة اخرى ، وتوافق الفريقان عند زمورة ، فانهزم المسلمون في تلك الواقعة وقتل منهم نحو من مائة الف^(١) ولكن عبد الرحمن الناصر كان يقدر أن

(١) هذه الواقعة شهيرة ويقول ابن خلدون ان عبد الرحمن الناصر كان كثير الجهاد بنفسه والغزو الى دار الحرب الى أن هزم عام الخندق سنة ٣٢٣ وأما ابن الاثير فيجعل هذه الواقعة سنة ٣٢٧ ويقول انه في تلك السنة عصى أمية بن اسحق بمدينة شتري على عبد الرحمن الأموي لأنه قتل أخاه فالتجأ الى رودمير ملك الجلالة وغزا عبد الرحمن بلاد الجلالة فانهزمت الجلالة وقتل منهم خلق كثير ثم خرج الجلالة وظفروا بالمسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأراد رودمير اتباعهم فمنعه أمية . وخوفه ورغبة في الغنيمة وعاد عبد الرحمن لجهاز الجيوش الى بلاد الجلالة فألحوا عليهم بالغارات وقتلوا منهم أضعاف ما قتلوا من المسلمين . انتهى

أما في أخبار مجموعة فانه يقول : ان عبد الرحمن الناصر في آخر أمره مال الى اللهو واستولى عليه العجب واستمد بنير الكفاة وغاز الأحرار باقامة الأندال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد فقلده عسكره وفوض اليه جليل أموره والجأ أكبر الأجناد ووجه القواد والوزراء من العرب وغيرهم الى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه وركاكة عقله فتواطأ أهل الحفاظ من رجاله ووجه أجناده على ما كان من انهزامهم في الغزوة التي غزاها عام ستة وعشرين وثلاثمائة وسماها غزاة القدرة لاحتفاله فيها وعظيم مشهدها فهزم فيها أقبج هزيمة واتبهم العدو أياما يأسرونهم ويقتلونهم في كل محلة فلم يكذب ينجو منهم الا قوم جمعوا أصحابهم على أوتيتهم وتحلصوا الى بلدانهم فلم تكن له بعدها غزوة بنفسه اه . وذكر السعدي في مروج الذهب هذه الغزاة فقال : وكان عبد الرحمن في مائة ألف أو يزيدون فكانت وقعة بينه وبين ردمير ملك الجلالة في شوال سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر وكانت للمسلمين عليهم ثم أنابوا بعد أن حوصروا واولجوا الى المدينة فقتلوا من المسلمين بعد عبورهم الخندق

يجمع جميع قوى المسلمين في الاندلس فلم تكن هزيمة كهذه لتكسر من شوكرته ، وكان في استطاعته وقتئذ ان يفحش النكاية بالمسيحيين لولا اشتغاله بالفتوحات في افريقية ولولا ظهور الدولة الفاطمية التي اخذت تجاذب الدولة الاموية الجبل ، فكان هذا من حسن حظ المسيحيين

وكانت مدينة فريجوس في مقاطعة الفاربلدة عامرة ومرسى عظيما للسفن ، فأغار عليها العرب واجتاحوها اجتياحاً شديداً حتى لاذأهلها بالفرار وتركوها كجوف حمار ، واخذ المسيحيون الذين في السواحل كلها ينسحبون الى الجبال ، وكان في ذلك الوقت الكنت هوغ Hugues ملكا على بروفنس فأعلن عزمه على طرد المسلمين من تلك الاطراف ، ولما كان اعم معقل لهم هناك هو حصن فراسينت الذي منه كانت تنبعث غاراتهم الى داخل البلاد ، اجمع هوغ ان يهاجم هذا الحصن . ولما كان مصاهراً لامبراطور القسطنطينية أرسل اليه يطلب منه انجاده . باسطوله ، وكان الروم يملكون نفاطات يقال لها النار الاغريقية ، فكانت تحرق المراكب بمجرد ما تصيبها . ففي سنة ٩٤٢ زحف هوغ على حصن فركسينت بجيش جرار من البر . وجاء الاسطول الرومي من البحر فاحرق مراكب العرب التي في الخليج كما ان جيش هوغ تمكن من الحصن والتجأ العرب الى الجبال المجاورة ولكن جاء الخبر الى هوغ وهو في هذه الحرب مع العرب بان ييرانجة Berenger الذي كان ينازعه مملكة ايطالية ، وكان قد فر الى المانية ، رجع الى ايطالية يحاول ان يتنسم ريح الدولة ثانية فنسى هوغ الخطر الواقع على بلاده

خسین ألفا وقيل ان الذي منع رودمير من طلب من نجا من المسلمين أمية بن اسحق فقد خوفه الكمين ورغبه في ما كان في معسكر المسلمين من الأموال والعدد والخزائن ولولا ذلك لآتى على جميع المسلمين ثم ان أمية بعد ذلك استأمن الى عبد الرحمن وتخلص من رودمير فقبله عبد الرحمن أحسن قبول وقد كان عبد الرحمن بعد هذه الواقعة جهز عساكر مع عدة من قواده الى الجلالة وكانت لهم معهم حروب هلك فيها من الجلالة ضعف ما قتل من المسلمين في الواقعة الأولى وكانت للمسلمين عليهم الى هذه الغاية ورودمير ملك الجلالة الى هذا الوقت وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة انتهى كلام المسعودى المعاصر لتلك الوقائم .

من العرب وأسرع الى مهادتهم بشرطان يقطعوا الطريق في معبر سان برنار وسائر معابر الالب على بيرانجة . روى ذلك المؤرخ ليوتبراند الذي بهذه المناسبة أخش الطعن في هوغ وقال انه جاء بها صلحاء لاسبيل للعذر فيها، وبلغ من حدته أنه أخذ يخاطب معبر سان برنار فيقول له شعراً معناه : انك تسهل هلاك الاتقياء وتجعل نفسك حصناً واقياً للطفاة الذين يقال لهم المورو افلا تخجل ايها التعس من أن تبسط ظلك على أناس يسفكون الدم البشري ويعيشون من قطع الطريق ؟ وماذا أقول لك ، لعمرى جدير بك أن تنقض عليك ساعة أو أن تكسر تكسيراً أو أن تفنى فناء أبدياً! الخ

ومن بعد هذه الحادثة ازدادت جرأة العرب ونفحوا عرفهم واستقرت قدمهم في البلاد وأصبحوا كأنهم سيلبثون أبدياً في قلب أوربة فأخذوا يتزوجون من أنفس الاهالى ويحرقون ويزرعون كسائر الفلاحين وكان امرآء النواحي يكتفون بان يأخذوا منهم إتاوة خفيفة ، وربما اعتضدوا بهم في بعض الأحيان . أما الذين كانوا في أعالي الجبال فقد كانوا يتقاضون المارين الاموال الفادحة ، ويقتلون من يمتنع عن دفع ما يطلب منه ، وأما معبر سان برنار الكبير الذى كان يسمى من قبل بجبل المشتري فقد كان من قديم الدهر بموقعه بين فاله Valais ووادى أوسط Aoste هو واسطة الاتصال بين سويسرة وإيطالية . ولما استولى عليه العرب وعلى غيره من المعابر تمكنوا من سائر النواحي المجاورة

وكانت مدينة نيس (أونيقه) تابعة لملكة آرل وكانت أيضاً تحت طائلة العرب ويظهر أن جماعة من المسلمين كانوا يسكنون في نيس ، لأن دورانت يذكر في تاريخ نيس أنه كان فيها ناحية للمسلمين Canton Des Sarrazins

وقد احتل العرب أيضاً مدينة غرانوبل Grenoble مع الوادى المربع المسمى وادى غرازيفودان Graisivaudan وذهب مطران غرانوبل ومعه ذخائر القديسين وكنوز الكنيسة والتجأ الى دير دونات Donat في فلانس الى الشمال . ولا يعلم تماماً في اية سنة دخلوا

عرانوبل وانما من المحقق أن العرب في سنة ٩٥٤ كانوا استولوا على هذه البلدة لأنه وجدت
كتابة منقوشة على حجر تاريخها سنة ٩٥٤ تدل على وجود المسلمين في غرانوبل .
والغالب على الظن ان مسلمي بيمونت كانوا قد اتخذوا لانفسهم عدة معقل كانوا
يعتصمون بها عند الحاجة . وقد ذكر مؤرخ دير نوفاليزة حصنا من هذا النمط كان
يحتله العرب باسم فراسنيدلوم Frascenedellum وهو مكان بقرب كزال على نهر
البو Po وكان هذا المحل يسمى أيضاً فركسيناتوم ، وقيل بل هذا الحصن هو الذي
يسمى الآن فنسترال Fenestralle

وعلى كل حال فليُنظر القارئ الى مؤرخ معاصر شاهد الحوادث بعينه وهو مؤرخ
دير نوفاليزه ، فقد قال . ان العرب كانوا يسبون النساء والاولاد والحيل وغير ذلك وكان
قد دخل معهم أفاق من أهل البلاد اسمه ايمون Aymon طمعاً في الغنائم ف وقعت في أيديهم
مرة امرأة بارعة في الجمال فاستأثر بها ايمون لنفسه فجاء أحد زعماء العصابة العربية
وانزع تلك الحسنة من يد ايمون بالقوة فغلت مراحل الغضب في صدر ايمون وثار
للانتقام فذهب الى الكنت روتبلدس (١) الذي كان صاحب السيادة في بروفنس
العليا و كاله بالسر الخفي في قضية طرد العرب من البلاد . وكان للعرب سعاة وجواسيس
في كل محل فاجتهد ايمون أن يكتم مسعاه بكل ما أمكنه حتى تمكنوا من استنفار
الناس بدون أن يشعر العرب ، واجتمع الامراء والزعماء وقادوا الأهالي وهاجموا
العرب وأخذوا جمرتهم ورفعوا نيرهم عن اعناق الاهلين . قال هذا المؤرخ وإن
عائلة ايمون هذا كان لا يزال منها بقايا الى زمانه

وفي سنة ٩٥٢ كان المجرار قد اكتسحوا الازراس ، وصارت جميع بلاد جبل جوراه
Jura تحت خطر احتلالهم ، ففكر كوزراد الذي كان اميرا على بورغونية وسويسرة
وفرنشكونتي ودوفيني في تدبير حيلة للتخلص من المجرار والعرب معا ، فكتب الى العرب
كتابا يقول لهم فيه ان لصوص المجرار قد سمعوا بخصب الاراضي التي في أيديكم وهم

(١) Rotbaldus يقول رينو انه قد يكون روتبلدس اثنان كونت فوركالسية الذي كان

يعيش في نواحي سنة ٩٤٥ على ما في تاريخ بروفنس للمسيو بوش .

عامدون الى انتراعها منكم ، فتعالوا الى لزحف اليهم معا ونبيدهم . وفي الوقت نفسه كتب الى الجار قائلا لهم : لماذا ينازع بعضنا بعضا ؟ ان المسلمين هم الذين بأيديهم أخصب البقاع ، فتعالوا الى لزحف اليهم ونطردهم وحينئذ أنا اجعلكم في مكانهم . قال هذا وعين للفریقین مكانا للقاء فحضر الفریقان وألتحمت الحرب بينهما من نفسها وكان الكنت قد حشد عساكره وكن لهم جميعا فلما اشتبكوا في الملحمة انقض عليهم بجيشه فذبحهم ولم ينج منهم الا القليل فارسل بقية السيف الى آرل وبيعوا في أسواقها ارقاء

جاء هذا الخبر في مجموعة الدون بوكه ولم نعلم تماما في أي مكان حصلت هذه المعركة . وكان مركز العرب الاصلی في بروفنس وكان الجار في الازراس وفرنشكونتي فالظنون ان هذه الواقعة حصلت في نقطة متوسطة كأن تكون مثلا في السفواى وقد ثبت ان العرب أقاموا طويلا في السفواى وكانت تسمى موريين Maurienne حتى ذهب بعضهم الى أن هذه اللفظة مشتقة من لفظه المورو التي تطلق على المسلمين المغاربة . ولكن هذا الزعم هو خطأ لأن هذه اللفظة معروفة منذ القرن السادس للمسيح . وكيف كان الحال فقد أقام العرب طويلا بسفواى . وقد علمنا أن المطران بيلية Billiet أسقف سان جان دومورين قام بمباحث دقيقة فيما يتعلق بتاريخ بلاد سفواى فعثر على أسماء كثيرة تدل على وجود العرب هناك لا سيما في جوار مودان Modane اذ يوجد واد يقال له وادى السرازين وقرية اسمها فريناي Freney وقد ذكر بوش مؤرخ بروفنس ما يؤيد هذا القول .

وكان المسلمون يجولون في جميع أنحاء سويسرة بلا معارض كأنهم في دياراتهم وقد تقدموا الى أن صاروا على أبواب مدينة سانغال وعلى ضفاف بحيرة كونستنز وكانوا يعتدون على الرهبان الذين كانوا هناك فلا يخرج منهم أحدا إلا رشقوه بسهم، وكانوا قد ألفوا سكنى الجبال والسير في الأوعار ، حتى قال أحد الكتاب المعاصرين انهم صاروا أشبه بالمعزى في خفة أقدامهم وسهولة سيرهم في حروف الجبال . وكانوا قد بنوا أبراجا في أماكن متعددة يقال ان آثارها لا تزال موجودة . وكانوا قد ألحقوا أضرارا لا تحصى

بالمسيحيين. وذكّر مؤرخ دير سان غال Saint - Gall في كتاب داخل في مجموعة برتر أنه كان يوجد رئيس للدير المذكور اسمه «فالتون» قد جمع عصاة من الرجال الأشداء وسلاحهم بالحراب والفؤوس وهاجم هؤلاء البرابرة بغتة ، فقتل أكثرهم ومن نجا منهم قبض عليه ، وساقوا الاسرى الى الدير ، فأبى هؤلاء أن يأكلوا أو يشربوا ، فماتوا جوعاً !

وفي أثناء ذلك تغلب الألمان على المجر ، وكسروا شرتهم ، فنشقت سويسرة نسيم الفرج . ولكن البروفانس والدوفيني وجانبا من جبال الالب بقيت تحت طائلة العرب الذين كانت ترد اليهم الامدادات من البحر . وكانت هذه البلدان لا تستريح ماداموا فيها . وكان الرجل العامل المدبر اذذاك ، بين ملوك أوربة ، أوتون ملك جرمانية الذي لقب فيما بعد بالامبراطور والذي استحثت له خلاله المجيدة لقب «الكبير» فدخل اوتون في علاقات مع خليفة قرطبة الذي كان أشبه بالحامى لمستعمرة فرانسيسية العربية ، فعزم اوتون لأجل الدفاع عن حقوق النصرانية أن يبعث بسفارة الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وكان قد جاء الى اوتون كتاب من عبد الرحمن لا يخلو من عبارات فيها غض من الدين المسيحي ، بحيث اعتمد اوتون بخاصة أن يجعل في سفارته الى قرطبة عالماً لهوتياً يمكنه الاعتماد عليه في الأخذ والرد مع علماء المسلمين ، فوقع الاختيار على راهب من دير غورز Gorse بقرب متس كان يقال له جان وكان بلغ من تضلعه في علم اللاهوت أن حاول اقناع الخليفة عبد الرحمن بالتنصر .

وقد كانت هذه السفارة في سنة ٩٥٦ والمؤرخون من المسلمين ومن النصارى متفقون على ما بلغته قرطبة لذلك العهد من العظمة والمجد فقد كانت فيها العلوم والمعارف والصنائع والفنون والسياسة ، والكياسة قد أدركت الأمد الأقصى في وقتها ، وكانت أوربة المسيحية مدهوشة بعظمة قرطبة وكان عبد الرحمن مقصداً لجميع ملوك العصر ، وكان يرسله البابا وامبراطور القسطنطينية وملوك اسبانية وفرنسة والمانية وبلاد الصقالبة ، وكان ملوك المسيحيين - بحسب قول مؤرخي العرب - يبسطون

أيدى الخضوع للخليفة ، ويمدون شرفاً عظيماً لهم أن يرسل الخليفة يده لسفرائهم ليقبلوها وذلك لجلالة قدره في أعينهم ولطف منزلته في أنفسهم وكان عبد الرحمن الناصر عندما تقدم عليه وفود هؤلاء الملوك لآسيا وفد ملك الروم ، يبالغ في الاحتفال ويتكلف الكلف الثقال ويأمر باستقبالهم بالعساكر والأعوان وبإظهار جميع عظمة الخلافة فكانوا يفرشون لهم الشوارع التي يمرون بها بفاحر البسط والديباج وكانت الألوف من حرس الخليفة الخاص وأمامهم الأمراء وعظماء الدولة يصطفون على الجانبين ومنهم بطانة تحيط بعرش الخليفة وبعد ذلك يقوم الأئمة ويخطبون في هذا الحفل بما يناسب المقام من وصف عز الإسلام وإظهار مناقب الامام ثم يتلوهم الشعراء بالقصائد الطنانة التي تزيد من ابتهاج الحاضرين وحماسة السامعين (١)

(١) وصف ابن خلدون كيفية استقبال عبد الرحمن لرسول صاحب القسطنطينية ، قال : ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكة وزين الفصر بأنواع الزينة وأصناف الستور وحمل سرير الخلافة بين مقاعد الابناء والاخوة والأعمام والقرابة ، ورتب الوزراء والخدمة في مواقعهم ، ودخل الرسل فهاهم مارأوه وقربوا حتى أدوا رسالتهم ، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل ويعظموا من أمر الإسلام والخلافة ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه واعزازة وذلة عدوه ، فاستعدوا لذلك ، ثم بهرهم هول المجلس فوجوا وشرعوا في القول فأرتج عليهم . وكان فيهم أبو علي القالى وأند العراق كان في جملة الحكم ولى العهد ونذبه لذلك استثنائاً فعجز .

فلما وجوا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطى ، من غير استعداد ولا روية ولا تقدم له أحد بشيء من ذلك فخطب واستحضر وجلى في ذلك القصد ، وأنشد شعراً طويلاً ارتجله في الغرض . ففاض بفخر ذلك المجلس ، وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع ، وأعجب به الناصر ، وولاه القضاء بعدها وأصبح من رجالات المعالم . وأخباره مشهورة . وخطبته في ذلك اليوم منقولة في كتب ابن حيان وغيره .

ثم انصرف هؤلاء الرسل ، وبعث الناصر معهم هشام بن هديل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويعسّن الاجابة . ورجع بعد سنتين ، وقد أحكم من ذلك ماشاء ، وجاءت معه رسل قسطنطين . ثم جاء رسول من ملك الصقالية ، وهو يومئذ دفوه ، ورسول آخر من ملك الالمان ورسول آخر من ملك الافرنجة وراء البرت ، وهو يومئذ أفوه ، ورسول آخر من ملك الافرنجة بقاصية المشرق ، وهو يومئذ كلاة ، واحتفل الناصر بقدمهم وبعث مع رسول الصقالية ريبعاً الأسقف الى ملكهم

أما سفارة الراهب غورز من قبل ملك فرنسا ، فإنها وإن لم تكن محفوفة بجميع تلك الاهمية فلم تكن خالية من الاحتفاء والاحتفال . ولقد بقى لنا عنها رحلة بقلم أحد تلاميذ الراهب المذكور يمكننا أن نلخص منها مايلي :

سافر الراهب جان ومعه راهب ثان لاغير . وكانت الهدايا التي لا بد من استصحابها هي من مال الدير الذي ينتسب اليه الراهب . فسار الراهب ماشياً على قدميه الى «فيين» Vienne على نهر الرون ، ومنها ركب في النهر الى البحر ، وركب فيه الى برشلونة التي كانت اذذاك تابعة لمملكة فرنسا . وانما كانت أول مدينة تخص الخليفة من الثغور هي طرطوشة ^(١) فلما وصل سفراء ملك افرنجية الى طرطوشة وأذن لهم عاملها بالمسير الى قرطبة تقدموا في البلاد ، وقطعوا جانباً عظيماً من جزيرة

دوفوه ، ورجع بعد سنتين .

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة جاء رسول أوردون ، يطلب السلم ، فقد له ، ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب ادخال فردلند قومس قشتالة في عهده فأذن له في ذلك ، وأدخل في عهده . وكان غرسية بن شانجة قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة ، ثم انتقض عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشتالة فردلند المذكور ومال الى أوردون بن رودمير ، وكان غرسية بن شانجة حافداً لظوطة ملكة البشكينس ، فامتعضت لحافدها غرسية ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين ملقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن رودمير الملك واعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ونصره من عدوه . وجاء الملكان معها فاحتفل الناصر لقدمهم وعقد الصلح لشانجة وأمه ، وبعث العساكر مع غرسية ملك جليقية فرد عليه ملكه ، وخلع الجلائفة طاعة أوردون ، وبعث الى الناصر شكره على فعلته وكتب الى الأمم في النواحي بذلك وبما ارتكبه فردلند (قومس قشتالة) في نكته ووثوبه ويعيره بذلك عند الأمم . ولم يزل الناصر على موالاته واعانته الى أن هلك . ولما وصل رسول كلدة ملك الافرنجة بالمرق كما تقدم وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راعباً في الصلح فأجابته الناصر ووصل بعده رسول صاحب رومة يخطب المودة فأجيب . انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار . وسنستوفي ان شاء الله وصف الناصر وأهله خلافته وعظمة قرطبة في ايامه في الاجزاء التالية المتعلقة بالاندلس فان محل ذلك هناك لاهنا وانما قلنا هذا الفصل عن ابن خلدون تأييداً لما ذكره المستشرق رينو من هذا الباب

(١) وهكذا ذكر السعودي في مروج الذهب وكان السعودي من معاصري أيام الناصر عبد

الرحمن.

الأندلس ، وهم في ضيافة العرب بالعبود من كرمهم . فوصلوا الى قرطبة لم يتكلموا
انفاق درهم واحد . وهناك استقبلوا برأ ورحيباً وانزلوا في محل على مسافة ميلين
من قصر الخلافة

ثم ان الخليفة علم بمهمة الراهب ، وما هو مكلف بتليغه من قبل ملك فرنسا ،
فأراد أن يتجنب المباحثات الدينية . وقال انه لم يكن لائقاً بمقام اثنين مثل الخليفة
والملك أن يدخلوا في مجادلات كهذه وانه لايسع الخليفة أن يسمع كلاماً فيه نيل من
الرسول (ﷺ) ولا يجوز له ذلك بحسب الشريعة^(١) واقترح الخليفة أن يعد كتابه
الى الملك أوتون كأنه لم يكن . ولكن جميع هذه الملاحظات لم يقبلها ذلك الراهب ،
وأصر على رأيه ، وجاء مطران قرطبة ينصحه بترك هذا العناد ، فأحسن له الجواب
وأخذ يقرعه على هوادته وتساوله وتساهل جماعته في أمر الدين المسيحي ، وكيف انهم
قد رضوا بختان أولادهم وبالامتناع عن أكل الخنزير مسaire للمسلمين . ولما علم
الخليفة بتصلب هذا الراهب وانه راكب رأسه لايتثنى عن عزمه أبى أن يقبله وأرسل
اليه فائلا انه كان قد بعث الى الملك أوتون أحد الأساقفة سفيرا عنه فانظره ثلاث
سنوات ولذلك هو يريد أن يمسك سفير أوتون لديه لا ثلاث سنوات فقط بل تسع
سنوات لأنه يرى نفسه أكبر من أوتون بثلاث مرات . فأجاب الراهب بأنه لا يقدر
أن يخرج عن الأوامر التي في يده من أوتون وتقرر عند ذلك أن يرسل الخليفة رسولا
آخر يسأله عما اذا كان لا يزال مصمماً على رأيه في كيفية سفارة الراهب وأخذ
الخليفة ينتدب للرسالة الى أوتون من عنده ممن يصلح لذلك ، فكان المسلمون يستعفون
من تلك السفارة لأنه من المعلوم أن على المسلمين واجبات دينية يصعب عليهم القيام
بها في بلاد النصرى ومن أجل ذلك كان أكثر سفراء ملوك الاسلام الى ملوك
النصرى مسيحيين ، وكثيرا ما كانوا أساقفة أو قسيسين ، ففي تلك النوبة انتدب
لهذه السفارة رجل مسيحي اسمه «رسيوندس» كوفي فيما بعد على المهمة التي قام بها

(١) قال رينو تحت هذه الجملة انه ورد في قانون الدولة العثمانية أن كل من يقذف بالله وصفاته أو
بنبيه الكريم أو بكتابه العزيز يعاقب بالقتل ولايستتاب ولا يعامل

بجعله اسقفاً وكان يحسن الاتينية والعربية معاً. ويظن بعضهم أن الأسقف رسيموندس هذا هو نفس رمندس الذي كانا مطراناً اسبانيولياً وكانت بينه وبين المؤرخ ليوتبرند علاقة ومودة وقد جعل هذا تاريخه باسمه

وفي تلك المدة كان أوتون مشغولاً باطفاء فتنة أثارها عليه ابنه وصهره فلما وصل السفير الاسبانيولي من قبل الخليفة أجابه الملك الى كل ما اقترحه ، وقفل الرسول الى قرطبة وقد دبر الأمور كما شاء الخليفة . ورضى الخليفة من بعدها أن يستقبل الراهب ، وكان الخليفة يعلم تقشف الراهب ومذهبه في لبس الخشن وبعده عن مظاهر الأبهة ، فبعث اليه بأنه يريد أن يستقبله كسفير من قبل الملك ، وأنه لا بد له اجلالاً تقدر مرسله من قبول حالة السفارة وأنه ينبغي له أن يدخل على الخليفة بملابس لائقة فأجابه الراهب بأنه لا يجد لبسا أبهى ولا أخمر من ثوب رهبانته ، فظن الخليفة أنه قد يكون الراهب عاجزاً عن شراء الملابس اللازمة ، فبعث اليه بعشر أقات فضة ، وكانت الأقة اثنتي عشرة أوقية ، ولكن الراهب تصدق بهذه الفضة على الفقراء . فأرسل الخليفة اليه قائلاً انه يقبله ويحتفل به ولو جاءه في كيس خيش

وفي اليوم المعين للاستقبال اصطفت العساكر على الجانبين ، ووقف البييد الصقالبة قابضين على الحراب ، ووقف آخرون بالقسي . وكانت هناك الفرسان تلعب في الميدان وفي هذه الحالة دخل الراهب السفير ، وقد فرشت أمانه مداخل القصر بالبط والديباج ، فما زال يتقدم الى أن وصل الى البهو الذي فيه الخليفة ، فوجد الخليفة جالساً على سرير الخلافة متربعا على عادة الشرقيين . فعند وصوله اليه أعطاه باطن يده تمييزاً له عن غيره فقبلها الراهب ، ثم أمر له بالجلوس وبعد المراسم المعتادة في الجمالة شرع الخليفة يتكلم عن الملك اتون وما بلغه من المقام السامى بين الملوك وأثنى عليه مزيد الثناء . ثم انه لما كان عبد الرحمن قد بلغه كون ابن الملك أوتون ثار على أبيه أنحى بشيء من اللائمة على الملك قائلاً : انه لا ينبغي للملوك أن تقبل أقل انتقاص من سلطتها ولا ترعى في ذلك عاطفة اشارة الى شيء كان وقع مع عبد الرحمن نفسه ، فانه عصى عليه أحد أولاده فانتهى الأمر بأن أمر بقتله

ثم دار الكلام على موضوع الرسالة التي جاء بها الراهب سفيراً؛ فمؤرخو العرب أو بالأقل المؤرخون الذين عرفناهم، لم يكونوا يذكرون شيئاً عن قضية احتلال العرب لسواحل بروفنس وبثهم الغارات الى الداخل، مما يدل على أنهم لم يكونوا يأبهون لهذه الحادثة^(١) على أن المؤرخ ليوتبرند الذي عاش في ذلك العصر يؤكّد أن تلك المستعمرة العربية في جبال الألب كانت تحت حماية الخليفة نفسه، وصاحب الرسالة التي نحن بصدها عن رحلة الراهب سفيراً من قبل الملك أوتون الى الخليفة عبدالرحمن هو نفسه يقول ان موضوع تلك السفارة لم يكن سوى التوسط لدى الخليفة لوضع حد لغارات العرب في فرنسة وإطالية. ومن المؤسف أن الرسالة ناقصة والكلام منقطع في أهم نقطه من الموضوع ولم يعثر الى الآن على نسخة تامة لتلك الرسالة.

هذا وفي سنة ٩٦٠ تم طرد العرب من جبل سانبرنار وليس عندنا معلومات عن تفاصيل الواقعة. ويظهر أن القديس برنار دومنتون Dementhone الذي بنى ملجأ في أعلى هذا الجبل، حتى نسبت الى اسمه سلسلة تلك الجبال كلها، كان هو نفسه في هذه المعركة.

ومات عبد الرحمن الثالث (أى الناصر) سنة ٩٦١ خلفه ابنه الحكم الثانى، وكان ملكاً محباً للعلوم والمعارف جانحاً الى السلم، ففي أيامه ازداد عكوف الناس في الاندلس على العلوم والصناعات وبلغوا منها شأواً مدهشاً وغلبت الكياسة والرقّة ودماثة المدينة على أولئك الأقوام الذين كانوا في مبدأ أمرهم على جانب عظيم من الخشونة والجفاء فأما في زمن الحكم فقد صارت الدولة للعلم وترقى به حتى النساء اللاتى كان منهن العالمات والفاضلات وصاحبات المسكنة في دار الخلافة. وكان الحكم في أوائل أيامه، استجلاباً لثقة المسلمين به، قد غزا جليقية واشتورية

(١) قد تقدم لنا في حواشى هذا الكتاب ترجمة رسالة من قلم رينو يقول فيها: انه لما حرر هذا التأليف لم يكن اطالع على رحلتى الاصطخرى وابن حوقل فلما اطلع عليهما علم أن العرب لم يغفلوا هذه الحادثة بل كانت عندهم ذات بال

وكتلونية ودوخها ولكن المسيحيين طلبوا منه الصلح فأجابهم اليه ، ولما أخذ وزراؤه وقواده يحثونه على نقض هذا الصلح لما عند المسلمين من حب الجهاد ، أجابهم بهذه الآية البديعة من القرآن : (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولاً) نعم انه اشترط على كنت برشلونة وسائر أمراء الكتلان ذلك حصونهم القريبة من ثغوره وأخذ منهم موثقاً بأنهم لن يمالئوا أحداً من ملوك المسيحيين الذين يدخلون معه في حرب (١)

(١) قال ابن خلدون : ولاول وفاة الناصر طمع الجلائفة في الثغور ففزا الحكم المستنصر بنفسه واقتحم بلد فردنرد بن غنتشاب فنازل شنت اشتاين San Estevan وفتحها عنوة واستباحها وقتل فبادروا إلى عقد السلم معه واقتضوا عما كانوا فيه ، ثم أغزى غالباً مولاة بلاد جليقية وسار الى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلائفة ، ولقيهم فهزمهم واستباحهم ، واطأ العساكر بلد فردنرد ودوخها . وكان شانجة بن رومير ملك البشكنس قد انتقض فأغزاه الحكم التجيبي صاحب سرقسطة في العساكر ، وجاء ملك الجلائفة لنصره فهزمهم ، وامتنعوا بقورية وعاثوا في نواحيها ، وقتل . ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويعي بن محمد التجيبي الى بلاد برشلونة ، فعانت العساكر في نواحيها . وأغزى هنديل بن هاشم ومولاة غالباً الى بلاد القومس فعانها فيها وقتلا وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور في كل ناحية . وكان من أعظمها فتح قلموية من بلاد البشكنس ، على يد غالب ، فعمرها الحكم واعتنى بها . ثم فتح قطوية على يد قائد وشنة وغنم فيها من الأموال والسلاح والاقوات والأمانات وفي بسطها من الغنم والبقر والرمك والأطعمة والسي مالا يحصى .

قال : وفي سنة أربع وخمسين سار غالب الى بلد ألبه ، ومعه يعي بن محمد التجيبي وقاسم بن مظرف بن ذى النون ، فابتنى حصن عرماج ودوخ بلادهم وانصرف . وظهرت في هذه السنة مراكب الجوس في البحر الكبير وأفسدوا بسائط اشبونة ، وناسبهم الناس القتال ، فرجعوا الى مراكبهم . وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل ، وأمر قائد البحر عبد الرحمن رماحس بتعجيل حركة الاسطول ، ثم وردت الأخبار بأن العساكر نالت منهم من كل جهة من السواحل . ثم كانت وفاة اردون بن اذفونش ملك الجلائفة وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن ردمير ، وهو ابن عمه ، وهو المملك من قبل اردون وحمل النصرانية على طاعته واستظهر اردون بصبره فردنرد قومس قشتالية توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره ابوه الناصر ، فبادر الى الوفاة على الحكم مستجيراً به فاحتفل لقدمه وعى العساكر ليوم وفادته وكان يوماً مشهوداً ، وصفه ابن

وكان العرب لا يزال منهم جماعات محتلة لبروفنس ودوفيني ولا تزال الناس هناك تخشى عاديتهن ، وكان الملوك في منازعاتهم يستعينون بهم فيكون الترجيح بواسطتهم .

حيان كما وصف أيام الوفادات قبله ، ووصل الى الحكم وأجلسه ووعده بالنصر من عدوه ، وخلع عليه ، وكتب بوصوله ملقياً بنفسه وعاقده على موالاته الاسلام ومقاطعة فرلند القومس ، وأعطى على ذلك صفقة يمينه ورهن ولده غرسية ، ودعت الصلات والحملات له ولأصحابه وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ليوطدوا له الطاعة عند رعيته ويقبضوا رهنه . وعند ذلك بعث ابن عمه شانجة بن ردمير ببيعتهم وطاعته مع قوامس أهل جليقية وسمورة وأساقنتهم ، يرغب في قبوله ويمت بما فعل أبوه الناصر معه ، فتقبل بيعتهم على شروط شرطها كان منها هدم الحصون والأبراج القريبة من ثغور المسلمين .

ثم بعث ملكا برشلونة وطوكونية وغيرها يسألان تجديد الصلح واقرارها على ما كانا عليه وبعثا بهدية وهى عشرون صبياً من الحضيان الصقالية وعشرون قنطاراً من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القصدير ، وعشرة أذرع صقلبية ومائتاسيف فرنجية . فتقبل الهدية وعقد على أن يهدموا الحصون التى تضر بالثغور ، وأن لا يظهروا عليه أهل ملتهم ، وأن يندروا بما يكون من النصارى فى الاجلاب على المسلمين .

ثم وصلت رسل غرسية ابن شانجة ملك البشكنس فى جماعة من الأساقفة والقوامس يسألون الصلح ، بعد أن كان توقف وأظهر المكر ، فعقد لهم الحكم . فاغتبطوا ورجعوا . ثم وفدت على الحكم أم لثريق القومس بالقرب من جليقية ، وهو القومس الأكبر فأخرج الحكم لتلقيها أهل دولته واحتفل لقدموها فى يوم مشهود مشهور ، فوصلت وأسغت ، وعقد السلم لابنها كما رغبت ، ودفع لها مالا تقسمه بين وفدها دون ماوصلت به هى وحملت على بغلة فارهة بسرج ولجام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج ، ثم عاودت مجلس الحكم للوداع فعاودها بالصلوات لسفرها وانطلقت .

ثم أوطأ عساكره أرض العدو ، من المغرب الأقصى والواوسط ، وتلقى دعوته ملوك زنانية من مغراوة ومكناسة فبشوها فى أمثالهم وخطبوا بها على منابرهم وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم . ووفد عليه من بنى الحرز وبنى ابى العافية ، فأجزل صلتهم وأكرم وفاتهم وأحسن منصرفهم واستنزل بنى ادريس من ملكهم بالعدوة فى ناحية الريف وأجازهم البحر الى قرطبة ثم جلاهم الى الاسكندرية . وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جامعاً للكتب فى أنواعها بما لم يجتمع أحد من الملوك قبله . قال أبو محمد بن حزم أخبرنى تليد الحصى ، وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بنى مروان ، أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربعة واربعون فهرسة وفى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم والعلماء سوفاً ناقفاً جلبت اليه بضائعه من كل قطر

وكان أوتون ملك الألمان بعد أن قهر المجر واستصفي جميع ألمانيا اجبر البابا على تنويجه بتاج الامبراطورية وتغلب على برانجة ملك لونيباردية ، وخرج هذا من مملكته شريدا فقام ابنه ادالبرت للمطالبة بملك أبيه . وروى بعض المؤرخين مثل البريك المنقول تاريخه في مجموعة لاينبتر أن ادالبرت استعان بمسلمي فركسنت .

وفي سنة ٩٥٦ تم اجلاء العرب عن غرينوبل . وقد تقدم أن أساقفة هذه المدينة كانوا هجروها الى ساندونات من جهة فالانس ، فقام أحدهم ايزاردن وجمع أ كابر البلاد وقوادها واستنفرهم لقتال المسلمين . وكان هؤلاء يملكون اخصب النواحي وأجود الأراضي فتقرر أن كل انسان يكون نصيبه من هذه الأراضي بقدر بسالته واقدامه . فلما تمكن الأهالي من اجلاء العرب عن غرينوبل ووادي غرازيفودان تقاسم المقاتلون للعرب تلك البقاع التي كانت ييدهم بحسب درجة انغماسهم في الحرب . ومن ذلك جاءت ثروة بعض العائلات القديمة في مقاطعة دوفيني ومن جملتها عائلة اينارد Aynard التي يقال ان أصل ثروتها من تلك الحرب الصليبية . وبعد أن استصفي الأسقف ليزورن تلك البلاد ومحا آثار العرب فيها أعلن عن نفسه أميراً على

قال أبو محمد بن خلدون : ولما وفد على أبيه أبو علي الفالي ، صاحب كتاب الأملاني ، من بغداد أكرم مثواه وحسنت منزلته عنده ، واورث أهل الأندلس علمه ، واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه . وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويرسل اليهم الأموال بشرائها حتى جلب منها الى الأندلس مالم يعهده . وبعث في كتاب الأغاني الى مصنفه أبي الفرج الاصفهاني ، وكان نسبة في بني أمية ، وأرسل اليه فيه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث اليه بنسخة منه قبل أن يخرج الى العراق . وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الابهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم وأمثال ذلك .

وجمع بداره الحدائق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد ، فأوعى من ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، الا ما يذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء . ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى أن بيع أ كثرها في حصار البربر وأمر باخراجها وبيعها الحابج واضح من موالى المنصور ابن أبي عامر ، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة واقتحامهم إياها عنوه .

انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار .

غرينوبل وعلى الوادى . وحفظ خلفاؤه تلك الامارة مدة طويلة وبقى جانب من امتيازاتهم الى زمن الثورة الافرنسية .

فالقارى يرى أن أمور المسلمين في تلك الاصقاع كانت قد أخذت تتراجع الى الوواء ، وأن ذلك التقهقر كان يزيد طمع الأهالى في التخلص منهم تماماً ، ففي سنة ٩٦٨ نادى الامبراطور أوتون بهذه العزيمة وأجمع أن يستأصل شأفتهم من هذه النواحي ، الا انه مات قبل أن يحقق وعده . وكان في ذلك العصر رجل لا يذكر اسمه الا مقروناً بالتجلة والاكرام سواء عند الملوك أو بين الشعوب وهو القديس مايول Mayeul الذى كان قسيساً في بلدة كلونى Cluny في بورغونية ، وكان قد بلغ من شهرته بالفضائل أن تحدث الناس بانتخابه لمقام البابوية ، وكان هذا القديس ذهب الى رومة لزيارة كنائسها وفي اياها من رومة جاءت طريقه على بلاد البييمونت قاصداً الرجوع الى ديره من جهة جبل جنيفر Genevre وأودية دوفيني ، وكان المسلمون اذ ذاك محتلين البلاد الواقعة بين غاب Gap وامبرون Embrun ومركزهم في الأعلى المشرفة على وادى دراك Drac بازاء جسر أورسيير (ولا يزال هذا المكان معروفا الى اليوم) فلما وصل القديس مايول الى ذيل الالب وجد هناك عدداً كبيراً من الزوار القافلين من رومة والمسافرين قد علموا بمجيئه فانتظروه ليسيروا معه اذ لم يكونوا يرجون أن تنتدح لهم فرصة خير من هذه لاجتياز جبال الالب . فتقدمت قافلة القديس . وفيها هذا الجرم الفقير . وما وصلوا الى ضفاف الوادى سائرين في طريق منحصرة بين الجبل والنهر ، حتى انهال عليهم العرب يرشقونهم بالسهم من عل . وكان العرب نحواً من الف مقاتل ولم يكن للمسيحيين مفر ، فأحيط بهم ووقع أكثرهم في الاسر . وكان من جملة الاسرى القديس مايول ، وقد جرح في يده وهو يذب عن أحد رفاقه ؛ فسيق الاسرى الى مكان على حدة ، وكان أكثرهم فقراء لا يطعم الانسان من ورأهم في مغم فذنا العرب من القديس وسألوه عن درجة يساره فأجابهم القديس بأنه من قوم أغنياء ولكنه خرج من جميع أملاكه ووقف نفسه على عبادة ربه وهو الآن راهب في دير ذى أملاك وأراض واسعة فتساوموا معه على

فدية تبلغ مائساوى ألف ليرة من الفضة أو ثمانين ألف فرنك من الماملة الحاضرة
وطلب العرب من القديس أن ينفذ رفيقه الى دير كلونى ليحمل اليهم المال وضربوا
له موعداً قالوا له ان فات هذا الموعد ولم يروا المال فانهم يقتلون القديس وسأر الأسرى
فكتب القديس الى الدير قائلاً : الى آباء كلونى والاخوان الذين فيه مايول
المسكين أسير مكبل بالقيود الخ . فلما وصل هذا الكتاب ارتفع البكاء والعيول
من كل جانب وأسرعوا بجمع الأموال واستجادوا أ كف ذوي الحمية وجردوا
الكنيسة من زخرفها ، وأرسلوا كل ما وقع فى أيديهم من المال لفكالك القديس
ومن معه من الأسرى . فوصل المال قبل انقضاء الأجل وأطلق المسلمون سراحهم
وكان القديس فى أثناء وقوعه فى الاسر قد حاول أن يرشد المسلمين قائلاً لهم : ان
الذى يعتقدون به لا يقدر أن يخلصهم من العذاب ولا ينفعهم بشيء . فعند ماسمعوا منه
هذا الكلام حاجت حفيظتهم وشدوا وثاقه وصاروا به الى أحد الكهوف وحبسوه
فيه ثم انهم عادوا فسكنوا ورجعوا الى معاملته بالحسنى . وكان اذا اشتهى الطعام جاء
أحدهم وغسل يديه وأصاح له طعاماً شهيماً ووضع بين يديه بكل أدب . وكان مع
القديس نسخة من التوراة ، فجاء أحد المسلمين ومد يده اليها بدون احترام ، فلامه
رفاقه وقالوا له : ان هذا كتاب مقدس ونحن معاشر المسلمين نقدر جميع الكتب
السبوية . وبهذه المناسبة قال أحد كتاب ذلك العصر : ان المسلمين يحترمون مثلنا
انبياء العهد القديم ويرون المسيح نبياً كبيراً وانما يجعلونه على كل حال أصغر من محمد
يقولهم ان محمداً كان خاتم الرسل وهم يقولون ان محمداً هو من سلالة اسماعيل ابن ابراهيم .
وقد وقعت حادثة القديس مايول هذه فى سنة ٩٧٢ فصار لها دوى عظيم فى
الاقطار وضح لها المسيحيون الصغار والكبار وهبوا طالبين الأخذ بالثار وكان فى
نواحي سيسترون Sisteron فى قرية يقال لها نويه Noyers رجل نبيل يقال له بوبون
Behon كان قد استنفر الناس مراراً لتخليص هذه البلاد من العرب فانتهر هذه
الفرصة التى كان فيها الناس غضاباً من أجل حادثة مايول فجمع كلمة الفلاحين والأعيان
وسكان البوادي والحواضر ممن يعضون للدين والوطن ثم بنى حصناً فى نواحي

سيسترون بازاء حصن كان ينزله المسلمون يريد بذلك مراقبة حركاتهم حتى ينقض عليهم في أول غرة و يتقحم أول ثلثة . و حاول المسلمون أن يعرفوا مساعى بوبون هذا فلم يفلحوا وكان الحصن الذى فيه المسلمون على رأس جبل يقال له « بيتره انبيه » Petra - Empia و بينا الفرقان يداور كل منهما الآخر اذ اغتصب قائد حصن العرب امرأة الحرسى الموكول اليه باب الحصن فانتمم البواب المذكور عن هذه الفعلة بان عرض على بوبون أن يفتح له الباب على حين غرة فيدخل الى الحصن و يفتك بمن فيه . وهكذا تم و جاء بوبون ومعه رجاله فوجدوا الباب مفتوحاً فدخلوا و ذبحوا المسلمين وهم غارون و منهم من عرض على المسيحيين ان يتنصر فهؤلاء عفوا عنهم واستحيوهم و من جلتهم القائد و قد جعلت الكنيسة بوبون هذا فى مصاف القديسين كما يستفاد من المجموعة البولندية (١)

و فى الوقت نفسه كان أهالى غاب (٢) قد ثاروا بالعرب و وثبوا عليهم و استأصلوهم . و جاء فى كتاب قديم يتعلق بهذه البلدة أن الذى جمع كلمة الالهين و ثار بهم على العرب هو رجل يقال له غليوم فكبسوا العرب بيانا فى جميع المواقع التى كانوا يحتلونها ، و استأصلوا عرقاتهم و كانت مكافأة الذين قاموا بهذه الحرب أن أخذوا نصف البلدة و نصف الأراضى و تركوا النصف الآخر للمطران و الكنائس . و هكذا تحررت بلاد الدوفينى و أصبح خلاص مملكة بروفنس بعد ذلك قريبا .

و ان من المؤسف أن لاتكون لدينا على هذا الحادث المهم معلومات مفصلة ، و غاية ما علمناه أن غليوم كونت بروفنس هو الذى تولى كبر تلك الحرب . و من يدرى فقد يكون هو نفسه غليوم الذى عفى آثار العرب فى « غاب » فان غاب كانت من توابع بروفنس . و كان غليوم كونت بروفنس محبا للعدل محافظا على الديانة برأى برعيته فأجبه رعاياه حباً جمياً . ولما استنفر أهالى بروفنس و دوفينى السفلى و نيس لقتال العرب لبوا

(١) هى مجموعة حياة القديسين منسوبة الى راهب يسوعى اسمه بولاند . و قد بدأ هو بها و أكملها غيره فصارت تسمى مجموعة البولنديين .

(٢) قصبة هى مركز مقاطعة الألب العليا كان العرب استولوا عليها طويلا .

تدائه ، فلما اجتمع اليه الجم الغفير منهم قصد أن ينهد الى العرب في فرسينت ، وعند ما علم العرب أن أهالى البلاد ضيقوا عليهم من كل جانب نزلوا من جبالهم مجتمعين ودافعوا عن أنفسهم صفاً وأول معركة وقعت معهم وقعت في نواحي دراغينان Dragengman في مكان يقال له تور تور Tourtour حيث يوجد الى الآن برج مبني منذ ذلك اليوم ، تذكرنا لتلك المعركة ، فلنهمز المسلمون والتجأوا الى حصن منيع . ولكن المسيحيين أخذوا بمخنقهم حتى اضطروهم أن يغادروا الحصن ليلاً ويلجأوا الى الحراج المجاورة ، فتأثرهم أهالى البلاد وتغلبوا عليهم ، فقتل أكثرهم ، وأخذ الباقون أسرى^(١) وجميع من وقع في الاسر أو استسلم من المسلمين عفوا عنه كما أنهم لم

(١) نقل رينو هذا الخبر عن مجموعة مؤرخى فرنسة وقال من الجائر أن يكون بعض المسلمين فروالى البحر وذهبوا الى الأندلس أو الى صقلية أو إلى سواحل افريقية . وقد قال دربلو D'Herbelot في «المكتبة الشرقية» تحت اسم المعز وكذلك كاردون Cardonne في تاريخ مغاربة افريقية انه في ذلك الوقت أى نواحي سنة ٩٧٠ كان المسلمون مالسكين لجزيرة سرديانية وأن الخليفة المعز قبل أن فتح مصر كان أقام بسرديانية مدة سنة وقد وافق على هذه الرواية ميمو Mimaut صاحب تاريخ سرديانية وزعم «دلين» Delbene أن المسلمين كانوا استولوا على كورسكة أيضا وهى التى يقول لها العرب قرسقة .

ويقول دلبين انه كان لهم أمير يقال له «موجه» Mugat جرد عليه كونت بروفس جيشاً انضم اليه الجنوبيون . ولاشك أن دلبين يريد أن يتكلم عن الأمير مجاهد الذى كان أغار على سرديانية وكان البيزانبيون أو البيزانة (كما يقول العرب) ولكن قصة مجاهد هذا وغارته على سرديانية متأخرة عن هذا التاريخ بنحو من ثلاثين سنة . انتهى كلام رينو .

قلت مجاهد العامرى من ممالك الملك الغازى الشهير المنصور بن أبى عامر ، كان بعد ذهاب دولة المنصور قد تقلبت به الأحوال ، فاستولى على دانية وشن الغارة على سرديانية . ترجمه ابن عميرة في بنية الملتس فقال : مجاهد بن عبدالله العامرى . أبو الجيش الموفق ، مولى عبد الرحمن الناصر بن المنصور محمد . كان من أهل الأدب والشجاعة والعلوم وأهلها . نشأ بقرطبة وكانت له همة وجلادة وجرأة ، فلما جاءت أيام الفتنة وتقلبت العساكر على النواحي بنهاب دولة ابن أبى عامر قصد هو فى من تبعه الجزائر التى فى شرقى الاندلس ، وهى جزائر خصب واسعة ، فغلب عليها وحماها (يريد بهذه الجزائر ميورقة ومينورقة ويابسة) ثم قصد منها فى المراكب الى سرديانية (جزيرة من جزائر الروم كبيرة) فى سنة ست أو سبع واربعمائة فغلب على أكثرها وافتتح معاقها .

يقتلوا المسلمين الذين كانوا ساكنين وادعين في القرى المجاورة . ومن هؤلاء من تنصر
واندمج في الأهالي ، ومنهم من بقى مسلماً ولكنه أصبح رقيقاً مستخدماً إماماً في

ثم اختلفت عليه أهواء الجند وجاءت امداد الروم ، وقد عزم على الخروج منها طمعاً في تفرق من
يشغب عليه ، فعاجلته الروم وغلبت على أكثر مراكبه ، فأخبرني أبو الحسن نجبة بن يحيى قال :
أبنا شريح بن محمد عن أبي محمد بن حزم قال ان أبا الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني قال : كنت مع
أبي الجيش مجاهد في سردانية فدخل بالمراكب في المرسى نهاء عنه ابو خروب رئيس البحرين ، فلم
يسمع كلامه ، فهبت ريح فجعلت تقذف مراكب المسلمين مركباً مركباً الى الريف ، والروم وقوف
لاشغل لهم الا القتل والاسر للمسلمين ، فسكنا سقط مركب بين أيديهم جعل مجاهد يبكي بأعلى
صوته ، لا يقدر هو ولا غيره على أكثر من ذلك ، لارتجاج البحر وزيادة الريح
الى أن يقول : قد كنت حذرت من الدخول ههنا فلم يقبل ، قال فيجريعة الذقن ماتنا حصنا في
يسير من المراكب . هذا آخر خبر ثابت بن محمد .

ثم عاد مجاهد الى الجزائر الأندلسية التي كانت في طاعته واختلفت به الأحوال حتى غلب على دانية
ومايلها ، واستقرت اقامته فيها . وكان من الكرماء على العلماء ، باذلاً للرغائب في استئالة الأدباء ،
وهو الذي بذل لأبي غالب اللغوي تمام بن غالب ألف دينار على أن يزيد في ترجمة الكتاب الذي
ألفه في اللغة مما ألفه لأبي الجيش مجاهد على ما ذكرنا في باب البناء . وفيه يقول أبو العلاء صاعد
ابن الحسن اللغوي وقد استأله على البعد بخريطة مال ومركب أهداهما اليه قصيدة أولها :

أنتنى الخريطة والمركب كما اقترن السعد والسكوكب
وحط بمينائه قلعة كما وضعت حملها المقرب
على ساعة قام فيها البناء على هامة المشتري يخطب

الى أن قال

مجاهد رضت إياه الشمس فأصبح مالم يكن يصحب
فقل واحتكم فسمع الزمان مصيخ اليك بما ترغب

وقد ألف في العروض كتاباً يدل على قوته فيه . ومن أعظم فضائله تقديمه للوزير الكاتب أبي العباس
أحمد بن رشيق وتحويله عليه ، وبسط يده في العدل وحسن السياسة . وكان موته بدانية في
سنة ٤٣٦ .

وجاء في معجم البلدان لياقوت ان المسلمين غزوا سردانية في سنة ٩٢ في عسكر موسى بن نصير
والذي قرأته في التواريخ أن عبد الله بن موسى بن نصير هو الذي فتح ميورقة واخواتها ولعله
غزا سردانية .

أراضي الأديبار أوفى أراضي الزعماء . وقد بقيت لهذه الأمة بقايا معروفة مدة طويلة كما سيأتي الكلام عليه .

أما سقوط حصن فر كسينت فقد وقع في سنة ٩٧٥ وكانت مدة بقاء هذا الحصن في أيدي المسلمين أكثر من ثمانين سنة . ولما كان هو المركز الأصلي لجميع العرب المنتشرين في داخل فرنسا وشمالى ايطالية وفي سويسرة ، فلا بد من أن ذلك الحصن كان ملائ بالأموال والنفائس ، فوزع الكونت غليوم صاحب بروفنس تلك الأموال على الذين امتازوا بقتال العرب ؛ وأشهرهم « جيبيلين غريمالدى » الذى كان من أهل جنوة فإنه كوفى على اقدمه بالاراضى التى كانت في منتهى خليج سان ترويز . وممن يذكر بين المشاهير الذين جالدوا حق الجلاد بهذه الحرب مسيحي آلت اليه السيادة على مدينة كاستلان Castallane في مقاطعة الالب السفلى . وربما

وجاء في تاريخ ابن عذارى المراكشى المسمى بالبيان المغرب ، أن المسلمين غزوا سردانية في سنة ٢٠٦ وعليهم محمد بن عبد الله التميمي فأصابوا وأصيب منهم ثم قتلوا . وقد اطلعت في مدينة جنوة على تاريخ الطليانى لجمهورية جنوة لمؤلف يقال له « فريديسى دونافر » De Naver جاء فيه انه في سنة ١٠١٦ ذهب أسطول جنوى إلى سردانية وتغاب على قوة مجاهد الأمير العربى الذى كان استولى عليها ، وانه في سنة ١٠٣٤ وصل الأسطول الجنوى الى افريقية واحتل الجنوبية عنابة . وانه في سنة ١٠٨٧ ذهبت الأساطيل الجنوبية والبيزانية ، ومعها اسطول امالى (بقرب نابولى) بأمر البابا فكتور الثالث ، واجتاحت سواحل تونس وطرابلس واضطر أمير افريقية أن يدفعهم عنها بقدية تبلغ نصف مليون بحسب المعاملة في زمن صاحب التاريخ وسلم اليهم الأسرى المسيحيين الذين كانوا عنده .

ومما جاء في تاريخ جنوة هذا أنه في مدة ١٣ سنة غزا الجنوبية ثمانى غزوات في بلاد الاسلام ، وان فتح الصليبيين لطرابلس الشام كان على أيدي الجنوبية في ١٣ تموز سنة ١١٠٩ وان أمير ياتشى قائد الجنوبية تولى مدينة جليل ثم انه في سنة ١١١٠ كانت له اليد الطولى في حصار بيروت وفتح الصليبيين لها . قال : واشترك الجنويون مع غودفروا دو بويون في فتح القدس وفتحوا صور وقيسارية .

هذا وجاء في تاريخ الخلفاء للإمام السيوطى أن الوليد بن عبد الملك تولى الخلافة في شوال سنة ست وثمانين وانه في سنة ٨٧ فتح سردانية من جملة فتوحات عدها وانه في سنة ٨٩ فتح جزيرتى ميورقة ومينورقة .

كانت ثروة آل كاستلان الحاضرة راشحة عن تلك الفتوحات . ولا ينبغي أن ننسى أن العرب كانوا أيضاً قد أجلوا عن مدينة ريبز في (الألب السفلى) فإنه في كل سنة يحتفل أهالي هذه البلدة بعيد خلاصهم منهم الذي يصادف يوم العنصرة . وقد استولت الكنيسة أيضاً على كثير من الأراضي التي كانت بأيدي المسلمين . وذلك لأن رجال الدين المسيحي كانوا قد أصيبوا أكثر من سواهم بهذه الغارات العربية وتمهد كثير من أديارهم فلذلك كانوا هم دائماً في طليعة الحركة لاجلاء العرب ، فبالأساقفة فريجس ونيس نصيباً كبيراً من الأراضي التي كانت بأيدي المسلمين . وفي طولون وقع نزاع بين الأهالي على الأراضي التي كانت للمسلمين لأنه كان قد طال حكم العرب لتلك البلدة فدثرت آثار التملك القديم واصبحت الحدود مجحولة . فجاء الصكوت غليوم من آرل وأجرى التقسيم بين الأديار والأهالي والامراء ، وأرضي الجميع . ولذلك بقى لغليوم هذا اسم كبير في التاريخ ، وأطلقوا عليه لقب أبي الوطن .

فقد تقرر إذاً أن سقوط حصن فركسنت في أيدي المسيحيين وقع في سنة ٩٧٥ وأنه من ذلك الوقت لم يبق للمسلمين شيء في أرض فرنسة . نعم ان بعض المؤرخين ومنهم دالين المار الذكر يزعم بقاء المسلمين في جبال الالب مستمراً الى ما بعد سنة ٩٨٠ بل الى ما بعد سنة الألف ، ولكننا لا نثق بهذه الرواية ، ونظن أنه ان كانت قد بقيت عصابات عربية في جبال الالب من بعد تاريخ سقوط فركسنت فلا تكون عصابات محاربة بل تكون عصابات مستسلمة وقد اردت عن الاسلام الى النصرانية أو صار رجالها في حكم الرقيق . وبالاختصار فمن بعد ذلك العهد لم يبق على أتباع الانجيل خطر من أتباع القرآن الا ان كان من قبيل وقائع قرصانية كان لا بد لأجل التخلص منها من مطاردة البرابرة الى نفس بلادهم .

وفي سنة ٩٧٦ مات الخليفة الحكم الثاني في قرطبة وكان ابنه بليداً فتقلد الامور الحاجب الملقب بالنصور وكان آية باهرة في البسالة والاقدام وحسن التدبير بل منه النصراري يباقة لا نظير لها فاعاد للاسلام رونقه الأول وبث الغارات في أطراف بلاد

النصرانية حتى أوقع الذعر في جميعها وعادت النصرانية على شفا خطر عظيم . وكان المنصور عندما تسلم الزمام قد بدأ بترتيب أمور الولايات الافريقية ، حيث أدخل في الطاعة جميع أهلها وجند منهم الجيوش الجرارة واستنفر أيضا أهل الأندلس منتخبا منهم أشجع الشبان وأخذ يشوقهم الى القتال ويمرهم عليه . وكانت غزوات المنصور كلها في فصل الصيف ، ما عدا غزاة واحدة ، وذلك لأن رجال افريقية كانوا لا يتحملون برد الاصقاع الشمالية . وبلغ عدد غزواته في مدة سبع وعشرين سنة ستا وخمسين غزوة ، لم تهزم له فيها راية ولا ولى جيشه مدبرا (١)

وكان المسلمون في الغالب فرسانا فاذا قصدوا الى بلاد النصرارى وهزموا لهم جيشا ذبحوا الرجال وسبوا النساء والأولاد وباعوهم رقيقا ، فكنت ترى بعد كل غزاة من غزوات المنصور أسواق قرطبة واشبيلية واشبونة وغرناطة مكتظة بالرقيق من ذكور واناث ، وكان تجار الرقيق يأتون بهذه الخلائق الى افريقية ومصر وسائر بلاد الاسلام فتنتشر فيها . وكان المنصور يرى جهاده في بلاد النصرانية أفضل قرباته الى الله تعالى ، وكان يستصحب في جميع اسفاره التابوت الذى يريد أن يوضع فيه عند موته . وكان من عادته أن ينفذ الغبار الذى يعلق بثيابه في أثناء غزواته ويجعله في ذلك التابوت ، ليصنع منه لبنة يضعها تحت رأسه عند الموت . فجال غزاة المسلمين تحت راياته المنصورة في قشتالة وليون وناباره وآراغون وكتلونى الى أن وصلوا الى غاشقونية وجنوبي فرنسا

وجاست خيل المنصور في أماكن لم يكن خفق فيها علم اسلامي من قبل ، وسقطت مدينة شانتياق من جليقية وهى أقدم معهد مسيحي في اسبانية في أيدي المسلمين ، واحرقت تلك المدينة . وأخذت اجراس الكنيسة الكبرى المعروفة بكنيسة

(١) لى من قصيدتى الأندلسية التى نظمتها بعد وصولى الى قرطبة :

وسائل عن المنصور نجل ابن عامر يجاوبك عنه كل قوس موتر

غزا فى العدى ستاً وخمسين غزوة فأب بها طراً بنصر مؤزر

القديس يعقوب الى قرطبة حيث عمل منها قناديل وعلقت في الجامع الأعظم . ولأجل أن يزيد المنصور من اذلال المسيحيين أجبرهم على حمل الاجراس المذكورة على ظهورهم من شانتياقب الى قرطبة وهي مسافة ثمانمائة كيلومتر ولا ينكر أن المسيحيين عادوا عند ما دخلوا قرطبة فاسترجعوا هذه الأجراس وحملوها على ظهورهم من قرطبة الى شانتياقب ، وتلك الايام نداولها بين الناس .

وفي أيام المنصور ^(١) كاد الأمل ينقطع من بقاء النصرانية في اسبانية ، فاتحد

(١) سنأتى في الأجزاء التالية على كل ما يتصل بنا من أخبار المنصور بن أبي عامر الذى يقدر أن يضعه المؤرخون في الصف الأول من رجال العالم ، لأن محل هذه الترجمة هو في تاريخ الاندلس لافي تاريخ فرنسا ، ولكن من حيث ان المستشرق رينو أشار الى غزوات المنصور الشهيرة لم نشأ أن نخلى هذا الجزء أيضاً من شيء من ترجمته ، فنقول :

جاء في فتح الطيب مايلي : ومن ذلك غزوة المنصور لمدينة شنت ياقب قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصرى الكائنة ببلاد الاندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا « وللكعبة المثل الأعلى » فيها يخلفون واليها يجمعون من أقصى بلاد رومة وما وراءها، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب أحد الحواريين الاثنى عشر وكان أخصمهم يعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه وياقب بلسانهم يعقوب ، وكان أسقفاً بيت المقدس فجعل يستقرى الأرضين داعياً لمن فيها حتى انتهى الى هذه القاصية ، ثم عاد الى أرض الشام فمات بها ، وله مائة وعشرون سنة شمسية ، فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره . ولم يطمع أحد من ملوك الاسلام في قصدها ولا الوصول اليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شقتها فخرج المنصور اليها من قرطبة غازياً بالصائفة يوم السبت لست بقين من جادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وهي غزوته الثامنة والأربعون ، ودخل على مدينة قورية فلما وصل الى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة ، في رجالهم وعلى آتم احتفالهم ، فصاروا في عسكر المسلمين وركبوا في الفاورة سبيلهم ، وكان المنصور تقدم في انشاء أسطول كبير في الموضع المعروف بقصر أبي وانس من ساحل غرب الاندلس وجهزه برجاله البحريين وصورف المترجلين وحمل الأقوات والأطعمة والعدة والأسلحة استظهاراً على تقوؤ الغزيمة ، الى أن خرج بموضع يرتقال على نهر دويرة فدخل في النهر الى المكان الذى عمل المنصور على العبور منه ، فمقد هنالك من هذه الاسطول جسراً بقرب الحصن الذى هنالك ، ووجه المنصور

ملوك النصارى بأجمع أصحاب ليون و نابار وقشتالة وسائر المقاطعات المسيحية ، ونبذوا كل ما كان بينهم من خلاف . وصاروا عصابة واحدة ، وتسليح الأساقفة والقسيسون

ما كان فيه من الميرة الى الجند فتوسعوا في التزود منه الى أرض العدو ، ثم نهض منه يريد شانت ياقب فقطع أرضين متباعدة الأقطار وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلصان يمدها البحر الاخضر ، ثم أفضى العسكر بعد ذلك الى بسائط جبلية من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى الى جبل شامخ شديد الوعر لاسمك فيه ولا طريق لم يهتد الادلاء الى سواه ، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه فقطعه العسكر وعبروا بعده وادى منية وانبط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين ، وانتهت مغيرتهم الى دير قشان وبسيط يلبو على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بلايه وغنموه وعبروا بساحته الى جزيرة من البحر المحيط لجأ اليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي ، فسبوا من فيها ممن لجأ اليها . وانتهى العسكر الى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه ، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجاً في معبرين أرشد الأدلاء اليهما ثم نهر ابلة ثم أفضوا الى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ، ثم انتهوا الى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل يقصد نساكهم له من أقاصى بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرها ففادره المسلمون قاعاً ، وكان النزول بعد على مدينة شانت ياقب البائسة ، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وغفوا آثارها ، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه . وكانت مصانعها بديعة محكمة ففودرت هشياً كأن لم تكن بالامس وانتسفت بعد ذلك سائر البسائط . وانتهت الجيوش الى مدينة شنت مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط ، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطنها لغير أهلها قدم ، فلم يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال ، وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله ، فجعل في طريقه الفصد على عمل برمند بن اردون يستقره عائناً ومفسداً حتى وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره فأمر بالكف عنها ومر مجتازاً حتى خرج على حصن بليقية من افتتاحه ، فأجاز هنالك القوامس بمجملتهم على أقدارهم ، وكسام وكسا رجالهم وصرفهم الى بلادهم وكتب بالفتح من بليقية

وكان مبلغ ما كساه في غزاته هذه للملك الروم ولبن حسن غناؤه من المسلمين الفين ومائتين وخمسة وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازي وواحداً وعشرين كساء من صوف البحر وكسائين عبريين وأحد عشر سقلاطونا وخمسة عشر مريباً وسبعة أتماط ديباج وثوبن ديباج رومي وفروي فنك ،

وساروا في مقدمة الجيوش بحسب رواية مؤرخي النصارى على ما في مجموعة الدون بوكه . واجتمعت جيوش جرارة من المسيحيين على حدود قشتالة القديمة ، وحشد المنصور جميع ما عنده من قوة وكانت الواقعة هي التي ستكون الفاصلة بين الفريقين ، وتلاقى الجمعان على نهر دويره فكانت المعركة من أهول ما يتصور العقل وبقية طول النهار وسالت الدماء كالأنهار ولم ترجح فئة على الاخرى ، ولكن المسيحيين كان أكثرهم في زرد الحديد فكان التلف منهم أقل . ولما خيم الظلام رجعت كل فئة الى مخيمها وانتظر المنصور مجيء قواده وأعوانه للتشاور معهم فلم يحضر منهم أحد فسأل عن سبب تأخرهم ف قيل له انهم سقطوا صرعى في المصاف ، فلم المنصور أن العاقبة وبيلة والثالث جسمه وامتنع عن أخذ أى علاج ، ومات بعد أيام قلائل ، فدفنوه في الثياب التي كانت عليه يوم المعركة وفي التابوت الذي كان يحمله معه ليدفن فيه . ولا يزال قبره معروفاً في مدينة سالم^(١)

ووافي جميع العسكر قرطبة غانماً وعظمت النعمة والمنة على المسامين ولم يجذبشنت ياقب إلا شيخاً من الرهبان جالساً على القبر فسأله عن مقامه ، فقال : اونس يعقوب . فأمر بالكف عنه . قال : وحدث شعله قال : قلت للمنصور ليلة أطال سهره فيها : قد أفرط مولانا في السهر وبدنه يحتاج الى أكثر من هذا النوم وهو أعلم بما يحركه عدم النوم من علة العصب ، فقال : ياشعلة الملك لاينام اذا نامت الرعية ولو استوفيت نومي لما كان في دور هذا البلد العظيم عين نائمة . انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور

(١) جاء في فتح الطيب تقياً عن ابن سعيد أن المنصور رحمة الله توفي في غزاته للافرنج سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة وحمل في سريره على أعناق الرجال وعسكره يحف به وبين يديه الى أن وصل الى مدينة سالم انتهى

وجاء في الفتح من جملة مناقبه أنه خط يده مصحفاً كان يحمله معه في أسفاره وغزواته يدرس فيه ويتبرك به ، ومن قوة رجائه انه اعتنى بجمع ماعلق بوجهه من الغبار في غزواته ومواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه عنه بالناديل في كل منزل من منازلهم حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصييرها في حنوطه ، وكان يحملها حيث سار مع أ كفانه ، توقفاً لحلول منيته ، وقد كان اتخذ الكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته . وكان يسأل الله أن يتوفاه في طريق الجهاد فكان كذلك انتهى .

قلت : وقبره معروف في مدينة سالم والاسبانيول يلفظونها مدينة سالى أو ثالى بالناء

وكان المنصور طول استيلائه على الدولة جامعاً بين مجد السيف ومجد القلم ، فازدهرت في أيامه العلوم والصنائع وتقدمت الزراعة وازداد العمران وبلغت الاندلس لعهد من السعادة مبلغاً لم تعرفه من قبل . وفي أيام المنصور انتشرت مبادئ الفروسية «Chevalerie» والمبالغة في حفظ الشرف والرفق بالمرأة وبأى ضعيف ونجدة الملهوف اياً كان . وهذا أمر لا نزاع فيه الا ان المسيو فياردو Veiredot في كتابه المسمى « مشاهد الاخلاق العربية في اسبانية في القرن العاشر » قد تجاوز الحد في زعمه أن العرب لعهد المنصور ، هم الذين قرروا نظام الفروسية كما كان معروفاً عند فرسان المسيحيين فيما بعد ، وقد كان واجباً على المسيو فياردو أن يأتي بالبرهان على مقاله لأن الذي بأيدينا من تواريخ الذين عاشوا في ذلك العصر ليس فيه شيء مما قرره المسيو فياردو (١)

وكانت وفاة المنصور سنة ١٠٠٢ فقام بالأمر بعده ابنه عبد الملك ولكنه مات سنة ١٠٠٨ وبموته انقضت أيام الاسلام الزاهرة في اسبانية (٢)

ثم نشبت الحرب الداخلية في قرطبة وأخذت الحكومات تهدم بعضها بعضاً وفترت الحماية الاولى وبدأ الاسلام يتقهقر ويستسرّ بدره منذ ذلك الوقت . وقد كان في استطاعة المسيحيين من شمالي الاندلس أن يسترجعوا بلاد آبائهم وأجدادهم من ذلك الحين الا انهم هم أنفسهم أيضاً كانوا منقسمين وكانت العداوة بين نابار وغاليسية كما كانت بينهم وبين المسلمين ، وكان المسيحيون يدخلون في حروب المسلمين بعضهم

(١) ذهب كثير من المؤرخين الى أن نظام الفروسية الذي كان معروفاً في اوربة في القرون الوسطى رشح الى الاوربيين من عرب الاندلس ولنجيب بك غالى من أفاضل المصريين الأقباط كتاب نفيس في هذا الموضوع معزز بالأدلة والشواهد

(٢) جاء في النسخ : ولما توفي المنصور قام بالأمر بعده ابنه عبد الملك المظفر أبو مروان فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو وكانت أيامه أعياداً دامت مدة سبع سنين وكانت تسمى بالسابع تشبيهاً بسابع العروس ولم يزل مثل اسمه مظفراً الى أن مات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة في الحرم وثار الطوائف في ممالكهم وتحركت الجلائفة لاسترجاع معاقلهم وحصونهم انتهى

مع بعض منحازين الى احدى الفئتين المتقاتلتين حسب مقتضى مصلحتهم ، وربما كان مع كل من الفئتين فئة من المسيحيين ؛ وكان الاساقفة بأنفسهم يخوضون غمرات هذه الحروب . وفي سنة ١٠٠٩ انضم المسيحيون في الفتنه التي وقعت في قرطبة الى احدى الفئتين ونصروها على الفئة الأخرى فاستعانت الفئة التي دارت عليها الدائرة بمسيحيي كتلونيه الذين زحفوا الى قلب الاندلس ، ولكنهم فقدوا في أثناء الحرب ثلاثة من اساقفتهم ورجلا من أبطالهم اسمه ارمانجو كونت إيرجل (١)

(١) بعد وفاة عبد الملك المظفر بن المنصور قام بالأمر أخوه عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله وجرى على سنن أبيه وأخيه ، في المجر على الخليفة هشام الأموي والاستبداد والاستقلال بالملك دونه ، ثم بداله الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة فطلب من هشام أن يوليه عهده ، ولما لم يكن لهشام أدنى ارادة معه أجابه الى ماطلب وأحضروا لذلك الملاء من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد ، فكان يوماً مشهوداً ، فكتب عهده من انشاء أبي حفص بن برد ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهادتهم بخطوط أيديهم ، وتسمى عبد الرحمن بن المنصور بولي العهد

وكانت هذه هي الغلظة الكبرى التي بدأ بها اقراض دولة المنصور ودولة بني أمية ودولة الاسلام كلها في الأندلس لأن هذا الاعتداء أغضب الكثيرين ، وبدأت به الحرب الأهلية التي شغلت المسلمين بعضهم ببعض وتركت الثغور عورة ، واوجدت ملوك الطوائف يقتتلون ليلا ونهاراً بمشهد من عدو الامة .

وجاء في النسخ ان أهل الدولة تقموا على عبد الرحمن (ولي العهد) ما فعله مما كان فيه حنقه واقراض دولته ودولة قومه وكان أسرع الناس كراهة لذلك الأمويون والقرشيون ، ففصوا بأمره وأسفوا من تحويل الأمر جملة من المضربة الى اليمنية ، فاجتمعوا لشأنهم وتمشت من بعض الى بعض رجالاتهم وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور ، في غزاة من صوائفه ببلاد الجلائقة ، ووثبوا بصاحب الشرطة بقرطبة فقتلوه بمقعد من باب قصر الخلافة ، وخلعوا هشاماً المؤيد الذي ولي عهده عبد الرحمن بن المنصور ، وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمهدي بالله ، وطار الخبر الى عبد الرحمن بمكانه من الثغر فانقض جمعه وقتل الى الحضرة وقد تسلل عنه جنده ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدي وأغروه بعد الرحمن لسوء سيرته فاعترضه من قبض عليه واحتز رأسه وحمله الى المهدي . وذهبت دولة العامرين كان لم تكن

والحاصل أن مسلمي أسبانية كانوا قد أخذوا ينكصون وتنحصر أجنحتهم ولم يبق أدنى خطر منهم على فرنسة ، وأخذت هذه المملكة تتقوى وتتقدم الى الأمام .

قال : وكان رؤساء البربر وزنانة قد لحقوا بالمهدى الخليفة الجديد لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن ، إلا أن الامويين كانوا حاقدين عليهم لما كان من مظاهرتهم للعامريين ، فلم يلبثوا أن سخطتهم القلوب وخزرتهم العيون ونهبت العامة دورهم وشكوا أمرهم الى المهدى فلم تنفع شكواهم ، فتمشت رجالاتهم وأسروا نحوهم ، وبايعوا هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر ، فعوجلوا عن مرامهم ذلك وثار بهم السواد الأعظم وأزعجهم عن المدينة ، وتقبضوا على هشام وأخيه أبي بكر وأحضرهما بين يدي المهدي ، وضربت أعناقهما

وفر سليمان ابن أخيها واجتمع في البربر في ظاهر قرطبة ، فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ونهضوا به الى طليطلة فاستجاشوا بالنصارى ، وزحف ابن اذفونش في جيش انضم الى البربر ووصلوا الى قرطبة وهزموا المهدي ومن معه ، وقتل في ذلك اليوم ما يزيد على عشرين ألفاً . ودخل المستعين قرطبة ختام سنة أربعمائة ، ولحق المهدي بطليطلة واستجاش هو أيضاً بابن اذفونش فزحف معه الى قرطبة وهزموا المستعين والبربر أصحابهم ، ودخل المهدي قرطبة وملكها ثانية وخرج المستعين مع البربر وتفرقوا في البسائط يئسبون ولا يقون على أحد ، ثم ارتحلوا الى الجزيرة الخضراء ، فخرج المهدي ومعه ابن اذفونش لقتالهم فكروا عليهم وانهزم المهدي وابن اذفونش ومن معهما من المسلمين والنصارى ، ودخل المستعين قرطبة ثانياً مرة ، ولكنه لم يدخلها هذه المرة خليفة بل اخرج هشاماً الخليفة القديم وبايع له وقام بأمر حجابته ، ظناً منه أن ذلك يحسم الفتنة ، وقام أهل قرطبة وأغروا أهل القصر بالمهدى وقتلوه ، ظناً بأن قتله يحسم النزاع ، وصار هشام هو الخليفة ، وقام واضح العامري بحجابته . فعند ذلك بعث المستعين الى النصارى يستعديهم لمظاهرة تبعث اليهم الخليفة هشام وحاجبه واضح يكفونهم عن ذلك بأن يساموا اليهم الحصون والقلاع التي كان المنصور قد افتتحها من بلادهم وهكذا وقف الاذفونش عن مساعدة المستعين . ولكن المستعين والبربر تقبلوا على أهل قرطبة ودخلوها عنوة ونهبوها وأنزلوا المرات في أهلها ، وتولى البربر الأعمال واستقلوا بالبلاد مثل باديس بن حيوس في غرناطة ، والبرزالي في قرمونة والغرني في روندة ، وهزرون في شريش .

وافترق شمل الجماعة بالأندلس وسقطت هيبة الخلافة وبدأ دور الانحطاط بخمس دول صغيرة كبنى عباد باشبيلية ، وبنى الافطس ببطليوس ، وبنى ذى النون بطليطلة ، وبنى هود بسرقسطة ، وابن أنى عامر بيلنسية ، ومجاهد العامري بدانية والجزائر . انتهى تقلا عن فتح الطيب

وسنة ٩٨٧ انتقل الملك الى آل كابت Gabet فكانوا أجدر به من المتأخرين من سلالة شارلمان ، ثم تنصر النورمنديون وصاروا عاملاً عظيماً من عوامل

وقال ابن عذارى في كتابه « البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب » ان عبد الملك المظفر بن المنصور عند وفاة أبيه كتب الى أقطار المملكة بالأندلس والعدوة ، فاستوثق له الأمر ولم يرد أحد طاعته ، واجتمع الناس على حبه . وكان مع غلبة النيذ عليه واستغراقه في لذاته مراقباً لربه باكياً على ذنبه . وكان من فرط الحياء مع الشجاعة في غاية بعيدة . وله في بلاد الروم آثار عظيمة ، غزا سبع غزوات في مدته وفي السابعة توفي ، قيل مات مسموماً وقيل مات من علة الذبحة . وكان موته بمنزل أم هاني بمقربة من أرملاط لاربع خلون من صفر سنة ٣٩٩ فكانت مدته في الملك ست سنين وأربعة أشهر وسبعة أيام . وكانت أول غزواته الى بلاد الافرنج سنة ٣٩٣ ودوخ بسائط برشلونة وفتح حصن ممقصر عنوة وأسكنه المسلمين

وقال ابن عذارى انه لما ذهب عبد الملك الى مدينة سالم وافاه هنالك عدة زعماء من وجوه النصراني وفرسانهم ، أرسل بهم ملك القوط يومئذ اذفونش بن اردن المعروف بابن البربرية ، ومعهم آخرون ممن أرسل بهم خاله شانجة بن غرسية زعيم الجلائفة وصاحب قشتالة وأبلة ، وحضر هؤلاء الأرهاط للغزو بين يدي عبد الملك على ماتضمنه شرط سلمهم المنعقد صدر هذه الدولة ، وافين بالعهد حافظين للحرمة ، فأحسن عبد الملك قبولهم وأصعد عن مدينة سالم نحو الشفير الاعلى . قال تقياً عن حيان بن خلف انه في غزاته لأرض برشلونة افتتح ستة حصون . ولكن الحصون التي دمرها للعدو خمسة وثمانون حصناً .

قال : وفي سنة ٣٩٥ غزا جليقية ، وكان مظفراً ، وسنة ٣٩٦ غزا بنبلونة وسار الى سرقسطة ثم الى وشقة ثم الى بريشتر ، ومنها دخل أرض العدو ودمرها تدميراً ، وسنة ٣٩٧ غزا بلاد قشتالة من عمل الطاغية شانجة بن غرسية بن فرلند ، وهي غزاة قلوونية الخامسة من غزواته المعروفة بغزاة النصر التي لقي فيها شانجة بجميع النصرانية على اختلافها ، فهزمه عسك الملك هزيمة عظيمة ، رزق الله المسلمين فيها النصر المبين . وعلى أثرها تسمى عبد الملك بالمظفر ، وصدر له بذلك منشور من الخليفة هشام ، وأضاف الى لقب المظفر لقب سيف الدولة . وسنة ٣٩٨ غزا عبد الملك بالشانية ، وهي السادسة من غزواته ، واحتل شنت مرتين . ثم غزا غزاته السابعة سنة ٣٩٨ وقال فيها تقياً عن ابن حيان : ومن كبار علل عبد الملك ومنكراتها على الاسلام ومؤذنتها بما جرى عليه بعد من الاثلام ، علته الشديدة بمدينة سالم ، مخرجه اليها سنة ثمان وتسعين ، محتلاً لقصدهدو الله شانجة بن غرسية بن فرلند ، فصدته عن الدخول اليه بجموع المسلمين واشتدت به

القوة النصرانية وسكنوا وركنوا وتركوا العيث والدعارة . وكذلك تنصر المجار وأصبحت أوربة كلها مسيحية . وفي ذلك الوقت بدأت الناس تطالب الملوك بحقوقها وتنبهت الجماعات وناقشت السلطة الحساب وتأسس مايسمى بالحرية البلدية مما أدى في آخر الأمر تدريجاً الى الحالة الاجتماعية التي جعلت أوربة في مقدمة العالم المتمدن ، واورق من ذلك الوقت غصنها واخضر رعيها وأفلح سعيها . على أن سواحل فرنسا لم تسلم من غارات المسلمين الى ما بعد ذلك بمدة طويلة ففي سنة ١٠٠٣ نزل مسلمون اندلسيون في أرض أنطيب أو عين الطيب Antibes وأخذوا بعض رهبان أسرى وفي سنة ١٠١٩ غزا منهم أناس مدينة أربونة فاجتمع عليهم الأهالي وكشفوهم ثم قتلوهم وأسروا منهم عشرين رجلاً كانوا في غاية الطول والعظم ، فأسلوهم الى دير سان

مدة تفرق عنه فيها أكثر المطوعة ، وصارت على الاسلام مصيبة بما أوهنت من بطش عضده ونقصت من حفيل عدده ، ورام مع ذلك كله الانتحام على أعداء الله في حل تقوهه طمعاً في آتمام غزوه فكانت آخر صائفة نفذت من الحضرة ، اذ هلك عبد الملك والقت بركها الفتنة

قال : لما دفن المظفر رحمه الله تأهب أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول (اسم غلب عليه من قبل امه بنت شانجة النصراني الملك تذكر أنها لاسم أيها فكانت تدعوه في صغره بشنجول وكان أشبه الناس بجمده شانجه) فنظر في الأمور نظراً غير سديد وأفقق الأموال في غير وجهها ، ثم لما مضى لوقته شهر ونصف تصنع للخليفة هشام بن الحكم ، وطلب منه أن يولية العهد من بعده ، وأن يتسمى بولي عهد المسلمين . ففعل ذلك هشام لضعفه وسوء نظره وتقصان فطرته ، فولاه عهده ، فكان ذلك سبب انحراف أكابر الأندلس عن عبد الرحمن ، لما تبين لهم من سخف عقله وسرعته الى نقل المملكة عن خلفائها اليه دون غزاة ولا نصرة في حرب

وقد شرح ابن عذارى فتنة قرطبة التي أدت الى انهيار الاسلام في الاندلس مع أسبابها وتفصيلها بما لم يشرحه مؤرخ قبله ولا بعده . وسنأتى على ذلك في الأجزاء التالية . وقد ذكر في عرض كلامه على استجاشة مسلمي قرطبة بالاسبانيول بعضهم على بعض أن رجلاً نصرانياً وقف في أعظم شوارع قرطبة فقال قولاً نال منه صلى الله عليه وسلم ، فلم يكلمه أحد بكلمة ، فقال رجل من المسلمين غيره للنبي : ألا تنكرون ما تسمعون أما أنتم مسلمون ؟ فقال له جماعة من أهل قرطبة : امض لشغلك . وكان الافرنج اذا سمعوا الأذان للصلاة قالوا قولاً لا يذكر فلا يعترض عليهم أحد بشيء انتهى

مارسيال في ليموج ، فاستخدم منهم رئيس الدير اثنين وفرق الباقين على أصحابه . وجاء في مجموعة الدون بوكه خبر يفيد أن هؤلاء لم تكن لغتهم عربية .

وفي سنة ١٠٤٧ نزل مسامون اندلسيون في جزيرة لارين ^(١) Lerins واستاقوا عدداً من الرهبان أسرى فذهب رئيس دير سان فكتور في مرسيلى الى الأندلس لافتكاكهم . وكان بعض امراء الأندلس شرعوا يشنون الغارات البحرية على بلدان المسيحيين واشهر هؤلاء مجاهد العامرى الذى استولى على دانية وجزر الباليار والافرنج يسمونه موجيت Mujel أو موزكتوس Musectus وكان اسمه يلقى الرعب في سكان كورسكة وسردانية وبيزة وجنوه . وبقيت غارات المسلمين على سواحل فرنسة تتوالى ولا تغيب طويلا الى أن اشتدت قوة فرنسة البحرية ولم تنته تماماً الا بفتح فرنسة لجزائر الغرب ^(٢) وكانت مدينة ماغلون مقصداً لغزاة المسلمين حتى أطلق عليها لقب بورسارازين Port - Sarrazin ومن هذا القبيل مدينة مارتيج عند مصاب نهر الرون التى فيها ابنية يقال انها من أيام العرب ومثلها جزر هييار Hyeres التى قبالة ساحل الفار وقد جاء في احصاء لمقاطعة مصاب الرون بقلم المسيو تولوزان انه وجدت أوراق قديمة في مارتيج تتعلق باقامة المسلمين في تلك البلاد وكذلك وجدت أوراق قديمة في فوس يظهر منها أن المسلمين سكنوا في جزائر هييار المارة الذكر . على أن المسلمين بدأوا بالتقهقر البحرى في أواسط القرن الحادى عشر ، ففي سنة ٩٦١ كان الروم استردوا جزيرة اقريطش ، وفي سنة ١٠٥٠ أجلي المسلمون عن جنوبي ايطالية وفقدوا ملكهم في صقلية ، وتجاوز المسيحيون البحر وزلوا في بعض سواحل افريقية حيث خفقت لهم أعلام مدة طويلة ، ثم لم يلبث الاسبانيول أن استرجعوا طليطلة وقرطبة واشبيلية وغيرها . ثم زحف من أوربة الى آسيا الصليبيون بجيوش لاتحصى فوقفوا المسلمين عند حدودهم بل غزؤهم في عقر دارهم وفقد المسلمون كل أمل في

(١) أمام سواحل فرنسة الجنوبية عدة جزر بهذا الاسم أشهرها سانت مارغريت وسان اونورا

(٢) ان هذا الفتح وقع قبل نشر رينو كتابه بخمس سنوات

التجاوز على فرنسا والجنوب الغربي من أوربة . وفي سنة ٩٦٠ كان الكاتب العربي ابن حوقل يصف مسلمي الأندلس بالجبين والطيش وقد الصلابة والحزم . وكذلك ابن سعيد الذي كان يكتب في القرن الثاني عشر قد تعجب كيف أن المسيحيين لم يطردوا مسلمي الأندلس تماماً في ذلك الوقت ^(١)

(١) قال ابن حوقل في المسالك والممالك : وأما الأندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر ، وطولها دون الشهر في عرض نيف وعشرين مرحلة ، وتغلب عليها المياه الجارية والشجر والتمر والرخص والسعة في الاحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر ، الى أسباب التملك الفاشية في أكثرهم ولما هم به من رغد العيش وسعته وكثرته يملك ذلك أهل مهنهم وأرباب صنائعهم لقلة مؤنهم وصلاح بلادهم ، ويسار ملكهم بقلة شغله وسقوط تكلفه بشيء يحزنه وحال يخافه ، اذ لاخوف عليه ولا رقبة لأحد من أهل جزيرته ، مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وأمواله . ومما يدل بالقليل منه على كثيره ان سكة دار ضربه على الدنانير والدرام ضربيتها في كل سنة مائتا الف دينار ، يكون عن صرف سبعة عشر بدينار ثلاثة آلاف الف درهم وأربعمائة الف درهم . هذا الى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته ومراصده والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والجوالى والرسوم على بيوع الأسواق

ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده ، مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم وتقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال انتهى

وجاء في المسالك والممالك لابن حوقل عند الكلام على بحر الروم ما يؤيد قول رينو من ادبار أمر المسلمين منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، وذهاب ما كان فيهم من حماسة في القرون الثلاثة الاولى ، واستيلاء الرخاوة عليهم حتى أصبحوا لا يمتنعون ذمارهم ولا يقدررون أن يحموا جارهم

قال ابن حوقل : وليس في البحار أخطر حاشية من هذا البحر ، لأن العارات في الجانبين ممتدة غير متقطعة ولا ممتنعة وسائر البحار تعترض في شطوطها الفاوز والمقاطع . وقد ألح الروم في وقتنا هذا على المسلمين الذين على سواحلها بالعارات واختطاف مراكبهم من كل جهة ولا غيات لهم ولا ناصر ، والملك فيهم حقير ذليل وهو جامع مانع والعالم يسرق ولا يشبع ، ويفتق بالتأويل على ما يختار ولا يخاف معاداً ولا مرجعاً ، والتاجر فاجر لا يعاف حراماً ولا مطعماً ، والزاهد ذئب أدرع في كل بلية يشرع وبكل ريح يقلع ، فالثغور والجزائر الى الأعداء مسلمة ، والأرض الى الله من أربابها متظلمة انتهى

ومما يدل على ما وقع في نفوس المسلمين من هذه الجهة الشاهدان الآتيان : روى مؤرخو العرب أنه لما قفل موسى بن نصير الى الشام بعد فتحه الأندلس ، سأله الخليفة عن الشعوب المختلفة التي مارسها ، فأجابه ان الافرنج فيهم العدد والشدة والاقدام والثبات . ويستغرب أن يكون موسى بن نصير وصف الافرنج بهذا الوصف وهو لم يباشر معهم حرباً . وعلى فرض أنه وصل الى جنوبي فرنسة كما يزعم مؤرخو العرب ، فانه لم يكن قد لقي الافرنج بل لقي القوط الذين كانوا أصحاب الحكم في البلاد الجنوبية من فرنسة ولكن مسلمي الأندلس عندما تلاقوا مع رجال شارل مارتل وشارلمان علموا من هم الافرنج في صلابه العود وعلموا من هم الفرنسيين في حب المجد والاقدام على الأخطار . وقد روى المؤرخ الاسبانيولى كوندى كلام موسى ابن نصير هذا وأضاف اليه بزعمه قول موسى ان الافرنج اذا مهزموا فليسوا بشيء^(١)

قلت : كان هذا كلام ابن حوقل في الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة ما يدل على ان المرض قديم . وانه لاعجب اذا آلت الحال الى ما آلت اليه فيما بعد . لكن المسلمين هبت لهم ريح في القرن التاسع للهجرة وعاد بحر الروم كما بدا تحت سلطتهم وذلك في أيام السلطان سليمان العثماني وخير الدين بربروس وعمال السلطان على جزائر الغرب وبقيت لهم تلك الصولة مدة طويلة الى أن انتكت جبلها في القرون الأخيرة . وما زالت الأيام مدأ وجزراً مذ خلق الله العالم

(١) قلت : ان كلام مؤرخي العرب عن الافرنج هو أنهم مع شجاعتهم أقل صبراً في الحروب من الجلائفة ، أى من الاسبانيول سكان شمالي اسبانية ، قال ابن حوقل : وثغور الجلائفة ماردة ونقزه ووادي الحجارة وطيطة ومدينة الجلائفة مما يلي ثغور الأندلس يقال لها سمورة وعظيم الجلائفة بمدينة يقال لهايون فيها سلاطنتهم وعدتهم بعد سمورة ومدينة لهم يقال لها أوييط (Oviedo) وهي بعيدة عن بلد الاسلام وليس في أصناف الكفر الذين يلون الأندلس أكثر عدداً من الافرنج ، غير أن الذين يلون المسلمين منهم فئة ضعيفة شوكتهم قليلة ، وفيهم اذا ملكوا طاعة وحسن نصيحة ومحاسن كثيرة ، واليهيم يرغب أهل الأندلس عن الجلائفة ، والجلائفة أصدق محاسن وأقل طاعة وأشد قوة وأكثر بأساً وبسالة ، وفيهم غدر ، وهم في عرض طريق الافرنجة انتهى وجاء في صبح الأعشى عن الجلائفة انهم امة يغلب عليهم الجهل والجفاء ، ومن زهم أنهم لا يفسلون ثيابهم بل يتكونها عليهم الى أن تبلى ، ويدخل أحدهم دار غيره بغير اذن . وهم أشد من الفرنج

والشاهد الآخر هو ما يرويه العرب من وجود كتابة منقوشة على تمثال في مدينة أربونة معناها : يا أولاد اسماعيل لا تتجاوزوا هذا المكان فانكم ان تجاوزتموه ولم ترجعوا على أعقابكم هلكتم . هكذا روى المقرئ في نفع الطيب في النسخة الخطية التي في المكتبة اللوكية (١)

ثم ذكر الفلقشندي مدينة سموره وقال انها قاعدة جليقية وقال : ان المسلمين كانوا ملكوها ثم استرجعها الجلائفة زمن الفتنة ، أي زمن فتنة شنجول العامري الذي باعتدائه على الخلافة مع عدم أهليته الشخصية جر على الاسلام من الفرقة ما انتهى أخيراً بضياح الأندلس (١) الذي وجدناه في نفع الطيب للمقرئ هو هذا : وقيل انه أوغل (يعني موسى بن نصير) في أرض الفرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنفاً عظيماً كالمسارية مكتوباً فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فاذا هي : يا بني اسماعيل انتهيم فارجعوا . فهاله ذلك ، وقال : ما كتب هذا الا لعني كبير فشاور أصحابه في الاعراض عنه ، وجوازه الى ما وراءه . فاختلقوا عليه فأخذ برأى جمهورهم وانصرف بالناس وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية انتهى قلت : وقد تقدم هذا الخبر وهو أشبه بالاساطير

القسم الرابع

الصفة العامة لغارات العرب هذه والنتائج التي ترتبت عليها

مرادنا أن ننظر الى هذه الغارات العربية من حيث المجموع وأن نشير الى بعض حقائق لم يتسن لنا حتى الآن ان نتبسط فيها .

وكذلك زيد أن نذكر الشعوب المختلفة التي ضربت بأسهم مذكورة في هذه الغارات . ولا نزاع في أن النهضة الأولى قد كانت للعرب ، وأن جميع الغزوات الكبرى كان يرأسها قواد من هذه الأمة ، وان الاسم العربي هو الذي كان غالباً فيها ، وانه كان بمنزلة القطب من الرمح ، وان المراد بلفظة « سارازين » عند كتاب الاوربيين هو العرب لاغير .

فمن أين جاءت لفظة سارازين هذه ؟ الجواب جاءت من اللفظة اللاتينية « ساراسنوس » التي أصلها اللفظة اليونانية « سراكنوس » وهذه اللفظة معروفة منذ القرون الأولى من التاريخ المسيحي ، والناس تقصد بها العرب الرحل الذين في جزيرة العرب وبين دجلة والفرات وسورية وبلاد العجم . قد ذهب الناس مذاهب شتى في مأخذ هذه اللفظة ، واكثر الآراء اتفقت على انها مشتقة من « شرقي » لاسيا ان بطليموس الجغرافي الفلكي اليوناني الذي كان بمصر يتكلم في جغرافيته عن شعب يقطن في بلاد جزائر الغرب يقال له مغاربة Machurebe فمن هنا ظهر انه أريد بكلمة « شرقيين » التي جاءت منها كلمة « سارا كينو » العرب الذين بقوا في آسية ، كما ان الذين جلوا منهم الى افريقية تسموا مغاربة وذلك كما هي الحال اليوم .

وقد ذهب بعض علماء المسيحيين في القرون الوسطى الى ان « سرازين » مشتقة من « سارة » بنت ابراهيم الخليل . وهذا غير وارد ، لأن سارة هي ام اسحق لا أم اسماعيل جد العرب .

ومن الأسماء التي يطلقها المسيحيون على العرب في القرون الوسطى الاسماعيلية (١)

(١) من الغريب أن لفظة اسماعيلية لم تتناول العرب وحدهم بل صارت تطلق فيما بعد على جميع المسلمين . وقد كان في بلاد الجار طائفة من المسلمين في القرن الثاني عشر والثالث عشر للمسيح انقرضت الآن وكان يقال لها الاسماعيلية ، وهذه الطائفة معروفة في تاريخ الجار ويظهر انه لفظة عدها أخذت تنوب تدريجاً في سواد الامة المجرية ، كما ان بعض ملوك الجار القدماء ضيقوا على هؤلاء المسلمين مراراً ليحملوهم على النصرانية وهكذا تلاشوا من هناك .

وقد ذكر ياقوت الحموي هذه الطائفة في معجم البلدان تحت لفظة باشغرت فقال : وأما أنا فاني وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغوردية شقر الشعور والوجوه جداً يتفقهون على مذهب أبي حنيفة رضى الله عنه فسألت رجلاً منهم استعقلته ، عن بلادهم وحالهم ، فقال : أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الفرنج يقال لهم الهنكر ، ونحن مسلمون رعية للملك في طرف من بلاده نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكون بليدة ، الا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سوراً خوفاً من أن نصى عليه ، ونحن في وسط بلاد النصرانية ، فشماليها بلاد الصقالبة وقبليها بلاد البابا وفي غربيها الأندلس وفي شرقيها بلاد الروم قسطنطينية وأعمالها . قال : ولساننا لسان الافرنج وزينا زيهم ونخدم معهم في الجنديّة ونفزو معهم كل طائفة ، لأنهم لا يقاتلون الا مخالفي الاسلام . فسألته عن سبب اسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر ، فقال : سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون انه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار وسكنوا بيننا وتلففوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال وأرشدونا الى الصواب من دين الاسلام ، فهدانا الله والمجد لله فأسلمنا جميعاً وشرح الله صدورنا للايمان ، ونحن تقدم الى هذه البلاد وتنفقه ، فاذا رجعنا الى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم . فسألته لم تخلقون لحاكم كما تفعل الافرنج ؟ فقال : يخلقنا منا المتجددون ويلبسون لبسة السلاح مثل الافرنج أما غيرهم فلا . قلت : فكيف مسافة ما بيننا وبين بلادكم ؟ فقال : من هنا الى القسطنطينية نحو شهر ونصف ، ومن القسطنطينية الى بلادنا نحو ذلك انتهى .

قلت : ان قوله الافرنج مبنى على كون الشرقيين يسمون جميع نصارى اوربة افرنجية ، والا فالجار ليسوا من الافرنج في شيء . ثم اني قد سألت علماء التاريخ من الجار عن قضية هؤلاء المسلمين

اي ابناء اسماعيل ، وهذه هي نسبة موافقة للواقع ، لأن قسماً كبيراً من قبائل العرب متسلسل من اسماعيل ، ومحمد من هذه السلالة ولكن العرب لا يعترفون بأن اسماعيل كان ابن أمة وان اسحق يمتاز عليه ، وهم ينسبون الى اسماعيل كل ماورد في التوراة عن اسحق . ومما استعملوه في القرون الوسطى من الأسماء التي كانت تطلق على العرب لفظة « هجارنة » أي سلالة هاجر . وهذا الاصطلاح ، أي هجارنة ، مجهول عند العرب . ثم ان أعظم شعب اشترك مع العرب في هذه الغزوات هو الشعب

الذين وجدوا في بلادهم في القرن السابع للهجرة ، فأجابني الجنرال « تيودور كلوك » معلم التاريخ في جامعة بودابست بما خلاصته : انه كان يوجد مسلمون أصلهم من البغار في بلاد المجر عاشوا في أيام الملوك المجر من عائلة اربارد من سنة ٨٩٦ للمسيح الى سنة ١٣٠١ وكان يقال لهم الاسماعيلية . وكانوا في القرن الحادى عشر يعيشون جماعات في جنوبي بلاد المجر ، وكان منهم حراس لقلعة بست ، وكان منهم في القرن الثالث عشر لافي مدينة بست فقط بل في جميع هكارييا ، وكان أكثرهم من طبقة التجار . وفي سنة ١٠٧٧ صدر أمر الملك « لاديسلاوس » بتنصير الاسماعيلية ، ولكن بقى منهم كثيرون في الباطن على دين آبائهم . وفي سنة ١٠٩٥ صدر أمر الملك « كولومان » بأن لا يكون في القرية من الاسماعيلية أكثر من النصف ، وبأن يزوجوا بناتهم من المسيحيين . وفي أيام الملوك الذين بعده كان الاسماعيلية يؤثرون الخدمة العسكرية . وكان الملك غيزه الرابع أرسل الى الامبراطور الالماني « فردريك بربروسه » سنة ١١٦١ جيشاً لمعونته فيه خمسمائة من الاسماعيلية المذكورين . وفي سنة ١٢٢٦ للمسيح كان اجتماع ياقوت الحموى بأناس من هؤلاء الاسماعيلية في مدينة حلب . وفي سنة ١٢٢٢ وقع اضطهاد على الاسماعيلية واليهود . وفي المدة التي بين سنة ١٢٣٥ وسنة ١٢٧٠ كان الاسماعيلية صيارف يقرضون ملك المجر أموالاً . وما زالوا الى سنة ١٢٤٢ معروفين كمسلمين . ومن ذلك الوقت أخذوا يندمجون في الشعب المجرى . وفي سنة ١٢٦٦ كان لايزال منهم قرية اسمها تمركنى Temerkeny وفي زمان لورفيك الكبير كان لايزال بعض عائلات مسلمة من بقايا الاسماعيلية

وسنذكر شيئاً أوسع من هذا عن الاسماعيلية (أي مسلمي المجر) في رحلتنا الى بلاد المجر وبوسنة . وانما كان مرادنا هنا أن نذكر كون الافرنج لا يقتصرون على العرب بلقب اسماعيلية بل قد يعنون بذلك كل المسلمين من عرب وعجم فانه مما لاشك فيه أن المسلمين الذين كانوا في بلاد المجر لم يكونوا عرباً بل كانوا من المجر أو الباشقرد وعلى كل حال من أصل تتارى

السكان في جبل الأطلس ونواحيه المنتشر من مصر الى الأوقيانوس الاطلنطيكي .
ومن البحر المتوسط الى السودان ، والذي يقال له البربر . يعرفهم الانسان بلونهم
النحاسي وانوفهم الحادة وشفاههم الرقيقة ووجوههم المستديرة . والمظنون ان هذه الأقسام
التي يقال لها البرابر قد وجدت في افريقية قبل أن وجد الفينيقيون في قرطجنة . وهم
من قديم الزمان معتمسون بجبالهم لا يخضعون لسلطة أجنبية . وكان اليونان
والرومان يقولون عنهم البرابرة فبقى عليهم اسم بربر الى الآن . وقد اندمج هؤلاء
البربر مع غيرهم من الافريقيين ومع بقايا الشعب القرطجني وبقايا الرومان والفاندال ،
وتألف منهم شعب واحد يقال له الشعب المغربي Maure أو الشعب الافريقي
Afri ou Afrecaia

وقد كان بين الأقسام الذين اشتركوا مع العرب في غزو فرنسة من هم من سلالة
جرمانية أو صقلبية . وذلك أنه في القرنين الرابع والخامس للمسيح تقدم أسلاف الذين
كانوا ساكنين في شمالي البحر الأسود ونهر الدانوب ، زاحفين الى قلب أوربة والى
جنوبها ، بأسماء مختلفة ، كصقالبة وخرواطين وسريين ومورافيين وبوهيميين وتديروا
بولونية وبوهيمية وسربية ودالماسية ، وقسم من بلاد اليونان . وكانوا في أثناء زحفهم
يقتلون مع الأمم السكسونية والأمم الهونية التي منها المجرار . وكان الفريقان في حروب
دائمة مع شارل مارتل وأولاده وأحفاده ، لأن ممالك هؤلاء كانت دائماً عرضة لغارات
هؤلاء البرابرة . ولم تنقطع هذه الحروب المصطامة الا بعد أن دخل الجرمانيون
والسلاف في النصرانية . وقد كان البرابرة المذكورون يستعملون الأسرى الذين
يقعون في أيديهم كالحیوانات بلا فرق ، وكان أهالي هولندا يبيعون أسراهم كالعبيد ،
وانتشرت هذه العادة في فرنسة والبلاد المجاورة لها ، ولم تنقطع الا بعد أن دخل
هؤلاء البرابرة في النصرانية (١) وتهدبوا

(١) استشهد رينو على مسألة الرقيق وبيعه في أوربة بجموعة الدون بوكه وبجغرافية ابن حوقل
وبالقرى . وقد رأينا أن نقل عبارة ابن حوقل عن « المسالك والممالك » قال : وبالأندلس سلاع

ومن المعلوم أن تجارة الرقيق امتدت جداً بعد أن افتتح المسلمون الشام ومصر
وافريقية والأندلس ، لأن العرب كانوا يعرفون الرق ويحملون عبيدهم على جميع
الأشغال اليدوية وعلى الحرث والزرع ، أما في الشرع الاسلامي فالرقيق لا يهان أصلاً ،
وكل عبد تظهر كفايته في شغل من الأشغال يقدر أن يرقى إلى ما يرقى إليه الحر بدون فرق
وكان التجار يذهبون الى بلاد الجرمانيين والسلاف وأحياناً الى نواحي بحر الادرياتيك
والبحر الأسود ويأتون بأصناف الرقيق . ولم يزل أهالي القوقاس يبيعون من أولادهم
الى اليوم ، فكانت هذه الشعوب تتبع من أولادها الى التجار ، وكان يأتي منهم قسم
الى فرنسا لبالبيع والشراء بل بواسطة السبي في الحروب .

ولما كان المسلمون غيراً في قضية الحرمة صاروا يخلصون هؤلاء العبيد ليتمكنهم
استخدامهم في داخل الأحاريم بدون خوف فتنه . وهكذا تولدت في فرنسا مهنة

كثيرة ترد إلى مصر والمغرب وأكثر جهازم الرقيق من الجوارى والعلمان من سبي افرنجية وجليقية
والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الحصيان من جلب الأندلس ، لأنهم بها
يخلصون ، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد . وجميع ما يسبى الى خراسان من الصقالبة
باق على حالته ومقر على صورته ، وذلك ان بلد الصقالبة طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر
الروم ممتداً على القسطنطينية وأترا بزونده يشق بلدهم بالعرض ، فنصف بلدهم بالطول يسبى
الخراسانيون والنصف الشمالي يسبى الأندلسيون من جهة جليقية وافرنجية وانكبيردة (لونبارديه
وتوابها) وقلورية (كالابره) وهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله انتهى

وأما في فتح الطيب فيقول عن الاسبانول انهم : يحاربون بالافق الشرقي امة يقال لهم الفرنجية ،
هم أشد عليهم من جميع من يحاربونه ، اذ كانوا خلقاً عظيماً في بلاد واسعة جليقة متصلة العارة أهلة
تدعى الأرض الكبيرة ، هم أكثر عدداً من الجليقيين وأشد بأساً وأعظم امداداً يحاربون امة
الصقالبة المتصلين بأرضهم لمخافتهم ايام في الديانة ، فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بأرض الأندلس ، فلهم
هنالك كثرة وتخصيبهم للفرنجية يهود ذمتهم الذين بأرضهم وفي ثغر المسلمين المتصل بهم ، فيحمل
خصيانهم من هنالك الى سائر البلاد . وقد تعلم الحصاء قوم من المسلمين هناك فصاروا يخلصون
ويستحلون المثلة . انتهى

قلت: والحصاء ممنوع شرعاً

جديدة هي مهنة الخصى ، وتأسس لذلك معمل كبير في فاردون Verdun في بلاد اللورين .

وكان الصبيان الذين ينجون من خطر هذه العملية القاسية يباعون في أسواق الأندلس بأثمان عالية . وكانوا يتهادون الخصي من الصقالبة كما يتهادون الخيل أو الخلي الثمينة .

وقد روى أحد كتاب العرب أنه في سنة ٩٦٦ أراد أمراء كتلونية من الافرنج أن يتزلفوا الى خليفة قرطبة فقدموا له هدايا من جملتها عشرون خصياً صقلياً . والعرب يصفون جميع الرقيق الجرمانى والصقلبي والسلافي بلفظة صقلبي Saclabi ونظن أنه من هذه اللفظة جاءت كلمة اسكلاف Esclaf بمعنى عبد . وكان أكثر حرس خلفاء قرطبة وأمراء الأندلس من الصقالبة . وكان منهم كثير في صقلية ، ولهم في مدينة بلرم حارة منسوبة اليهم . وكان منهم عدد كبير في افريقية . وقد يصل الصقالبة الى أعلى المناصب ، ولذلك لا يمكنك أن تقرأ تاريخاً لدولة عربية ليس فيه ذكر للصقالبة ، اذ بدون ذلك يكون التاريخ مغلقاً لا يتحصل فهمه . (١)

ولم يكن بين العرب والبربر أناس من شمالي أوربة ومن أصل وثني فقط ، بل وجد لهم أنصار ويا للخجل قد ولدوا في حجر النصرانية ، من أهل ايطالية وأهل فرنسة . وقد كان اليهود يستثمرون بؤس الأهالي ويشترون الأولاد من ذكور واناث ويأتون بهم الى مراسى البحر حيث كانت ترد سفن اليونان والبنادقة وتحملهم الى بلاد الاسلام . وكانت هذه التجارة القبيحة قد وصلت الى قلب عاصمة النصرانية . وقد جاء في مجموعة موارد ثوري أنه في سنة ٧٥٠ اضطر البابا زخريا أن يشتري بماله من أيدي البنادقة عدداً كبيراً من الأولاد ذكورا واناثا كانوا يريدون الخروج بهم من رومة ثم ان البابا الذي خلف زخريا اضطر أن يحرق مراكب كثيرة لليونان آتية لحمل

(١) لو اردنا التعرض لموضوع الصقالبة ومن نبغ منهم في الاسلام ومن وصلوا الى الدرجات العلى لطال الأمر جداً وقد يستحق ذلك تاريخاً مستقلاً

الرقيق . وقد جاء في تاريخ الصليبيين للمسيو ميشو أن هذه التجارة كانت جارية في أوربة حتى القرن الثالث عشر ، ولكن بشيء من الاحتياط . وكان أسارى المسيحيين والسبي منهم يستخدمون في جيوش المسلمين . وكان السبي من أعظم مقاصد هؤلاء في الغزو ، فكلما حصلت معركة رأيت أسواق الأندلس وافريقية غاصة بالأسرى المسيحيين ، فأما الأطفال والاولاد فكانوا يربون في الاسلام وفي اللغة العربية ، وكانوا لا يقدرّون أن يرتدوا عن الاسلام اذا بلغوا . وأما الأرقاء الذين بلغوا سن الرشد فلم يكونوا يجبرون على الاسلام لانه جاء في القرآن « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » على أن كثيراً من المسيحيين البالغين كانوا يخدمون في جيوش المسلمين عن طيب خاطر

وأضف الى هؤلاء قسماً من أهالي البلاد التي افتتحها المسلمون ، فان العرب والبربر عندما افتتحوا الاندلس وجدوا أعواناً لا يحصى عددهم من المسيحيين واليهود ، ولما لم يكن جيش العرب كافياً لحفظ جميع هذه الفتوحات كانوا كلّموا دخلوا بلدة عهدوا إلى اليهود بمراسمتها^(١) ولما دخل العرب الى أرض فرنسة وما جاورها من البلاد لم يخل الامر من أنهم وجدوا من أهل البلاد رجلاً ممن لا يعرفون الحمية الدينية ولا الوطنية، وممن دأبهم أن يستفيدوا من المصائب العامة ، فمشوا بين أيدي العرب في غزواتهم وفتوحهم وخطبوا في جبالهم . ولقد رأينا كيف أن « مورونت » دوق مرسيلية وغيره من سادة البلاد تمالأوا مع العرب على أبناء بلادهم . فاذا كان هذا شأن الكبار فما ظنك بالصغار ؟ ولا شك أن العرب في فتوحاتهم في مقاطعات دوفيني وببيمونت وسفواى وسويسرة كانوا قد وجدوا من الاهالي أعضاءاً لهم سرّاً وعلناً، وكان مؤرخو

(١) جاء في فتح الطيب ان مغيثاً مولى الوليد بن عبد الملك جمع يهود قرطبة فضمهم الى مدينتها استنامة اليهم دون النصارى للعداوة بينهم وقال : انهم لما فتحوا غرناطة ضموا اليهود الى قصبها وصار ذلك لهم شحنة في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده الى القصبه مع قطعة من المسلمين لحفظها وبعضى معظم الناس لغيرها واذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين الخلقين لحفظ ما فتح . انتهى

ذلك العصر لا يصرحون بذلك حياء ، ويجترئون بالاشارة الى خيانة بعض المسيحيين . ولكن الحقيقة أنه لولا تلك الخيانة لم يكن المسلمون ليستقروا في تلك البلاد القاصية المنقطعة عن أوطانهم الاصلية ، وهم في قلة من العدد ، في زمن كانت فيه المواصلات غير ماهي الآن .

نعم ان العرب كانوا يجدون من أهالي البلاد رداء لهم ، وقد رأينا في تاريخ دير نوفاليس كيف أن المسلمين قاتلوا الاهالي بقرب فرسل Verceit وتغلبوا عليهم وساقوا عدداً منهم أسرى ثم دخلوا المدينة وعرضوا الاسرى للبيع ، كما تعرض السلع ، وصار كل من أراد يدفع في الاسير ثمناً الى آخر القصة .

أما من جهة اليهود وسياستهم في جنوبي فرنسة ، لذلك العهد ، فقد قرأنا في سيرة القديس تيودار Theodard رئيس أساقفة اربونة انه لما دخل المسلمون بلاد اللانغدوق انحاز اليهود اليهم وفتحوا لهم أبواب مدينة طلوزة ، وان شارلمان - تأديباً لليهود على خيانتهم - أمر بأنه كل سنة في الأعياد الكبرى الثلاثة يؤتى يهودى ويصفع على باب الكنيسة العظمى . وقد بقيت هذه العادة مدة طويلة ثم تبدلوا بها دفع مبلغ من الدراهم . ولنا اعتراض على هذه الرواية من جهة أن العرب لم يدخلوا طلوزة فعلاً فلعل هذه الحادثة وقعت في فتح مدينة أخرى . واذا تركنا قضية أنساب الغزاة ورجعنا الى لغاتهم فاننا نجد أنهم لم يكونوا بأجمعهم يتكلمون بالعربية ، فقد روى ابن القوطية أن بعضهم كان يتكلم بالبربرية ، وانه سنة ١٠١٩ عندما غزا المسلمون اربونة كان الغزاة ذلك اليوم من الذين لا يعرفون العربية ، وكذلك لم يكن جميع الغزاة مسلمين ، بل كان فيهم يهود ووثنيون وأحياناً مسيحيون . وقد كان في البربر عبدة أوثان ومجوس ، ولم يدخلوا جميعاً في الاسلام الا بعد فتح افريقية بمدة طويلة (١) . ومن الغريب أن المسيحيين في القرون الوسطى كانوا يسمون غزاة العرب بالوثنيين ، مع

(١) ومن الغريب أنه في أخريات هذه الأيام قام أناس من الفرنسيين يريدون أن يثبتوا كون البربر ليسوا جميعاً بمسلمين . تقصد هذه الفتنة أن تأفك البربر عن الاسلام . فاللؤرخ المستشرق رينو يشهد كما ترى بأن البربر أسلموا فاطبة وان كانت هذه القضية لا تفتقر الى شهود

انه لا يوجد أبعد عن الوثنية من المسلمين ، ومن شدة توحيدهم للبارى تعالى يكرهون جميع شعائر الوثنية ويحرمون تصوير المخلوقات الحية ، نظير اليهود ، ولكن شدة حرمة المسلمين لمؤسس ديانتهم جعلت العوام في أوربة يعتقدون أن المسلمين يعبدونه ، كما أن المسيحيين في القرون الوسطى كانوا يطلقون لقب وثني على كل من ليس مسيحياً وقد جاء في التاريخ المنسوب إلى المطران توربين Turbin أنه يوجد في اسبانية على شاطئ البحر تثال من نحاس صنعه محمد نفسه وان المسلمين يسجدون له . وكذلك فيلومين Philomane في تاريخه لفتح شارلمان بلاد لانغدوق يتكلم عن تثال لمحمد من الفضة المذهبة كان المسلمون في أربونة في أثناء استيلائهم عليها يعتقدون أنه ملجأ لهم . وكذلك جاء في رواية تمثيلية اسمها لعب القديس نقولا كان لها شهرة في القرون الوسطى أن أحد أمراء المسلمين في افريقية كان يعبد صنماً اسمه ترفاغنت Tervagant وانه عند ما كان يحصل على مراده كان يغطى حدود الوثن بأوراق الذهب . ثم ان في قصيدة افرنسية تذكر وقائع رولان الشهير أن مسلمي سرقسطة كان عندهم مغارة جعلوها هيكلآ لآلهتهم ، وكان فيها تماثيل من ذهب كل تثال في يده صولجان وعلى رأسه تاج ، وان المسلمين كانوا يجتمعون في تلك المغارة للعبادة (١)

وكان اسم « ترفاغنت » ينقلب أحياناً إلى ترماغنت وكان يرد معه اسم ابولين Apolin وأسماء أخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، فتدور في أقاصيصنا القديمة ، مثل قصة

(١) يمثل هذه الحرافات خدع رجال الكنيسة أهل أوربة مدة تزيد على ألف سنة . ولم يكن العوام في القرون الوسطى وخدمهم يصدقونهم بل كان أسيراً لهذه الأوهام أو لبعضها كثير من الخواص . ولا تزال الى ساعتنا هذه في أوربة برغم ترقيتها وانتشار المعارف فيها أوهام وأفكار مخلوطة عن المسلمين تضحك الشكالي نسمع منها وتقرأ كل يوم بل كل ساعة وقد قلنا عن المسيو درمنغهم الافرنسي في السيرة النبوية في الطبعة الثانية من حاضر العالم الاسلامي هذه الأقوال المضحكة التي يهزأ بها رينو هنا . وقد شدد درمنغهم نفسه عليها التكبير ولكن رجال الكنائس لا يزالون الى يوم هذا ينشئون أبناء ملهم في مثل هذه الترهات البسباس ويقبلون لهم حقائق الاسلام عمداً تغييراً لهم منه كما فعل سلفهم في القرون الوسطى

لا فيوكت (البنفسجة) التي نشرها فرنسيسك ميشال ، وزعموا أن هذه الأسماء هي أسماء آلهة اسلامية !

وقد بلغ من تعصب أجدادنا وتحاملهم على المسلمين أنه في الرواية المسماة بلعب القديس نيقولا كان يوجد تمثال لذلك القديس كانوا يسمونه محمداً باعتبار أن لمحمد تمثالا ، وأنهم كانوا يسمون هيكل الأوثان محمدياً Mohamarie فانظر الى غرابة تصاريف الأقدار ، وقابل بين هذه الخرافات وبين الحقيقة ، وتأمل كيف صنع محمود الفزنوى عند ما غزا الهند سنة ١٠٢٥ م ، واستولى على صنم أصر على كسره ، وعرض عليه الهنود مقدار وزنه ذهباً فأبى الا أن يكسره وأن يضعه على أسكفة باب المسجد في عاصمته ، حتى تدوسه الأقدام ^(١) . وليست هذه الحادثة فذة في بابها ، فتأمل في كتابنا المسمى « خلاصة التواريخ العربية عن الحروب الصليبية » تجدمن أمثالها كثيراً ماذا كان السبب يأتى في ذهاب آباءنا في الوهم والخطأ الى هذا الحد ؟ الجواب ان بعض العلماء ذهبوا الى كون أسماء ترفاغنت وابولين وما أشبه ذلك كانت آتية من بلاد النورماندين أهالي شمالي أوربة الذين كانوا يعبدون الأصنام ، فالعامة في أوربة خلطوهم بالمسلمين بزعمهم أن كل من ليسوا مسيحيين وثنيون ! وكذلك كان البربر الذين جاءوا مع العرب متمسكين ببعض شعائر وثنية كانوا يمارسونها ظنت العامة أن هذه الشعائر كان يمارسها العرب أيضاً . ولا يجوز أن ننسى انه في هذه الكتب التي تهم المسلمين بالوثنية وترغم هذا الزعم الغريب أنهم ينحتون تماثيل من حجر أو خشب أو معدن ويعبدونها وقد ورد أن المسلمين اذا وجدوا تلك التماثيل لم تنفعهم انقضوا عليها وحطموها وجعلوها جذاذاً

على أن الاسم العربي والدين الاسلامي كانا هما السائدين في هذه الفتوحات الاسلامية في أوربة ، فليس عندنا شيء من الآثار عن البربر أو الصقالبة الذين كانوا مع العرب في مغازيهم . وكل ما عندنا عن هذه الفتوحات انما هو من رشحات أقلام العرب المسلمين .

(١) الصنم المذكور هو صنم سومانات وقصته شهيرة

أما أسباب هذه الفتوحات العربية ، والعلل الأصلية في اقتحام هذه الغمرات ، فهي متعددة ، فمنها ما يرجع الى حب الغنائم وكسب الأموال ، ومنها ذوق خاص بالضرب في الآفاق ، ومنها ما هو محض تجرد لنشر الدين الاسلامي ورجاء ثواب هذا العمل المبرور عند الله فان القرآن يحث على الجهاد في سبيل الله (انفروا خفافا وثقلا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) فالمسلمون الذين كانوا يقدرون على حمل السلاح كانوا يجاهدون بأنفسهم ، والذين لم يكونوا قادرين على القتال كانوا يجاهدون بأموالهم . جاء في القرآن « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب أليم » وكل مسلم يموت وهو يقاتل في سبيل الله فانه يموت شهيداً (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فالمسلمون يسمون شهيداً كل من بذل دمه في سبيل الاسلام ، كما أن المسيحيين يسمون شهيداً كل من مات لأجل النصرانية .

ثم ان الشرع الاسلامي يفرض على المسلمين أن يدعوا غير المسلمين الى الاسلام ، أو الى دفع الجزية ، وذلك قبل اعلان الجهاد ومباشرة الحرب ويجوز أن يكون قد حصل هذا الاعلان عند دخول العساكر الاسلامية الى فرنسة ولكن الأهالي لم يجيبوا دعوة الاسلام فاضطر أمراء المسلمين الى تجريد الحسام . وكان المسلمون في أوائل الفتح يتقلدون السيوف ويتأبطون الرماح ويتكبون القسي ، وكانوا كلهم متعممين ، ثم انهم بتغير الأوقات صاروا يتشبهون بالنصارى في أزيائهم وأسلحتهم ، ويلبسون الدروع ويفوصون في الزرد وطالما كانوا يقتنون سيوف مدينة « بوردو » لشهرتها في ذلك الوقت ، وتركت عساكرهم العمام وصاروا يلبسون على رءوسهم الكبة الهندية . وكان أمراء الفرنسيين في كتلونية أهدوا الخليفة عشر أذراع سلافية ومائة سيف فرنسي ، وأنعم الخليفة على حاجبه يوم توليته اياه الوزارة بمائة فارس فرنجي متقلدين السيوف والحراب غائصين في الحديد على رءوسهم الكم الهندية . وبالاختصار كان المسلمون قد اقتدوا في شكتهم وأعلامهم وسروج خيولهم بأوربة المسيحية . ولكن بدون شك

كانوا يسترجعون في التسلح جانب الخفة ، ويتجنبون السلاح الثقيل الذي كان يعول عليه الأروبيون (١) .

أما الغنائم فكانت عبارة عن الحجارة النفيسة والنقود المضروبة والمنسوجات والأدوات والأسرى والسبي . وكان السبي أفضل جزء من الغنائم . وكان الأمير يستأثر بالخمس بحسب الشريعة ، وينفقه في إعانة الفقراء وأبناء السبيل ، وكان الباقي يوزع على الجند . وللفارس ضعفاً مال للرجال . وكان يوجد دائماً في ساقه الجيش تجار يشترون كل ما يقع في أيديهم من صامت وناطق

أما الأسرى فليسوا كأسرى هذه الأيام ، فكان المسيحي إذا وقع أسيراً كبلوه وإذا انتهت قسمة الغنائم عرف الأسير ذلك الرجل المسلم الذي خرج هو في نصيبه فيصير

(١) جاء في الاحاطة في أخبار غرناطة تأليف لسان الدين بن الخطيب كاتب الأندلس الأكبر في وصف ملابس أهل الأندلس وأسلحتهم مايلي : وجندهم صنفان أندلسي وبربري والأندلسي منهم يقوده رئيس من القرابة (أي قرابة السلطان) أو حصي (الحصى الرجل العاقل) من شيوخ الممالك وزبهم في القديم شبه زى أقباطهم وأضدادهم من جيرانهم الفرنج من اسباغ الدروع وتعليق الترسه واتخاذ عراض الأسنة وقرابيس السروج واستركاب حملة الرايات كل منهم بصفة تختص بسلاحه وشهرة يعرف بها ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا الى الجواشن المختصرة والبيض المرهفة والدرق العربية والسهام اللطيفة والاسل العظمية . (ثم قال) : والعمائم تغل في زى أهل هذه الحضرة الا ماشد في شيوخهم وقضاتهم وعلماهم والجند العربي منهم . انتهى . ولا يخفى أن لسان الدين كان يصف الأزياء في حضرة غرناطة في زمانه وهو القرن الثامن للهجرة

وجاء في فتح الطيب نقلا عن ابن سعيد في المغرب : وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لاسيا في شرق الأندلس فان أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً اليه الا وهو بعمامة وقد تسامحوا بشرقها في ذلك ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية حضرة السلطان في ذلك الأوان واليه الاشارة وقد خطب له بالملك في تلك الجهة وهو حاسر الرأس وشبهه قد غلب على سواد شعره وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمه في شرق منها أو في غرب وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيت في جميع أحواله يبلد الأندلس وهو دون عمامة وكذلك ابن الأحمر الذي معظم الاندلس الآن في يده وكثيراً ما يترى سلاطينهم وأجنادهم بزى النصرارى المجاورين لهم فسلحهم كسلحهم وأقبعتهم كأقبعتهم وكذلك أعلامهم وسروجهم انتهى

له مملوكا يتصرف به كيف شاء ، ويصير هو وجميع ما يعمله ملكاً لسيدته ، ويتوارثه الأبناء عن الآباء ، ويعود أولاده أيضاً أرقاء نظير والدهم . وإذا كان سيده غيوراً على الاسلام عرض على ذلك الأسير المسيحي اتخاذ الاسلام ديناً فاذا أسلم فقد يعتقه وان لم يعتقه افتكه بعض الصالحين ومحبي الخير من المسلمين ، لأن تحرير الرقاب هو من أفضل القربات عند المسلمين . وهو بعد تحريره يصير في المجتمع الاسلامي نظير سائر الأحرار ويبلغ من درجات العلياء ما يقسم له لحظه ونصيبه ويطلق عليه اسم مولى وهو اسم يتضمن معنى السيد ومعنى المملوك معاً ، وهناك طبقة أخرى وهى طبقة العبيد الذين يعتقهم سادتهم ولكن على شرط أن يؤدوا الى سادتهم شيئاً معلوماً كل سنة (١) .

وان كان الأسير المستعبد أبى أن يتحول عن دينه الى الاسلام فقد كانوا يستعملونه في حرث الأرض أو في حمل الأثقال . وقد وجد مسيحيون كثيرون قبلوا الاسلام ، وآخرون بقوا متمسكين بنصرانيتهم ، وكلهم كانوا يمتازون بالخدمة وكان يعول عليهم في الحروب وقد كان منهم كثير في الحرس الخاص للخلفاء والملوك لاسيما في قرطبة . ولم يكن أسرى المسيحيين الذين بقوا متمسكين بدينهم ليلبثوا عبيداً بدون أمل في

(١) الولاء هو حالة العبد بعد عتقه بالنسبة الى سيده ومن العبيد من يتفق مع سيده على أنه يعتقه ثم يأخذ العبد بدفع ثمنه تقسيطاً ، ويسمى هذا العبد مكاتباً ، قال ابن الاثير : الكتابة أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه اليه منجماً فاذا أداءه صار حراً قال وسميت كتابة بمصدر كتب لانه يكتب على نفسه لمولاه ثمنه ويكتب مولاه له عليه العتق . وقد كاتبه مكاتبه والعبد مكاتب . قال : وانما خص العبد بالمفعول لان أصل المكاتبه من المولى وهو الذى يكتب عبده . قال ابن سيده : كاتب العبد أعطاني ثمنه على أن أعتقه ، وفي التنزيل العزيز « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكتبوهم ان علمتم فيهم خيراً » معنى الكتاب والمكاتبه أن يكتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجمه عليه ويكتب عليه أنه اذا أدى نجومه في كل نجم كذا فهو حر ، فاذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاؤه لمولاه الذى كاتبه

الحرية ، بل كان أمراء المسلمين وأغنياؤهم ممن يصير اليهم بعض هؤلاء الأسرى اذا وقعت لهم حوادث جاء التوفيق فيها لهم رفيقا أرادوا شكر الله تعالى على نعمته فخرروا من عندهم من الأسرى سنة ٩٩٧ علم المنصور بن أبي عامر بأن الله كتب لجنوده النصر في واقعة كبيرة في افريقية فشكراً لله تعالى أسرع الى تحرير ألف وثمانمائة أسير مسيحي من ذكور واثاث^(١) . وكان المسيحيون يجمعون أموالا ويذهبون الى

(١) قال الاستاذ العلامة حجة الاسلام السيد رشيد رضا في كتابه الذي صدر جديداً باسم « الوحي المحمدي » ان العلماء اتفقوا على شرعية عتق الكافر وأنه قرينة ولكنهم اختلفوا في عتقه في الكفارة

ولقد رأينا أن ننقل الى هذا الكتاب خلاصة ما أورده الاستاذ المشار اليه في كتاب « الوحي المحمدي » بشأن الرقيق في الاسلام فان الناشئة العصرية لاسيا المتخرجين في المدارس الاوربية لايعلمون عن الرق في الاسلام مايلزم أن يعلموه واذا سألوا الفقهاء الجامدين عن هذا الباب زادهم خبالا فلماذا اخترنا أن نقفهم على حكم الاسلام في قضية الرقيق محرراً بقلم الاستاذ الحجة . قال لله دره: كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الاعمال ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية وظل الرقيق مشروعاً عند الافرنج الى أن حررت الولايات الاميركية المتحدة رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وتلتها انكلترة باتخاذ الوسائل لمنع من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر ولم يكن عمل كل منهما خالصاً لمصلحة البشر وجنوحاً للمساواة بينهم ، فان الاولى لاتزال تفضل الجنس الابيض الاوربي المتغلب على الجنس الأحمر الوطني الاصلى بما يقرب من الاستعباد السياسي المباح عند جميع الافرنج للشعوب ، كما أن انكلترة تحقر الهنود وتستذلهم ولكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلواء الانكليز

فلما ظهر الاسلام كان مما أصلحه من فساد الامم ابطال ظلم الرقيق وارهاقه ووضع الأحكام لابطال الرق بالتدريج السريع ، اذ كان ابطاله دفعة واحدة متعذراً في نظام الاجتماع البشري من الناحيتين : ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الأرقاء . فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الارض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجدها فيحور الى سادته يرجو منهم العود الى خدمتهم كما كان . وكذلك جرى في السودان المصري فقد جرب الانكليز أن يجردوا الارقاء رزقاً بعمل يعملونه مستقلين فيه ، فلم يمكن ، فاضطروا الى الاذن لهم بالرجوع الى خدمة الرق السابقة بشرط أن لا يكون مسموحاً للمخدومين ببيع الأرقاء والاتجار بهم . وقد شرع الله تعالى لأبطال

اسبانية وافريقية لافتكك الأسارى ، هذا يفتك أباه وهذا أخاه وهذا صديقه وهلم جراً . ومن هناك تأسست رهبانيات بقيت مدة قرون في أوربة لم يكن لها عمل الاافتكك الأسارى من بلاد المسلمين . وقد سجل التاريخ من مآثر هذه الجمعية

الرق طريقتين : عدم تجديد الاسترقاق في المستقبل ، وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذى لا ضرر ولا ضرار فيه

الطريقة الأولى : منع الاسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الأقوياء للضعفاء الا استرقاق الأسرى والسبايا في الحرب التى اشترط فيها دفع المفاسد وتحرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة ، وهى شروط لم تكن قبل الاسلام مشروعة عند اللينين ولا عند أهل الحضارة ، فضلا عن المشركين الذين لا شرع لهم ولا قانون . ولست أعنى بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ما كانت الأمم تفعله معاملة لهم بالمثل ، بل شرع لأولى الأمر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في امضائه أو ابطاله ، بأن خيرهم فى أسرى الحرب الشرعية بين المن عليهم بالحرية والفداء بهم . وهو نوعان : فداء المال ، وفداء الأتفس اذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم . وذلك قوله تعالى الذى أوردناه فى قواعد الحرب « فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء » ولما كنا نختيرين فيهم ، بين اطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم ، جاز أن يعد هذا أصلاً شرعياً لا يبطال استثناء الاسترقاق فى الاسلام . فان ظاهر التخيير بين هذين الأمرين أن الأمر الثالث الذى هو الاسترقاق غير جائز لولم يعارضه أنه هو الأصل المتبع عند جميع الامم فمن أكبر المفاسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن أرحم بهم وأعدل ، كما يعلم مما يأتى ، ولكن الآية ليست نصاً فى الحصر ولا صريحة فى النهى عن الاصل فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقاً غير قطعية ، فبقى حكمه محل اجتهاد أولى الامر ، إذا وجدوا المصلحة فى ابقائه أبقوه . واذا وجدوا المصلحة فى ترجيح المن عليهم أو الفداء بهم عملوا به

واما تكون مصلحة الاسترقاق أرجح من هاتين المصلحتين - أى المن على الأسرى والفداء بهم - فى حالات قليلة لا تدوم كأن يكون المحاربون للمسلمين قوماً قليلي العدد ، كبعض قبائل البدو ، يقتل رجالهم كلهم أو جلهم فاذا ترك النساء والاطفال والضعفاء من الرجال لانفسهم لا يكون لهم قدرة على الاستقلال فى حياتهم ، فيكون الخير لهم أن يكفهم الغالبون ويغوموا بشؤونهم المعاشية ، ثم تجرى عليهم أحكام الطريقة الثانية فى تحريرهم . وقد يتسرون بالنساء فيكن أمهات أولاد وربات بيوت حرائر أو محسنات من الفواحش مكفيات أمر المعيشة على الاقل . وقد سن النبي صلى الله عليه وسلم لأمة ترجيح المن على الأسارى والسبايا بالعتق ، قولاً وعملاً ، فى غزوة بنى المصطلق وغزوة فتح مكة وغزوة حنين كما هو مفصل فى كتب السيرة النبوية وغيرها ، اذ لم يكونوا أسروا

ما هو فوق الوصف . ومن ذلك عمل ايزان رئيس دير القديس فيكتور في مرسيлие الذى ذهب فى سنة ١٠٤٧ الى الأندلس برغم ضعف جسمه وكثرة أمراضه ، وافتك عدداً من أسارى المسيحيين وجاء بهم قاصداً فرنسة ، فبينما هم فى البحر هاجمهم قرصان

من المسلمين أحداً ، لأن المسلمين قد أمخنوم وظهروا عليهم . فعلم منها أن روح الشريعة الاسلامية ترجيح جانب الفضل والاحسان عند القدرة ، ومنه عتق الأسرى والسبايا والمن عليهم بالجزبة بلا مقابل حاضر ولا خوف مستقبل ، بل لمحض الاحسان

الطريقة الثانية ماسرعه لتحرير الرقيق الموجود وجوبا وندبا وهو أنواع :

النوع الأول من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازمة وفيه عشر مسائل :

١ - الحرية فى الاسلام هى الأصل فى الانسان ، كما كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عامله على مصر عمرو بن العاص (وقد اشتكى عليه قبطى) : يا عمرو منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وقد أخذ الفقهاء من هذا الأصل أن الرق لا يثبت باقرار المرء على نفسه وجعلوا قول منكره راجحاً على قول مدعيه فيكلف اثباته

٢ - ان الاسلام حرم استرقاق الأحرار من غير أسرى الحرب الشرعية العادلة بشرطها كما تقدم وجعل ذلك من أعظم الآثام . روى البخارى وغيره من حديث أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال الله تعالى : ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره » وفى حديث الثلاثة الذى لا يقبل الله منهم صلاة « ورجل اعتبد محرراً » أى جعله كالعبد فى استخدامه كرهاً وأنكر عقته أو كتمته وهو فى سنن أبى داود وابن ماجه

٣ - شرع الله تعالى للمملوك أن يشتري نفسه من مالكه بمال يدفعه ولو أقساطاً . ويسمى هذا فى الشرع الكتاب والمكاتبه ، وأصله قوله تعالى « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكتبوهم ان علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » أمر بمكاتبتهم ان علم المالك أنهم يقدرون على الكسب والوفاء بما التزموه وأنه خير لهم وأمر باعانة المالك لمكاتبه على أداء ما باعه نفسه به ، ويدخل فيه الهبة وحط بعض الاقساط عنه وجعل فى مال الزكاة المفروضة سهماً تدخل فيه هذه الاعانة ونذب غير المالك لذلك أيضاً

ذهب بعض العلماء الى أن الأمرين فى الآية للوجوب : الأمر بالمكاتبه والأمر بالاعانة عليها . والأكثر على أن الأول للندب والثانى للوجوب . وفى صحيح البخارى بعد ذكر الآية : قال روح عن ابن جريج قلت لعطاء : واجب على اذا علمت ان له (أى لمملوكه) مالا أن أكاثبه ؟ قال : ما أراه الا واجباً . وقال عمرو بن دينار قلت لعطاء : أتأثره عن أحد ؟ قال : لا . ثم

فأخذوهم ووقعوا ثانية في الأسر ، ورجع ايزان يسعى من جديد سعيًا حثيثًا ويذهب ويجيء حتى افتكهم مرة ثانية وعندما جاء بهم الى مرسلية كان الضني قد بلغ منه مبلغه فما وطىء أرض مرسلية حتى مات دنفًا .

أخبرني أن موسى بن أنس أخبره ان سيرين سأل أنسًا المسكوبة - وكان كثير المال - فأبى ، فانطلق سيرين الى عمر فدعاه عمر فقال له : كاتبه . فأبى . فضربه بالدرّة وتلا (فكتابوهم ان علمت فيهم خيراً) فكتابه

٤ - اذا خرج الأرقاء من دار الكفر ودخلوا دار الاسلام يصيرون أحراراً وعلى الحكومة الاسلامية تنفيذ ذلك ومستنده في السنة معروف

٥ - ان من اعتق حصة له في عبد عتق كله عليه من ماله ، ان كان له مال ، وان كان لغيره حصة فيه فله أحكام . وفي ذلك أحاديث في الصحيحين وغيرها ، منها حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أعتق نصيباً أو شقيصاً في مملوك فخلاصه عليه في ماله ان كان له مال وإلا قوم عليه فاستسعى به غير مشقوق عليه » وحديث ابن عمر مرفوعاً أيضاً « من أعتق نصيباً له في مملوك أو شركا له في عبد فكان له من المال ما يبلغ قيمته بقيمة العدل فهو عتيق » والشقيص كالنصيب وزناً ومعنى

٦ - من عذب مملوكه أو مثل به أو خصاه عتق عليه ، فقد روى الامام أحمد أن زبناً أبا روح وجد غلاماً له مع جارية له فجدع أنفه وجبه فشكاه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله فاعترف وذكر ذنبه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للغلام « اذهب فأنت حر » ويؤخذ منه أن الجب والحصاء حرام وموجب لعتق العبد وينفذه الحاكم فكل ما كان يتخذ من الحصيان المماليسك فيه مخالفة للشرع الاسلامي بخصائهم وعدم عتقهم

وفي رواية له (الامام أحمد) أخرجها أبو داود وابن ماجه جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم صارخاً فقال له مالك ؟ قال : سيدي رآني أقبل جارية له فجب مذا كبرى . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « على بالرجل » فطلب فلم يقدر عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم للغلام « اذهب فأنت حر » وفي جامع الأصول من حديث سمرة بن جندب وأبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من مثل بعبده عتق عليه »

٧ - إزاء المملوك بما دون التمثيل والتعذيب الشديد حرام ، ولا كفارة لذنبه الا عتقه ، فقد روي أحمد ومسلم وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه . وللشيخين والترمذي عن سويد بن مقرن قال : كنا بني مقرن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لنا الا خادمة واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك النبي فقال : أعتقوها . وقيل له انه ليس لبني مقرن خادم غيرها . فرخص لهم باستخدامها

وأما الرقيق من النساء فكن يشتغلن في قصور الأمراء وحرَم الأَغنياء ويساعدن زوجات الرجل الذي يملكهن ، وإذا امتازت احداهن بجمال أو قسام كانت تعلم وتهذب وتباع بثمان غال أو يتزوج بها مالِكها وكثيراً ما كن يرسلن

مادامت الحاجة واطلاقها اذا زالت . وروى مسلم وغيره عن أبي مسعود البدرى قال : كنت أضرب غلاماً بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي : اعلم أبا مسعود فلم أفهم الصوت من الغضب قال : فلما دنا مني اذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو يقول : اعلم أبا مسعود اعلم أبا مسعود . فألقيت السوط من يدي . وفي رواية فسقط من يدي السوط من هيبتة ، فقال : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر منك على هذا الغلام (وفي رواية عليه) فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله فقال : اما لو لم تفعل للفتحت النار أو لمستك النار

٨ - التدبير عتق لازم وينعقد بقول السيد لعبدته أنت مدبر وأنت حر عن دبر مني أى بعد أن أدبر عن هذه الدنيا وكذا أنت حر بعد موتي اذا قصد به التدبير فان اطلق ولا قرينة فبعض العلماء يرجح أنه تدبير تقوية لجانب العتق الذي هو من مقاصد الشرع الأساسية . ومنهم من يرجح جانب الوصية . ومن أحكام التدبير أنه لازم في الحال لا يجوز الرجوع عنه كالوصية وأنه لا يجوز للمدبر (بالكسر) بيع المدبر (بالفتح) عند مالك وأبي حنيفة وأن من دبر بعض مملوكه وهو مالك له كله سرى العتق الى باقيه وقال جمهور العلماء ان أولاد الجارية المدبرة تابعون لها في العتق والرق فاذا عتقت عتقوا معها

٩ - عتق أمهات الأولاد . وهو أن الجارية التي تلد لسيدها ولداً تصير حرة من رأس ماله بعد موته ، فلا تدخل في ملك الورثة ولا يجوز له بيعها في حياته عند جمهور السلف والخلف ، وأولهم عمر وعثمان ، في حديث عمر عند الامام مالك : أيما وليدة ولدت من سيدها فانه لا يبيعها ولا يهبها ولا يورثها وهو يستمتع منها فاذا مات فهي حرة

١٠ - ان من ملك أحداً من أولى القرية عتق عليه وأعم مافيه حديث سمرة بن جندب مرفوعاً : من ملك ذا رحم محرم فهو حر

النوع الثاني من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات والمراد بها القربات التي تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهي ثلاثة أقسام أحدها واجب حتماً على القادر على العتق ككفارة قتل النفس خطأ وكفارة الظهار ، وهو تشبيه الرجل زوجته في أمه ، وكان طلاقاً في الجاهلية ، وكفارة افساد الصيام عمداً . ثانيها واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف يميناً وحنث فيها فكفارته اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة . ثالثها مندوب وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها

هدايا الى الخلفاء والكبراء . وذلك كما حصل للأميرة « لمبيجية » ابنة أودوق اكيثانية التي صارت الى الخليفة في دمشق واذا تزوج المسلم بأمة صارت بذلك حرة وكان أولادها أيضاً أحراراً ، ولم يكن فرق بينها وبين الزوجة التي هي حرة من الأصل . وان كان ولد للرجل من جاريته أولاد ، ولو لم يكن عقد نكاح ، ورضى بأن يعترف بهم فأنهم يصيرون أحراراً وتصير أمهم حرة أيضاً لكن مع بقائها تحت سلطة زوجها . ومثل هذه الجارية عند وفاة زوجها تتحرر تماما ويقال لها عندهم أم ولد . وكانت قصور خلفاء دمشق وبغداد وقرطبة ملأى بالنساء اللاتي يقال لهن أم ولد . وكان أولاد هارون الرشيد ، ماعدا واحداً فقط ، كلهم أبناء جوار يقال للواحدة منهن أم ولد . أما اذا كان الأب ولده أولاد من جاريته ولم يرد أن يعترف بهم فأنهم يبقون هم وأمهم عبيداً

النوع الثالث من وسائل الغاء الرق الموجود . جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة (في الرقاب) بنس القرآن ، هو يشمل العتق والاعانة على شراء المملوك نفسه . ومن المعلوم ان زكاة الامة الاسلامية قد تبلغ مئات الألوف وألوف الالف من الدراهم والدنانير فلو نفذت أحكام الاسلام فيها وحدها لامكن تحرير الرقيق في دار الاسلام

النوع الرابع منها العتق الاختياري لوجه الله تعالى . قد ورد في الكتاب والسنة من الترغيب في العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير ومما يدل على انه من أعظم العبادات آية البر من سورة البقرة . ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله صلى الله عليه وسلم : أيما رجل اعتق امرءاً مسلماً استغفر الله بكل عضو منه عضواً من النار . وحديث أبي ذر قال سألت رسول الله أي العمل أفضل قال : ايمان بالله وجهاد في سبيله . قلت : فأى الرقاب أفضل قال : أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها . ومن أشهرها حديث أبي موسى الأشعري : أيما رجل كانت له جارية أدها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها وأعتقها وتزوجها فله أجران

أضف الى هذا وصايا الله ورسوله بالماليك . ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والأقربين ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قول السيد « عبدى أو أمتى » وأمره أن يقول « فتاى وفتاى وغلامي » وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون . انتهى ببعض اختصار ، ومنه تفهم معالى الشرع الاسلامى وما فيه من المبادئ الانسانية والرحمة بالضعفاء والعمل لتحرير الرقاب بكل وسيلة ممكنة ،

ولنضرب لك مثلاً على ما كان يعانيه الأسرى المسيحيون ، في بلاد الاسلام ،
بالحادثة الآتية :

في أواخر القرن العاشر وقع رجل من احلاس الحرب ، من بلدة طولوزة ، أسيراً
في أثناء ذهابه لزيارة بيت المقدس فصار الى بيت رجل من الأغنياء استخدمه في
حراث الأرض ، فقال لهم انه لا يحسن هذا العمل وانه لا يحسن غير القتال ،
فجعلوه جندياً ، وحضر وقائع كثيرة وآل به التقلب في البلاد الى أن حضر حرب
قرطبة الأهلية سنة ١٠٠٩ مسيحية ، وهناك امتاز بالبسالة ونبه أمره . ولما كان
« شنجو » كونت قشتالة قد خاض غمرات تلك الحرب وشاهد ماشاهده من إقدام
هذا الرجل أمر باطلاق سبيله .

أما مصير المسلمين الذين كانوا يقعون في أيدي الافرنج فلم يكن يختلف كثيراً عن
مصير المسيحيين الذين يقعون أسرى في بلاد الاسلام . ولقد كان الرق معروفاً
بفرنسة ، وكان يأتيها رقيق كثيرون من جرمانيين وسلاف وغيرهم من شمالي اوروبا ،
فاذا كان يستعبد فيها الأوربيون فبديهي أن يستعبد فيها الاسرى من المسلمين . ولم
يكن فرق بين الاسرى في الاسلام والاسرى في بلاد الافرنج ، سوى أن الرقيق في
الاسلام اذا تحرر أصبحت له جميع حقوق الأحرار ، بخلاف القاعدة في اوروبا فان
طبقة العبيد ولو تحرروا تبقى منحطة عن طبقة النبلاء وتبقى بينهما فواصل . وكان
المسامون يبدلون أيضاً الأموال في افتكاك أسراهم ، فمنهم من يفكه أهله ، ومنهم
من يفكه أصحابه ، ومنهم من يفكه سلطانه . وقد تأسست عند المسلمين جمعيات
لفداء الاسرى كما عند المسيحيين ، وذلك أن فك العاني معدود من أفضل الأعمال في
الاسلام وقد سأل محمد (صلى الله عليه وسلم) سائل عما يجب أن يعمل لينال أفضل الثواب
وتعلم أنه ليس من ضرب تحرير الرق عند الافرنج الذي فيه من الرياء ومن تسلط الأقوياء على
الضعفاء ومن استعباد الشعوب القوية للشعوب المهضومة ومن جعل الأجناس البشرية نازلاً بعضها
عن بعض ما كل أحد يحكم به ان كان منصفاً

فأوصاه النبي بتحرير الرقاب . وقد روى النويرى ولوذريق شيميناس أنه فى زمن الأمير هشام بن عبد الرحمن بلغ من ظفر جيوش الاسلام انهم بحثوا عن أسرى يفكونهم بالمال المجموع لذلك الغرض فلم يجدوا أسيراً مسلماً يفكونه

وكان يؤتى بأسرى المسلمين الى آزل ومرسيلية وأربونة ، ويباعون فيها ، ويأتى أناس من أبناء ملتهم الى هذه المدن فيفدونهم فأما المسلمون الذين لم يحصل لهم نصيب الافتكاك من الأسر فكانوا يصيرون الى العبودية ، فيشتغل الواحد منهم فى خدمة مالكه . وأكثر ما كانوا يستعملونهم فى الحرث . وكان يحق للمالك العبد أن يبيعه أو أن يضربه أو أن يعذبه ، وكثيراً ما كانوا يكبلونهم بالحديد لثلاثى افرى . ولم يكن للعبيد من المسلمين ، كما لم يكن للعبيد من اليهود ومن الوثنيين ، حق أن يتزوجوا بالمسيحيات ولو كن من الخوادم . ومن كانت منهن متزوجة بغير مسيحي كان لا يؤذن بدفنها فى مقابر النصرى بل هناك ماهو أكثر من ذلك وهو أنه لم يكن يؤذن فى زواج العبد من الأمة ولو كانا من ملة واحدة ، وانما كان للمالك أن يأذن فى مساكنة العبد للأمة فى مكان واحد ، ولكن على شرط أن الأولاد الذين يولدون لها يكونون ملكاً للمالك المذكور . ولقد تلاشى الرق من اوربة فى نواحى القرن الثانى عشر إلا أنه بقى جائزاً بحق غير المسيحيين لاسيما المسلمين ، وعلى ذلك شواهد من آثار القرن الثانى عشر والقرون التالية ، ومن جملتها نصوص واردة فى مجموعة القوانين البحرية القديمة تأليف المسيو بارديسو ، غير أن ذوى التقوى كانوا اذا أرادوا أن يشكروا الله تعالى على نعمة أفاءها الله عليهم أعتقوا عبيدهم ثم عمت العادة بأن كل عبد طلب أن يتعمد أى أن يتنصر يصير حراً . وهكذا اندمج العبيد فى سائر الأمة

وكان العبيد من المسلمين يشتغلون فى المزارع من أملاك الممولين أو أوقاف الأديار والكنائس . وقد مر بنا أن أسارى المسلمين الذين وقعوا فى اليد سنة ١٠١٩ أمام أربونة قد وزعهم المسيحيون على الكنائس وعلى بعض الزعماء . وهكذا وقع للمسلمين الذين كانوا فى فرنسا بعد سقوطهم فى معركة سنة ٩٧٥ ولجميع عساكر المسلمين الذين انفصلوا عن مجموع جيشهم فى أثناء غزواتهم للبلاد الافرنسية .

وكانت هناك أسباب أخرى لزيادة عدد الرقيق المسلم في فرنسا ، منها الحروب الصليبية في الشرق ، ومنها الحروب التي كانت تقع بين الافرنج وبين مسلمي الأندلس . وقد ذكر المسيو بارديسو في كتابه المار الذكر أن منها ما كان آتيا أيضا بطريق التجارة . ومما لا نزاع فيه أنه قد بقي استعباد أسرى المسلمين في فرنسا عادة متبعة دهرأ طويلا ، وفي سنة ١١٤٩ أوصى ارنود مطران أربونة بعيده المسلمين لمطران بيزيه Beziers وفي سنة ١٢٥٠ أوصى روميوفيلنوف Romeo de Villeneuve الذي كان وزيراً عند كونت بروفنس ، قبل موته ، ببيع العبيد المسلمين الذين كانوا في أراضيهم . وكانوا من الذكور والاناث . ذكر هذا المسيو بوش في تاريخ بروفنس . وبعد ذلك بمئتي سنة ورد ذكر شراء الملك رينه ^(١) René لثلاثة عبيد من المسلمين . وقد اطلعنا على قرارات لمجمع الاساقفة في طرا كونية في اسبانية المتعقد سنة ١٢٣٩ من جملتها أن يجبر المسلمون الذين بفرنسة على اتخاذ لبس خاص بهم ، وكذلك اليهود ، وقد جاء مثل هذا الاقتراح في قانون لأسقف بيزيه سنة ١٨٦٣

وكان المتحمسون بالنصرانية يفضون للسماح بزواج الارقاء في فرنسا بحيث وجد في قانون رهبانية جيتو Jéteau مادة تمنع أديار هذه الرهبانية أن يجتمع فيها مسلمون ومسلمات في محل واحد ، بل كان هناك معاهد دينية ترفض استخدام العبيد المسلمين في أشغالها

لقد مر بنا أن المسلمين الذين كانوا يطلبون العمودية يصيرون أحرارا وكان هذا حقاً لهم ، ولما كان كثير من هذا الطلب لا يقع عن اخلاص أو عقيدة ، وكان بعض هؤلاء المتعمدين اذا حصلوا على حريتهم يعودون الى ضلالهم ، فكان لسادة هؤلاء العبيد الحق في امتحانهم مدة من الزمن . وعند ذلك صار كثير من المسيحيين الذين لا وجدان لهم يمتحنون عبيدهم من المسلمين امتحانات يقصدون بها منعهم من الدخول في النصرانية . ومنهم من كانوا وقد تنصر عبيدهم ، يرفضون الموافقة على تحريرهم ويستمرون على ارهاقهم بأشد ما يمكن . ولقد أصدر البابا كليمنفوس الرابع سنة ١٢٦٦

(١) كان يقال له الملك رينه الصالح وكان من ألقابه دوق أنجو وكان كوتنا على بروفنس توفي

منشوراً أنزل به صواعق الغضب على رئيس دير القديس بندكتس في ميرنده ،
لكونه عذب رجلاً مسلماً غنياً كان قد تنصر ، وزعم هذا الرئيس أن تنصره كان غير
حقيقى وضبط له أملاكه وحرّم منها اولاده

فأنت ترى أنه كان من المسلمين المستعبدين في فرنسة أشخاص ذوو أملاك ،
وكانوا مثل اليهود يقرضون الأموال بالربا ، وكان اذا غضب الشعب على المرابين من
اليهود أدخلوا المسلمين أيضاً في دائرة غضبهم . وقد قلنا انه لم يكن للمسلمين حق في
التزوج بمسيحيات ، وان كل مسيحية كانت ترضى بأن يتزوجها مسلم كانت تحرم
من حق الدفن في المقابر المسيحية ، وكان هؤلاء المسلمون يعطالون أشغالهم في الأعياد
المسيحية قسراً

وبالاجمال فعدد المسلمين الذين تنصروا في فرنسة كان كبيراً (١) وهذه نتيجة

(١) في فرنسة ولا سيما في المقاطعات الجنوبية منها ، عائلات كثيرة معروفة بأنها من سلالة
السرازين . أى المسلمين ، ومنها ماتدل سحناؤها الى اليوم على العروبة . وفي نفس سويسرة
عائلات ملقبة بالسرازين ، في جنيف وفي بازيل . ومن أشهر من انتسب الى أصل عربي في جنيف
العالم العلامة الفيلسوف « ابن أبي زيد » وكان أهل سويسرة يقولون له أبو زيت Abou Zit
وأصله عربي من سكان طولوز . وكان أهله من العرب الذين تنصروا ثم اتخذوا مذهب البروتستانت ،
فلما صدر أمر لويس الرابع عشر باخراج كل البروتستانتين من فرنسة ، خرج أبو زيد هذا مع
من خرجوا الى جنيف ، ثم نشأ فيها ونبغ في جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والفلسفة
والتاريخ وغيرها . وكان معاصراً لفولتير وروسو ونيوطن في انكثرة ، وصديقاً لهم جميعاً ، وكانت
له عندم المكانة العليا وربما استفتوه في عويص المسائل العلمية . وقد ذكرت جريدة جورنال
ده جنيف احدى المراز أن فولتير استفتاه في مسائل غاب عنه علمها . ومر بفولتير صاحبه قاصداً الى
جنيف ، فسأله فولتير : ماشغلك في تلك البلدة ؟ وكان فولتير ساكناً في ضواحي جنيف كلالينخي
بقرية فرناى . فقال له صاحبه : أريد الاجتماع بعالم كبير . فقال له . اذن تريد أن تجتمع بصاحبنا
العربي . وأما جان جاك روسو فينبه وبين أبي زيد مراسلات مجموعة في كتاب . وكان هذا العلامة
العربي زاهداً عظيم التواضع معرضاً عن الدنيا ، عرضوا عليه في جنيف أعلى المناصب فرفضها ،
واقصر على وظيفة قيم لحزارة الكتب العمومية . وفي جنيف اليوم شارع مشهور باسم شارع
أبي زيد . وكان ساف أبو زيد هذا أطباء في طولوز . وقد كتب محرر هذه السطور عن أبي زيد
العربي الجنيني منذ بضع سنوات مقالة في الجرائد العربية لخصناها عن الجرائد السويسرية وربما
نعود الى موضوعه بعد التوسع في معرفة حياته

طبيعية للحالة التي كانت يومئذ ولكن الفرنسيين الذين مع الأسف اتخذوا الاسلام ديناً كان عددهم أكبر ، فان الغزوات الاسلامية الأولى لفرنسة وسبي المسلمين للندارى من أهلها وما كان التجار يتجرون به من الرقيق ، كل هذا قد أدخل في الاسلام عدداً لا يحصى من الافرنج . ومن المعلوم أن المسلمين يتلقون المسيحيين الداخلين في دينهم بمزيد التساهل ويعتنون بهم ويوفرون حظوظهم وأرزاقهم وبهذا كثر عدد النصرارى الذين صبأوا عن دينهم ودخلوا في الاسلام .

ولنتكلم الآن عن كيفية حكم المسلمين في فرنسة أيام كانوا سائدين فيها وعن طرز معاملتهم لرعاياهم وعن سياستهم المدنية والدينية والخراجية ، فانهم قد استقروا بعد غزواتهم الاولى في بروفنس ودوفيني وبيمونت وسفواى وسويسرة ، ولكن استقرارهم الحقيقى لم يكن إلا في بعض المعامل الحصينة وفي ضواحيها ، ولم يتفق لهم أن استولوا في فرنسة على بلاد بأسرها . نعم كانت في أيديهم معابر الجبال والأنهار ، فكانوا يأخذون من السابلة رسوماً على المرور ، وكان الوادعون منهم يشتغلون بالفلاحة والزراعة ، وربما أدوا الضرائب عن محصولاتهم الى أمير البلاد التي كانوا فيها . أما بلاد بروفنس التي كانت تجاور حصن فركسنت فقد كانت دائماً عرضة لعبث عصاباتهم . وفي أوائل فتحهم لجنوبى فرنسة أيام شارل مارتل وابنه بين القصير لم يطل الأمر أن وقعت بينهم الحروب التي أدت الى التنفيس من خناق المسيحيين . فكان للقوط في اللاندوق امراؤهم وقوامسهم يلون أمورهم وإنما لم يكن المسلمون يعطون هؤلاء الأمراء سلطة عسكرية واسعة فكأنهم كانوا يحفظون حق السيطرة لأنفسهم على الحكومات المسيحية المحلية . وقد ذكرنا يزيدور الباجى المؤرخ المسيحي الذي عاش في ذلك العصر أن عقبة أمير الأندلس في سنة ٧٣٤ كان يلتزم سياسة ترك الشعوب التي تخضع لحكم المسلمين على قوانينها الأصلية ، وقد وقع في يدنا منشور من الوالى المسلم لمدينة قويمرة في البرتغال يظهر منه أنه كانت للمسيحيين ادارة خاصة بهم ، ونص هذا المنشور هو مايلي : يكون على مسيحي قويمرة كونت بلى أمورهم ويحكم فيهم بالسداد ، وكما كانت عادة المسيحيين في الأحكام وله أن يفصل الخصومات

التي تقع بينهم ، ولكنه لا يقدر أن يحكم على أحد بالقتل إلا بعد موافقة قاضي المسلمين وذلك بأن الجاني يؤتى به أمام القاضي ويقرأ نص الحكم عليه بحسب الشريعة المسيحية ، فاذا وافق القاضي أمكن تنفيذ الحكم بالقتل والا فلا . ويكون لكل مدينة من المدن الصغيرة قاض خاص بها يحكم فيها بالعدل ويكف المنازعات ، وان أهان مسيحي مسلماً عومل بشرع المسلمين ، وان سطا مسيحي على عرض مسلمة أجبر على الاسلام وعلى الزوج بالمرأة التي اعتدى على عرضها ، والا فالقتل ، وان كانت المرأة محصناً فان المعتدى على عرضها يقتل بلا مراجعة^(١) وقد وجد نص هذا المنشور في دير لوربان Lorban وطبع في اشبونة سنة ١٦٠٩

أما من جهة سياسة المسلمين الدينية في فرنسة فليست عندنا عنها معلومات شافية للغيل ، وكل مانع أن المسلمين تركوا للنصارى حريتهم الدينية ، وأن السواد الأعظم من أهل أربونة مثلاً بقوا مسيحيين ، وكان عددهم كبيراً . وقد ترك لهم المسلمون كنائسهم ويبيعهم مع القسيسين والوفية الذين يخدمونها . على أنه لم يسمع أن المسلمين في أربونة وما جاورها من فرنسة مثلاً متعوا المسيحيين بالحقوق التي أمتعهم بها في قرطبة والمدن التي في قلب المملكة . نعم ان المسلمين في قرطبة استولوا على كنائسها الكبرى ، ولكنهم أبقوا للمسيحيين سائر كنائسهم وتركوا لهم أديارهم التي للربان والتي للراهبات على السواء ، وتسامحوا معهم في أمر لم يتسامح فيه المسلمون لا في افريقية ولا في آسية وهو قرع المسيحيين للأجراس^(٢) في مواعيد صلاتهم أما في أربونة وما جاورها من المدن فلم يكن للمسيحيين أساقفة كما في قرطبة ، ولا كانت لهم أديار ولم يكن السبب في ذلك كله من المسلمين بل كانت هناك فوضى كنسية كما

(١) كان يجب على المسيو رينو وهو مستشرق عليم بأمر المسلمين أن ينبه على كون المعتدى على عرض المسلمة المتزوجة يجازى بالقتل بحسب الشرع سواء كان مسيحياً أو مسلماً أي ان هذا الجزء ليس خاصاً بالمسيحيين

(٢) ذكر رينو في حاشية هذه الجملة أن المسيحيين في جبل لبنان هم وحدهم الذين في الشرق يسمح لهم المسلمون بقرع الأجراس

يستدل عليه من كتاب بعث به القديس بونيفاس الى البابا زخريا سنة ٧٤٢ وهذه الفوضى كانت ناشئة عن الانقلابات التي أحدثتها حروب أولاد كلوفيس فيما بينهم . أما في شمالي اسبانية فقد وقعت الفوضى الكنسية لدى وصول المسلمين الى البلاد . ففي أراغون مثلاً ، عندما جاء المسلمون واستولوا على هذه المملكة ، فر الأسقف الى جبال البيرانة ولم تعد الأسقفية الى أراغون الا بعد ذلك بثلاثمائة سنة أي عندما أجلى المسلمون عن البلاد . ولا يظهر أنه كان في برشلونة أسقفية لعهد وجود المسلمين فيها ، بل يظهر أن أمراء المسلمين تحاشوا قبول الاسقفيات في المدن الواقعة في الثغور . وقد كان المسلمون يتركون للمسيحيين كنائسهم على شريطة أن يكتبوا بالقديم منها ، وأن لا يؤسسوا كنائس جديدة ، وان بنوا شيئاً جديداً منها فلا يكون الا مكان القديم . وذهب بعض فقهاء الاسلام الى أنه لا يجوز تجديد الكنيسة الجديدة الا بأحجار الكنيسة القديمة . ولم يكن للمسيحيين حق في الطواف في الأسواق بالصلبان والأعلام المسيحية ولم يكن أيضاً للمسيحيين أن يعارضوا نصرانياً يريد الدخول في الاسلام . وقد تبين من الأمر المتعلق بنصارى قويمرة في البرتغال أنه كان على كل كنيسة دفع ضريبة بيت المال ، مقدارها خمس وعشرون قطعة فضية ، وكان على كل دير دفع خمسين قطعة أما الكنائس العظمى فكانت تدفع مائة قطعة

وقد تقدم أن المسلمين في مدن الأندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى ، كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير . ومع هذا فقد وجدت كتابات للمسيحيين من القرن التاسع تدل على أن مراجل البغضاء كانت تغلي أحياناً بين الفريقين ، وأنه كان محظوراً على المسيحيين إقامة شعائر دينهم علناً بالاحتفال اللازم ، وأن المسلمين كانوا اذا سمعوا قرع النواقيس اشمازوا ونفروا وربما قذفوا وشتموا . ولكن لا ينكر أن المسيحيين أيضاً كانوا اذا سمعوا الأذان تعوذوا بالله ورسما إشارة الصليب على صدورهم . وقد أقر بذلك القديس اولوج Euloge الذي كان من المضطهدين سنة ٨٥٠

أما من جهة الخراج فقد تقدم أن السمع (ابن مالك الخولاني) أمير الأندلس كان

هو البادئ بتنظيم الجبايات واستخراج الارتفاعات سواء في اسبانية أو في جنوبي
فرنسة ، وقبل ذلك كانت أمور الجباية فوضى والحبل منتشراً وقد وزع السمع قسماً
من الأراضي المأخوذة من المسيحيين على غزاة المسلمين وعلى العائلات الفقيرة ، بعد
أن كان بعض ذوى السلطة قد استأثروا بها لأنفسهم من دون الفقراء ، وقد ضم السمع
بقية الأراضي الى بيت المال . وكان الخراج المفروض على أراضي المسلمين هو عشر
المحصول بخلاف المسيحيين فقد كانوا يدفعون الخمس ، أى ضعف خراج المسلمين وكان
المسيحيون عدا الخمس يدفعون الجزية وهى إتاوة شخصية كان يتقاضاها المسلمون من
المسيحيين فى مقابلة محافظتهم على دماهم وأمواهم وامتاعهم بحريتهم الدينية . أما من
أسلم من المسيحيين فكان معنى من الجزية . وكان ملوك الأندلس يضربون رسماً على
البضائع والسلع ، فالسلم كان يؤدى اثنين ونصفاً فى المئة ، والمسيحى كان يؤدى خمسة
فى المائة ، وكانوا يسمونها زكاة وكانت تنفق فى إغاثة الفقراء وافتكاك الاسرى

وكان المسلمون يسمون المسيحيين الذين خضعوا لهم ودفعوا الجزية المعاهدين
أو أهل الذمة ، أى الذين لهم على المسلمين ذمة الحماية والمحافظة . أما المسيحيون الذين
لم يكونوا خاضعين للإسلام فكانوا يسموهم أعلاجاً واحدها عالج ، وكانوا يقولون
عجمى لكل من ليس بعربى ، ويسمون مشركاً كل من يقول بأن الله ثلاثة أقانيم
لأن المسلمين لا يرون فى الثلاثة الأقانيم الا ثلاثة أشخاص .

ويحق للإنسان أن يسأل : بأى لسان كان العرب يكلمون الأمم التى تغلبوا عليها ؟
فان من عادة العرب أن لا يحفلوا بغير لغتهم كما أن المسيحيين لذلك العهد كانوا من
الجهل والبربرية بحيث لم يكونوا يفكرون فى تعلم العربية . ولم يذكر التاريخ رجلاً
مسيحياً لأوائل أيام الفتح الإسلامى أتقن العربية غير هارتموت Hertmote رئيس دير
سانغال الذى كان يعرف العربية واليونانية والعبرية ، وكان من رجال أواخر القرن
التاسع . ولم يبدأ أباًؤنا بتعلم العربية إلا فى أيام الحروب الصليبية ، إذ لم يجدوا غنى
عن الاطلاع على لغة قوم استولوا على جانب من بلادهم ، فكانوا يذهبون الى اسبانية
حيث كانت العربية واللاتينية تعلمان جنباً الى جنب ويقرأون العربية على أهلها . وفى

سنة ١١٤٢ أكمل بطرس رئيس دير كلوني Gluny أول ترجمة لاتينية للقرآن ، وبدأ يكتب الردود على دين الاسلام ، وتبعه في ذلك مؤلفون كثيرون من النصارى .
على أننا لا نشك في أنه في أول دخول العرب الى فرنسا كانت اللغة العربية معروفة فيها ، وكان كثير من الافرنج يحسنون التكلم بها ، وذلك لأن العرب كانوا يأخذون أبناء البيوتات النبيلة رهائن على طاعة أهلهم لهم ، ويرسلون هذه الرهائن الى قلب مملكتهم ، فكان لا بد لهم هنالك من أن يتعلموا العربية . وكذلك كان بديهياً أن الأسرى والعبيد من المسيحيين يتعاملون العربية ، فاذا عادوا الى بلادهم كانوا من جملة الافرنج الذين يعرفون هذه اللغة . وأضف الى ذلك المسلمين المستعبدين الذين كانوا في أرض فرنسا فقد كانوا كلهم يتكلمون بالعربية ، ولا تنس التجار وزوار بيت المقدس الذين برغم جميع تلك الحروب الهائلة لم ينقطعوا عن التجارة ولا عن الزيارة ، وكانوا يختلفون الى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام، ومن جملة هؤلاء الانكليزي القديس غيلبود Geillebaud الذي ذهب الى الشرق ووصل الى الشام سنة ٧٣٤ للمسيح ، وقيل انه عند وصوله الى دمشق قبض عليه على ظن أنه جاسوس ، فلما علموا أنه قادم لزيارة بيت المقدس خلوا سبيله ، فطاف في سورية وفلسطين بدون معارضة ؛ ولكن لم يقع في أيدينا شيء من المعلومات عما دار من الأحاديث بين الخليفة في دمشق وبين القديس المذكور

وكان المسيحيون في ذلك العصر مستسلمين للاقتدار يعتقدون أن غزوات العرب لبلادهم انما هي عقاب من الله تعالى للبشر على خطاياهم فكانوا راضين بما قدره الله عليهم لا يحاولون دفع منازلهم ولم ينهضوا في أوربة لاستعمال الوسائل البشرية الكفيلة بدفع الأذى عنهم الا في أيام الحروب الصليبية

وكان المسلمون في غاراتهم يستعملون السبي فيربون الصبيان الى أن يبلغوا رشدهم ، ويحملونهم جنوداً ، ويربون الصبيات الى أن يبلغن رشدهن فيتخذوهن حلالل . وكانوا في أي مكان شنوا فيه الغارة وضعوا ذلك نصب أعينهم . تأمل في كيفية حلولهم بجزيرة اقریطش . فقد تقدم أن خمسة عشر ألفاً من ربض قرطبة أجلوا عن الأندلس

على أثر فتنة الربض المشهورة، فجاءوا الى الاسكندرية ، ومن هناك عزموا على النزول في اقريطش نظراً لحسن هوائها وجودة تربتها ، ولما وصلوا الى تلك الجزيرة أمرهم قائدهم بأن يبدأوا بالعمارة ، وأحرق السفن التي جاءوا بها ، فصاح رفاقه به قائلين له : كيف يمكننا بعد الآن أن نرسل نساءنا وأولادنا ؟ فأجابهم : اننى أعطيتكم وطناً جديداً وهذا الوطن هو الذي يكفل لكم ايجاد نساء تزوجون بهن ، وبعد ذلك عليكم أنتم أن تنسلوا الأولاد . ولما جاء المسلمون ودخلوا أرض فرنسة فاتحين لم يكن لهم مقصد سوى نشر دين الاسلام واخضاع فرنسة وكل اوربة لأحكام القرآن . ولكن فيما بعد ذلك دخل في تلك الغزوات مقاصد أخرى ، كحب النهب أو الأخذ بالثأر . ومن هذا القبيل نزول العرب في أواخر القرن التاسع في أرض بروفنس

وقد ذكر المؤرخ ليو تيرند كيفية فتح العرب لصقلية فقال : ان أمير صقلية من قبل امبراطور القسطنطينية كان قد خرج من طاعته ، فأرسل يستنجد أمير العرب في القيروان ، فشاور هذا أعوانه فيما يفعل ، فأشاروا عليه باصراخه ، ولكن على شرط أن العسكر الاسلامى يأخذ ما يمكنه من الغنائم ويقفل بدون استقرار في تلك الجزيرة . وذلك لأنهم لمعرفتهم بشدة قرب صقلية من الأرض الكبيرة كانوا يعتقدون أن مقام أمة تخالف أهل تلك الديار في اللغة والعقيدة لا يمكن أن يكون هناك لا طويلاً ولا وطيداً ، وأنه لا مناص من أن يكر اليونان والافرنج فيسترجعوا تلك الجزيرة ولو بعد حين . قيل ان أحدهم سأل يوم عقد تلك الشورى بشأن غزو صقلية ما مقدار المسافة التي تفصل بين الجزيرة والأرض الكبيرة؟ فأجابوه بأن الانسان يقدر أن يأتي ويرجع مرتين أو ثلاثاً في النهار . فسأل وكم المسافة بين صقلية وافريقية ؟ فقيل له مسافة يوم و ليلة . فقال : لو كنت طيراً ما رضيت أن أجعل مقامى بهذه الجزيرة والحال هي هذه من جهة المسافة . ذكر ذلك النورى . والحقيقة أن المسلمين لم يعملوا على البقاء في صقلية الا بعد أن رأوا أمورها فوضى ، وبعد أن وجدوا أمراء تلك البلاد يستعينون بهم بعضهم على بعض ، لا تجمعهم جامعة قومية ولا تضمهم صارخة وطنية

أما الآثار الحجرية التي تركها المسلمون في فرنسا على أثر غزواتهم فيها فهي قليلة جداً في أربونة مثلاً حيث بقى العرب نحواً من أربعين سنة ، لم نجد لهم بناءً خاصاً بهم ، وغاية ما عملوا أنهم زادوا في تحكيم القلاع التي فيها حتى جعلوها من مناعتها لا تؤخذ . ولكن لم يجد المؤرخون هناك كتابات عربية ولا آثاراً يتحققون كونها عربية . وقد قيل عن بناء في مدينة سردانية التي بجوار جبل لويس انه من عمل المسلمين ، ولكن ذلك القول لم يثبت لأنه بناء لا يشابه أبنيتهم المعهودة . نعم يوجد في جنوبي فرنسا كثير من السكوكات العربية وأكثرها ليس عليه ذكر الملوك الذين ضربت في أيامهم ، ولا ينكر أنه في أواخر القرن التاسع للميلاد كان المسلمون قد قطعوا مراحل بعيدة في المعارف والفنون وأخذوا يتقدمون يوماً فيوماً في المدينة ، وفي ذلك الوقت كان نزولهم في بلاد بروفنس ودوفني وسافواي وسويسرة . ولا نزاع في أن مسلمي اسبانية وصقلية بل مسلمي افريقية نفسها كانوا في ذلك العصر أرقى من مسيحيي فرنسا والبلاد المجاورة لها التي كانت غائصة في فتن كقطع الليل المظلم . ولسنا الآن في صدد المدينة الباهرة التي أثلها العرب في الأندلس فمن ذا الذي لا يسمع بعظمة جامع قرطبة الأعظم ، ومن لا يعلم ماشاه العرب من الجسور والمعابر وشقوه من الأنهر والجداول لرى الأراضى ، وما بنوه من القصور المنيفة الشاخغة ولعمري لم ينحصر فضلهم في الصناعة والفن بل كانت لهم القدم الراسخة في العلوم العقلية والفلسفة وكانوا ترجموا إلى العربية كتب أرسطو وايقراط وجالينوس وديسقوريدوس وبطولياووس وغيرهم ، وكشفوا من العلم أسراراً جديدة أضافوها الى ماتلقوه عن غيرهم . فكان تفوق العرب على المسيحيين في ذلك العصر حقيقة ثابتة لامراء فيها وكان المسيحيون يفتقرون اليهم في العلم ويردون حياضهم فيه . وقد روى المؤرخون أن شانجه ملك ليون كان في سنة ٩٦٠ جاء الى قرطبة ملتتمساً الاستشفاء ، لدى أطباء العرب ، من مرض كان قد أعياه شفاؤه ، فوجد عند أطباء العرب الراحة التي كان ينشدها وبقي طول حياته يذكر الحفاوة التي استقبل بها والاعتناء الذي رآه في قرطبة بشأنه . وفي تلك الأيام كان راهب اسمه جبربرت انتجع اسبانية ،

طلبا للعلوم الطبيعية والرياضية ، فبلغ من العلم مبالغا خيل لعامة فرنسة اذ ذاك أنه
ساحر (١)

أما العرب الذين جاءت عصائبهم ونزلت في أرض فرنسة وتدرجت الى جبال
الألب فلم يكونوا من النمط الأول أى من الذين يريدون أن ينشروا ثقافة أو يؤثروا
مدينة ، وانما كانت غاراتهم كلها منبعثة عن طمع في النهب وغرام بالكسب .
فالهضة الحقيقية في أوربة لم تبدأ الا منذ القرن الثاني عشر أى منذ زحف أهل الغرب
لقتال أهل الشرق ، ووجدت النصرانية والاسلام في الصراع وجها لوجه ، فوقع
الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين ، وأفاق الفرنسيين والانكليز والالمان من رقتهم
ونفضوا عنهم غبار الخمول ، ووجدوا ضرورة المشاطرة في المدينة الاسلامية . وكان
علم اللغة اليونانية قد درس وصار العلم اليونانى غير معروف الا عند العرب ، فأخذ

(١) في موضوع آثار العرب في فرنسة يحسن أن نذكر شهادة طبيب كبير اسمه البروفسور
دالماس هو أستاذ الأمراض النسائية بكلية الطب في مدينة مونبيليه في جنوى فرنسة الذى ألقى في فضل
العرب على جامعة مونبيليه محاضرة قيمة حضرها جم من الشبان الشرقيين ، من مصريين وعراقيين
وسوريين ، ونشروا عن ذلك مقالة في حريدة الاحرام وقد بدأ البروفسور دالماس بذكر فتوحات
العرب لعهد الخلفاء الأولين ، وقال انهم كانوا يحملون مدينتهم حيثما ذهبوا واينما حلوا ، وقال :
ان مدينة العرب لم تنحصر في فن البناء ونشر الخزف العربى وتشبيد الجوامع فقط بل كانت تتناول
الكثير من العلوم والمعارف التى هى أساس العلوم الحديثة ، وخص بالذكر علمى النبات والطب ،
وذكر أنه الى العرب يعود الفضل في تعريف الغرب بالمدينة اليونانية . ثم قال : ان العرب نزلوا
ببلدة ماجلون ، صاحبة مونبيليه ، وأقاموا بها مدة من الزمن الى أن أجلاهم عنها شارل مارتل
وأحرقها حتى لا يعودوا اليها وكانوا في اثناء وجودهم فيها يبيعون بعض الكتب الطبية ، ثم جاء
منهم أطباء وصاروا يمارسون حرفة التطيب ، ثم ذكر من الأطباء أسماء بعض اليهود الذين تلقوا
الطب العربى مثل صموئيل بن طيبون وناتان بن زكريا وأسماءها منقوشة على لوحة الاستاذية بمدخل
كلية الطب ، وقال : ان بعض الرهبان الذين ترقوا الى درجة البابوية كانوا قد طلبوا العلم بجامعة
مونبيليه على أساتيد من العرب وقال: ان ملك نابار عندما مرض بصدره التجأ الى أطباء العرب ، وقال :
انه يوجد في متحف الجامعة بعض آثار وجدت في ماجلون عليها بعض الآيات القرآنية والاشعار العربية
وكنت سمعت من المرحوم الاخ أحمد بك شوقى أمير الشعراء الذى درس علم الحقوق في جامعة
مونبيليه هذا الخبر بعينه رواه لى لأول تعارفنا في باريس سنة ١٨٩٣

المسيحيون من فرنسة وجوارها يؤمون اسبانية لأجل ترجمة التآليف العربية المنقولة عن اليونان ، وذلك الى اللغة اللاتينية التي كانت يومئذ لغة الكتابة والعلم في أوربة . وقد بقيت هذه التراجم الى القرن الخامس عشر هي عمدة الجامعات والمدارس في معرفة علوم يونان

ولا مندوحة لنا عن أن نقول كلمتين عن آثار هؤلاء العرب الذين نزلوا في فركسنت ، فان الأثر الذي أثروه هناك من الآبار المحفورة والأسراب المكفورة والحجارة المنحوتة والأبنية المحكمة لا تزال بقاياه بارزة للعيان ، دالة على صبر عجيب وهمة بعيدة ، ولكن لم يوجد على شيء من ذلك الحصن كتابات عربية كما وجد في الحصون التي من بناء العرب في الأندلس .

وقد ذكروا أن حصوناً كثيرة على قن الجبال هي من بناء العرب المذكورين وأنه كانت لهم أبراج كثيرة منتظمة بلبه الساحل الافرنسي والايطالي ، اختاروا لها تلال الجبال لتوقد بها النيران ليلا على حسب عادة العرب الذين كانوا يشبون هذه النيران ايذاناً بوقوع الحرب وطلباً للمدد وجمعاً للقوة . وقد ذكر ذلك المسيو انفونس ده نيس Denys في كتابه الزهرة البديعة في مقاطعة الفار . وكذلك جاء في كتب العرب كلام على الأربطة والمراقب التي شاهدها الأمير عقبة بن الحجاج السلولي ، أمير الأندلس في جنوبي فرنسة ، في نواحي سنة ٧٣٤ وقد ذكر ايزيدور الباجي أن السمع ابن مالك الخولاني الذي تولى قبل عقبة امانة الأندلس ، قد بنى هو جانباً من هذه الابراج ، ولكننا لانعلم لماذا ينسبون بناء هذه الابراج كلها الى العرب ولماذا لا يجوز أن يكون أهل البلاد أنفسهم هم الذين بنوها ، أو بنوا بعضها ، احتياطاً لانفسهم ومراقبة لاعدائهم^(١) . هذا ومما وجد من آثار العرب في فرنسة الاطالس الحريرية والاسقاط

(١) تقول انه يجوز أن يكون الافرنج قد بنوا شيئاً من هذه الابراج في سواحلهم ولكن ممالا مشاحة فيه أن الابراج التي في جميع سواحل الاندلس مطردة متسقة على طول تلك السواحل كانت من بناء العرب وان عادة ايقاد النيران في الابراج ايذاناً بالحرب ومدداً للفرج انما هي عادة في الغالب عربية . وكان العرب في أوائل الفتح الاسلامي نشروا هذا النمط من الابراج النارية من

الثمينة من العاج والفضة والكؤوس البلورية والاسلحة النفيسة ، ولا يزال منها جانب في خزائن الكنائس وفي مخادع الغواة؛ والناس تقومها بأثمان غالية مما يدل على مكانة الصنعة العربية في الانفس. ولكن من المحقق أن أكثر هذه المصنوعات العربية هي من عصر متأخر عن القرن الثامن . ولم يكن مقام العرب بفرنسة خالياً من تأثير في طرق الزراعة فان هؤلاء القوم لم يحلوا في مكان الا طبقوا الأراضي بالعمل ، وجروا الاقنية ، ونسقوا من تحتها الجنان شاهدك على ذلك تلك البساتين المنقطعة النظير ، في مرسية وبلنسية وغرناطة ، ويقال ان العرب الذين نزلوا في بروفنس هم الذين بدأوا في استثمار شجر البلوط ، ولا يزال هناك غابة منه يقال لها غابة المغاربة . وكذلك العرب هم الذين كانوا يستخرجون القطران من أشجار الصنوبر والارز ، ويقلفطون به المراكب . ولهذا تجد أهالي بروفنس لا يقولون للقطران غودرون Goudron كما يقول سائر الفرنسيين ، بل يقولون قطران Quitrان (١)

وقالوا ان العرب هم الذين أصلحوا جنس الخيل في فرنسة . وذلك انهم كانوا يأتون على سفنهم بالجياذ العرب ليتسنى لهم عليها بث الغارات في داخل البلاد ، فبقى جنسها في فرنسة من ذلك الوقت والآل يوجد صنف من الخيل في مقاطعة كامرغ Camergue متولد من ازدواج الخيل الاندلسية بخيول تلك المقاطعة

ومما يظنه الناس من بقايا عادات العرب نوع الرقص الذي يطلع عليه الانسيان في جنوبي فرنسة وهو يختلف باختلاف الأماكن ، فمنه زفن يقع في الليالي يرقص فيه

الاسكندرية الى طنجة ، فكانت اذا وقعت واقعة ذات بال أوقدت النيران من طنجة ولا تزال من برج الى برج حتى يبلغ ذلك الاسكندرية ، في الليلة الواحدة .

ولما سرت من مائة الى الجزيرة الخضراء سنة ١٩٣٠ التي ذهبت فيها الى الاندلس اجتازت بنا السيارة هذه المسافة في ست ساعات ، فكانت كلما قطعت مسافة ٣٠٠ أو ٥٠٠ متر حاذت برجا محزوظي الشكل شاهقا في الفضاء ، وعلمت أن هذه الأبراج كلها عربية

(١) القطران : عرفه العرب بأنه دهن يخرج من شجر الابل والارز ، وهو بلفظ بالفتح وبالكسر . ونحن في سورية نلفظه بالفتح (قطران) ويظهر أن العرب الذين نزلوا سواحل بروفانس كانوا يلفظونه بالكسر (قطران) ولذلك قال الفرنسيين Quitrان

الشاب بين فتاتين ، وفي أثناء رقصه يقدم فاكهة تارة الى هذه وطوراً الى تلك . ومنه ما يقف فيه الراقصون خطأ ، بازاء الراقصات خطأ ، ثم يشتبك الخطان أحدهما بالآخر والشخص الذى يكون على رأس كل من الخطين يعمل اشارات يقتدى بها الآخرون وهناك رقص عسكري يرقص فيه اثنان كل منهما متقلد سيفاً يحاول أن يصيب به الآخر أشبه بالأقران فى ساحة القتال اذا أرادوا أن يهاجموا أو يدافعوا

أما وجود أناس فى فرنسة تقدر أن تحكم عليهم حكماً باتا بأنهم من أصل عربى فغير محقق . قيل لنا ان قوماً يسكنون على ضفاف نهر الصاوون ، بين ماصون وليون ، لاسياً على الضفة الشمالية أنهم من بقايا شردمة من العسكر العربى انقطعت عن مجموع الجيش فى أيام شارل مارتل وقالوا ان لهؤلاء عادات خاصة وألفاظاً خاصة قد تكون باقية من اللغة العربية ولكن شيئاً من هذا لم يتحقق ، لاسياً أن تلك الألفاظ هى فى الحقيقة مشتقة من اللاتينية ، أو باقية من الافرنسى القديم وأن البلاد الواقعة بقرب ماصون لم ينزل بها عرب بل كانت ملجأ لمن فروا من وجه العرب وكذلك قيل ان جماعة من سكان البلاد المجاورة لجبال البيرانه ، يقال لهم كاغوت ، هم من أصل عربى . ولكن لم يثبت شئ من هذا ، بل الأرجح أن هذا الجيل من الناس هو من جملة الأجيال الغربية المنتشرة فى بريطانيا واورفنيه باسم كاكو وكابوت وما أشبه ذلك

ثم انه كما لا يخفى فى زمن الملك هنرى الرابع هاجر من اسبانية الى فرنسة عدد كبير ، نحو من مائة وخمسين ألف نسمة من مسلمى الأندلس ، فراراً من تضيق فليب الثالث ملك إسبانية الذى منع أن يجتمع فى جزيرة الأندلس دينان ، وأجبر بقية المسلمين فيها على التنصر بالنار والسيف . ولما وجد أن الكثيرين منهم لا يزالون مسلمين باطناً ، وأن لهم علاقات بالدولة العثمانية التى كانت فى ذلك العصر ذات صولة عظيمة ، أجمع أخيراً على طردهم من بلاده ، فجاءوا الى فرنسة ولكنهم لم يكونوا فى فرنسة الا عابري سبيل ، لأنهم أبحروا من سواحل فرنسة الى افريقية والبلاد العثمانية ومن بقى منهم

في فرنسا تنصر واندمج في مجموع الأمة كما أشار الى ذلك شينيه Chenier في كتابه
المباحث التاريخية عن المغاربة (١)

أما تأثير الأدب العربي في آداب لغات الامم الساكنة في جنوبي أوربة ، فقد

(١) عند ما اشتد التضييق الى الدرجة اقصى على بقايا مسلمي الأندلس، تحريقاً بالنار ، وتبليصاً
من المال ، واستعباداً للذكور والاناث ، وتعذيباً بمخاتف الأشكال ، بحجة أنهم وان كانوا قد
تنصروا ظاهراً فلا يبرحون مسلمين باطناً أرسل هؤلاء سرّاً يستغيثون بالدولة العثمانية . وذهب منهم
خلسة من الأندلس وفد أدرك مدينة بلغراد ، حيث كان الصدر الأعظم على رأس العساكر العثمانية
الزاحفة يومئذ الى تلك الأقطار ، فبث الوفد الى الصدر الأعظم كل ما يعاينه المسلمون من العذاب
تحت حكم الاسبانيول ، وأنهم مع ذلك لا يسمحون لهم بالخروج من البلاد ، وأن منهم مئة وخمسين
ألفاً خرجوا الى فرنسا ، وهم يلتصقون من الدولة العثمانية أن تتوسط لدى ملك فرنسا وملك اسبانية
في أمر السماح لبقايا المسلمين المذكورين بالرحيل الى بلاد الاسلام . فعرض الصدر الأعظم ماسمعه من
الوفد الأندلسي على السلطان أحمد خان الأول رحمه الله وفي الحال لبي السلطان العثماني نداهم ، وكتب
الى ملك فرنسا هنري الرابع يرغب اليه في تسفير المسلمين الذين التجأوا إلى مملكته على مراكب
تبعث بها الدولة العثمانية فتحملهم إلى بلاد الاسلام ، أو على مراكب افرنسية تعهد الدولة العثمانية
بدفم كرائها

وكان هنري الرابع قد سمح بدخول هؤلاء المسلمين الى فرنسا على شريطة أن يقبلوا المذهب
الكاثوليكي ، فلما جاءه هذا الكتاب من السلطان أحمد وكان يهيمه عدم اغضابه ، أجاب طلبه
وأمر بتسفير المسلمين المذكورين الى افريقية وغيرها من بلاد الاسلام ، فخرج منهم فئات لحقوا
بالمغرب ، وآخرون بالجزائر وتونس ، وآخرون وصلوا الى مصر والشام ، ومنهم من قصد الى
القسطنطينية . وقد بقيت منهم فئة قليلة في فرنسا انتهى الأمر بأن سلالتها صارت الى النصرانية واندمجت
في الفرنسيين . أما الذين كانوا لا يزالون في اسبانية ، فبقي « قلب الثالث » يمنع خروجهم منها ،
إلى أن بلغه الخبر عما فعله هنري الرابع من النزول على ارادة السلطان العثماني ، فحسب لتدخل الدولة
العثمانية حساباً كبيراً ، وأمر فجمع عظاماء مملكته ، وتشاوروا في قضية بقايا المسلمين في تلك
المملكة ، فأشار بعضهم بمنع خروجهم مهما وقع وعول الجمهور ومنهم الملك على اخراجهم جميعاً ،
تخلصاً من غوائل بقائهم في اسبانية ، اذ قد ثبت للدولة الاسبانية أنه مع وجود هذه العلاقات السرية
بين المسلمين الأندلسيين وبين الدولة العثمانية لم يأت أحد منهم برغم تنصرهم في ظاهر الأمر ، ليخبر
الحكومة الاسبانية بشيء من تلك الحركات . فاستدلوا من هذا على أن هؤلاء لا يزالون
مسلمين ، وان أظهروا التنصر ، وأنه يعون من الحزم اجلاؤهم أجمعهم عن اسبانية حتى لاتعرض هذه
المملكة بسببهم لحرب مع الدولة العثمانية لاتعلم عاقبتها . فأخرجهم جميعاً على مراكب الحكومة

قيل فيه انه وقع في لغة الاوك Oc التي كان يتكلم بها أهالي جنوبي فرنسا وكتلونية ، اذ هناك أقام العرب طويلا . وقد دخل في اللغة الافرنسية كلمات كثيرة من العربية لامراء فيها وهذا الاختلاط في اللغات لم يقع بخاصة أيام وجود العرب بفرنسا ، بل قد وقع أكثره بعد جلائهم عنها ، لأن العلاقات التجارية لم تنقطع بين العرب والفرنسيين في يوم من الايام . وبالاجمال فتأثير العرب في فرنسا كان أقل مما يتوهم الناس ، وان ما أجروه فيها من العيث والتدمير ليتضاءل في جانب ما خربه النورمانديون والمجار ، بل تقدر أن تقول انه بقيت للعرب مكانة عظيمة في نفوس الناس ، حتى أصبحت لفظة سرازين ولفظة رومانى كأنهما واحدة ، وحتى تعود العامة أن ينسبوا إلى السرازين أى العرب كل ما يروونه كبارا أو جبارا .

ومن الغريب أنه لم يبق من غارات النورمنديين والمجار الا تذكارات في بطون التواريخ ، والحال أن تذكار غزو العرب لفرنسا لا يزال في جميع الأذهان كأنه حديث العهد . وقد وقعت غزوات العرب قبل غزوات النورمنديين والمجار ، واستمر وجودهم في البلاد الى ما بعد جلاء المجار واندماج النورمنديين في مجموع الأمة ، الا أن غزوات العرب الأولى كان فيها من العظمة والأبهة مالا يمكن أن يقرأه الانسان الا وتعروه الدهشة والحيرة . وكان العرب يمتازون عن النورمنديين والمجار بكونهم أمة بقيت

الاسبانية ، وكانوا نحواً من ستمائة ألف نسمة ، فذهب أكثرهم الى المغرب ، وابثثوا في الريف ، وعمروا تطوان والرباط وسلا وجناباً من فاس . وذهب كثيرون فسكنوا تلمسان والجزائر وتونس ، ووصل آخرون الى الشرق . وكان ذلك في سنة ١٦١٢ مسيحية

وقد استوفينا تاريخ هذا الجلاء الأخير لمسلمي الأندلس في الطبعة الجديدة من « حاضر العالم الاسلامي » واعتمدنا في كثير من المعلومات التي كانت مجهولة عند الجمهور على كتاب ابن عبدالرفيع الأندلسي الذي روى عنه ابن جندار صاحب تاريخ رباط الفتح فن شاء عن هذه المسألة بحثاً شافياً للغيل فليراجع تاريخ رباط الفتح أو حاضر العالم الاسلامي الطبعة الجديدة . ولسكننا سنخصص بهذا الموضوع ان شاء الله جزءاً بتمامه من أجزاء هذا الكتاب ، فيه جميع تاريخ مسلمي الأندلس الذين أجبروا على التنصر بعد سقوط مملكة غرناطة ولبثوا مسلمين في الباطن أكثر من مائة سنة ، وكان الاسبان يقولون لهم « الموريك » وقد أجمع المنصفون على أنه لم تعذب في الدنيا أمة ما عذبته الموريك هؤلاء ، حتى اتفك عقالمهم وخرجوا من اسبانية .

مدة طويلة تسير على رأس المدينة العامة ، وأنهم بعد جلائهم عن فرنسة لم تزل تحت الرعدة من احتمال غاراتهم . ثم ان الحروب العظيمة التي تولوا كبرها ، سواء في الأندلس أو في افريقية أو في آسية في وجه الصليبيين ، قدأضافت إلى اسمهم لمعانا جديداً فوق المعان الذي كان من قبل . وكل هذا لم يكن كافياً في تفسير مكانة العرب المكيئة في الصدور لولا قصص الفرسان والفروسية التي كان يتغنى بها أهل فرنسة وجوارها ، خلفا عن سلف . فقد كانت هذه القصص تكاد تكون الأسمار الوحيدة للأمرء والنبلء ، بل الأسمار الوحيدة لعامة الشعب . وانما كان يعجب بتلك القصص وهاتيك الأخبار من سير الأبطال كل من كان يدعى نفساً عالية وحساً نجيباً . وقد تضاءل كل تاريخ بجانبها وهزل كل أدب ما عداها . وكان أكثرها شعراً ولهذا الشعر رواة اختصوا به ، يذهبون من بلدة إلى بلدة ومن قرية إلى قرية ، فينشدونها الجماهير التي ترنح لها أعطافهم . وكان لا يحتفل بعيد ولا بموسم إلا اندفع أولئك الرواة في انشاد تلك القصائد عن سير أبطال الوطن . وكانت أكثر هذه السير تدور على حروب المسلمين ، وعلى ما جالده صناديد الفرنسيين في دفع غاراتهم . ولما كان في هذه القصص وتلك القصائد من المبالغة ما هو جدير بكل القصاص الذين يترنمون بوقائع الأبطال ، كانت الواقعة الواحدة تتجسم وتنمو وتصبح أضعاف ما هي تجسما لفضل أولئك الذين تولوا كبر تلك الوقائع ، حتى صار في تاريخ كل مدينة وكل بلدة من فرنسة وإيطالية أمير عربي أو بطل عربي يبارزه أمير فرنسي أو بطل فرنسي وبعد أن يشتد البراز ويطول العراك وتظهر فيه خوارق الاقدار ، ينتهي بالبدهاة بتغلب البطل الافرنسي على البطل العربي

وبالجملة فقد كان العرب لذلك العهد ، هم الأمثلة العليا والاقيسة البعيدة ، في الشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الاخلاق والنفوذ عند المقدرة وقرى الضيف تشهد بذلك وقائع ونوادير كثيرة ، منها مارواه بعض مؤرخي الاسبانيول من أنه في سنة ٨٩٠ أراد ملك اشتورية ، اذفونش الكبير ، أن ينتدب مؤدباً لابنه وولى عهده فاستدعى اثنين من مسلمي قرطبة ، حرصاً على تهذيبه ، اذ لم يجد في المسيحيين إذ

ذلك كفوًا لهذه المهمة .

ومن الغريب أنه في قصة من قصص الفروسية المتعلقة بشارلمان الكبير يروون أنه في صغره ذهب واقتبس من أنوار العرب ، وأنه من تأثير ذلك تمكن من إدارة تلك السلطنة العظيمة التي جدد بها مجد العالم الغربي . وقد بقيت هذه الأفاصيص هي المعول عليها في الاندية والمجامع ، وهي الفكاهة المستطرفة في المواسم والمخاfl إلى عهد غير بعيد . ولم يدخل التمحيص التاريخي عندنا إلا منذ مائة وخمسين سنة ، إذ أخذ الناس يبنذون ما هو من عمل الخيال إلى ما هو من لباب الوقائع الراهنة .

وختام القول أنه لو نشر موسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر ، ورأوا ما هي عليه الحالة في زماننا هذا ، لوجدوا اختلافًا كثيرًا في بيئتي المسيحيين والمسلمين ، عما كانتا عليه في الأعصر السالفة . ولكن مما لا شك فيه أنهم بعد الوهلة الأولى كانوا يبتهجون بالمكانة العليا التي جعلها القصاص والزجالون من آباءنا لأعمالهم الكبيرة ، وكانت نفوسهم المشغوفة بعمالي الأمور تقابل بمزيد الاكبار ذلك الشعور النبيل الذي كان يحتاج عند من نسميهم البرابرة من آباءنا والذي لا يزال يتلاشى يوماً فيوماً . انتهى كتاب رينو ببعض اختصار وتصرف

كتاب غارة العرب على سويسرة

في أواسط القرن العاشر

تأليف

الدكتور فرديناند كالر

Der einfall der Sarazenen in die Schweiz
um die mitte des X Jahrenderts
Von dr Ferdinand Keller
mittheilungen der antiquarischen
Gesellschaft in Zurich

وهو كتاب بالالمانية ، نشرته شركة « الآثار العتيقة » في زوريخ ، في سنة ١٨٥٦
وقد أطلعنا عليه العلامة الأستاذ « البروفسور هس » مدرس التاريخ والألسن
الشرقية في جامعة زوريخ من سويسرة . وذلك في سنة ١٩١٩ وهو أول كتاب اطلعنا
عليه في هذا الموضوع ، فلخصناه يومئذ ، ونشرنا خلاصته في مجلة المنار لصاحبها
الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا . ثم اننا رأينا نقل هذا الكتاب برمته الى العربية
في كتابنا هذا ، ولم نختصر منه الا في المظان التي ليس فيها طائل

قال فرديناند كالر في كتابه :

قال ليوبراند (Liupran) : انه بحسب ارادة الله التي لا يدرك سرها ، قد
جرى في سنة ٨٩١ انه جاء عشرون عربياً في مركب صغير من سواحل اسبانية ،
قذف بهم الريح بالرغم منهم نحو خليج القديس ترويز St Tropez في بروفانس
Provence . فنزلوا الى البر هناك ، على عادة لصوص البحر ، وكان نزولهم في جوف
الليل فقتلوا الى قرية « ترويز » وقتلوا بأهلها المسيحيين ، وملكوا الناحية .
ثم اتخذوا معقلاً الجبل المسمى موروس Maurus ليكونوا في حرز حريز من عادية

الأمم المجاورة . وكان ذلك الجبل مغطى بالأشجار الشائكة التي كانوا يحتمون بأشواكها وألفافها ، ولم يجملوا فيها سوى شعب واحد لأنفسهم يعمرون فيه . وهذا المكان يسمى فرا كسينيتوم Fraxinétum ^(١) يحده البحر من جهة ومن جهة أخرى غابة مؤتسبة مشتبكة الأغصان ، من نشب فيها نفذت فيه اشواك أحد من الحراب فلا يقدر أن يتقدم ولا أن يعود . فأمنوا في هذا المكان المنيع وصار لهم سربا وصاروا يجولون في الجهات المجاورة بدون وجل ، واثقين بمكنهم هذا . ثم أنفذوا رسولا الى اسبانية لأجل أن يندب الناس من قومهم ، ليلتحقوا بهم ، فمدح الرسول المكان وأطعم الناس فيه ، وقال ان أهالي تلك البلاد لا يخشى بأسهم وليسوا بجمرة قوية فلم يلبث الا قليلا حتى رجع ومعه مائة رجل من العرب ، جاءوا ليلتحقوا ما ذكره لهم الرسول عن هذا الموقع وطيب نبعته

وقد أسعف غارة العرب هذه ما كان بين أهل بلاد بروفانس ، من الشقاق البعيد ، وقيام بعضهم ضد بعض ، فكان بعضهم لأجل أن يستأصل البعض الآخر يستنجد هؤلاء العرب العفارية المكارين فكان من اختلاف أهالي تلك البلاد ومن توالى النجدات الى العرب من اسبانية ، أن أصبح هؤلاء آمنين في مرهبهم ، وشرعوا يجولون ويسلبون ويقتلون كيفما شاءوا ، وكيفما لاح لهم الصيد ، واجتاحوا تلك البلاد الخصبية اجتياحاً تاماً وأصابوا فيها مغنم كثيرة

هذه هي الرواية الحرفية لمؤرخ معاصر ^(٢) عن نزول المسلمين في سواحل بروفانس وعن طبيعة جبل « فرا كسيناتوم » وكيفية تحصينهم له ، بحيث بقي مدة سنين طوال مركزاً لقوتهم في هذا الجانب من أوربة وصبية يمتنعون بها ويبعثون منها سرازم كثيرة أو قليلة ، الى الجنوب ، والى الشرق من جبال الألب البحرية . وما عتموا

(١) وفي الحاشية مذكور أنه يقال له أيضاً : Garde - Frainet في خليج سان ترويز

(٢) ذكر المؤرخ في الحاشية اسم هذا المؤرخ وهو Antapold وأشار الى أن هذه الرواية جاءت في صفحة ٢٧٥ من كتابه الذي ترجمه البارون فون دراوستن زا كين Von der Osten Sacken

أن صارت لهم شوكة يتحدث الناس بها ، برعب الناس منهم ، وبعتمادهم هم على أنفسهم . وكانت لهم غزوات بعيدة المغار ، لأجل الغنائم ، فإذا لم يجدوا أمامهم من يقرع النبع بالنبع نهبوا تلك الاديار الغنية والمدن المحصنة والمعقل التي كان يسكنها أشراف البلاد ، وتركوها قاعاً صفصفا كأن لم تكن بالامس

والذي يظهر جلياً من روايات مؤرخي ذلك العصر أن هذه الغارة لم تكن ذات مغزى سياسى كغيرها من الغارات ، ولا كان لهاغرض راجع الى توسيع ممالك الدولة الاسلامية الاندلسية . ولم يكن مقصد هذه العصابة اخضاع أهالى هاتيك البلدان لسلطانها . وذلك لان عددها لم يكن كافياً لتحقيق دعوى كهذه . وقصارى ما كانت ترى اليه أن تحوز الذهب والكنوز التي تعثر عليها ، وتعود بها الى معقلها في جبل فراكسيناتوم ، وأنها اذا وجدت طالع الحرب قد خانها تشحنها في السفن الراسية في خليج فركسيناتوم وتطير بها بجناح الريح قافلة الى اسبانية . وكذلك يظهر أن خليفة اسبانية لم يكن ذا علاقة بهذه العصابة التي تطوحت في ذلك الفج السحيق ولا أتاها أدنى مدد من جهته (١)

وأما السؤال عن الوقت الذي اجتاز فيه المسلمون جبال الالب ، وتوغلوا في أرض ايطالية ، فانه لايجد جواباً مستندا على معلومات دقيقة ويجب أن يكون هذا الحادث قد وقع على كل حال في أوائل القرن العاشر . فقد دلنا محرر المذكرات اليومية لدير «نوفاليز» Novalesه الذى على مقربة من «سوزا» Susa بجذاء جبل «سنيس» Senis على أن غارة المسلمين كانت في نواحي سنة ٩٠٦ . فئذ تلك السنة كانوا في «بروفانس» و«بورغوند» Burgund و «شيمله» Cimella حول «نيسه» nizza

(١) على أن رينو ينقل ان اوتون امبراطور المانية كان أرسل وفداً الى الخليفة عبد الرحمن الناصر في قرطبة من جملة مطالبه كف عادية العرب الذين نزلوا في فراكسينت وتقدموا الى جبال الالب . وقد تقدم ذلك في ترجمة تاريخ رينو

يجولون ويقتلون ويحرقون . ومن المحقق أنهم في هذه السنة كانوا يتوقلون في جبل سنيس وكانوا قد فتحوا الباب نحو بلاد سافواى وسويسرة . وفي أسفل هذا الجبل كان دير نوفاليزه الذى كان من أعظم الأديار وأغناها . فلما سمع الرهبان بلصوصية هؤلاء القوم وبقسوتهم ، وكانوا يعرفون جيداً ما وراءهم حزموا ما فى الدير من الأشياء الثمينة ومن جملتها خزانة الكتب النفيسة وذهبوا بها الى تورين لتكون بأمن . فما كادوا يفارقون الدير حتى جاء المسلمون واكتسحوا كل شئ وأحرقوا الكنيسة والبناء كله . وكان راهبان طاعنان فى السن قد بقيا فى الدير لأجل حراسته فقبضوا عليهما وأهانوا (١)

وفى ذلك العهد أصبحت البلاد الواقعة بين نهري « بو » Po و « الرون » مجالا للغارات والعيث، فالبييمون وبروفانس وبلاد «دوفيني» Dauphiné و «مونتفرات» Montferrat وبلاد «تارنتزة» Tarentaise كانت كل سنة عرضة للدمار والنار . وقد حدث مدونو الوقائع اليومية فى ذلك العصر عن حوادث ترعد لها الفرائص، مما فعله هؤلاء العرب ورووا كيف كانوا يهجمون على التجار والزوار عابرى السبيل، ويسلبونهم مامعهم واذا حاولوا الدفاع عن أنفسهم يقتلونهم (٢) . وكان أكبر القوم لاسيا الرؤساء الروحيون الذين يؤمون رومة واقعين تحت الخطر الشديد من غارات العرب ، بسبب ما يحملون

(١) هذه الرواية جاءت فى كتاب رينو كما تقدم

(٢) لانريد أن نتقي عن هذه الفئة من مغيرة العرب حب النهب والسلب ولكننا نؤكد أن أكثر هذه الروايات هى من وضع أولئك المؤرخين المتعصبين الذين كان جملهم أو كلهم رهباناً وقسيسين . وناهيك بعداوة الدين وحسبك دليلاً على ذلك أن هذه الفئة من رجال الكنيسة هى التى بقيت مدة قرون فى أوربة تؤكد لشعوبها الجاهلة أن المسلمين وثنيون وأنهم يعبدون محمداً وأن لمحمد (صلى الله عليه وسلم) تماثيل من ذهب وفضة وما أشبه ذلك من الحرافات التى كانت تلك الشعوب تصدقها وتنقلها فى كتبها فكيف تقدر بعد هذا أن تتلقى بدون احتياط روايات المؤرخين الكسبيين عن وقائع عصائب العرب ؟

من الذخائر وما يستصحبون من الأعلاق النفيسة . وأما في القرى فلم يكونوا يقتصرون في النهب على الخيل والمواشي ، بل كانوا ينهبون كل ماله قيمة ، ويقبضون على الرجال والنساء والأطفال ويبيعونهم في سوق الرقيق . وكانوا إذا رأوا مقاومة من بعض البلاد وطاح منهم أناس في المعركة ، انتقموا لأنفسهم باحراق هاتيك المدن حتى يصيروها رماداً . وكانت تنقطع العلاقات والمواصلات أحيانا بين البلاد بسبب غارات العرب وكان أهالي الأماكن التي يهاجمها المسلمون يفرون ويلجأون الى الجبال والغابات ، وربما قاوموا العرب وربما كانت لهم الغلبة عليهم ، الا أنهم لم يكونوا يقومون عليهم بصورة نغير عام ولا كان ينتدب لهم يومئذ أدلاء مستبسلون . وأشنع شيء كان هو عدم الوثام بين أهالي البلاد ، بسبب عداوة الأمراء بعضهم لبعض ، واستنجادهم في حروبهم الداخلية بهؤلاء الأعداء . وكان من الطبيعي أن يوجه العرب كل همتهم الى الاستيلاء على الطرق العامة ، وبنوع خاص على معابر جبال الألب ، لأنهم كانوا يرون في ذلك أحسن طريقة للكسب والسلب ، فكانت المتاجر والبضائع تقع هناك تحت أيديهم على طرف الثام وكان المسافرون الأغنياء يأخذون معهم في أسفارهم كل ما يلزم لهم ، فكان في ذلك مطمع عظيم للمسلمين . وكانوا في تلك الطرق الجبلية يتمكنون من استقبال السابليين بالسهام والحجارة ، ومن القائهم في الأودية والمهاوى بحيث أنهم بعدد غير كبير كانوا يقدرون على مالا تقدر عليه الجيوش الكبيرة

وروى «فلودوارد» Flodoard في تعليقاته السنوية أن المسلمين سنة ٩٢١ أتوا على قافلة من حجاج الانكليز كانت ذاهبة الى رومة ، فلقوها في بعض أودية الألب ، واستأصلوها . وبعد ذلك بستين لقوا قافلة انكليزية أخرى وقتكوا بها . ثم أنهم في سنة ٩٢٩ لقوا قافلة حجاج أخرى أيضاً ، فاضطر هؤلاء الى الرجوع قبل أن يقعوا في أيديهم . ولما كان غير ممكن تعيين أماكن هذه الوقائع فلا تقدر أن نحكم في أي محل حصلت ، أفي ضمن حدود ايطالية الى جهة سويسرة ، أم في حدود فرنسة ؟

وإذا فكرنا أنه كان من عادة المسافرين الانكليز الذين يقصدون رومة أن يجتازوا من معبر سان برنار^(١) لزم أن نرجح كون الوقائع المذكورة جرت في ضمن حدود ايطالية . ولقد اطلعنا على تاريخ يثبت أن كنوت «Knut» ملك انكلترا والدايمرك الذى كان يلقب بالكبير كان قد طلب من رودولف «Rudolf» الثالث ملك برغوند Burgond أن يأمر بالتسهيلات اللازمة سواء من جهة تأمين الطرق أو من جهة الاعفاء من الرسوم للقسوس والتجار والحجاج الذين من ممالكة يؤمون رومة^(٢)

في أى حقبة من القرن العاشر تمكن العرب من معبر سان برنار الذى كان يسمى حينئذ بجبل جوفيس «Mont Jovis» وفي أية سنة بسطوا سيادتهم على تلك البقعة؟ هذا شيء لا نقدر أن نحده . نعم توجد كتابات ، من ذلك الوقت ، متعلقة بهذه الحوادث ، إلا أنها لا تحتوى على تواريخ يمكن الاعتماد عليها . والذى يظهر من كلام رينو^(٣) أنه يعميل للقول بأن هذه الحوادث جرت في سنة ٩٣٩ لكننا سنرى فيما يأتى أنها جرت قبل هذا التاريخ^(٤) . ومن المحقق أن العرب زلوا سنة ٩٤٠ من جبال سان برنار العالية الى وادى الرون الخصب ، حيث كان مبنياً دير اغاؤونوم «Agaunum» العظيم ، المؤسس على اسم سان «موريتيوس Mauritius» وأصحابه ، والذى كان فيه ذخائر كثيرة من الذهب والفضة وأصناف الجواهر ، المهداة اليه من الملوك

(١) St - Bernard وهو من أشهر معابر جبال الالب

(٢) ذكر المؤرخ في الحاشية نص الكتابة اللاتينية التى يستفاد منها أن الملك كنوت الكبير طلب اجراء هذه التسهيلات بحق قصاد رومة من رعاياه . ونقل هذا النص من الصفحة ١٦٤ من تاريخ أصل الغويلفيين وهم شعب ألماني كان جاراً للسكسونيين

(٣) هو المستشرق الافرنسي رينو Reinaud الذى ترجمنا كتابه

(٤) يذكر المؤرخ كيلر كتاب رينو الذى لخصناه وهو « غارة العرب على فرنسة ومن فرنسة على سافواى والبيامون وسويسرة» المطبوع بباريز سنة ١٨٣٦ وكتاباً آخر عظيم القيمة على مملكة البورغوند تأليف فون غينغيس Von Gingins

الكارلوفنجيين والبورغونيين ، وكانت محفوظة ضمن حيطانه . ففي السنة المذكورة هجم العرب على هذا الدير ونهبوه وأحرقوه وتركوه رماداً . ولم يمض الا قليل حتى جاء القديس « أولريك » Ulrich أسقف « أوغسبورغ » Augsburg في أثناء سفرته الى برغوند ، وزار هذا المكان لأجل نقل عظام الشهداء التي أذن له كونراد ملك نورغوند في دفنها في أوغسبورغ . ولم يكن باقيا هناك سوى خادم واحد يحرس البناء الذي صار طعمة للنار (١)

وما جاء في تاريخ « فلودوارد » أنه في سنة ٩٤٠ جاءت قافلة مؤلفة من حجاج انكليز وغالين ، كانوا قاصدين رومة ، فبعد أن فقدت بعض رجالها رجعت من حيث أتت لأن العرب كانوا قد استولوا على القرية والدير المذكور وقد ذكر مؤرخو الفرنسيين كتابا محفوظا موجه من راهب من دير سان « موريس » St - Maurice اسمه رودولف الى ملك فرنسة لويس الرابع المسمى « أوترمير » Outremer يقول له فيه : كم ألقى الله من سلام على ملوك فرنسة من « كلوفيس » و « داغوبرت » الى كارل الكبير (٢) لكونهم اعتنوا بهذا المكان وقدسوه . وهو يلتمس منه أن ينفق على هذا المكان لأجل تجديد بناء الدير وترميم قبور القديسين الذين دفنوا فيه

وفي ذلك الوقت كانت العصابة من دعار العرب الذين جعلوا مساكنهم في جبال

(١) نقل المؤرخ كيلر هذا عن كتاب غرهاردى Gerhardi المسمى « حياة القديس اولريك »

وهذا هو اسم « اولريك » او « اولريخ » باللاتيني Vita S. Oudalrici . كذلك استشهد

كيلر بتاريخ مؤرخ آخر اسمه « فلودوارد »

(٢) الفرنسيين يقولون له كلوفيس والالمان كلودفيغ وأما كارل الكبير فهو الذي يقول له

الفرنسيين شارلمان Charlemagne

الألب المعروفة بالألب البونينية Pöninische قد بدأت تشالغارات على بحيرة جنيف وبلاد «فاد»^(١) كما ذكر المؤرخون المعاصرون. ويظهر أنها كانت استولت على معاير جبال الألب الشرقية . فاذا كان ينقصنا تواريخ مضبوطة عن دخول العرب الى جبال الألب الغربية ، وجوسهم الاودية التي تتخللها ، فان عندنا قاعدة متينة لتاريخ وجودهم في شرقي سويسرة ، بما هو محفوظ من الوثائق التاريخية في سجلات «كور» Chur الاسقفية. فان فلودوارد يذكر من جملة وقائع سنة ٩٣٦ : « أن العرب شنوا الغارة على سويسرة الالمانية وقتلوا كثيراً من الحجاج الذين كانوا قافلين من رومة »

وما لا ينقدح فيه أدنى عارض من شك أن جانباً من سويسرة الألمانية وهو القسم الذي من «كور» الى وادي «الرين» كان المسلمون قد اكتسحوه. وليس هذا القسم سوى جبال الألب الالمانية Ratische العليا فان ثبت هذا الرأي فقد ترتب عليه اما أن تكون غارة العرب على مقاطعة «فالس» Wallis قبل سنة ٩٣٩ أو أن يكون احتلالهم لجبال الألب الالمانية سبق احتلالهم لجبال الألب البونينية . وليس من المحقق ماذهب اليه فلودوارد من أن احتلال العرب لمعاير الألب سنة ٩٣٦ أو سنة ٩٣٣ يعني به احتلالهم جبال الألب الالمانية ، وانما المحقق كون «كور» ونواحيها قد اجتاحتها العرب قبل سنة ٩٤٠ وانه ليكون ذابال أن تتمكن من معرفة الطريق التي سلكها العرب عندما تبطنوا أحشاء هذه البلاد . هل جاءوا من اليامون منقسمين شطرين ، شطر منهم اتبع جبال الألب الشرقية ، والشطر الآخر اتبع جبال الألب الغربية من سويسرة ؟ الجواب: ليس بمستحيل أن يكونوا قصدوا ناحية «راتين» وبلغوها برغم قلة عددهم ، معتمدين على بسالتهم والرعب الذي وقع في قلوب الناس منهم ،

(١) الألمان يقولون Waadt والفرنسيس يقولون Vaud وهي البلاد التي قاعدتها لوزان

ففتحوا طريقاً لأنفسهم على ضفاف بحيرات لانغن « Langen » وكومر « Comer » وعرفوا مسالك الألب^(١). ان تاريخ ايطالية العليا لا يذكر هذه الحوادث ولكن قد افترضنا أن العرب تقدموا من مارتناخ « Martinach » خارجاً عن مجرى نهر الرون وتبعوا ناحية فوركا « Furka » والألب العليا اللتين يفصل بينهما وادي أورزيرن « Urseren » وساروا على الطرق القديمة المؤدية الى منابع الرين وأبواب معبر الألب الراجية . وهذا الافتراض لا يستند على رواية مكتوبة وليس فيما وجد في دير ديستيس « Dissentis » الواقع أمام وادي الرين ما يؤيد مرور أتباع محمد من هناك . إلا أن المؤرخين لا يزالون يعتقدون أن العرب كما عاثوا بنواحي « كور » ونهبوا دبرها قد اجتاحتها أيضاً دير « ديستيس »

وأما السند الذي ثبت به حضور العرب في وادي الرين فهو أن هرمان أمير سويسرة الألمانية قد التمس من أوتو الكبير في المجلس الذي عقده الامبراطور في كويد لنبورغ Quedlinburg في شهر ابريل سنة ٩٤٠ أن يهب فالتو « WaItto » أسقف كور تعويضاً عما لحقه من اجتياح العرب لديره ، وأن الامبراطور قد أجاب رجاءه فعهد إلى الاسقف المذكور بإدارة كنيستين احدها كنيسة « بلودنس » Pludenz في وادي « دروس » Drusthale والثانية كنيسة سان مارتين في وادي شامزر Schamserthale على شرط أن ريع الأولى يعود الى أساقفة كور وأن ريع الثانية يعود الى دير الراهبات في « كازيس »

وظاهر أن العيث الذي عاثه العرب قد كان طويل الأمد ، وأنه وقع منذ سنة ٩٣٩

(١) نقل كيلر في الحاشية عبارة عن الأب « سيراسه » من رهبان دير « جورا » ura وهي هذه: مما يستجلب النظر أنه في المقاطعات المجاورة لمدينة بازل وفي نواحينا نجد بقايا الأسماء العربية مجاورة للطرق الرومانية وما ذاك الا لأن العرب تعقبوا هذه الطرق التي لم يكن غيرها في البلاد منذ سقوط السلطنة الرومانية اه

وأن احتلالهم للالب الراتية كان في زمن احتلالهم للالب البونينية ، وأن هذا الحادث تقدم احراق العرب لدير سان موريس الذى يذهب رينو الى أنه وقع عند عبور العرب من سان برنار

ولكن في قولنا أنهم عاثوا واكتسحوا تلك البلاد ، لا نعنى أنهم أقاموا بها مستقرين في مكان ، بل كانوا يكمنون في الجبال وينقضون من مكائهم لدى الفرصة فلم تكن لهم قدم ثابتة في محل . وكانت حياتهم حياة عصابة تنتجع في كل يوم جبلا متى لاحت أمامها بارقة أمل في الكسب أقدمت ، والا أحجمت . فكان مطمح نظرهم كله قطع الطرق على التجار وعلى الحجاج الذين كانوا يقصدون رومة ومعهم الأموال والذخائر . ومما لا شك فيه أنهم كانوا قد احتلوا بعض قرى صغيرة ، واتخذوها لهم مركزاً ، وكانت لهم أنزال يلجأون اليها وأبراج يضعون فيها مغانمهم . وأكثر ما كانوا يهجمون على القوافل في الأودية العميقة وفي المضائق التي لا يمكن فيها الدفاع . وكانوا متى أعوزهم القوت صالوا على الاماكن غير الحصينة وعلى الأديار الملوئة بالأعلاق الكنسية

وبقيت حالتهم على ما وصفناه مدة مديدة ، الا أنه بعد دخولهم الى البلاد باثنتي عشرة سنة طرأ حادث فجأى وافق مصلحتهم ، ومكينهم من معابر جبال الالب ، فازدادت بهم جرأتهم وتضاعف طمعهم

وهو أن « هوغو » Hugo كونت « بروفانس » كان في سنة ٩٢٦ قد أحرز تاج مملكة « لومبارديا » Lombardie ودخل في حرب عوان مع صهره « البريكوس » Albericus بطريق رومة . فاهتبل العرب من هذه الحرب الفرة ، واستفادوا من غياب الامير المذكور عن بلاده ، فتمكنوا من سلسلة جبال الألب ، سواء من الشمال أو من الغرب ، ونهبوا البلدان التي بمخائها . ولما وصل صريخ رعايا الكونت هوغو مما لقوه من عيث العرب ، صحت عزيمته على مصالحة صهره والرجوع الى ايطالية

العليا ، ثم على مهاجمة المسلمين في معقلهم الأول « فرا كسينيتوم » . ولاجل أن يستوثق من الانتصار سعى في استمداد سلطنة القسطنطينية ، لتجده بمقدار من النار الاغريقية يحرق بها سفن العرب الراسية في ميناء فرا كسينيتوم ، ويقطع عن هؤلاء كل مدد من البحر . وكان في نيته مهاجمة العدو من جهة البر بينما يكون أسطول القسطنطينية ممسكا عليهم البحر . فبعد أن اتفق هوغو مع امبراطور القسطنطينية وقبل شروطه جاءت السفن البيزنطية الى مرسى « سان ترويز » بينما كان الجيش البرى يزحف من جهة « بافيا » Pavia فلم يكد الأسطول البيزنطى يصل الى المرسى حتى أحرق سفن العرب كلها . وتقدم الملك هوغو من جانب البر فضيق عليهم الخناق حتى انهزموا معتصمين بجبل « موروس » وكاد يستأصلهم ويأخذهم جميعاً أسرى ، لولا أن حدث حادث غير منتظر وذلك أن « برنغار » Berengar كونت « ايفريا » Ivrea حفيد الامبراطور « برنغار » المتوفى سنة ٩٢٦ ووارثه كان قد أخذ يسمى سراً للحصول على تاج مملكة لومبارديا . فبلغ هوغو خبر هذه المؤامرة فعزم أن يقبض على المتآمرين وأن يقتلهم أو يسمل أعينهم . ولكن برنغار كان على حذر شديد فانسلك من لومبارديا بفتة والتجأ الى هرمان أمير الشغاب Schuvaben وسار اليه عن طريق سان برنار . فتلقاه الأمير هرمان براً وترحيباً ، وقدمه للامبراطور أوتو وهذا أكرمه وخلص عليه . فما كان أسرع هوغو عندما عرف بالقضية الى ارسال الهدايا من الذهب والفضة الى أوتو

وكان هوغو قد خلص ممالكه من العرب ، وخضد شوكتهم ، وتحول فكره الى جهة الامبراطور وأوجس خيفة أن يحشد هذا عليه وينزع منه تاج لومبارديا . فعدل هوغو مع العرب عن العداوة الى المسالمة ، وبعث اليهم في جبل مورو يعرض عليهم السلم على شرط أن يجوسوا خلال ديار برنغار ويمنعوه بجميع الوسائل من أن يجتاز جبال الالب بجيشه ^(١) فاشترط العرب حينئذ على هوغو أن

(١) نقل كيلر عن المؤرخ ليود براند نص روايته باللاتينية ومعناها ان هوغو عقد مع المسلمين معاهدة يبيحهم فيها جميع معاير جبال الالب حتى يمنعوا برنغار من المرور بجيوشه الى ايطالية

يعترف لهم بحق احتلالهم معاير الالب الراتية والبونينية ، كما أن هوغو اشترط على العرب أن يخلوا المدن والقرى التابعة له . ولكن لم يكن هذا الشرط الاخير مصرحا به في المعاهدة . فالسلمون قاموا بأحكام المعاهدة حق القيام واحتلوا جميع معاير الالب المذكورة ، يستدل على ذلك من كون برنغار عاد الى ايطالية مع جند قليل من أصحابه عن طريق جبال التيرول Tyrol

فأما العرب فقد تلقوا هذا العقد ، مع الملك هوغو ، بفرح عظيم ، وأصبحوا يرون أنفسهم السادة الشرعيين لهذه المعاير ، وصاروا يأخذون رسوماً من السابليين . ومن لم يؤد الرسم أخذوه أسيرا ثم اضطر أن يفك رقبتة بمبلغ عظيم من الذهب^(١) . وتقدم العرب من سان برنار وجاسوا في بلاد « فاتلاندي^(٢) » الى « أفانسس » Avanchez ونيوشاتل Niochatel في جبال « جورا » Jura . وكانوا حيث مروا يعيثون وينهبون . ولقد كانت غاراتهم في شمالي الألب الراتية من « كور^(٣) » الى بحيرة « كونستانس^(٤) » في وادي الين هائلة جدا ، فقد وجد في خزانة كتب دير « كور » كتابة تفيد أن الامبراطور أوتو الكبير عندما مر في ٢٤ فبراير سنة ٩٥٣ بقصر « ارنشتاين » Ehrenstein ترجاه الأسقف « هارتبرت » مطران « كور » في تعويضهم من الرزايا التي ألحقها بهم العرب ، فأقطعهم أوقافا في « الالزاس » وأخرى في « كونيغسكهايم » Konigsheim وكنيسة « موخنهايم » Mauchenheim وما يتبعها

- (١) نقل كبلر هنا نص رواية فلودوارد باللاتينية وهي التي يقول فيها ان العرب كانوا يأخذون الرسوم من القوافل القاصدة الى رومة فاذا أدت الرسم خلوا سبيلها
- (٢) هي مقاطعة « فو » Vaud الحاضرة التي قاعدتها لوزان
- (٣) تقدم ذكرها وهي التي فيها الدير الشهير Chur
- (٤) الالمان يقولون لبحيرة كونستانس بحيرة « بون » Boden See

وقد وجدت كتابة ثالثة في «دورنبورغ» Dornburg تاريخها ٢٨ ديسمبر سنة ٩٥٥
مآ لها أن الامبراطور «أوتو» كان منصرفاً من ايطالية فشهد بعينه آثار عيث العرب
وبناء على التماس أخيه رئيس أساقفة «برونو» أنعم على دير كور بتلك التعويضات .
وقيل ان جزالة هذا العطاء الذي أعطاه الامبراطور كان من قبيل نذر نذره لأجل
عودته موقفاً من ايطالية على طريق الألب ، فانه أنعم على الأسقف بالدار التي كانت تخصه
في «زيرس» وأمر باعفاء سفن الأساقفة في بحيرة «فالترى» من المكوس . وقد
أتبع ذلك أعطيات أخرى ، مثل اعطائه اياهم كنيسة «نتسينغن» في وادي «دروس»
مع العقارات التابعة لها ، وانعامه بجمالية الأملاك التي كانت تخصه في كور ، وبمكوسها
التي كان يؤديها سابلة الجبال من الالمان . وأخيراً أعطاهم في سنة ٩٥٨ كنائس عدة
مثل «سان لورنز» و «سان هيلاريوس» و «سان مرتينوس» وكنيسة
«كاربوفوروس» ومنحهم حق ضرب السكة . وكذلك أعطى دير «ديستيس»
في سنة ٩٦٥ الدار التي كانت له في «فايكون» على بحيرة زوريخ ، وأقطع فيكتور
رئيس رهبان كور سنة ٩٦٧ قطائع في «فينشغاو» و «انغادين Engadin»

وفي ذلك الوقت أوصل العرب غاراتهم الى «زارغانس Sargans» و «توغنبورغ
Togenburg» و ابنسيل «Appenzell» وصلوا على أهالي تلك الجبال ، فقتلوا
الرجال ونهبوا المواشي وأحرقوا المساكن . وقد روى الراهب «ايكهارد»^(١)
الذي حرر تاريخ دير «سانت غالن» ما يلي .

«كان العرب يبعدون جدا مغارم في جبال الألب لا سيما في زمان «فالتو»
ويفتكون بأهلها بجماعة غريبة ، حتى أنهم في ذات يوم رشقوا بالنبال من أعالي جبل
واقع شرقي الدير جماعة كانوا قائمين بطواف ديني يتقدمهم الصليب مرفوعاً . ولكن

« فالتو ^(١) » كان شديد البأس فأمر قومه بأن يتعقبوا العرب الى مكائهم ، وسلحهم بالحراب والمناجل والقبوس . وفي الليلة الثانية كبسهم بيانا ، فقتل منهم وأسر بعضهم ^(٢) وفر الباقون . ولم يقدرُوا أن يدركوهم لأنهم كانوا أقدر على التوغل ، وأبصر بالتوقل في الجبال . أما الذين وقعوا أسرى فسيقوا الى الدير في الأغلال ، وقد رفضوا رفضاً باتاً أن يأكلوا ويشربوا ، وما زالوا حتى هلكوا جوعاً . وقال « اكهارد » ان الرزيثة التي رزىء بها الدير من عيث العرب كانت من الجسامة بحيث يستلزم وصفها كتاباً ^(٣)

ولا يقدر أحد أن يعلم بالتام كم كانت مدة اقامة العرب بشرقي سويسرة ، فان الأوراق والوثائق التي وجدت في دير « كور » ودير « سان غالن » ودير فافرس « Pfafers » لم يوجد فيها ما يحدد هذه المدة ، ولا يظهر أن رحيلهم من هناك تأخر عن العقد السادس من القرن العاشر

وفي سنة ٩٥٤ نفسها ، وهي التي وصل فيها العرب الى سان غالن ، وقع الحادث المهم الذي هو هزيمة العرب والمجار معاً . فقد تمكن كونراد ملك بورغوندا أو البرجان ، ببسالته الشخصية وبمخدعة حريرية دبرها ، من استئصال طائفة مهمة من هؤلاء العرب ^(٤) وتطهير أودية بلاده منهم . إلا أنه برغم هذه الهزيمة كان العرب لا يزالون مستولين على معاير الألب الغربية

وليس بمحقق وجود عرب الألب الغربية في هذه الواقعة ، فان « اكهارد » الرابع ، راهب دير سان غالن الذي روى خبر هزيمة العرب في هذه الواقعة يقول :

(١) Walto كان رئيساً للدير في سنة ٩٥٤

(٢) سبقت هذه الرواية في كتاب رينو

(٣) وقد أيد كيلر هذه الرواية في الحاشية برواية أخرى لمؤرخ اسمه فون اركس Von Arx كتب تاريخ مقاطعة « سان غالن » وقد نقلها من ٢٢٦ من الجزء الأول من كتابه

(٤) تقدمت هذه الرواية ايضا في كتاب رينو

ان العرب كانوا متمكنين جيداً في قلب الجنوب من أوربة حتى انهم لم يكونوا يحدثون أنفسهم بإمكان خروجهم منها . وكانوا يتزوجون ، بحسب قوله ، من بنات أهل البلاد ، ويسكنون أودية خصيبة ، ويؤدون للملك ضرائب . وعلى كل حال فإما لاشك فيه أن قسماً من العرب الذين كانوا يصلون هذه الحروب قد أقاموا في الآخر وأوطنوا ، ونووا أن يؤسسوا لأنفسهم مستعمرة ويتعاطوا الفلاحة والزراعة . ولكنه غير ممكن تعيين المكان الذي نووا أن يستعمروه ، هل هو في « فاله » أو في « سافواي » أم في غيرها ، فان المؤرخين لم يعينوه . وفي سنة ٩٥٤ التي اشتهرت بغارة العرب من جهة ، وغارة المجر من جهة أخرى على سويسرة وقعت حادثة فرار الملكة برتا « Bertha » مع عمها المطران « أولريك » أسقف « أوغسبورغ » والتجأهما إلى البرج الذي كانت بنته هي في « نوشاتل » والمظنون أن هذا الحادث كان مبدأ لعمران مقاطعة « فو »^(١)

ولم ترد قصة العرب هذه في التواريخ العالمية فقط بل جاءت في سيرة بعض القديسين . وبالإجمال قد كانت اشتدت وطأتهم ، وعم الرعب منهم ، إلى أن أصبح الجميع في حنق شديد عليهم . ومما زاد حنق الناس عليهم أنهم كانوا تعرضوا لرجل من أكبر رجال عصره ، وهو القديس مايولوس « Majolus » راهب دير كلوني « Cluny » قبضوا عليه وهو عائد من « بافيا » إلى بورغوند ، وذلك سنة ٩٧٢ وقد روى هذه القصة خلفه في رئاسة دير كلوني كما يأتي :

عمر القديس مايولوس ورفاقه في ٢٢ يوليو سنة ٩٧٣ قنن جبال الألب ، ووصلوا إلى قرية واقعة إلى الشمال من معبرسان برنار على ضفة نهر درانس « Drance » كان يقال لها لذلك العهد « بونس أورزاربي Pons Ursarii » وتسمى اليوم « أورزير »^(٢)

(١) لوزان وتواجها

(٢) ان المستشرق رينو يذهب إلى أن القديس مايولوس سار من اليايرون على طريق جبل جنيف ووادي الدوفيني وأنه قد جرت معه هذه الحادثة في أعلى وادي « دراك » بقرب قرية « بون دوزير » وان العرب الذين سطوا عليه كانوا من المتوطنين بين « غاب » و « امبرون » وأما المؤرخ كيلر فانه يخطئ ، رينو في هذا الرأي ويقول انه وهم في ظنه وقوع حادثة القديس مايولوس في

وقد كان انضم اليه عدد من الحجاج من أقطار مختلفة أملا بأن يكونوا بمعيتهم في مأمن . فلما وصلت هذه القافلة الى هذه القرية ومرت هناك من معبر ضيق ، انقضت عليها عصابة من العرب فأوقعت بها ، ولم يكن من سبيل في ذلك المكان للدفاع ، فأركنت الى الفرار لا تلوى على شيء ، فتأثرها العرب وقبضوا على من أدركوه منها وأوثقوه بالقيود . وكان أحد العرب يحاول طعن أحد خدمة القديس بمزراقه اذ تقدم القديس وابق الطعنة بكفه ، فنفذت الطعنة منها ، وكانت جراحة شديدة بقي أثرها في يده طول حياته . وأما الخادم ففر ناجيا . ثم جردت هذه العصابة العربية الحجاج من كل ما معهم ، وساقتهم الى كهف من الصخر حبستهم فيه ، ولم تستثن من الحبس القديس مايولوس . فلحظ العرب رجلا جالسا على حجر لا يلوح على وجهه علامة الاهتمام بالخلاص ، وبينما كانوا يهينونه كان هو مهتما بدعوتهم الى الديانة المسيحية ، فازداد بذلك غضبهم منه ، فقيدوا رجليه بالحديد ، وأدخلوه الكهف مع الآخرين . وفي الليلة التالية رأى مايولوس رؤيا أنه سيخلص من أيدي العرب ، بواسطة الرسل الحواريين ، فقد رأى أسقف رومة بالأثواب الحجرية وفي يده المبخرة . ثم رأى رؤيا ثانية أيدت أمله في أنه سيحتفل هو ورفاقه بعيد صعود السيدة مريم . ولما أصبح الصباح وجاء وقت الطعام عرض العرب عليه أن يطعم من طعامهم ، وكانوا يأكلون لحمًا وخبزًا يابسًا ، فأجابهم مايولوس أنه ليس يأكل من هذا الطعام الذي لم يألفه حينئذ عجنوا له بسرعة وخبزوا خنزا نظيفا طريا ، وقدموه له فتناوله منهم وأكل الخبز بعد أن بارك عليه بحسب عادته وعادت اليه قوته . وكان أحد المسلمين قد أراد قطع عصا من شجرة واحتاج الى أن يتسلق عليها ، فوضع رجله على التوراة التي كان القديس يحملها دائما معه في أسفاره ، فأخذ القديس يتنفس الصعداء . ولحظ ذلك المسلمون فوبخوا أخاهم على عمله هذا ، وقالوا له لا يليق أن تفعل هذا بكتاب يتضمن كلام الأنبياء . وذلك أن المسلمين يعظمون الأنبياء ويقولون ان ما قاله الأنبياء عن عيسى قد

الوقت الذي ذكره ، فهي متأخرة عن الوقت الذي ظنه رينو لأنها وقعت سنة ٩٧٣ ورينو يحسب انها وقعت في العقد الخامس من القرن العاشر

تم بشخص محمد (صلى الله عليه وسلم)

ثم ان العصابة العربية دخلت مع القديس في قضية فدائه وفداء بقية الأسرى ، لا سيما بعد أن رأوا منه ما استوجب حرمتهم له . وقد سألوه أهو من ذوى اليسار ، أم معدم ؟ فأجابهم بأنه لا يملك شيئاً ولكن للدير أصحاب يقدرون أن يفكوا الأسرى بأموالهم . فأرسل مايولوس ، بالاتفاق مع العرب ، راهباً كان معه ، وأحبه بكتاب الى دير « كلونى » يقول فيه : « إلى السادة والاخوان في دير كلونى ، من مايولوس المسكين المقيد بالحديد ، اننى محاط بالهلاك من كل ناحية فأسرعوا بانقاذى واتقاذ رفاقى وبارسال المال اللازم للفداء » فلما قرىء هذا الكتاب فى مجتمع الرهبان ، وكانوا يحبونه جميعاً ويحترمونه احتراماً زائداً ، بلغ منهم الحزن مبلغه وسارعوا الى جمع المال لساعتهم ، ولم يرضوا بشيء ولا ادخروا منفساً حتى أنهم بذلوا الأشياء الضرورية فضلاً عن الكمالية وعن الذخائر والاعلاق التى كانت عندهم . وفى اليوم المعين كان أحد الرهبان البجلين فى قرية « أورزير » ومعه جميع المال المطلوب . فتخلص مايولوس هو ومن معه ، وتمتعوا بفرح الاحتفال بعيد صعود مريم الى السماء كما كان رأى القديس فى المنام

ومما يهيم الاطلاع عليه هو أن العرب تقاضوا فى فداء القديس مايوليوس الف دينار فضة ، ولم يتقاضوا على الآخرين الا ديناراً واحداً عن كل رقبة ثم انه من هذه الحالة تتجلى القوة التى تمكن بها العرب فى ذلك الوقت من الاستيلاء على جميع معار الألب . ومن الغريب أنهم لم يكونوا يتقاضون مكوساً على البضائع التى تحمل على هذه الطرق كما كانوا يتقاضونها فى الأزمنة الأولى . ولم يطلبوا فى البداية شيئاً منها من مايولوس نفسه ، وذلك حتى يطمعوه فى التقدم فيقطع أعلى الجبال ويصير فى الجهة الأخرى ، حينئذ ينقضون عليه ويسلبونه على حين يتعذر عليه الفرار . وهكذا حصل

وكان الملك هوغو قد اشترط عليهم أن لا يتعرضوا للحجاج ولا يأخذوا منهم شيئاً ، فرعوا ذلك العهد إلا أنه لما مات هوغو رأوا أنهم أصبحوا غير مقيدين بعهد

وقد قال « رينو » ان حادثة مايولوس كان لها صدى عظيم في كل الأقطار ، وارتفع الصراخ من كل الجهات لأخذ الثأر ، وفي ذلك الوقت كان في جوار سيسترون « Sisteron » رجل نبيل يقال له « بونو » أو « بوفو » (Bobo أو Beuoo) مشهور بالحمية والنجدة ، عظيم الهم في تحرير وطنه ، فاستنهض الناس المعروفين بالحمية على دينهم ووطنهم ، وقرروا بناء قلعة مناوحة لحصن العرب ، ليتمكنوا من استئصالهم . فبوبو هذا الذي أصبح فيما بعد معدودا من القديسين هو الذي بدأ بتخليص نواحي سيسترون من العرب وأخرجهم من جميع بلاد « دوفينه » Dauphiné ثم أنهم أخرجوا من « بروفانس » Provence لأن غيليوم أحد أكناد^(١) بروفانس هاجمهم رجال أشداء من صناديد تلك البلاد ومن رجال دوفينه السفلى وامارة نيقه^(٢) وذلك في قلعتهم فرا كسينيتوم المشهورة ، فبعد دفاع شديد استولى الافرنج على القلعة وفر بعض حماة العرب الى الغاب الذي بقربها وطلب آخرون النجاة في الجبال وانتهى الأمر بأن فريقا منهم هلك وفريقا تنصر ، فاستحيام الافرنج واختلطوا بالأهلين

ولما كانت فرا كسينيتوم مستودعا لجميع كنوز العرب وذخائرهم ، سواء الذين منهم كانوا في فرنسة أو عليا ايطالية أو سويسرة ، فقد أصابها الغالبون وتقاسموها فيما بينهم .

(١) جمع كند وهو ترجمة Conte في اصطلاح العرب . وكان كتاب العرب يجمعون كند على أكناد

(٢) nice بالافرنسية و nizza بالالمانية والاطالة

آثار كتابته

في كنيسة القديس بطرس مونتجو^(١)

من أهم الآثار التي تركها العرب في بلادنا الكتابة التي في كنيسة القديس بطرس مونتجو^(٢) في « فاله » Valais فقد كان هذا الوادي مجالا لغاراتهم ومركزاً لهم في أثناء مقامهم بجبال الألب . وهذه الكتابة هي دليل واضح على أن تذكاراتهم المخيف لم يكن احى من قلوب الأهالي حتى من بعد مائتي سنة من جلائهم فإنها قد كتبت في العقد الثالث أو الرابع من القرن الحادي عشر ، أى زمان بناء الكنيسة التي شيدها هوغو أسقف جنيف . وهو الذى كان ولداً طبيعياً للملك البورغونى رودولف الثالث ، وتولى كرسى الاسقفية نحواً من تسع عشرة سنة^(٣) ودفن في كنيسة لوزان الكاتدرائية بجانب أبيه . ومما يؤسف له أن هذه الكتابة كانت قد ذهبت في أثناء ترميم هذه الكنيسة سنة ١٧٣٩ وجعل الحجر الذى كانت منقوشة عليه من جملة عتبات الباب . ولقد طمست الآن هذه الكتابة حتى لم يبق منها سوى حرف هاء h وحرف ف f وصليب صغير . ولقد ورد نص هذه الكتابة على روايات مختلفة في بعض الكلمات لكنها متفقة في المعنى^(٤) وهى لاتينية معناها :

(١) Saint - Pierre montjoux

(٢) قد خلط رينو بين كنيسة القديس بطرس مونتجو وكنيسة القديس بطرس التي بين مارتيني

وسيون

(٣) من سنة ١٠١٩ الى سنة ١٠٣٨

(٤) اورد كيلر الروايات وعزا كل رواية الى صاحبها مما لم نجد حاجة لذكره

« ان عصابة اسماعيلية ^(١) انتشرت في وادي الرون وألقت الرعب في البلاد بالنار والحديد ورفعت الهلال في أودية الألب البينينية ^(٢) »
وفي أسفل الكتابة تاريخ بناء الكنيسة حسبما تقدم

(١) الافرنج في القرون الوسطى كانوا يسمون العرب ببناء اسماعيل وقد تقدم لنا ان الحجار كانوا يسمون المسلمين الذين كانوا في بلادهم بالاسماعيلية
(٢) الالب سلسلة جبال تبدأ عند خليج جنوة وتنتهي جنوبي الدانوب . وهي تنقسم الى ثلاثة أقسام : الالب الغربية وهي الليغورية الممتدة من سواحل البحر المتوسط الى مضيق « تاند » والبحرية الممتدة من تاند الى جبل « فيزو » والساحلية الممتدة من جبل فيزو الى جبل « سنيس » والغرائية الممتدة من جبل سنيس الى الجبل الأبيض
والالب الوسطى ، وهي الجبال المهلقتية ، أي السويسرية والبنينية ، الممتدة من الجبل الأبيض الى جبل السملون ، واللييونتية الممتدة من السملون الى بحيرة كوم ، والراتية الممتدة من بحيرة كوم الى بلاد النمسة والالب الشرقية ، وهي الجبال الالغافية والبافارية والسيرية في النمسة والسكادورية والكارنية واليولية بين النمسة وإيطالية ، والدنارية في الدالماسية
واعلى قنة في الالب قنة الجبل الأبيض علوها ٤٨١٠ أمتار ، وهي أعلى قنة في اوربة ، وبعدها تأتي قنن روز وسرفين وبلغو وفيزو وجنيف وسملون وسان غوتار الخ . ويمرون من فرنسا الى ايطالية من تاند والارجنتير وجبل سنيس وسان برنار الصغير الخ . ويمرون من سويسرة الى ايطالية من سان برنار الكبير وسملون وسان غوتاروسان برناردينو والبولا وبرنينا الخ . وقد اخترقت الالب خمسة خطوط حديدية من ليون الى تورينو ، ومن لوزان الى ميلانو من طريق نفق السملون ، ومن بازل الى ميلانو عن طريق نفق سان غوتار ، ومن بازل الى اينسبورغ عن طريق نفق آرلبرغ ، ومن اينسبورغ الى فينا عن طريق بريكسن ووتزن وترنت

أسماء عربية في البلاد

كان علماء الآثار قد بحثوا عن أسماء بلاد « فاله » ووجدوا ألفاظا كثيرة لم يعلموا لها أصلا في اللغات الغالبة على هذا الشطر من أوربة . ولما كانت هذه البلاد واقعة في معابر « الفاله » الى « البيامون » حيث مر العرب في القرن الحادى عشر فقد ترجح أن هذه الأسماء عربية الاصل ونحن الآن موردون عدة أسماء لا شك في كونها عربية

« الماغل » في وادى زاس^(١)

هذا المكان هو قرية صغيرة في الجنوب من أعلى وادى زاس الذى يمتد منه طريقان الى البيامون ، أحدهما يمر في وادى « فوركا » ويسمى معبر « اترونا » والآخر هو معبر « مورو » نسبة الى جبل مورو . وكلا الطريقين معروف منذ سنة ١٤٤٠ بكونه من أقدم المعابر ، فأحدهما كانت تمر منه المواشى والحيوانات الموقرة بأموال التجار ، والآخر كان يمر منه البريد الطليانى قبل تمهيد طريق السمبلون^(٢) . ولقد ثبت أن معاهدة الملك هوغو مع العرب لم تضمن لهؤلاء احتلال معبر سان برنار فقط بل حق الاستيلاء على جميع المعابر لمنع مرور الجيوش . فمن البديهي أن يكون العرب قد استولوا على وادى زاس ملتقى هذين الطريقين وجعلوا هناك برجاً فيه خفراء ، ومنه يأتى اسم « الماغل » بالتشديد محرفاً عن « محل^(٣) »

(١) Almagell في الوادى المسمى Saasthale

(٢) Sinplon وهو الذى فيه النفق الشهير اليوم بين سويسرة وإيطاليا

(٣) هذا خطأ من صاحب الكتاب الذى لا يعرف العربية فالماجل ليس محرفاً عن محل وإنما الماجل هو الماء في أصل الجبل أو في الوادى أو مستنقع الماء ، وهو معروف كثيراً وكانوا في مكة المكرمة يستعملون هذا اللفظ لبركة الماء . ذكر ذلك أبو الوليد محمد الأزرق صاحب كتاب « أخبار مكة » واخبر عن ماجل عند حائط خرمان وماجلين أحدهما بالمعلاة . وقال صاحب القاموس : الماجل موضع بمكة يجتمع فيه ماء يتحلب اليه . وفي حديث أبى واقد : كنا نتماقل في ماجل أو صهريج ، قال ابن الأثير الماجل هو الماء الكثير المجتمع وقيل هو معرب . والتماقل التفاوض في الماء

« على العين ^(١) » في وادي زاس

في القسم الأعلى من وادي زاس مثلجة يقول لها أهالي تلك الجهات « مثلجة على العين » اذ منها تخرج ساقية من سواقى نهر « فيسب » Visp الذي هو وادي زاس فتسمية ذلك المكان « على العين » هي في غاية المطابقة

« العين » في وادي زاس

ان الجبل الألى الشرقى الذى هو منبع نهر « فيسب » كان يسميه العرب أيضاً « ألب العين »

« مشابل » في وادي زاس

ان أسماء القسم الغربى من وادي زاس لم تكن معروفة المعانى ، الا أن الأستاذ « هيتزغ ^(٢) » يذهب إلى أن « مشابل » Mischabel جاءت من الأشبال أى الأسود ، ويشرح ذلك بقوله ان هناك عدة قنن صغيرة تعلوها قننة كبيرة هي بينها أشبه بلبوة بين أشبالها وانه لا يبعد مثل هذا التخيل عن أم الجنوب . ولأجل تأييد هذا رأى يستشهد بكون القمم التى الى الشرق من السملون تسمى بجبل الأسد ^(٣) وانه يوجد أسماء أخرى يظهر عليها الأصل العربى لكنها محرفة تحريفاً يصعب معه الاهتداء الى حقيقة أصلها ، فلذلك تركناها واكتفينا منها بجبل « مورو ^(٤) »

Alalain (١)

Hitzig وهو من كبار المستشرقين كان يقطن زوريخ (٢)

(٣) المشابل : اما ان تكون جمع مشبل بمعنى اللبوة أم الاشبال ، او أن يكون أصلها المشابل جمع مشبول وهو المسكان الذى فيه الأسود

(٤) moro معناه مغربى وهو اسم يجده الانسان كثيراً في جنوبي اوربة حيث أقام العرب

فأول ما يعرف بجبل «مورو» الجبل الذي الى الجنوب من حصن «فرا كسينيت»
والثاني الجبل الذي فيه معبر «مورو» الذي يؤدى من حصن العرب هذا إلى
« ما كونيغا » macugna في البيامون
ويوجد أيضا قمة يقال لها « قمة المورو »^(١) الى الجنوب من « بانيو » في وادى
« انزه »^(٢) ثم قمة أخرى بهذا الاسم بين « اترونا » ووادى « انزه » الى الشمال
من « برينونة » Prebenone

وكذلك الى الشرق من معبرسان برنار قمة اسمها جبل مورو
فانغلهارد Engelhard المؤرخ يرى في كثرة هذه الأسماء بالجهة الايطالية من جبال
الألب ان العرب كانوا فيها قديما

اسوار وطرق وكهوف

وغير ذلك

ان العرب كما هو معروف هم أهل اتقان لصناعة البناء ، ولا سيما بناء الأبراج ، وطالما
أثروا في هذا الباب آثارا باهرة . فمن الغريب أن لا يكونوا تركوا عند معابر الألب
شيئا من المعقل والحصون . ولكن من المحتمل أن يكونوا أقاموا بالأبراج التي كانت
قبل مجيئهم قائمة عند مضائق الجبال باقية من القرنين الثامن والتاسع ، فلم تكن بهم
حاجة الى بناء حصون جديدة . وعلى كل حال ينبغي أن تكون الحوادث التي جاءت
بعد خروجهم من البلاد قد أنست الاهالى ذكراهم بالمرّة

وأما في سويسرة فليس الأمر كذلك ، ولا سيما في مقاطعة لوزان ، فانك تجد
« برج العرب La tour Des Sarrazins فوق « شيزاس » عند « فيفاي »^(٣) »

(١) وفي الأصل Pizzo del moro

(٢) وفي الأصل الألماني Anzathale ومعناه « وادى انزه » ويجوز ان تكون « وادى عنزة »

(٣) Vevey وهي بلدة من انزه بلاد سويسرة على شاطئ بحيرة ليان بين لوزان

ودهلز العرب وغار العرب بقرب « لوسنس » Lucens
وفي « فيفلسبورغ » Viflisburg يوجد حائط يقال له حائط العرب (١) جاء
ذكره في تاريخ سويسرة لمول Muller في الجزء الاول صفحة ٢٥١
وان كثيراً من الاسماء المضافة الى « سارازين » المراد بهم العرب توجد في مدينة
« بازل (٢) » ونواحيها حسبما ذكر الأب « سيراسة » Serasset في تاريخه
« المباحث التاريخية والأثرية والجغرافية عن ابرشية بازل » في الجزء الثاني صفحة
١٤٩ فهو يقول :

« ويؤكدون أن هذه العصابات الفتاكة ، بعد أن أحرقت دير سان موريس
تقدمت نحو بحيرة جنيف وزحفت الى « الجورا » Jura ولم يقل لنا التاريخ شيئاً
عن توغل العرب في بلاد « روراسيا » Rauracie ولكن ان كانت الكتب قد
سكنت فقد قامت الأخبار المنعنة المتواترة مقامها . وان كثيراً من أماكن بلادنا
بإضافتها الى أسماء عربية ، تشعر بوقوع هذه الغارة المخيفة . فعلى نصف مرحلة من
« دقلية » Develier على الجبل ، والى الشمال الغربي منه ، يوجد على مقربة من الطريق
السلطاني الروماني فسحة صغيرة بين صخرتين ، يقال لها غار « السارازين » وأهالي
هذه النواحي يروون بالتواتر ، نقلا عن آبائهم ، أن هذا المحل كان قد احتله
« السارازين » أي العرب ، وانهم كانوا يذهبون ويوردون جملهم عند « السورن »
Sorner بقرب « كورتيتيل » Courtetelle فهذا هو الاسم الذي يطلقه الأهالي على
ذلك الطريق الروماني . وعلى أحد صخور الغار محفور عدد ٢٣ بالأرقام العربية . ولما
كان لا يعرف من نقش هذا الرقم في الصخر ، وكان قديماً جداً ، فيترجح أنه قد نقشه
العرب عند ما كان لهم محرس في ذلك المحل

(١) في الأصل Sarazins

(٢) مدينة بازل Basel والافرنسيس يقولون « بال » وهي من أشهر مدن سويسرة
واقعة على حدود ألمانيا . وفي هذه المدينة أسرة يقال لها الى اليوم أسرة « سارازين » ومنهم اناس
في جنيف ومن هؤلاء الكولونل سرازين الذي هو من أمراء الجيش السويسري

وبقرب من « روسمزيون » Rossemaison بمحذاء جبل « شايوت » Cheibut
توجد آثار طريق يقال له طريق السارازين^(١)

(١) ذكر كيلر في الحاشية نقلا عن « ادوارد كليرك » مؤرخ بلاد « فرانش كوتته » من
فرنسة في الجزء الأول الصفحة الثالثة من كتابه ان الأسماء العربية في « فرانش كوتته » كثيرة جدا
قال فعندنا خمسة كهوف منسوبة الى السارازين وجسران منسوبان الى السارازين ، وثلاثة قصور
وطريقان وقناة ومطحنة وواد صغير وجندلان من كبار الجنادل ومسلقة حديد ، وكلها منسوبة
الى السارازين أى العرب . ويوجد أيضا حائط يقال له حائط السارازين ومحل يقال له مخيم السارازين
وقرية يقال لها « ساراز » والجملة ٢٠ اسما

وكثرة هذه الأسماء المنسوبة الى العرب معهودة في بلاد « بريس » Bresse ومقاطعة ليون ،
فن مدينة ليون الى آخر حدودنا الجنوبية تجد مذاود ومسالف منسوبة اليهم ، وتجد اما كن مثل
ساحل السارازين ومثل سارازينه وغيرها انتهى كلام كليرك
أما بلاد فرانش كوتته فهي من مقاطعات فرنسة ، وكانت داخلة فيها بلاد « جورا » من سويسرة

المسكوكات

من قديم الزمان يوجد في سويسرة مسكوكات عربية من الفضة ، غير قليلة ، تستجلب النظر . ولقد تمكن العلماء باللغة العربية من اثبات مكان ضربها وزمانه ، ولكن لم يكن عليهم من السهل الجواب على كيفية وجود هذه المسكوكات تحت الأرض نظير ما وجد من المسكوكات الباقية من الدور الرومانى . فقبل ان ندخل فى بحث تاريخ هذه المسكوكات يجب أن نذكر الأماكن التى عثر عليها فيها وكيفية العثور عليها

فأول تنقيب جرى بشكل علمى وأدى الى نتيجة كان سنة ١٨٣٠ وذلك أنه وجد على مائة خطوة من قرية «شتيكبون» Steckbon على الطريق العام ثلاثون قطعة من الفضة ، لم يعرف أحد فى البداية ماهى . وقد اشترى اكثرها الماجور « شينغ » Schiegg وبعضها دخل فى حيازة البرنس لويس نابوليون^(١) ثم اهداه البرنس بواسطة الاستاذ « اوكن » Oken الى مجموعة العاديات فى زوريخ . وبعد هذا اهدى الاستاذ « كيرن » Kern والاب «ران» Rahn من شتيكبورن جملة من هذه القطع الى المجموعة المذكورة . وقد كان أول من شرح تاريخ هذه القطع ، من علماء المسكوكات ، الاستاذ « فراين » Fraehn من أعضاء اكااديمية بترسبورغ ، فقال : ان هذه الدراهم هى من ضرب عمال الخلفاء على افريقية فى الربع الأخير من القرن الثامن . وكانوا يطلقون لفظة افريقية على السلاد التى تتركب اليوم من تونس وطرابلس . فاقدم هذه الدراهم مضروبة سنة ١٦٩ للهجرة وأحدثها سنة ١٨٢ أى أقدمها فى زمن الخليفة الهادى وأحدثها فى زمن هرون الرشيد الشهير . وكلها مضروبة

(١) اخو بوناپارت وهو الذى صار ملكا على هولاندة

في القيروان عاصمة افريقية في زمان الأمراء عمال الخلفاء نصر (١) وهرثمة (٢)
(ابن أعين) ويزيد (٣). وان قطعة واحدة هي مضروبة في زمان ادريس مؤسس
الدولة الادريسية (٤)

وهذه المسكوكات مغطاة بالكتابة ، كاسم الامير ، ومكان الضرب وتاريخه ،
وبعض آيات من القرآن

وأكثر الكتابة هي بالخط الكوفي الذي يختلف عن الخط العربي الحاضر
وأما كيفية دخول هذه المسكوكات الاسلامية إلى سويسرة فيظن الأستاذ فرين
أنه كان عن طريق فرنسة ، لأنها وجدت مع هذه الدراهم مسكوكات مضروبة باسم
كارلوس الأصلع ملك فرنسة (٨٤٣ - ٨٧٧) وان النورمانديين قد أتوا بها إلى فرنسة
في أثناء غارتهم عليها . وكان النورمانديون أتوا بها من شمالي افريقية ، في أثناء
غارتهم على سواحل تلك البلاد . ولقد ظن ذلك بناء على أنه وجد من هذه المسكوكات

(١) نصر بن حبيب ولاء افريقية هرون الرشيد وكان في الأصل على شرطة يزيد بن حاتم في
افريقية ومصر كانت ولاية نصر في العشر الأخير من رمضان سنة ١٧٤ هـ غننت سيرته وعدل في
احكامه

(٢) هرثمة بن أعين ولاء الرشيد افريقية سنة ١٧٩ في ربيع الآخر ، فسكن الناس ، وهزم
الثوار وبنى سور طرابلس والقصر الكبير المعروف بالمنستير . قال الرقيق . لما رأى هرثمة بن
أعين مارأى من الخلف في افريقية وسوء طاعة أهلها طلب الاستعفاء فكتب اليه هرون بالقدوم
عليه فرجع الى المشرق

(٣) يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب كان يكنى أبا خالد ولاء أبو جعفر المنصور افريقية سنة
١٥٥ وكان من عظام الرجال وفيه قال الشاعر

حلقت يمينا غير ذي مشنوية يمين امري آلى وليس بآثم
لشنان ما بين اليزيديين في الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم

واستمرت ولايته ١٥ سنة و ٣ أشهر بحسب رواية ابن عذارى

(٤) دخول ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم الى المغرب كان
سنة ١٧٠ وكان معاصروه من الامراء هشام بن عبد الرحمن الداخل في الاندلس ويزيد بن حاتم
في افريقية

في الروسية مما كان قد جاء به النورمانيون أيضاً . إلا أنه بعد أن تحقق كون العرب أقاموا زمانا طويلا في نفس سويسرة لا يبقى محل لنسبة جلب المسكوكات الى النورماندين

وقد وجدت دفيئة أخرى من المسكوكات العربية في « مودون » لكنهم لم يعرضوها على علماء المسكوكات إلا منذ سنة . ولقد اعتنى بهذه المسألة المسيو « سوره » Soret من جنيف ومن أعضاء الأكاديمية الذين لهم مباحث جلييلة عن مسكوكات سويسرة

فأحدى هذه القطع مضروبة في افرقية أيام العباسيين سنة ١٧٠ هجرية (٧٨٦ - ٧٨٧ للمسيح) والثانية عليها اسم اسماعيل بن أحمد في أيام الخليفة المعتضد ، ومكان ضربها الشاش ، وزمان ضربها سنة ٢٨٣ للهجرة (٨٩٦) والثالثة مضروبة في بغداد سنة ٣٦١ (٩٧٤)

وقد ترجم الأستاذ « سوره » كتابات الدراهم ، فأحدها مكتوب عليه من إحدى الجهتين لا اله الا الله وحده لا شريك له : عضد الدولة أبو علي بويه . وعلى الدائر باسم الله ضرب هذا الدرهم في مدينة السلام سنة أربع وستين وثلاثمائة . ومن الجهة الأخرى لله المجد . محمد رسول الله . الطائع لله . الملك العادل عضد الدولة أبو شجاع

ورأى المسيو « سوره » يوافق رأى الأستاذ « فرين » بشأن المسكوكات العربية التي وجدت في شتكلبورن ، وهو أنها دخلت سويسرة بواسطة النورماندين . أما التي وجدت في مودون فانه يراها دخلت بواسطة العرب الذين أقاموا بسويسرة . ومن جملة الافتراضات أن تكون هذه المسكوكات قد وصلت إلى سويسرة بطريقة سلمية ، أي كثمان بضائع ، أو أن تكون وصلت الى أيدي السويسريين في أيام الحرب الصليبية من جملة ماغنمه الافرنج من المسلمين . ولا نميل الى قبول هذين الافتراضين كما نميل الى رأى « سوره » من كون دفيئة مودون هي مما تركه العرب الذين شنوا الغارة على سويسرة

الملابس العربية

ان في خزانة كنيسة « كور » من بقايا القرون الوسطى أشياء نفيسة الى الغاية ،
يندر وجود مثلها في البداعة ، فمنها حلة من الحرير يلبسها القسيس في القداس ،
تختلف عن بقية الملابس الكنسية وهي مطرزة بآيات قرآنية مكتوبة بالاحرف العربية .
ولانعلم شيئاً عن كيفية حيازة الكنيسة لهذه الحلل ، ولكن يترجح انها كانت في
أيام وجود العرب في سويسرة . وكما ان رينو يقول ان في كنائس فرنسة كثيراً من
الحلل الدمقسية والآنية الثمينة والأقداح البلورية التي جاءت في زمان وجود العرب
بفرنسة ، فلا يبعد أن يكون مافي كنيسة كور من هذه الملابس الكهنوتية قد جاء
في زمان وجودهم بسويسرة

واننا مضطرون للاعتراف بأن العرب كانوا في أيام ازدهار الخلافة في اسبانية ، أعلى
كعباً في الصناعات والعلوم من الأوربيين ، وأن الثياب التي كانوا ينسجونها للزينة
كانت من أفخر ما يوجد . ولقد اتفقت الكلمة على كون الصنائع العربية اليدوية ، من
الحلى والآنية الفضية والأسلحة ، هي من الأشياء التي يتنافس الناس بها . إلا أننا نقول
ان الشيء الذي فاق العرب به الجميع هو صنعة النسيج التي كان أكثر ازدهارها في
القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر . وكان الخلفاء يهدون منها أمراء أوربة
وملوكها ، فانهم كانوا يتحفونهم بنفائس الأسلحة والآنية . وأخر ما كانت تشتمل
عليه هداياهم هو الثياب المطرزة المنسوجة بأنواع التصاوير المزركشة بالذهب والفضه
مما كانت تخرجه معامل المسلمين . وكان من اصطلاح العرب في النساجه أن يجعلوا
خطوطا عرض الواحد منها سبعة سنتيمترات ، وينسجوا عليها حروف الكتابة التي
يريدونها من جهة ، والتصاوير من جهة أخرى . ولم تكن هذه الكتابات وهذه
التصاوير من صنع الايدي ، بل كانت من عمل المعامل والانوال . وكانت مادة النسيج
من الخز وخيوط الفضة مصنوعة بالتطريق ، وكانت تدور بخيطان الفضة بنود

من الحرير الأصفر ، بحيث لا تزال الفضة تلمع في أثناء النسيج ، وتنعكس عليها ألوان الأطلس الأصفر فيخال الرائي تلك الفضة ذهباً .

وقد ذكر ابن خلدون الكاتب العربي المشهور أن أمراء العرب وملوكها كانت تخلع على من تريد تشريفه أو تكريمه خلعاً من هذا النوع ، وكان المعمل الذي يخرج هذه المنسوجات يسمى بالطراز . وقد نقل المستشرق الشهير « دسامي » عبارة ابن خلدون في المجلد الثاني صفحة ٧٨٢ من كتابه « المنتخبات العربية » Chrestomatie Arabe كما أنه في صفحة ٣٠٥ من هذا الكتاب ذكر ما يأتي : « اننا نعرف منسوجات كثيرة من صنع العرب ، هي من النوع الذي يسميه ابن خلدون بالطراز . وأول ما أذكره الطيلسان الذي كان يرتديه قياصرة المانيا عند تتويجهم ، فقد كان هذا الطيلسان يشتمل على كتابة عربية منسوجة من خيطان الذهب ، كان قد ترجمها وشرحها المرحوم المسيو « تيخسن » Tychsen وظهر أن هذا الطيلسان صنع في بلرم ^(١) سنة ٥٢٨ للهجرة (١١٣٣ للمسيح) ولا شك في أن ذلك كان في زمن رجار ^(٢) لأنه لا يوجد في تلك الكتابة شيء يتعلق بالديانة الاسلامية » ثم ذكر دسامي أسماء كتب ألمانية تتكلم عن هذا الطيلسان . ثم قال :

« وأذكر قطعة ثانية من هذا النوع من الحرير والذهب محفوظة في ذخائر كنيسة توتردام في باريز . وهي من أنفس النسيج وعليها ألقاب الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي المتوفى سنة ٤١١ (١٠٢٠) ثم أذكر قطعة ثالثة من هذا النوع وجدت في

(١) Palerme عاصمة جزيرة صقلية

(٢) Roger والمراد به رجار الثاني فان الكونت رجار الأول النورماندي جاء الى ايطاليا سنة ١٠٥٢ وبعد أن فتح فالابرة غزا صقلية ولم يزل يجهاد العرب الى أن استصق هذه الجزيرة سنة ١٠٩٠ بعد حروب بينه وبين العرب استمرت ٢٨ سنة وكان العرب قد ملكوا صقلية مدة ٢٠٠ سنة ثم مات رجار سنة ١١٠١ وخلفه ابنه رجار الثاني فتوج ملكاً في بلرم سنة ١١٣٠ باسم ملك الصقليتين لانه كالت فتح فالابرة ونابولي وغيرها وكان ملكاً عظيماً ومات سنة ١١٥٤ .

أحد قبور دير « سان جرمان دى پراى » St - Germain - Des - Près وفيها كلمتان عربيتان مكررتان كثيراً . وقد ذكر هذه التحف المسيو « فيلمين » Villemin في كتابه عن الآثار المجهولة الى الآن والتي تنبئ معرفتها خدمة لتاريخ الصناعة . وتكلم أيضاً عن هذه القطعة المسيو « دمارست » Demarest في رسالة مطبوعة سنة ١٨٠٦ ومما يلحق بهذا الباب ما وجد في قبر الامبراطور فريديريك الثانى (١) المتوفى في ١٣ ديسمبر سنة ١٢٥٠ فقد عثروا على قيص على أكامه كتابة عربية . وذكر ذلك في كتاب ايطاليانى مطبوع سنة ١٨١٤ في نابولى يتضمن كلاماً على قبور بلرم . ولقد نشر المسيو « دمور » Demurr في أحد تأليفه صورة سجادة ، عليها كتابة عربية ، منسوجة بمصر في زمان المستعلى بالله أى بين سنة ١٠٩٤ وسنة ١١٠١ وهى محفوظة في خزانة الفاتيكان في رومة « انتهى كلام دساسى .

(١) امبراطور المانيا الشهير، حفيد الامبراطور فريديريك بربروس الذى اغتسل في نهر طرسوس، ومات وهو ذاهب لمحاربة المسلمين في الصليبية الثالثة . وكان الامبراطور فريديريك الثانى امبراطوراً على المانيا وملكاً على صقلية . وكانت ولادته سنة ١١٩٤ ومات أبوه هنرى السادس ، وهو ابن ثلاث سنوات ، فكفله البابا اينوشنسيوس الثالث الى أن بلغ رشده ولكن البابا غريغوريوس التاسع كان عدوا له لانه كان يرى فيه عدوا للبابوية ولاستقلال الأمة الايطالية . وكان يتقل على الطليان أن يكون فريديريك امبراطوراً على المانيا وملكاً على الصقليتين في وقت واحد ، فلأجل أن يستجلب اليه ميل النصرانية قام بالحرب الصليبية السادسة سنة ١٢٢٨ واسترجع من المسلمين القدس صلحاً ، ورجع الى ايطالية ، وهزم « جان بريان » الذى كان شن الغارة على نابولى . ثم عاد الى المانيا بعد غيبة ١٥ سنة لقتال ابنه هنرى الذى كان قد خرج عن طاعته . ثم تألب عليه امرء ايطالية فزحف اليهم وهزمهم فأعلن البابا غريغوريوس حرمه ، ثم جدد البابا اينوشنسيوس الرابع هذا الحرم ، وأعلن اسقاطه من جميع ممالكه ، وذلك سنة ١٢٤٥ فثارت به الناس من كل ناحية ، وطمع غيليوم ملك هولاندة وغيره في تاج امبراطورية المانيا ، وقاتله الطليان من الجهة الاخرى وهزموه ، وانتشر عليه الامر واشتد به الغم ، الى أن مات في « فلورنتينو » سنة ١٢٥٠ وكان أرقى ملوك عصره ، متكلماً بالالمانية والايطالية واللاتينية واليونانية والعربية . وله مؤلف في العربية باحث في عدة من المسائل الفلسفية . وله رسائل باللاتينى وقصائد بالايطاليانى وكانت له علاقات كثيرة مع المسلمين . وكان عنده جيش منهم كثير العدد

وعاد كيلر الى ذكر القطعة التي وجدت في دير « كور » بسويسرة ، فقال : ان
عليها كتابة بالعربية « أطال الله لنا أهله » وقال : ان الأستاذ « هيتزغ » قد ترجمها
واذا بالترجمة هي دعاء للمدعو له باطالة حياة رجال ثقته وقومه . وهو تفسير غريب .
والمرجح أن هذا الأستاذ تصحفت عليه كلمة « أجله » فقرأها « أهله » لا سيما أن
الكتابة هي بالأحرف الكوفية . ولا بد أن تكون العبارة « أطال الله أجله »
لأن « أطال الله أهله » ليس لها معنى . انتهى كلام كار ببعض اختصار

الخاتمة

الفصل على آثار العرب في وادي فاله من سويسرة

قد تقدم في هذا الكتاب بحسب الروايات المتفق عليها والتي يعدها المؤرخون من الحقائق التاريخية أن العرب أغاروا على هذا الوادي واستولوا على معبر سان برنار الكبير ، وتغلغلوا في عدة من شعاب الوادي ، وأقاموا بها ، وكانت لهم وقائع مع الأهلين ومن جملتها احراقهم دير القديس موريس . ومنذ جئنا إلى سويسرة ، وألقينا فيها عصا التسيار ، علمنا في أثناء الحديث مع علماء البلاد ، ولا سيما الذين يعنون بالآثار التاريخية ، أنه يوجد في ذلك الوادي قرى أصل أهلها من العرب أو فيها أناس من سلائل العرب اندمجوا مع سائر الأهالي ، وانهم يعرفون من سحناتهم أنهم عرب . فلما أجمعنا نشر هذا الكتاب ، وفيه كل ما تعلق بموضوع اقامة العرب بفرنسة وسويسرة وإيطالية ، رأينا حريا بنا ، زيادة في التثبت ونصحاً بالبحث ، أن توجه بنفسنا إلى هاتيك القرى التي يقال ان أهلها من أصل عربي ، ونقب ما استطعنا عن هذه المسألة بمشاهدة أهل الديار ومراجعة ما يمكن العثور عليه من الآثار . وكان طيبنا في لوزان الدكتور جاك رو^(١) قد أشار علينا بزيارة دير سان موريس الذي فيه خزانة كتب قيمة ومخطوطات متناهية في العتق ، وكتب كتاب توصية لرئيس الدير حتى يضع بين أيدينا من الكتب والمخطوطات ما يوافق موضوعنا ، كما أن صديقنا المحامي الدكتور فريدريش من جنيف ، وهو من المتخصصين في العلوم التاريخية والأثرية ، قد ذكر أنه من جملة تلك القرى قرية اسمها ايزيرابل Iserables وقرية أخرى اسمها فريتوريس Freytorreus وقال : ان القرية الأولى في مكان حصين ، محاط بالأوعار ، مما يستدل منه على أن العرب لجأوا إلى ذلك المكان واعتصموا به .

(١) Dr Jacques Roux طبيب وجراح شهير بلوزان

ففي ٢٩ يونيو من هذه السنة قصدت الى سان موريس وهي تبعد عن جنيف بالسكة الحديدية ساعتين وربع ساعة ، وذهبت الى الدير الذي تنتسب اليه القصبية ، وهو دير عريق في القدم بناه سيجموند أمير بورغونية في سنة ٥١٥ للمسيح ، ولا يزال معموراً من ذلك الوقت . فعند ما دخلت الى الدير ناولتهم الكتاب الذي معي من صديقهم الدكتور جاك رو ، فاستدعوا الى الراهب المتولى حفظ المكتبة واسمه طونولى Tonoli فجاء وجلس الى ، وتجاذبنا أطراف البحث الذي جئت الى هناك من أجله ، فقال لى انه لا يعهد فى خزانه كتب الدير مخطوطات فيها شيء يتعلق بفارة العرب على وادى فاله ، وانه يمكن الاطلاع على هذه المسألة فى الكتاب الذى يقال له Monumanta Germanica Historica أى مجموع التاريخ الجرمانى . ثم قال لى : الا أنه من المتواتر عند الجميع أن العرب مروا من هنا وأحرقوا هذا الدير . ثم أشار على بالذهاب الى بلدة مارتيني Martigni وهي على الخط الحديدى تبعد نحواً من نصف ساعة عن سان موريس الى الجنوب ، وتقع بعد سان موريس بثلاث محاط ، وأن هناك رجلاً محامياً يقال له كوكو Coquoz يقدر أن يدلنى على القرى التى يقال ان من أهلها من هو منحدر من دم عربى ، ويقفنى على معلومات قد يهمنى الاطلاع عليها . وكذلك فى مدينة سيون Sion قاعدة مقاطعة فاليه رجل يقال له الأب ليومير ، متخصص فى الأمور التاريخية ، وله كتاب عن تاريخ مقاطعة فاليه ، فهو أيضاً من الأشخاص الذين قد أجد ضالتي عندهم .

وعلى هذا فقد ذهبت الى مارتيني وبحث عن المسيو كوكو ، وحدثته بالمقصود من زيارتي له ، فدلىنى على رجل يقال له فيليب فارقه Farquet يقيم بدائرة تخص دير سان برنار ، وهو معدود من العلماء ، فذهبت واجتمعت بهذا الرجل ، فقال لى انه لا يعلم شيئاً من جهة تاريخ العرب فى وادى فاليه غير ما هو شائع على ألسن الجميع ، ولكنه أشار الى ساحة وراء كنيسة مارتيني وقال لى ونحن ننظر من النافذة : ان هذه الساحة التى أمامنا يقال لها ساحة السرازين Place des Sarrazins ومن هنا يعلم أن العرب سكنوا فى مدينة مارتيني هذه ، وهو أمر معقول جداً ، لأنه قد ثبت

في التاريخ كونهم استولوا على معبر سان برنار المشهور . ومن المعلوم أن مارتيني هي البلدة التي يصعد منها الناس الى جبل سان برنار الذي فيه الدير القديم ، وكل يوم تسير السيارات بالسافرين بين سان برنار ومارتيني .

وكنت علمت من هؤلاء الأشخاص الذين تحدثت معهم في هذا الموضوع أن قرية ايزرابل هي التي يرجح أن فيها من بقايا العرب ، وأنه يوجد أيضاً قرية أخرى تابعة لمدينة سيون يقال لها ايفولين Evolene هي من هذا القبيل . فسرت بالقطار الى سيون ، واجتمعت بالقسيس الذي يقال له ماير وهو قيم خزانة الكتب التي في مدرسة سيون ، فلم أجد هذا الرجل معتقداً بصحة هذه الروايات . وهو يظن أن العرب مروا ببلاد فاله غزاة ، عابري سبيل ، وما عدوا أن أحرقوا دير سان موريس ولا أعلم هل هو معتقد ذلك فعلاً ، أم يحاول انكار وجود آثار للعرب في تلك الدير فقد وجدته من القسيسين المتعصبين في الكشكشة الى الغاية ولم أجد في كلامه ما ينقض شيئاً من الروايات التي أطبق عليها المؤرخون من كون العرب أوطنوا وادي فاله وأقاموا بها حقبة وبقيت لهم فيها أعقاب . وهو نفسه أشار على بمراجعة كتاب بالألماني لمؤلف يقال له فيشر Fischer لكنه يقول انه غير واثق برواياته .

فتركت القسيس وركبت سيارة وسرت الى قرية ايفولان ، والمسافة من سيون اليها نحو من ٢٥ كيلو متراً ، وهي في الجبال ليس وراءها عمران ، ومنها الى حدود ايطالية بضع ساعات لا غير . فلما وصلت الى القرية وجدتها قرية صغيرة ليس فيها أكثر من مئة بيت ، أهلها فلاحون ، يعيش أكثرهم من الحرث ومن قطع الأخشاب ، لكثرة الحراج التي حولهم . فسألت عن شيخ القرية أو عمدتها ، كما يقال في مصر ، فدلوني على بيت حقير ، دخلت اليه فوجدت الرجل ، وحادثته في الموضوع فقال لي انه يسمع بهذه الروايات كسائر الناس ، وانه ليس عندهم وثائق خطية على شيء من هذا . ثم أشار على بمقابلة القسيس مرشد أهل القرية فسألت عن القسيس فلم أجده . ثم ملت الى فندق صغير في تلك القرية ، يقصد اليه السياح الذين يحبون العزلة في الجبال ، فوجدت صاحب الفندق رجلاً على أثاره من علم ،

وهو من أهل سيون ، فقال لى : ان الجميع يسمعون أن أهالى هذه القرية أو بعضهم على الأقل هم من أصل عربى ، وانه فى الوادى الآخر الذى وراء وادى ايفولن والذى يقال له انيفيه Anniviers قرى يقال أيضاً ان فيها من بقايا العرب الذين أغاروا على وادى فاليه . وسألت هذا الرجل هل يعلم فى ايفولين عائلة تعلم نفسها منحدرة من أصل عربى ، فأجابنى : أما هكذا فلا أعلم وغاية ما هناك أنهم يقولون بوجود الدم العربى فى هذه القرية ، وأن فى سحنة بعض أهلها ما يدل على كونهم ليسوا من أصل سويسرى .

فغادرت قرية ايفولين ، ورجعت الى سيون ، ومنها ركبت القطار وجئت الى محطة ريد Rid التى منها يمكن الذهاب الى قرية ايزارابل ، فنزلت فى ريد ، وسألت : هل يوجد طريق معبد الى ايزارابل ؟ فقالوا : لا ، ولا سبيل الى الذهاب الا على ظهر دابة أو سيراً على الأقدام . ولما كان وجود مطية يأخذ وقتاً ، وكان من عادتى بحسب اشارة الطبيب أن أمشى كل يوم لا أقل من ساعتين ، لأجل الرياضة الجسدية ، اخترت أن أذهب الى ايزارابل ماشياً . ولكنها كانت مرحلة شاقة لأن الطريق الى ايزارابل انما هو تصعيد مستمر فى عقبة كؤود ، يأخذ اجتيازها ساعتين ونصف ساعة فيصل الانسان الى تلك القرية التى يجدها فى أوعر محل من ذلك الجبل ، لولا ذلك الطريق الذى ينفذ اليها لا يكاد الماعز يجد اليها متسلقاً ولا متعلقاً . ولا شك أن العرب ان كانت بقيت منهم بقايا ولاذت بالجبال ، طالبة النجاة من أيدي أهل البلاد ، لم يكونوا ليجدوا للامتناع خيراً من ذلك المحل . والقرية فى سفح جبل قائم ، تشرف على واد عميق الغور ، والغابات تحف بها . فلما وصلت اليها سألت عن شيخها ، ويقال له كازيمير تافر Tavre فسألته عما يعلم من قضية انتساب هذه القرية الى العرب فقال لى : ان العرب كانوا شنوا الغارة على وادى فاليه ، وأحرقوا دير سان موريس ، وانتشروا فى هذه الأرض ثم انقرضوا كما جاء فى التواريخ ، وان كانت لهم أعقاب فى هذه البلاد فليس ذلك خاصاً بقرية ايزارابل ، فربما كانت بقايا العرب فى عدة قرى .

فسألته هل يعلم عائلات تعلم نفسها من أصل عربي ، فقال لي لا ، فسألته : هل يوجد عندهم أوراق عتيقة تدل على صحة تلك الروايات ؟ فأجابني ان عندهم في خزانة البلدية أوراقا مكتوبة باللاتينية ترجع الى سنة ١٢٠٠ مسيحية فما بعدها ، وان هذه الأوراق كلها صكوك بيع وشراء يراجمونها عند وقوع الخلاف على حدود الأراضى ، وليس فيها شىء عائد الى التاريخ . فتركته وجئت الى ساحة القرية ، فوجدت شبان القرية كلهم مجتمعين فى مقهى صغير يشربون فيه المرطبات ، فسألته عن سبب هذا الاجتماع فقيل لي : ان لشبان القرية جمعية قد جعلت لنفسها علما خاصا ، وان ذلك اليوم هو يوم الاحتفال بالعلم . فكان لي اجتماعهم هذا فرصة لأجل التفرس فى هيئاتهم وسحنهم فرأيت فيهم سحنا لا تفرق عن غيرها من خلقة أهل سويسرة ، ورأيت أشخاصا تغلب عليهم السمرة الشديدة ، ولا تشبه خلقة الآخرين . وأما من جهة لغتهم فانهم يتكلمون الافرنسية ولغة أخرى عامية مشتقة من اللاتينية ، وهذه اللهجة العامية غالبية على جميع قرى ذلك الوادى من أوله الى آخره . ولا يتكلم الأهالى فيما بينهم الا بها . وقد تختلف لهجة ناحية عن ناحية . ولم يتسع لي الوقت أن أبحث فى عاميتهم هذه ، ولا سياتى فى لهجة أهالى ايزارابل وايفولين ، لأعلم هل هناك ألفاظ عربية أم لا فان بحثا كهذا ليأخذ وقتا طويلا لم أكن أملكه . فتركت ايزارابل مكتفيا بما رأيته وسمعته ، وعلمت أن تاريخ العرب فى ذلك الوادى لا يمكن أن يؤخذ الا من بطون الكتب ، وماعدا ذلك فهو روايات شائعة متواترة لاشك فى أن لها أصلا ولكن هذا الأصل قد اختفى بمرور الأيام

ثم ان أحد أصحابى ممن يعنون بتاريخ سويسرة نبهنى الى مطالعة القاموس التاريخى السويسرى المسمى Dictionnaire historique et biographique de la Suisse اذ فيه تحت لفظة « سرازين » فصل يتعلق بمقام العرب فى سويسرة وجبال الألب ، فذهبت الى خزانة كتب الجامعة فى جنيف ، وطالعت الفصل المذكور ، ونلصقت منه مايلى : فى القرن التاسع للمسيح استغاث البابا بالسويسريين والفريزوزينين ، لوقاية

رومة من غارات العرب . وفي سنة ٨٨٨ جاء عرب من اسبانية واحتلوا فركسيناتوم (مقاطعة الفار في فرنسا) وأغاروا من هناك على الشمال والغرب . وسنة ٩٠٦ اجتازوا جبال الألب الغربية واكتسحوا دير نوفاليز بقرب سوز Suze وفي سنة ٩١٣ كانوا في آكي Acque في ييامونت . وفي سنة ٩٢١ وصلوا الى جبل سان برنار الكبير ، حسبما روى فليودار دورنز Fléodard de Reims وهناك رموا بالحجارة قافلة انكليزية كانت ذاهبة الى رومة . وفي سنة ٩٣٦ قطع العرب جبال الألب الريفية Alpes Rhétiennes واكتسحوا أسقفية كوار Goire فاضطر الملك أوتون الأول أن يعوض أسقف كوار مما رزأه به العرب . ومن الوقائع التي لاشك فيها أن العرب نزحوا من جبل سان برنار ، ونهبوا دير سان موريس في وادي فاليه ، وذلك سنة ٩٤٠ كما روى ذلك أولريك مطران أوغسبورغ . ولا تمكن معرفة ما اذا كانت ثمة علاقة بين حوادث سان برنار وحوادث كوار . وفي سنة ٩٤١ كان هوغ ملك ايطالية في حرب الماركيز بيرانجه الايفرى Berenger D'ivree والملكة برته صاحبة برغونية التي كانت طلقها ، فاستمال هوغ العرب واستخدمهم وألقى اليهم بحراسة معابر الألب . ففر بيرانجه من وجههم والتجأ الى الدوق هرمان الشوابي Hermamnn de Soiab وبلغ من قوة العرب أنهم جعلوا رسوماً على المارة الذين كانوا يقطعون جبال الألب ، قاصدين رومة ، ويقال أنهم تقدموا من هناك حتى بلغوا مقاطعة فو Void التي قاعدتها لوزان ومقاطعة جوره ، التابعة لنيو شاتال ، واستطالوا على دير سان غال Saint Gall وكانت توجد كتابة في كنيسة القديس بطرس في بورغ Bourg محفورة بين سنة ١٠١٩ و ١٠٣٨ يستدل منها على الغارات العربية الى جهة الغرب .

وأما غاراتهم الى جهة الشمال الشرقي فالروايات عنها لم تحقق بصورة قطعية . وكذلك لم يتحقق كونهم تديروا جبال الألب ، بصورة ثابتة ، وانما تحقق على وجهه ليس فيه مراء أن الملك أوتون مر بكوار سنة ٩٥٢ ومعه زوجته « ادليدة »

فوجد الدير قد نهبه العرب فعوض الدير مما فقده . وذلك سنة ٩٥٥ وأما في جنوبي الألب فقد طال مقام العرب ، ولكن لا نظن صحيحاً أنهم استعمروا وادي سواز Saas سنة ٩٤٠ الى سنة ٩٦٠ وكذلك ما يقال من احتلالهم بوترازينه Pontresina وأما ما يقال من كون بعض أسماء وادي سواز هي عربية مثل « على العين » Allalin والعين Ein والماجل Almagel ومشابل Mischabel وبالفرين BaIfirin ومونتومورو Monto Moro فلم يثبت كون هذه الألفاظ عربية . وفي ٢٣ يوليو سنة ٩٧٣ قبض العرب على الراهب ميول ورفاقه ، فثار الناس من أجل هذه الفعلة ، واجتمع غليوم كونت آرل ، وهاردوين أمير تورينو وربالد كونت بروفانس ، وزحفوا الى العرب من كل جهة واستولوا على فركسينة وانقرض العرب من هناك

وهذا الفصل من قاموس سويسرة التاريخي عليه امضاء H. Dübi وهو مأخوذ من بضعة عشر تأليفاً بالانكليزية والفرنسية ، وأكثرها بالألمانية ، وفي رأس هذه التأليف كتاب كلر Keller الذي ترجمناه وأردفناه به كتاب رينو المستشرق الافرنسي بقي علينا أن نلاحظ على هذا الفصل ارتياب كاتبه في عروبة الألفاظ التي ذكرها فنحن نخالفه في هذا الرأي ، ونوافق على رأى كلر ، وهو أن هذه الألفاظ عربية لا ريب فيها وأنه يستحيل أن توجد ثلاثة ألفاظ كهذه مشابهة للألفاظ العربية تصادفاً . وذلك مثل « على العين » و « العين » و « الماجل » فان هذه كلمات عربية صريحة ، وشكل التلفظ بها بحسب رسم حروفها باللغة الافرنسية يدل على كونها عربية مغربية ، لأن اخواننا المغاربة والأندلسيين يميلون الى الكسر في تلفظ الحرف الأول من لفظ عين وما في ضربها من الألفاظ كزيت وجيش وزيد وغيرها ، بخلافنا نحن المشاركة فاننا نلفظ كل هذه الألفاظ بفتح أولها . وأما الماجل فقد تقدم أنه حوض الماء ، وأن هذه اللفظة كانت تستعمل في مكة لحياض الماء التي فيها . وأما مشابل فيجوز أن تكون من أصل عربي بمعنى مكان الأسود ، أو كما قيل من أن هناك جبالا شبهوها بلبوة تجر أشبالها كما أنه يجوز أن يكون أصلها لفظة أوربية

تشابهت اتفاقاً مع اللفظة العربية . أما الألفاظ الثلاثة الأولى فلا يمكن أن يكون وجودها مجرد اتفاق ، لا سيما أنها أسماء لأنها لا يمكن فيها مياها . وأما بالفرين فقد تكون محرفة عن أصل عربي ويكون أصلها بالفرين تصغير فرن . ويجوز أن تكون لفظة افرنجية . وأما « موتومورو » فهو ظاهر ومعناه جبل المغاربة أو العرب . وبالاختصار فرأى كاتب هذا البحث من جهة هذه الألفاظ هو في غير محله .

فهذا ما اخترنا نقله وجمعه من أخبار غارات العرب على فرنسا وإيطالية وسويسرة مخصصاً مخصوصاً معولاً فيه على أوثق المصادر والله تعالى من وراء العلم هو المبدىء المعيد والأول والآخر .

فتح المسلمين مالطة

قد كان أصل المحور الذي دارت عليه مباحث هذا الكتاب هو غزوات العرب في شمالى جبال البيرانة من فرنسة وإيطالية وسويسرة . ولكن الحديث شجون والتاريخ انما هو حديث عن حوادث يثير بعضها بعضاً . وقلمنا تجرد منها حادثة الا وهى متعلقة بسابقة لها ، ولذلك لم يمكن حصر الكتاب ضمن الحدود التي ذكرناها ، بل تعدى الى موضوع غزو العرب لجزائر البحر الرومى مثل كورسيكة وسردانية وصقلية والأرض الكبيرة المقابلة لها التي يقال لها كالابرة . وتناول البحث أيضاً جزيرة اقريطش التي يقال لها اليوم كريد . فأما جزر الباليار فهذه تابعة للاندلس قديماً وحديثاً . ولذلك أبقينا الكلام عليها الى الكتاب الذي ننوى وضعه على الأندلس ، وقد هيأنا كثيراً من مواده . وانما بقيت جزيرة في البحر المتوسط ، فاتنا ذكر فتح المسلمين لها ، مع كونها ذات ذكر شهير في التاريخ أكبر كثيراً من جرمها الجغرافى الا وهى جزيرة مالطة ، فأحببنا أن نذكر عنها خلاصة تاريخية في هذا الكتاب . فنقول :

يوجد أرخبيل يقال له الأرخبيل الماطلى مؤلف من جزيرة مالطة وأخواتها غوزو Gozo وكومينو Comino وكومينوتو Cominotto وفلفولا Filfola وصخور أخرى تحاذيها ، جاء في الانسيكلويدية الاسلامية المحررة بالفرنسية أن هذه الجزر كانت في الأعصر القديمة مأهولة بطائفة من طوائف البحر المتوسط ، لها آثار تدل عليها ، محفوظة في مكان من مالطة يقال له « الحجر القائم » Hagiar kaim وأول ما عرف التاريخ عنها هو أن الفينيقيين استعمروها قبل القرن العاشر قبل المسيح ، واتخذوها قاعدة لسفنهم التجارية . قالت الانسيكلويدية : ولم يتحقق كون اسم مالطة مشتقاً من الفينيقية وانما يتحقق كون جزيرة غوزو أو غولوز Gailos معنى اسمها « سفينة تجارية مستديرة الشكل » وقد استولى القرطاجنيون على مالطة في القرن السابع قبل

المسيح، وبقوا فيها أربعة أو خمسة قرون ، ثم استولى عليها الرومانيون سنة ٢١٨ قبل الميلاد وبقيت نحواً من عشرة قرون في أيدي الرومانيين واليونانيين . وفي القرن الأول للمسيح تنصر أهل مالطة عن يد القديس بولس . ولما سقطت السلطنة الرومانية الغربية استولى عليها البيزنطيون ، وكانت لهم مركزاً ضرورياً بعد استيلائهم على شمالي افريقية .

وقد استولى المسلمون على مالطة سنة ٢٥٦ للهجرة وفق ٨٦٩ و ٨٧٠ مسيحية . ولكن هذا الاستيلاء هو الاستيلاء الثابت ، لأن ابن الأثير يخبرنا أنه في سنة ٢٢١ أرسل ابراهيم بن الأغلب أسطولا لغزو الجزائر ، والأرجح أن مراده بالجزائر هو الأرخيبيل الذي من جلته مالطة . وقد كانت غزوات المسلمين لمالطة وصقلية في القرن الثامن للمسيح ، وربما كانت مالطة دخلت في حوزة المسلمين قبل سنة ٨٠٠ وكان مقام المسلمين بمالطة أطول وأثبت من مقامهم بصقلية ، بدليل كون لغة مالطة عربية وقد اختلف العلماء في أصل اللهجة المالطية ، فزعم بعضهم أنها من أصل فينيقي . وذهب آخرون الى أنها لهجة عربية ، وهذا رأى الجمهور . فاللغة المالطية عربية تشابه في كثير من الألفاظ لهجات العرب الشرقيين ، وفي كثير منها العرب المغاربة وتكثر في لغة مالطة الامالة ، كما يكثر أيضاً قلب الألف ياء ، فيقولون « بينا » بدلا من أنا ، ويقبلون القاف همزة ، ويستعملون أحيانا نون الجمع المتكلم قبل المفرد ، فيقولون مثلا : انا نقول له بدلا من نحن نقول له . وهذا على نسق أهل المغرب وتختلف اللهجات في نفس مالطة بين المدينة والقرى ، وبين مالطة وغوزو ، ولا توجد الخاء والعين في مدينة مالطة المسماة « فاليت » وإنما توجد في جزيرة غوزو . ولم يتم البحث حتى الآن عن اللهجات المالطية حتى يعرف ما هو راجع منها الى العربية الشرقية وما هو راجع الى العربية الغربية . وقد أثرت الثقافة اللاتينية الايطالية في اللغة المالطية ، ودخلت ألفاظ كثيرة منها في لغة مالطة . ولم يكن للمالطيين حروف يكتبون بها الى أن قام في القرن الثامن عشر رجل يقال له « آجيوس سلدانيس » فاعتنى بالبحث عن لغة بلده . ومن ذلك الوقت أخذوا يكتبون لغتهم ، واستعملوا

الحروف العربية . ثم نهضت عصبة من المالطين اسمها « عقدة تالكتيبة تالمطى » أى أى عصبة الكتاب المالطية ونشرت كتاباً فى نحو اللغة المالطية سمته « تعريف الكتبة المالطية » وذلك فى سنة ١٩٢٤ وجاء فى مقدمة هذا الكتاب ذكر أنواع الكتابة المالطية . ثم ان هذه العصبة نشرت مجلة اسمها المالمطى فى سنة ١٩٢٥ وكان غرضها الاصلى احياء اللغة المالطية العربية أو ما تعبر عنه بالمالمطى الصافى

ومند سنة ١٨٥٠ أخذت مسألة اللغة المالطية شكلاً سياسياً . وذلك لأن الانكليز أحبوا أن يعزوا اللغة المالطية العربية ، لعدم رغبتهم فى نشر اللغة الايطالية التى هى لغة الطبقة المثقفة ولغة رجال الكنيسة فى مالطة . ومن شاء الاطلاع على آداب اللهجة المالطية فليراجع كتب بونلى L , Bonelli وشتومة H. Stumme

وقد ترك المسلمون فى مالطة ، عدا أسماء البلاد واللغة العربية ، قطعاً من المسكوكات وعدداً كبيراً من الآثار الكتابية لاسيما كتابات القبور . وأشهر هذه الكتابة السماة « ميمونة » تاريخها يوافق سنة ١١٧٣ مسيحية . وقد نشرت منذ قرن تام ، وبحث فيها المستشرقون مثل ايطالينسكى Italenski ولنسى Lance وآمارى Amari وغيرهم . وقد وجدوا كتابة أيضاً فى جزيرة غوزو ، وهى محفوظة فى متحف مالطة ثم انه وجدت كتابات نحو العشرين فى أثناء الحفريات التى وقعت بين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٢٥ فى محل يقال له رباطو Rabato بقرب نوتابيل Notabile وهى محفوظة فى متحف مربع روما Romana على مقربة من مكان الحفريات

هذا وقد خرجت مالطة من أيدي المسلمين سنة ١٠٩٠ مسيحية ، فان النورمنديين استردوها بعد استردادهم لصقلية . ولكن كان المسلمون مأذوناً لهم فى الاقامة بهذه الجزيرة الى سنة ١٢٤٩ ثم ان مالطة من سنة ١٥٣٠ الى سنة ١٧٩٨ صارت مركزاً لفرسان ماريوحنا أورشليم الذين طردهم الترك من رودس سنة ١٥٢٣ فانتقلوا الى مالطة وأنشأوا أسطولاً عظيماً ، كانوا يلاقون به أساطيل المسلمين ، الترك أو الافريقيين ، وكان يؤتى بألوف من أسارى المسلمين الى مالطة . ولهذا قصد الأتراك

الاستيلاء على مالطة سنة ١٥٦٥ ولكنهم لم يتمكنوا منها . وحاولوا ذلك مرة أخرى في أيام السلطان محمد الرابع . وفي المكتبة العمومية في مالطة وفي متحفها بعض كتابات عربية متعلقة بفن الملاحة . انتهى ما ذكرته الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة عن مالطة ، نقلناه باختصار

ولما كان العلامة الرحلة اللغوي المشهور احمد فارس الشدياق ، صاحب الجواب قد أقام بمالطة أربع عشرة سنة وكتب عليها كتاباً سماه « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » فقد أردنا أن نأخذ من هذا الكتاب بعض ما يتعلق بفرضنا من جغرافية مالطة وتاريخها وذكر فتح المسلمين لها ، فنقول :

قال احمد فارس : ان تخطيط مالطة هو في ٢٢ درجة وأربع وأربعين دقيقة من الطول ، وفي ٢٥ درجة و٥٤ دقيقة من العرض . أما موقعها في الكرة فان بعض الجغرافيين أحقوه بأفريقية ، بالنظر الى المكان ، وبعضهم أحقّه بجزائر ايطالية بالنظر الى عادات أهل مالطة وأحوالهم وديانتهم . فأما عرض مالطة فاثنا عشر ميلا ، وطولها عشرون ، ودورتها ستون وقاعدتها الآن هي المدينة المسماة فالتة « La Valette » فأما في العصر السالفة فكانت نوتابيلي ، ويقال لها الآن المدينة ، وموقعها في وسط الجزيرة في أرفع موضع منها . وكانت الجزيرة منقسمة بها الى شطرين : أحدهما يمتد جهة الشرق ، والآخر جهة الغرب . والذي بنى فالتة كان أحد أمراء الافرنج وسماها باسمه ، وذلك سنة ١٥٧٦ وهي على ربوة بقرب البحر يقال لها شبراس . قلت : زعم بعض المالطين أن أصل هذه الكلمة « شبر الرأس » وبعضهم أنها « جبل راس » وعندى أنها شعب الراس . قال في الصحاح : شعب الراس شأنه الذي يضم قبائله اه . وهو كناية عن أصل الشيء ومجتمعه . كما أن قبائل الراس مرجعها الى الشعب ، ويحتمل أنها سميت بشيب الراس لأن أهل مالطة كانوا يناصبون المسلمين الحرب وكل فريق ملاق من فريقه ما يشيب الرأس اه

قلت : تأييداً لما استشهد به احمد فارس أقول : جاء في لسان العرب « والشعب

شعب الراس وهو شأنه الذي يضم قبائله . وفي الرأس أربع قبائل ، وأنشد .

فان اودى معاوية بن صخر فبشر شعب رأسك بانصداع اه

ثم نقل أحمد فارس عن المؤلف الفرنساوى بوليه أن قاعدة مالطة سميت باسم الأمير لافاليت رئيس طريقة الفرسان ، ولد في سنة ١٤٩٤ ومات سنة ١٥٦٨ وكان شهيراً بالبأس . وأول ما استولى عليه من الجزيرة عند محاصرته المسلمين بها برج « سانت المو » ثم قوى عليهم وأخرجهم منها اه . قلت : ان هذه الرواية تخالف ما جاء في الانسيكلويدية الاسلامية من كون مالطة خرجت من أيدي المسلمين سنة ١٠٩٠ اذ ينبغي من هذه الرواية أنه كان فيها مسلمون في أواسط القرن السادس عشر للمسيح ، وانه كانت في أيديهم حصون وأبراج ، ولولا ذلك ما قيل ان الأمير لافاليت أخرجهم منها

وأما اسم مالطة فجاء في كتاب احمد فارس أن اليونانيين سموها مليته ، واشتهر ذلك سنة ٨٢٨ قبل الميلاد . ومعنى ميلته أو ميليسه في لغة اليونان النحل فحرف المسلمون ذلك وقالوا مالطة . قال : وزعم قوم أنها سميت باسم ميلته ابنة دوريس ، وهو مشتق من ميليت في السريانية ، وهو اسم إله . ولا يبعد أن يكون ذلك في اللغة الفينيقية أيضاً . قال : ومن ذكر مالطة من الشعراء الأقدمين او ميروس واوفيدوس ويفهم من كلام الأول أن القبيلة التي يقال لها « الفيا كونس » هم أول من استوطنوا هذه الجزيرة وكانوا ذوى قوة وبأس . ثم خلفهم الفينيقيون ، وهم من جهات صور وصيدا ، وذلك سنة ١٥١٩ قبل الميلاد ، فلبثوا فيها نحو أربعائة وخمسين سنة ، حتى تغلب عليهم الاغريقيون ثم سلموها للقرطجنيين ، وذلك نحو سنة ٥٢٨ قبل الميلاد ، ثم جاء من بعدهم الرومانيون سنة ٢٨٣ من التاريخ المذكور . وأعظم ما حدث في أيامهم قدوم ماربولس ، وانكسار السفينة به وبمن كان معه ، وذلك سنة ٥٨ للميلاد ، في موضع يقال له الآن خليج ماربولس . ومنذ ذلك الوقت تنصر أهل الجزيرة . ثم بعد الرومانيين استولت قبيلة « الفندلس » ثم « القوث » ثم « البليساويون » وألحقوها

بمحكمة البلاد الشرقية وبقيت كذلك الى سنة ٧٨٠ فأخذوه في هضم الرعية ، فقاموا عليهم وسلموا الجزيرة للمسلمين اه . ملخصاً

قلت : يريد بالقوث أمة القوط الذين كانوا غلبوا على اسبانية ، وبالفاندالس الأمة التي كانت أيضاً غلبت على اسبانية وافريقية . وأما البليسايريون فهم قوم بليساير Belisaire وكان من قواد الامبراطور يوستينيانوس صاحب بيزنطية ، ولد سنة ٤٩٠ وفي سنة ٥٣٣ غزا الفندلس في افريقية ، واستولى على قرطاجنة . ثم غزا أيضاً القوط عند ما كانوا في ايطالية واستولى على صقلية وناپولى ورومة . ولعله في هذه الغزاة استولى على مالطة . ثم قال أحمد فارس :

ذكر في كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان أن مالطة فتحت في أيام أبي الغرائق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب ، توفي سنة احدى وستين ومائتين ، وإنما لقب بالغرائق لأنه كان مشغولاً بالصيد . روى انه بنى قصرأ في السهلين ، لصيد الغرائق أتق في ثلثين ألف دينار ، فكفى بهذه الكنية . فعلى هذا فلا معنى لقول المؤلف (أى المؤلف الذى نقل عنه أحمد فارس) : وسلموا الجزيرة للمسلمين . اه . يريد أحمد فارس أن يقول ان المسلمين أخذوها فتحاً

ثم نقل صاحب « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » عن ذلك المؤلف بقية حوادث مالطة ، فقال : ثم قام الأمير روجر النورماندى بعدها بمائتي سنة ، واسترد الجزيرة وأخفها بصقلية ، فبقيت كذلك نحو سبعين سنة . ولما تزوج القيصر هنرى السادس قيصر جرمانية ولىة عهد صقلية دخلت مالطة في حكمته وذلك سنة ١٢٦٦ وبقيت كذلك اثنتين وسبعين سنة . وفي أثناء ذلك ولى اخو لويس ملك فرنسا حكم صقلية ومالطة معاً ، وبعد سنتين تغلب عليه الأمير بطرس الأراغونى ، ثم آل أمرها الى الملك كرويس ملك صقلية فولى عليها الفرسان من نظام ماريوحنا برضى الأهلين واتفق دول أوروبا . ثم لما نبغ نابليون واستولى على البلاد سلمت له الجزيرة على أن يرخص للاهلين في التصرف بحقوقهم ، الا أن الفرنسييس لم يلبثوا ان هتكوا بعض السنن القديمة ،

وانتهكوا حرمة الكنائس ، فتحزب عليهم المالطيون تحزباً لم يخل من سفك دم كثير منهم وتلف أموالهم ، الى أن أتت الانكليز فسلموها لهم ، وكان ذلك سنة ١٨٠٠
قلت (أى قال أحمد فارس) : لما دخلها نابليون وجد فيها ألفاً ومائتى مدفع ومائتى ألف رطل من البارود وأربعين ألف بندقية وعدة بوارج و ٤٥٠٠ أسير من المسلمين فأطلقهم . وذلك سنة ١٧٩٨ .

ثم رجع الشدياق الى النقل عن المؤلف الذى نقل عنه فقال : ان أخذ المسلمين للمالطة كان من باب المصادقة أولى منه من المغالبة ، وعاملوا الأهليين أولاً بالرفق والمياسرة ، وقرروا سننهم وأحكامهم ، وامتروا بهم للغاية ، حتى كأن الجليلين واحد ، كما يتبين من بقاء لغتهم فيهم .

قال : أما لغة المالطة فذهب بعضهم الى أنها عربية فاسدة ، وذهب آخرون الى أنها فينيقية لأن اليونانيين بعد أن فتحوا الجزيرة لم يخرجوا منها الفينيقيين بل ظلوا فيها آمنين محافظين على لغتهم ، وما برحت مستقلة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليها وانها لم تتغير فى مدة القراطجنيين لأن لغة هؤلاء كانت أيضاً فينيقية . ومع أن دأب الرومانيين كان حمل الناس على التخلق بأخلاقهم والسلوك بسنتهم أيما ملكوا فلم يجبروا الرعية هنا على التكلم بلغتهم . والدليل على ذلك أن الرومانيين الذين كانوا مع ماربولس سمو المالطيين بربرا ولم يكن يطلق هذا الاسم الا على من جهل اللاتينية واليونانية .

قال : ثم بقيت فى دولة المسلمين أيضاً ولم تتغير وإنما دخل فيها بعض ألفاظ أجنبية . ويؤيد كونها فينيقية مشابهة بعض ألفاظ منها للعربية ، نحو بير وصيد ، فأنهما فى الفينيقية بر وصد وغير هذا كثير مما له لفظ واحد ومعنى واحد فى كلتا اللغتين . والحاصل أن مأخذ اللغة المالطية من الفينيقية أرجح من أن يكون من العربية وان كانت قريبة من هذه أيضاً . اهـ

قال أحمد فارس : قلت : دليله هذا أوهى من بيت العنكبوت فان البير والصيد ينطق بهما فى لغتهم كما فى لغتنا سواء ما عدا موافقتهما فى تصريف الأفعال والأسماء وفى الضمائر وغير ذلك من أساليب الكلام . ومن الغريب أن المؤلف لا يعرف

الفينيقية ولا العربية ولا المالطية ، وان كانت لغته ، ويتعرض للحكم والاستدلال . فكيف يحكم على الشيء وهو يجسه وكيف يقول : ان لغة المسلمين بقيت في أهل مالطة لشدة الالتحام الذي كان بين الفريقين ثم يقول الآن انها فينيقية لمجرد وجود كلمتين فيها ؟ وانما حمله على هذا بغضه وبغض أهل بلاده للعرب وتبرئة أنفسهم منهم ليسوا منهم بل من الفينيقيين اه

قلت : لغة مالطة عربية لا شبهة فيها . وانما ثبتت العربية في مالطة برغم انقراضها من صقلية وسردانية والأندلس وجنوبي فرنسا وجميع البلدان التي احتلها العرب من أوربة ، لكون أصل لغة تلك الجزائر والبلدان لاتينياً ، فلما تقلص ظل العرب عنها رجعت اليها لغتها الأصلية وانقرض العربي منها بالكلية . فأما مالطة فلغتها الأصلية لم تكن لاتينية بل كانت الفينيقية وهي أخت العربية ، فلما جاءتهم العربية بعد فتح الاسلام مالطة كانت كأنها نزلت في وطنها وثبتت فيها ثبوتاً لم يزله خروج المسلمين من مالطة كما ذهبت العربية من البلدان الأخرى التي أهلها الأصليون لاتينيون ولغاتها الأصلية لاتينية

ثم قال أحمد فارس : والظاهر أن المسلمين الذين فتحوا مالطة لم يكونوا من أهل العلم والتمدن ، كالذين كانوا في صقلية وغيرها ، فاني لم أجد قط فيما قرأت من كتب الأدب والتواريخ قال المالطي . والسيوطي رحمه الله لم يغادر في كتاب الانساب الذي سماه « لب اللباب » أحداً من أهل العلم إلا ذكره ما خلا المنسوب إلى مالطة اه

قلت : أتذكر أني قرأت في بعض كتب التراجم ، من مؤلفات أهل الأندلس ، أسماء رجال منسوين الى مالطة . وفي معجم ياقوت يذكر نقلا عن السلفي : سمعت أبا العباس أحمد بن طلوت البنسي بالشقر يقول : سمعت أبا القاسم بن رمضان المالطي بها يقول : كان القائد يحيى صاحب مالطة قد صنع له أحد المهندسين صورة تعرف بها أوقات النهار الصنج ، فقلت لعبد الله بن السمطي المالطي أجز هذا الصراع :
جارية ترمي الصنج فقال : بها النفوس تبتهج

كأن من أحكمها الى السماء قد عرج
فطالع الأفلاك عن سر البروج والدرج

وأما قول ياقوت أنها بلدة بالأندلس فليس بمانع من كونه يريد بها هذه الجزيرة
السمية مالطة الواقعة في بحر الروم ، فقد جاء في تاج العروس : ومالطة كصاحبة ووقع
في التكملة مضبوطا بفتح اللام والمشهور على الألسنة سكنها بلدة بالأندلس كما نقله
الصاغاني وهي مدينة عظيمة في جزيرة من بحر الروم ، شديدة الضرر على المسلمين في
البحر، يعظمها النصراني تعظيماً بالغاً وبها وكلاء عظامهم من كل الجهات. ولقد حكى لي
من أسر بها عن زخارفها ومائة حصونها وتشديد أبراجها وما بها من عدة الحرب
ما يقضى بالعجب ، جعلها الله دار اسلام بحرمة النبي عليه الصلاة والسلام. فأنت ترى
ان كتاب العرب كانوا يجعلون مالطة من الأندلس كما كانوا يجعلون ميورقة ومينورقة
وسردانية وغيرها

ثم نقل أحمد فارس عن المؤلف الذي اعتمد عليه كلاماً عن جزيرة « كوترو » من
أخوات مالطة فقال: ان اسمها جزيرة غورش وانها بالفرنجية كوتسو وان هذه اللفظة
يونانية ومعناها مركب مستدير وهي كأنها ذيل انقطع من مالطة وطولها اثنا عشر
ميلاً في عرض ستة ، وأهلها نحو خمسة عشر ألفاً ، وجملة قراها ست ، ومدنتها
تسمى الربط (كأنه محرف عن الربض) وفيها آثار قلعة قديمة . وبقول الجزيرة
وفاكيتها طيبة جداً ، وكذا عسلها . وزعم بعضهم أن مالطة وغورش ومكونة كانت
في الأصل جزيرة واحدة وحدث من الزلازل ما فرقتها . اهـ

وأردف أحمد فارس رحمه الله هذا الكلام بقوله : رأيت جزيرة غورش غير مرة .
أما اسمها فأظنه محرفاً عن لفظة الهودج ، سماها به المسلمون لشدة شبهها به ، كما سماوا
الجزيرتين الاخرين كمونة ولفلة لصغرهما . الا أن أهلها ينطقون بها بالعين المعجمة
لا بالمهملة كما ينطق بها أهل مالطة .

ثم ذكر أحمد فارس أن أهل مالطة رغمًا من كون لغتهم فرعاً عن العربية فليس منهم
من يحسن قراءتها والتكلم بها ، وان هناك دار كتب موقوفة فيها ثلاثة وثلاثون ألف

سفر ، وليس فيها من الكتب العربية ما تحته طائل . ثم ذكر أن في لغتهم امالة كثيرة فهم يقولون للتفاح تفيح وللرمان رمين وللبطيخ بتيخ بالحاء المهملة وللخيار حيار بالحاء المهملة أيضاً وللجاجص لنجاجص وللدلاع دليع وللخبز حبس وللخوخ حوح بالحائين المهملتين ، ويقولون بس بمعنى حسب ، ولكن يبدلون سينها زايا ويكسرون أولها .

ثم قال : انه لا ينكر أن كثيراً من الكلام العربي الذي بقى في مالطة مستعمل بطريقة المجاز اما بذكر اللازم واراادة المزموم واما بتخصيص العام وتعميم الخاص كقولهم مثلاً « وحلت » للوقوع في الأمر الصعب وأصله الوقوع في الوحل خاصة ، ونحو « الطلاب » للمتكفف وهو اسم فاعل للمبالغة من طلب . ونحو « معلوب » للتحيف وهو اسم مفعول من غلب وهو لازم له غالباً ، وفتيت أى قليل وهو من فتت الشيء اذا كسرتة وصغرت جرمه . قال : وان أهل غورث ينطقون بالأحرف الحلقية على حقها الا أنهم يكسرون ما قبل الواو الساكن فيقولون مكسور ومفتوح ويضمون ما قبل الألف نحو قاعد وهلم جرا ، ويقولون منكم وعليكم بكسر الكاف وهى لغة ربيعة وقوم من كلب كما فى المزهرة ويسمى الوكم .

وذكر من اصطلاحاتهم أنهم يعبرون عن الدخول فى الفعل بلفظة « سائر » وهى نظير قول أهل الشام ومصر « رايح » فاذا قال المالطى : أنا سائر نسافر فهى كقول الشامى أو المصرى : أنا رايح أسافر .

قلت : يظهر أن سائر هذه كانت مستعملة فى المغرب وقد نحتوها فبقى منها سين مفتوحة ، فيقولون عن شخص مثلاً هو فى حال الأكل سياً كل . وأحياناً يقبلونها تاء فيقولون تياً كل ، ويقولون فى المغرب فى مثل هذه الحالة كياً كل . وأظن الكاف هنا منحتة من « كائن » وذلك كما ينحت أهل الشام لفظة « عمال » فبدلاً من أن يقول هو عمال بأكل تجنده يقول « عميا كل » وفى بعض جهات من شمالى لبنان يقبلون الميم نونا فيقولون « عنيا كل » .

ثم ذكر أحمد فارس اصطلاح أهل مالطة على ادخال لفظة « تا » بين المضاف

والمضاف اليه ، فيقولون مثلاً « الرجل تالبيت » وذهب أحمد فارس الى أنها منحوتة من متاع ، قال : فان أهل المغرب يدخلونها كثيراً في الاضافة وابتدون بالميم ساكنة على عادتهم من الابتداء بالساكن وتقصير اللفظ . ومما يؤيد هذا التوجيه أن المائلين لا ينطقون بالعين اذا وقعت في آخر الكلمة فيقولون مثلاً تلا وطلا في طلع وقلع ، قال أحمد فارس : وقلب العين ألفاً أو همزة هو من أساليب العرب ، كما في تفضى وتقصع ، وأقنى وأقنع ، والشمى والشمع ، وتكأ كأ وتكعكع ، وزقاء الديك وزقاعه ، وزأزأ وزعزع ، وبدأ وبدع ، والخباء والخباع وغيرها ، حتى أنهم قلبوها متوسطة كما في تأرض وتعرض ، ودأم الحائط ودعمه ، انتهى .

قلنا : ان الهمزة والعين من مخرج واحد فلا عجب أن تأتي ألفاظ بالهمزة وبالعين ومعناها واحد .

ثم قال أحمد فارس : أنهم في مالطة يجعلون الهاء حاء ، وأنشد من شعر المائلين :

المحبوب تا قلبي سافر ليلى ونهاري نبكيح
جعلتلو بدموعي البحر وبالتنهيدات تا قلبي الريح
أى ليلى ونهاري نبكيه . وابدال الهاء حاء لغة من لغات العرب ، قالوا المليه والمليح ، والمده والمدح ، وتاه وتاح ، الى آخره .

قال : ومما بق عندهم من فصيح العربية قولهم دارنادية . وحقها دارندية ولكنها أفصح من قول أهل مصر والشام دارناطية . ويقولون للداية قابلة ، ويقولون للرهان مخاطرة ، وللعلية غرفة . ويقولون عن لى بمعنى بدالى ، وتجالدوا وهو أفصح من تماركوا ، وزفن أى رقص ، وبوقال وهى أفصح من قول أهل الشام شربة أو نعارة . ومن فصيح كلامهم يمارى أى لا يقنع بالحق ، ويشرق بالماء ، ويستقصى ، وفرصاد للتوت ، وسفود ، وأهل الشام يقولون سيخ وشيش . ويقولون تقر رأى تباعد من الأدناس ، وعسلوج للقضيب ، وجلوز للبندق الذى يؤكل .

قال : ولكن هذه الألفاظ كلها مستعملة في الغرب وبهذا يترجح أن أصل المائلين من المغاربة . ولكنه في محل آخر قال : انه لا شك في كون اللغة المائلية

عربية ولكنى لست أدري أصل هذا الفرع أشامى هو أم مغربى ، فان فيها عبارات من كلتا الجهتين والغالب عليها الثانية ، غير أن الألفاظ الدينية من الأولى فيقولون مثلاً القُداس والقديس والتقربن والأسقف مما لا يفهمه أهل المغرب اه .

قلت : ان فى المالطية ألفاظا واصطلاحات شامية ، وقد ورد هذا الرأى فى الانسيكلوبيديّة الافرنسية ، ولكن الألفاظ المغربية هى بدون شك أكثر .

وذكر أحمد فارس من أوزان كلام مالطة فاعلة للمصدر، فيقولون عملته بالواقفة أو بالقاعدة ، والمصدر على هذا الوزن معروف فى العربية قال تعالى ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ أى من بقاء ، وقال تعالى ﴿ لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ أى كذب . ثم قال : ان بقاء العربية فى مالطة ولو محرفة مع عدم تقييدها فى الكتب دليل على مالها من القوة والتمكن عند من تصل اليهم من الأجيال ، ألا ترى أن مالطة قد تعاقبت عليها دول متعددة ودوا لو يحملون أهلها على التكلم بلغاتهم فلم يتهياً لهم وبقوا محافظين على ما عندهم خلفا بعد خاف ، وهؤلاء الانسكاييز يزعمون أن لغتهم ستكون أعم اللغات وما تهياً لهم أن يعمموها عند المالطيين . ويقال ان الذى تحصل عند أهل مالطة من العربية مما هو مانوس الاستعمال وغير مانوسه يبلغ عشرة آلاف كلمة

بحث دقيق جليل

عنه مغازى العرب في أوربة ومجزائر البحر المتوسط

بقلم

الأستاذ الأفاضل السيد عبد العزيز الثعالبي رئيس الحزب الوطني في تونس

كان بلغنا أن لدى الأستاذ الأجل الأفاضل السيد عبد العزيز الثعالبي ، وثائق ومعلومات لا توجد عند غيره ، في موضوع فتوحات العرب في جنوبي أوربة ، فاقترحنا عليه كتابة شيء في هذا الموضوع نجعله كالقلادة في جيد تأليفنا هذا ، ففضل علينا حفظه الله ونفع به الاسلام بالخلاصة التالية :

ان أول واضع لخطة الفتوحات الاسلامية في أوربة هو الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه . فانه حين ندب أخاه من الرضاع ، عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، لفتح بلاد شمالى افريقية ، ووافته البشائر بفوز جيوشه على جيوش جيجير والى سببلة من قبل البيزنطيين ، ندب القائد البحرىين الجليلين عبد الله بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين ، وكانا على الأسطول ، فأمرهما بالمسير الى الأندلس وكتب لهما وصية سياسية في ذلك . تلك الوصية الخالدة التى يقول فيها : ان القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس ، وانكم ان فتحتم ما أنتم بسبيله تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية فى الأجر . وقد أخذ ولاية شمالى افريقية وقواد أجنادها هذه الوصية نبراساً لسياستهم الاسلامية التى يسرون عليها وأول أمير شرع فى اعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ تلك الوصية الأمير حسان

ابن النعمان ، شيخ وزراء الدولة الأموية ، بعد أن دان له شمالى افريقية بالطاعة فقد أنشأ بفناء قرطاجنة دار الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة ، وجلب لها الصناع من قبط مصر ، وسار على منهاجه في ذلك مولاه طارق بن زياد بعد أن ولى المغرب ، فجاز بجيوشه أرض العدو ، وناجز الأندلسيين سنة ٩٢ ثم تلاها في ذلك اسماعيل بن أبي المهاجر الذى تقلد اماره شمالى افريقية في عهد عمر بن عبد العزيز فأغزى أساطيله جنوبي أوربة سنة ١٠٥ وكانت قيادتها لعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، ولم يعد إلا بعد أن أئخن في ايطالية ؛ وهذه الغزوة تعتبر كبشير لانقاذ الايطاليين من حكم البيزنطيين الطغاة .

وفي ولاية عبید الله بن الجحباب لافريقية جهاز أسطولا كبيراً جعل امارته لقائد جيوشه الموفق حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة الفهرى ، فغزاها سنة ١٢٣ ونكل فيها بالبيزنطيين أشد تنكيل ، ولو لم تحصل ثورة البربر ضد الحكم العربى بسبب تخميس أعشارهم لتملك شطوط ايطاليا وطهرها من حكم البيزنطيين كما فعل ذلك من قبل حسان ابن النعمان في شمالى افريقية .

وفي سنة ٢٠٧ ، بعد استقرار الدولة الأغلبية جهاز زيادة الله الأكبر أسطولا بامارة قائده محمد بن عبد الله التميمى لمانزلة سردينية ، ثم أعاد عليها الكرة سنة ٢١٢ ، وكانت اماره الأسطول والجيوش في هذه المرة لقاضى القضاة الامام أسد بن الفرات ، فملك مازرة وحاصر سر كوسة ، وحول أسوارها أدركت الامام الشهادة رضى الله عنه سنة ٢١٣ فتولى القيادة العامة صاحب أسطول الأندلس القائد اصبع المعروف بفرغلوسن . وبعد أن استقرت الأمور في البلاد المفتوحة قلد زيادة الله اماره ايطالية لابن أخيه ابراهيم بن عبد الله بن الأغلب ، وما زال موالياً للجهاد حتى فتح بليرم و نابولى .

وفي ولاية أبى عقال الأغلب بن ابراهيم استؤنفت حرب التحرير في ايطالية سنة ٢٢٤ وتم فتح صقلية .

وفي ولاية الأمير محمد الأول تقدمت الفتوحات في شطوط ايطالية واستمرت

من سنة ٢٣٣ الى سنة ٢٤٠ فتحت باتية وقطانية وبشيرة .

وفي ولاية الأمير أبي ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب ندب والى صقلية العباس ابن الفضل لغزو قصر الحديد ومدينة شلقودة وجهاز الأسطول وأمر عليه أخاه وسيهه لفتح جزيرة اقريطش فكان له واقعة مهولة في البحر الرومي مع أسطول بيزنطية وفي عهد أبي الغرائيق محمد الثاني بن أحمد بن محمد بن الأغلب قلد خفاجة الولاية على ايطاليا وأخرجه سنة ٢٥١ لفتح جنوة وفتحها وتقدم إلى جبال الألب واستمر فاتحا الى نهاية سنة ٢٥٢ وفي سنة ٢٥٣ سيرت بيزنطية أسطولا ضخما ، لمحاربة المسلمين في شطوط أوربة الجنوبية ومنع جحافلهم من التقدم في فرنسة ، فواقعهم خفاجة على شواطئ جنوة وسركوسة وألحق بهم خسارة عظيمة .
وفي سنة ٢٥٥ غزا الأسطول الأغلبى جزيرة مالطة واستولى عليها وألحقها بشمالى افريقية .

وفي عهد ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب قلد الحسن بن رباح ولاية جنوبي أوربة ونهده الى الغزو فيما يليها ؛ فتقدم الى مرسيلية وفتح البروفنص فاستنجدت فرنسة بالدولة البيزنطية فسيرت لها أسطولا مؤلفا من ١٤٠ مركبا ، فتلقاه الأسطول الافريقى في عرض البحر الرومي فدارت بينهما معركة مهولة كان الفوز فيها للبيزنطيين بعد أن تحطمت شوانهم والتجأت بقايا الأسطول الافريقى إلى بليرم . لكن الجيوش الاسلامية كانت تتوغل في فرنسا واستمرت على ذلك من سنة ٢٦٦ إلى سنة ٢٧٢ فملك بعض شواطئ الرون واحتلت كولونيا . غير أن عين البيزنطيين لم تنم عن هذه الفواجع ، فأعادوا كرة حملتهم البحرية وحاولوا في هذه المرة قطع خطوط الاتصال بين جنوبي أوربة وشمالى افريقية ، فاحتل أسطولهم مدينة سبرية فقاومهم المسلمون مقاومة عنيفة منعتهم من التقدم .

وفي سنة ٢٧٥ جهزت افريقية أسطولا عظيما لتعقب أسطول البيزنطيين وشل حركتهم عن التقدم في الشطوط ، ولم يلبث أن اشتبك بالعدو وضربه الضربة الحاسمة ومكن سيادة المسلمين في ايطاليا وجانب من فرنسا .

واستمر نجم الاسلام صاعدا في أوروبا بعد هذه الوقعة العظيمة وأمراء الأغلبة لا ينفكون عن تعزيز المسلمين في ولايتهم الأوربية ومراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحبط كل سعى في الانتكاث حتى دان من كان في حوزتهم من النصارى بالاسلام وتذوقوا حلاوة تحريره اياهم من ظلم الأمراء الاقطاعيين ، وطغيان الكنيسة الكاثوليكية واستمر ذلك الى أن ظهرت النبعة الآتمة نبعة الدعوة العبيدية في قبيلة كتامة البربرية من المغرب الأوسط ، وقدر لها أن تجتاح الدولة الأغلبية فتعطل الفتح في أوروبا وانقلبت جيوش افريقية مغيرة على العالم الاسلامي لتقويض دولة بعد أخرى وهدم الخلافة العباسية القائمة في المشرق وبسبب ذلك تحولت السياسة الاسلامية تجاه أوروبا من الهجوم والتوثب الى الدفاع والتسليم .

ولم يحن أحد على الاسلام ماجناه عليه هؤلاء العبيديون أو الفاطميون واليك البيان :
لما تغلب عبيد الله المهدي على افريقية وزال عنها حكم بني الأغلب كرهت الولايات الاسلامية في أوروبا أن تقدم طاعتها للمتغلبين ، فأجمع أصحاب الشأن فيها على اعلان الاستقلال حتى يمتنع نقل الجيش من أوروبا الى افريقية ، فبايعوا بالامارة القائد أحمد ابن زيادة الله بن قره ب ؛ وبمجرد انعقاد هذه البيعة كتب الأمير الى المقتدر بالله الخليفة العباسي بالطاعة ، فأنفذ اليه المقتدر بالتقليد والخلع والالوية وطوق من الذهب ولما بلغ ذلك عبيد الله المهدي أخذ يسعى في بث الدسائس والفتن بين المسلمين في أوروبا ، وما زال بهم حتى اختلت الامور على ابن قره ب فخلع سنة ٣٠٣ وقاتل بعد أن وصل إلى المهدي ؛ وعقب ذلك اجتمع أولو الحل والعقد من المسلمين في دار الامارة بيليرم فكتبوا الى المهدي ، وذلك بعد أن بلغهم أنه جهز جيشاً لغزو المشرق

بقيادة الطاغية البربري القائد حباسة بن يوسف يلتمسون منه تعيين الولاة والقضاة. وأن يبقى لهم الجيش يدرون به الاخطار أمام الاعداء الى غير ذلك من الشروط التي تضمن لهم الاستقلال الداخلي ولا تجعل بلادهم عرضة للغارة والفتوق ، فأبي أن يجيبهم الى هذه الطلبات العادلة ، وأخرج اليهم الجيوش والاساطيل وعين عليهم سعيد بن المضيف فحاصروهم شهورا ، وكانت البلاد ممتنعة عنه فتنحى عنها وأرجل جنود كتامة في أرباض الشواطئ المفتوحة للنهب والسلب ، ففعلوا الافاعيل التي أفزعت النساء والذرية ؛ حتى إذا رأى المسلمون أنه لا طاقة لهم بهذا الفزع نزعوا إلى طلب الأمان فأمنهم بلا قيد ولا شرط . وعلى أثر ذلك احتل البلاد وهدم أسوار المدن وجرد حاميتها من السلاح والخيول وفرض المغارم الكثيرة ، ونصب سالم بن أبي راشد أميراً عليها وعززه بجيش من كتامة فكان دأبهم الاغشاش في الظلم وسلب الأموال ، فانقبضت النفوس وخارت المهمة عن التوسع حتى طمع فيهم رعاياهم الايطاليون والفرنسيون

وفي عهد أبي القاسم بن عبيدالله المهدي عين لولاية أوربا خليل بن اسحاق الطاغية ؛ ففضى في الحكم أربعة أعوام ارتكب فيها من الجور والفساد ما لم يسمع بمثله ، وجعل المسلمين يفرون أفواجاً أفواجاً إلى البلاد النصرانية ويتنصرون . ويحدثنا عنه المؤرخون أنه لما عاد سنة ٣٢٩ إلى شمالي افريقية كان يفتخر بمظالمه ، فقد حضر مجلساً من وجوه الدولة العبيدية في قصر الامارة وكانوا يتباحثون في شئون الدولة ، فقال : إنني قتلت في إمارتي ألف ألف نسمة ، فرد عليه أبو عبد الله المؤدب ، وكان من عقلاء الرجال في الدولة الشيعية : « لك يا أبا العباس في قتل نفس واحدة مايكفيك »

وفي أيام الأمير تميم الملقب بالمعز لدين الله وجه القائد جوهر في الغزوة الثانية على مصر سنة ٣٥٧ بعد وفاة صاحبها كافور الأخشيدى فاستولى عليها وبني له مدينة.

القاهرة . وفي سنة ٣٦١ رحل المعز إلى المشرق وأخذ القاهرة عاصمة للملكة واستخلف على افريقية أبا الفتوح يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي مؤسس الدولة الصنهاجية ؛ فكان همه ضبط البلاد وتكوين الشعور بالوحدة البربرية ، فشعرت الأمم النصرانية المتاخمة للمسلمين في أوروبا بسريان هذا الضعف والانحلال في قوة التماسك بالوحدة الاسلامية ، فأخذوا يواثبون المسلمين في كل مكان ، وما زالوا يجمعون ويؤلبون عليهم الى أن وافقهم سنة ٣٧٢ ، فشدوا قواهم لمناجزة المسلمين في فرنسا . ولما بلغ ذلك أبا الفتوح أمر عامله على جنوبي أوروبا أن يهد لقاتلها فتحرك اليهم في جيوش كثيفة ودارت بينهم معارك ارتدت فيها النصرانية على الأعقاب وفاز فيها المسلمون فوزاً عظيماً . فما كان من الملك روجار النرماندى قائد هذه الحملات الصليبية الأولى إلا أن استنفر الأمم النصرانية لمحاربة الاسلام في أوروبا وافريقية

وكان النرمانديون نزلوا من شمال فرنسا إلى جنوبها ثم شرعوا يتعقبونهم ويناجزونهم في إيطاليا ويفتكون منهم المدن ، مدينة إثر مدينة ، حتى ملكوا جميع البلاد الاسلامية في جنوب أوروبا . ومما ساعدهم على ذلك تراجع أمر الدولة الصنهاجية أواخر حكم المعز بن باديس إثر الزحف الهلالي التي سيرها اليهم العبيديون سنة ٤٥٢ من مصر لتقويض معالم شمالي افريقية

ولم تقف أطاع النرمانديين على ازالة الحكم الاسلامي من أوروبا ، بل جنحوا الى التغلب على المسلمين في مواطنهم الآنة بافريقية ، فهجموا في سنة ٤٧٦ على المهديّة دار الملكة الصنهاجية بأسطول مؤلف من ٣٠٠ مركب عليه ٣٠ ألف مقاتل ، وكانت المدينة مفتوحة غير محصنة فتغلبوا عليها وعلى زويلة ، وأحدثوا فيها مقتلة ذريعة ، وحرقوا وجربوا المعالم المشهورة وأخيرا صالحهم تميم بن المعز بن باديس على مائة الف دينار وما اتهبوه من الاموال وسبوه من النساء والذراري .

ولما انتقل الحكم الى الامير حسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس سنة ٥١٦

أراد غسل العار الذي لحق الدولة من فعل النرمنديين ورد ما فقدته من الأقطار
الواسعة في أوروبا ، فندب لذلك حليفه الأمير على بن يوسف بن تاشفين المتونى
صاحب العدوتين أن يهد لقتال النرمنديين ؛ فأغزى أسطوله شطوط أوروبا الجنوبية ،
وكان بقيادة أبي عبدالله ميمون ، فأخن فيها قتلا وسبيا ورد أمم النصرانية على أعقابها
بعد أن هلك من الطرفين عدد لا يحصى . ولم تخمد هذه الكارثة هم النرمانيين وتقعدهم
بهم عن استئناف حملتهم على المهديّة ، فأعادوا الكرة عليها في أساطيلهم وأواخر
جمادى الأولى سنة ٥١٧ فتلقاهم آساد العرب في كل مكان وتخطفهم السيوف حتى
أيدوا عن آخرهم ، وغنم المسلمون مراكبهم وأسلحتهم وأموالهم ، فكانت وقعة
عظيمة أنعشت أرواح المسلمين بعد طول الخمود ؛ ولكن الصليبيين لم يكفوا عن
متابعة الغارة فأعادوا الكرة على المهديّة سنة ٥٤٣ فاحتلوها بعد وقائع مهولة وخرج
منها السلطان حسن بن يحيى بن تميم بن العز بن باديس بجملته وحاشيته الى جزائر
بنى مزغناى (الجزائر) وجعل الصليبيون المهديّة قاعدة لحركتهم الحربية فى شمالى
أفريقية وشن الغارة منها على ما يليها من الشطوط التى استولوا عليها ، وقد مكثوا بها
الى أن أجلاهم عنها أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على فى المحرم سنة ٥٥٥ ولولا نجده
لكانت بلادنا اليوم بلاداً نصرانية من غير شبهة . انتهى

كتابات عربية

على القبور الاسلامية في مالطة

بعد ان اتمنا كتابنا المتضمن غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ومن جملتها جزيرة مالطة اطلعنا على رسالة للمستشرق الايطالى (ايطورى روسى) Ettore Rossi الذى يعد من اعلم المستشرقين باحوال مالطة ان لم يكن اعلمهم وهو الذى حرر الفصل المختص بمالطة فى الانسيكلوبيديا الاسلامية واجتمعنا مع الاستاذ المشار اليه فى رومة فى هذه الايام الاخيرة وتباحثنا فى تاريخ مالطة وكثير مما يتعلق بشؤونها وهو الذى قدم لنا رسالته هذه باللغة الايطالية فاحببنا ان ننقل ما جاء فيها من الكتابات العربية التى وجدت على القبور الاسلامية فى مالطة والتى جمعها ايطورى روسى وصورها بالفوتوغرافية ونشر صورها فى الرسالة المذكورة فنحن آثرنا نقلها كما وجدناها فى رسالته آماما للفائدة

ومما جاء فى صدر هذه الرسالة ان زول العرب فى مالطة وقع بحسب الرواية المشهورة فى سنة ٢٥٦ للهجرة وانه من العلوم ان ابا الاغلب ابراهيم غزا جزيرة صقلية سنة ٢٢١ للهجرة اى ٨٣٥ - ٨٣٦ للمسيح واستولى عليها فغير معقول ان يكون استولى على صقلية وترك مالطة وهى اقرب الى افريقية من صقلية فلا بد ان يكون استيلاء المسلمين على مالطة وقع قبل سنة ٢٢٦ للهجرة وفق ٨٦٩ - ٨٧٠ للمسيح

أما تاريخ استخلاص مالطة من ايدي المسلمين فيذكرون انه وقع بين سنة ٩٩٢ للمسيح وسنة ١٠٢٥ وذلك بالغارة البيزانطية . ولكن مما لا شك فيه ان المسلمين بعد ان استرجع المسيحيون مالطة بقوا يسكنون الجزيرة نحوا من مئتي سنة اى الى سنة ١٢٢٤ بل الى سنة ١٢٤٩ بحسب رواية العلامة آمارى Amari مؤرخ صقلية

وهذه هى نصوص الكتابات التى وجدت فى المقابر الاسلامية فى مالطة ونقلها كما وجدناها فى الرسالة المذكورة :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبي محمد وعلى آله وسلم تسليماً لله العزة
والبقا وعلى خلقه كتب الفنا ولكم في رسول الله اسوة حسنة هذا قبر ميمونة
بنت حسان بن علي الهذلي عرف ابن السوسي | توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس
السادس عشر | من شهر شعبان الكائن من سنة تسع وستين وخمسة | وهي تشهد
ان لا اله الا الله وحده لا شريك له

انظر بعينيك هل في الارض من باقى | او دافع الموت اول الموت من راقى
الموت اخرجني قصرا فيا اسقى | لم ينجني منه ابوابي واغلا قى
وصرت رهنا بما قدمت من عمل | محصا على وما خلفته باقى
يامن رأى القبر انى قد بليت به | والترب غبر أجفانى و | آما قى
فى | مضجعى | ومقامى فى البلا | عبر | وفى | نشورى | اذا ما جئت خلاقى
| اخى فجد | وتب | .

بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم (. . .)
توفى . . . يوم الأربعاء ودخل قبره يوم الخميس من العشر الاو (. . .)
الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ادعو ربكم تضرعا وخفية انه لا يجب له (. . .)
(. . .) محمد وآله وسلم تسليماً ان ربكم الله
(. . .) م ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلمه حثيثا والشمس والقمر
والنجوم مسخرات

بأمره الا له (؟)

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً فاز

(كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم) م يوم القيامة فمن زحرج عن النار
وأدخل الجنة فقد

وما الحيات الدنيا الا متاع الغرور هاذا قبر الشيخ المرحو (م . . .)

توفى رحمه الله فى العشر الأول من صفر عام ثمانية وسبعين (ن . . .)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا قبر محمد . . . توفى يوم الثلاثاء في ذى الحجة سنة
ثلاث و . . .

(. . .) الذي يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون
(. . .)

(. . .) العلي العظيم لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر
بالطاغوت (. . .)

(. . .) لقد جاءكم رسول من أنفسكم رؤوف فان تولوا لا اله الا هو (ليه . . .)
(. . .) من شعبان سنة ستة واربعين وخمسمائة برحمة الله وبرضوانه وصلى الله على
محمد (. . .)

(. . .) أجد) وركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما
الحيات (. . .)

(. . .) في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر (. . .)

كل نفس (. . .)

سلام على أهل (القبور . . .)

... عند | ه الا باذنه يعلم ما بين (. . .)

... لعطى محمد

قف بالقبور ...

بسم الله الرحمن (. . .)

هذا قبر (. . .)

(. . .) زح) رج عن النار و (. . .)

(. . .) لا متاع الغرور

... (الرحيم) هذا قبر أمة الله بنت أبو القاسم ابن عمرو (ة) ان شاء الله

لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

... الله ...

وانما تو (فون أجوركم ...)

بسم الله الرحمن (الرحيم)

... (١) براهم الصمطي

بسم الله الرحمن الرحيم

... والح ...

توفي يوم الخميس الثامن من ... سنة ...

... وخمسمائة

بسم الله الرحمن الرحيم (...)

... لله الله (...)

بسم الله الر (حن الرحيم ..)

... النار وادخل الجنة ...

عنده الا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم

لا اله

الا الله

محمد ر

سول الله

بسم الله الرحمن الرحيم الله لا اله الا هو (الحى القيوم) (...)

أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا (...)

(...) الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الفرور

- (...) شربة ولم يأكلوا من كل رطب ويايس
- ٥٨ (... صلى الله ..) محمد وآله وسلم تسليما ان ... (...)
- ٥٩ (...) ... الاله ... (...)
- ٥٩ (... أجور) كم يوم القيامة فمن زحرج عن النار و (...)
- ٥٦ (...) و (...) لانوم له مافي السموات وما في الأرض (...)
- ٦٠ سلام على أهل القبور الدوارس كأنهم لم يجلسوا في المجالس
- ٥ ولم يشربوا من بارد الماء شربة ولم يأكلوا ما بين رطب ويايس
- ٥٨ هذا قبر ؟
- ٦٠ ... عيد
- ٥٩ العزيز ...
- ٦٠ ورحم الله من
- ٥ دعا له بالرحمة

(تم والحمد لله في المبداء والنهاية)

- ٧٦
- ٧
- ٥
- ٨
- ٨
- ٥
- ٨
- ٥
- ٨
- ٥

- ٨٥ } التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول تأليف الشيخ منصور على ناصف
 } مجلد بالقماش في خمسة مجلدات وهذا الثمن مدة الاشتراك فقط
- ١٠ أفضية الرسول صلى الله عليه وسلم للقرطبي
- ١٥ تاريخ التشريع الاسلامي لمحمد بك الحضري
- ٢٠ محاضرات الدولة العباسية » »
- ٣ غوث العباد ببيان الرشاد تأليف الشيخ مصطفى أنى سيف الحماي
- ٥ دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك الى الامام أحمد في الرد على ابن تيمية
- ٨٠ شرح بهجة لشيخ الاسلام زكريا الانصارى في خمسة أجزاء
- ٤ مبادئ اللغة للخطيب الاسكافى
- ١٠ ألفية السيوطى فى علم الحديث مع شرح واف لفضيلة الاستاذ احمد محمد شاكر
- ٢ ألفية السيوطى فى النحو للامام جلال الدين السيوطى
- ٥ الحكمة البالغة ديوان خطب منبرية لمخضوب
- ١٨ لطائف المعارف لابن رجب الحنبلى مجلد بالقماش
- ٢٢ قاموس آيات القرآن الكريم مجلد بالقماش خير مرشد للآيات
- ٧ } بهجة الحاوى وبهامشه التيسير فى نظم متن التحرير . والتدريب فى نظم غاية
 } التقريب للعمريطى مجزء

أحسن القصص

- ٥ مختصر قصص الأنبياء
- ٨ مختصر أولى العزم من الرسل: نوح، ابراهيم، موسى، عيسى، محمد عليهم الصلاة والسلام
- ٨ مختصر سير الخلفاء الراشدين

تحت الطبع

- مختصر سير أئمة الدين وبعض الصالحين
- مختصر سير أمهات المؤمنين وبعض شهيرات النساء المسلمات

كتب للمؤلف أمير البيان

الإمير شكيب أرسلان

جِازُ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ

تأليف لوثرروب ستودارد

ترجمة

الأستاذ عجاج نويهض

أكبر دائرة معارف اسلامية عربية شرقية ظهرت باللغة العربية جامعة لأحوال الشرق الأدنى
والعرب ابان عزمهم وأسباب فشلهم واضمحلالهم وتأخرهم . خير مرجع تاريخي عن أحوال الاستعمار
والمستعمرين والمستعمرات ، وفيه يرد الأمير شكيب أرسلان على المبشرين والمستشرقين المفرضين
منهم والمنصفين ، وبه خلاصة عن جميع الأمم العربية والشرقية

مَحَاسِنُ الْمَسَاعِي

في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي

رضى الله عنه ونفعنا به

نشر هذا الكتاب بعد تنقيحه بقلمه وتعليق حواشيه وتصديره بمقدمة عن الامام الأوزاعي
وبتراجم العلماء له وهو الكتاب الوحيد الخاص بترجمة الامام الاوزاعي رضى الله عنه . والامام
الأوزاعي كان في الطبقة الاولى من مجتهدي الاسلام لايتأخر مكانه عن مكان الأئمة الاربعة وكان
امام أهل الشام وانتصر مذهبه في الأندلس

كتب مدرسية

طبق آخر منهج لوزارة المعارف العمومية عمل عطية أفندي محمد

الخرائط المدرسية . حيوانات . طيور . نباتات . جسم الانسان الخ . مجموعة
خرائط قيمة متقنة الطبع باللوان الطبيعية مذيلة بشرح واف باللغة العربية وفق منهج
وزارة المعارف . نالت الجائزة الاولى الذهبية في المعرض العربي الثاني بالقدس

١٥ أسد ، حمل ، فيل ، ديك ، بقرة ، نمر ، دجاجة ، حصان ، نسر ، حدأة ،
هدهد ، بومة ، بيغاء ، قرد ، فأر ، حمار ؛ ذئب ؛ ضبع ،

٣٠ جسم الانسان

السمير المهذب

للمطالعة والانشاء وخير ما يهدى للتلاميذ تأليف على أفندي فكرى

٥ الجزء الاول ٦ الجزء الثانى ٧ الجزء الثالث ٨ الجزء الرابع

٣ السمير الصغير - شعر سهل بالصور . نظم الاستاذ محمد الهراوى

قررت وزارة المعارف للتعليم الاولى

١ الشرح الجديد فى أحكام التجويد تأليف الاستاذ مصطفى أحمد أبى سنة المدرس
بالمدراس الاميرية

٥ تربية البنين تأليف الاستاذ على فكرى

٤ تربية البنات » » »

١ التربية والآداب الشرعية تأليف الدكتور عبد الرحمن اسماعيل

١ التحلية والترغيب فى التربية والتهذيب تأليف سيد أفندي محمد

٢ مثلث خراب الديار : المسكر والزنا والقمار (للمطالعة والتربية)

روايات ادبية علمية اهل افريقية نزهية

اغرب ما صادف ضابط بوليس

١٠

بقلم البكباشي عبد المنصف محمود

أركان حرب المخبرات السرية بمصلحة خفر السواحل

الطبعة الثانية ٤٥٠ صفحة للزيادات المدهشة التي اشترك في تدوينها كبار الضباط

روائع من قصص الغرب

١٠

مجموعة من أحسن ما ظهر من الروايات في أوربا

مترجمة بقلم الكاتب الشهير الأستاذ كامل كيلاني

قصص مختارة من الأدب التركي

٥

لطائفة من أدباء الأتراك

تعمير الكاتب الكبير والاديب العراقي

خلف شوقي أمين الداودي

روايات مترجمة بقلم الأستاذ أسعد افندي داغر المحرر الكبير في جريدة الاهرام الغراء

فِرْسَانُ الْحُبِّ لبريفو	حَيَاةُ شَاعِرٍ للإمارتين
بَعْدَ الْعَاصِفَةِ لبوردو	الْأَجْحَمُ الْكَسِيرُ لبيارلوتي

اعسن ما ظهر في عالم الادب والتاريخ في سنة ٣٣ وسنة ٣٤

ملوك المساميين المعاصرون ودولهم

للكاتب الشرقي الاستاذ أمين افندى سعيد

مزين بصور ٢٠ ملكا وأميرا وبه ملخص حياتهم و١٥٠ وثيقة سياسية وتاريخية

لندره

تأليف الاستاذ أحمد عطية الله

فيه كل ما يريد أن يعرفه شرقي عن لندن والانجليز

ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام

للاستاذ كامل كيلاني

مراتما غاندى

سيرته كما كتبها بقلمه ، نشأته وعمله

ترجمة الاستاذ اسماعيل مظهر

حياة الشرق ، دوله وشعوبه وماضيه وحاضره

تأليف الأستاذ محمد لطفى جمعة الهامى

خلاصة دراسة ٥٠ كتابا بعدة لغات عما كتب عن الشرق

يظهر قريبا

الثورة العربية الكبرى

تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن

بقلم الكاتب الشرقي الكبير الاستاذ أمين سعيد

